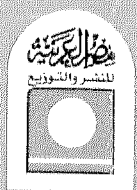
الروس والمجتمع الدولى

٩٤٥-١٠٥٤م

د. طارق منصور محمد





الروس والمجتمع الدولى

٩٤٥-١٠٥٤م

دكتور

طارق منصور محمد

كلية الآداب-جامعة عين شمس

٢٠٠١

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٩ (١٣أ سابقا) ش إسلام

حمامات القبة-القاهرة

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٩(١٣أ سابقاً) ش إسلام-حمامات القبة

ص. ب. ٥٧٤٠ هليوبوليس

القاهرة-مصر

تليفون وفاكس ٢٥٦٢٢٦٨

الطبعة الأولى ٢٠٠١م

البيانات البيلوجرافية لدار الكتب المصرية

المؤلف:د. طارق منصور محمد

العنوان: الروس والمجتمع الدولى ٩٤٥-١٠٥٤م

I- تاريخ روسيا القديم- روسيا الكييفية- تاريخ القوقاز

II- تاريخ الآمبراطورية البيزنطية- الحضارة البيزنطية

١-طارق منصور محمد ٢- العنوان

947'02-947'05

949'502

رقم الإيداع: ١٥٢٦٧/٢٠٠٠

رقم الإيداع الدولى: 977-5471-34-6

طبع فى جمهورية مصر العربية

لوحة الغلاف تمثل معركة بين سكان نوفجورود وسكان سوذدال من مدرسة نوفجورود الفنية، الربع الأخير من القرن الخامس عشر

إهداء

إلى أبي وأمي، رمزا الحب والعطاء



بسم الله الرحمن الرحيم

"وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق
واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً"



المحتويات

المحتويات..ا - ب
قائمة المختصرات.. ج - ع
مقدمة...ف - ش
عرض وتقديم مصادر البحث...... ....ت - هـ هـ
التمهيد... ١- ١٠

الباب الأول: الروس والإمبراطورية البيزنطية

الفصل الأول: الروس وبيزنطة ومعاهدة ٩٤٥ م..................................١١ـ ٤٠
ايجور والقسطنطينية ٩٤٤م...١٤
نص معاهدة ٩٤٥ م...١٧
تأريخ المعاهدة ٩٤٤ أم ٩٤٥ م...٢٤
تحليل المعاهدة...٢٦

الفصل الثانى: الروس وبيزنطة والبلقان ٩٤٥-٩٧٢ م............................ ٤١-٨٧
اولجا والعرش...٤١
زيارة اولجا للقسطنطينية ٩٥٧ م..٤٢
نقفور فوقاس والبلقان..٤٩
غزو سفياتوسلاف لبلغاريا ٩٦٨ م..٥٢
يوحنا تزيمسكس وسفياتوسلاف...٦١
هزيمة سفياتوسلاف ومعاهدة ٩٧١ م...٧٩
مصرع سفياتوسلاف ٩٧٢ م...٨٦

الفصل الثالث: الروس بين بيزنطة والقوى الأوربية..............................٨٨-١٣٦
الحرب الأهلية وتولى فلاديمير الحكم...... ....٨٨

بازيل الثانى والقيصر صمويل البلغارى...٩٣
سفارة بازيل الثانى إلى فلاديمير..٩٦
فلاديمير وغزو خرسون ٩٨٨ م...١٠٤
فلاديمير والقوى الأوربية...١١٤
الحرب الأهلية وتولى ياروسلاف الحكم..١٢٠
ياروسلاف وسياسته الأوربية...١٢١
حملة ١٠٤٣ م على القسطنطينية..١٢٧
وصية ياروسلاف...١٣٦

الباب الثانى: الروس والقوى الشرقية

الفصل الرابع: الروس ومسلمو القوقاز.......................................١٣٧-١٦٤
مناخ بلاد الروس وأثره على اتجاه الروس شرقاً....................................١٣٨
هجوم الروس على آبسكون ٨٦٤-٨٨٤ م..١٤١
هجوم الروس على آبسكون ٩١٠ م..١٤٢
هجوم الروس على جيلان، وطبرستان، وباكو ٩١٢-٩١٣ م.........................١٤٤
هجوم الروس على برذعة ٩٤٣-٩٤٤ ....١٥١
هجمات الروس على شروان١٠٣٠، ١٠٣١م ١٥٩
أسباب هجمات الروس على القوقاز..١٦٢

الفصل الخامس: الروس بين البشناق وقوى الفولجا..............................١٦٥-٢١٨
الروس والبشناق...١٦٦
الروس والخزر...١٨٣
الروس والبرطاس والبلغار...٢١٥

الباب الثالث: الروس والتجارة الدولية

الفصل السادس: الروس والتجارة مع بيزنطة.................................. ٢٢٧-٢٣٦
مناقشة بنود معاهدة ٩٤٥ م التجارية..٢٢٨

كتاب والى المدينة والتجار الأجانب فى القسطنطينية........................٢٣٠
التجار الروس فى القسطنطينية..٢٣٦
الطريق التجارى العظيم لادوجا-كييف-القسطنطينية........................٢٤١

الفصل السابع: الروس وتجارة الفولجا.. ٢٤٦-٢٦٧
التجارة مع الخزر...٢٤٨
التجارة مع البرطاس...٢٥٣
التجارة مع البلغار.. ٢٥٥
السلع التجارية فى حوض الفولجا... ٢٥٥
الدراهم والدنانير الإسلامية وروسيا...٢٦١
الطرق التجارية بين المدن الروسية والفولجا................................ ٢٦٥

الخاتمة.. ٢٦٩-٢٧١
الخرائط ٢٧٢-٢٧٥
قائمة المصادر والمراجع... ٢٧٦-٢٩١
تقديم باللغة الإنجليزية.. I-XXIV



شكر وتقدير

أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أستاذي الكريم الأستاذ الدكتور / رأفت عبد الحميد، أستاذ تاريخ العصور الوسطى ،كلية الآداب، جامعة عين شمس، الذي شملني برعايته وكرمه طوال سنوات إعداد هذا البحث ولم يبخل على مطلقاً بالنصح والتوجيه والإرشاد، والذي تحمل كل صفحة من صفحات هذا البحث بصحة له. جزاه الله عني خيراً.

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلي الأستاذ الدكتور/جوناثان شبرد Jonathan Shepard ، أستاذ التاريخ الروسي الوسيط والبيزنطي بكلية التاريخ، جامعة كامبردج، الذي تحمل عبئاً ثقيلاً معي طوال سنوات الدراسة، ولم يتردد في تزويدي بالكتب والمقالات المتخصصة أيضاً، بالإضافة إلى تيسيره لي فرصة الاتصال ببعض الأساتذة الأوربيين الآخرين. جزاه الله عني خيراً.

ويسرني أن أتقدم بالشكر والتقدير إلي الأستاذ الدكتور/ أحمد عتمان، أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية،كلية الآداب، جامعة القاهرة،الذي ساعدني في السفر إلى اليونان في مهمة علمية، في العام الجامعي ١٩٩٧، فله مني خالص الشكر والتقدير. ولا يفوتني أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أ.د./ سعيد عاشور، أ.د./ اسحق عبيد على ملاحظاتهما القيمة التي أفدت منهما كثيراً. كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى الدكتور / يفجيني زيلينيف Evgueni Zelenev مدير المركز الثقافي الروسي بالقاهرة سابقاً. وأتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أمناء مكتبة كلية الآداب Φιλοσοφικη Σχολή ، جامعة أثينا،ومكتبة المتحف البيزنطي بأثينا، والمكتبة المركزية لجامعة القاهرة، ومكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ومكتبة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة IFAO، ومكتبة المركز الفرنسيسكاني للدراسات الشرقية بالقاهرة. أخيرا أتقدم بخالص الشكر والتقدير ?إلى كل من مد إلى يد المساعدة سواء بالقول أو بالفعل ولم يسع المقام هنا لذكره.

قائمة المختصرات

قائمة المختصرات

AEM	*Archivum Eurasie Medii Aevi*.
Ahrweiler, *Les relations*	H. Ahrweiler, " Les relations entre les Byzantins et les Russes au IX^e siècle ", dans : *Bulletin d' Information et de Coordination de l'Association International des Etudes Byzantines*, 5(Athens, Paris, 1971), pp. 44-73.
AIK	*Annales de l'Institut Kondakov*.
Anastasijevic, *Tzimiscès*	D. Anastasijevic, "Les indications chronologiques de Yahya relatives à la guerre de Tzimiscès contre les Russes", *Melanges Charles Diehl*,1, tome (Paris, 1930), pp. 1-5.
Angold, *Byz. Empire*	M. Angold, *The Byzantine Empire 1025-1204*, (London and New York, 1984).
'Αρχ. Πον.	*'Αρχεῖον Ποντόυ*.
Attaleiates	M. Attaliotae, *Historia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1853).
B	*Byzantion, 1924ff.*
BAcBelg	*Bulletin de la Classe des Lettres de l'Académie Royal de Belgique.*
Bănescu, *Deux études*	N. Bănescu, " Deux études byzantines.II La prèmiere attaque russe de Constantinople", *REB*, 6(1948), pp. 191-198.
Baumgarten,*Chronologie*	N. Baumgarten, " Chronologie ecclésiastique des terres russes,du X^e au XIII^e siècles", *OC*, 17(Roma, 1930), pp. 1-?
Baumgarten,*Généologies*	N. Baumgarten,"Généologies et mariages occidenteaux des Rurikides Russes du X^e au XIII^e siècles ", *OC*, IX, 35(1927), pp.1-94.
Baumgarten,*Olaf Tryggwison*	N. Baumgarten, " Olaf Tryggwison roi de Norvege et ses relation avec Saint Vladimir de Russie", *OC*, 24(1931), pp. 3-35.
Baumgarten, *Saint Vladimir*	N. Baumgarten, " Saint Vladimir et la conversion de la Russie", *OC*, 27(1932), pp. 3-136.
Benedikz, *Varangian*	B. Benedikz, " The Evolution of the Varangi- an Regiment in the Byzantine Army ", *BZ*, 62(1969), pp. 20-24.

ByzF	*Byzantiniche Forschungen .*
BICAIÉB	*Bulletin d'Information et de Coordination de l'Association International des Études Byzantines.*
BLSMPARB	*Bulletin des Lettres et des Sinces Moralles et Politique de l'Académie Royal de Belgique.*
BMGS	*Byzantine and Modern Greek Studies,* (Oxford, 1975-1983, Birmingham, 1984ff.).
BNJbb	*Byzantiniche-Neugriechische Jahrbücher*
Browning, *Bulgaria*	R. Browning, *Byzantium and Bulgaria,* (London, 1975).
BsL	*Byzantinoslavica,* (Prague, 1929ff.).
Bury, *Adm. Sys.*	J. B. Bury, *The Imperial Administrative System in the Ninth Century,* (London, 1911).
Byzantina-Meta Byzantina	*Byzantina-Meta Byzantina,* (New York, 1949 ff.).
BZ	*Byzantiniche Zeitschrift,* (Leipzig, München , 1892 ff.).
Cedrenus	G. Cedrenus, *Historiarum Compendium,* ed.I. Bekker, *CSHB*,vol.II., (Bonnae, 1838).
CFHB	*Corpus Fontium Historiae Byzantinae,* (Washington, 1967 ff.).
Chadwick, *Russian History*	W. Chadwick, *The Beginning of Russian History,* (Cambridge,1946, reprinted 1966).
Chron. Novgorod	*The Chronicle of Novgorod 1016-1471,* Eng. trans. R. Michell & N. Forbes, with an Introduction by C. R. Beazley and an Account of the text by A. A. Shakhmatov, (London, 1914).
CMRS	*Cahiers du Monde Russe et Soviétique*,(Paris).
Const.Porph., *DeCerimoniis*	Constantine Porphyrogenitus, *De Cerimoniis Aulae Byzantinae,* ed. I. Reiskii, *CSHB*, tome I, (Bonnae,1829).
Court, *La Russie*	A. Court, " La Russie à Constantinople ", *RQH,* 1 (Paris, 1876), pp. 69-129.
Cross, *Chuches of Kiev*	S. Cross, " The Earliest Medieval Churches of Kiev ", *SP*, 11 (1936), pp. 477-499.
Cross, *Contacts*	S. Cross, " Medieval Russian Contacts with the West ", *SP*, 10(1935), pp. 137-144.
CSHB	*Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae,* (Bonnae, 1828-1897).

DAI, I; II. Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik, Eng. trans. by R. J. H. Jenkins, (Budapest, 1949); vol. II, *Commentary*, by F. Dvornik, R. Jenkins, B. Lewis, G. Moravcsik, D. Obolensky & S. Runciman, ed. R. J. H. Jenkins,(London,1962).

Dimnik, *Chernigov* M. Dimnik, *The Dynasty of Chernigov 1054-1146*, (Toronto, 1994).

Diaconu, *Petchénèges* P. Diaconu, *Les Petchénèges au Bas-Danube*, (Bucharest, 1970).

DOP *Dumbarton Oaks Papers*, (Cambridge, Mass., 1941 ff.).

ÉO *Échos d'Orient, Revue d'histoire, de géographie et de liturgie orientales*, (Paris, Bucharest, 1897-1942).

Fennell, *Russian Chrurch* J. Fennell, *A History of the Russian Church to 1448 A D*, (London, 1995).

Fine, *Balkans* J. V. Fine, *The Early Medieval Balkans*, (Michigan, 1993).

Finlay *Greece* G. Finlay, *A History of Greece,* vol. II, (Oxford, 1877).

Finlay, *Byz. Empire* G. Finlay, *History of the Byzantine Empire 716-1057 AD*, (New, York, 1913).

Franklin & Shepard, *Rus'* S. Franklin and J. Shepard, *The Emergence of Rus' 750-1200*, (London, New York, 1996).

Frye, *Remarks* R. Frye, " Remarks on Some New Islamic Sources of the Rus ", *B*, 18 (1944-1948), pp.119-125.

Frye, *Sasanian Trade* R. Frye, " Byzantine and Sasanian Trade Relations with North Eastern Russia ", *DOP*, 26 (1972), pp.263-269.

Gerard, *Bulgares* C. Gerard, *Les Bulgares de la Volga et les Slaves du Danube*, (Paris, 1939).

Glycas *Michaelis Glycas Annalium*, in: *Opera Omnia, ed.* J. P. Migne, *PG*, tome. 158, (Turnholti, 1966).

Göllner, *Jean Tzimiscès* C. Göllner, " Les expéditions byzantine contre les Russe sous Jean Tzimiscès (970-971)",

	RHSEE, 13(1936), pp. 342-358.
Grégoire,*Der. campagne*	H. Grégoire, " La dernière campagne de Jean Tzimiskès contre les Russes ", *B*, 12(1936), pp. 167-176.
Hudud al-'Alam	*Hudud al-'Alam* (372 A.H./983 AD), Eng. trans. V. Minorsky, (Oxford, 1937).
Ibn Isfandiyar,*Tabaristan*	Ibn Isfandiyar, *Tarikhe Tabaristan*, Eng. trans E.G. Browne, (London, 1905).
Jenkis, *Byzantium*	R. Jenkins, *Byzantium the Imperial Centuries 610-1071 AD*, (London, 1966).
Jenkis, *Russian attack*	R. Jenkins, " The Supposed Russian attack on Constantinople in 907", *SP*, 24(1949), pp. 403-406.
JOB	*Jahrbuch der Österreichischen Byzantinistik*, 18- Wien, (Kölen, Graze, 1969 ff.) .
Karamsin, *Histoire*	M. Karamsin, *Histoire de l'empire de Russie*, trad. Fra. S. Thomas et Jauffret, tome I, (Paris, 1819).
Le Clerc, *la Russie*	Le Clerc, *Histoire physique, morale, civile et politique de la Russieancienne*, tome I, (Paris, 1783).
Le traité de Philothée	*Le traité de Philothée*, éd. and trad Fran.. N.Oikonomidès, dans: *Les listes des préséance byzantines des IX^e –X^e siècles*, (Paris, 1972).
Leo Diaconus	Leonis Diaconi *Caloensis Historiae Liberi Decem et Liber de Vilitatione Bellica Nicephori Augusti*, ed.C.B.Hase,*CSHB*,(Bonnae,1828), pp.3-178.
Macarteny, *Petchenegs*	C. Macarteny, " The Petchenegs ", *SEER*, 8(1928), pp. 342-355.
Mcgeer, *Sowing*	E. Mcgeer, *Sowing the Dragon's Teeth*, (Washington, 1995).
Mcgovern, *Sarkel*	M. Mcgovern, " Sarkel a reflection of Byzantine Power or Weakness? ", *BsL*, 50(1989), pp. 177-180.
Minorsky, *Commentary*	V. Minorsky, *Commentary on the book of Hudud al-'Alam*, in: *Hudud al-'Alam*, pt., (Oxford, 1937).
Minorsky, *Studies*	V. Minorsky, *Studies in the Caucasian History*, (London, 1953), with a chapter on *al- Shadādia.*

Moravcsik, *Magyars*	G. Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*. (Amsterdam, 1970).
Mošin, *Khazares*	V. Mošin, " Les Khazares et les Byzantins ", *B*, 6(1931), pp. 309- 325.
Nicholas I	Nicholas I, Patriarch of Constantinople, *Letters*, ed. and Eng. trans. R. Jenkins and L. G. Westerink, *CFHB*, vol.4, (Washington, 1973).
Nicole, *BDBE*	D. Nicole, *A Biographical Dictionary of the Byzantine Empire*, (London, 1991).
Noonan, *Byzantium*	T. Noonan, " Byzantium and the Khazars: a Special Relationship? ", in: *Byzantine Diplomacy Papers from the Twenty Four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March 1990, ed. J. Shepard and S. Franklin*, (Hampshire, 1992), pp. 109-132.
Obolnsky, *Byzantine Sources*	D. Obolnsky, " The Byzantine Sources on the Scandinavians in Eastern Europe ", in: *Varangian Problems. Scando Slavica, supplementum 1.*, (Copenhagen, 1970), pp. 149-164.
Obolnsky, *Cherson*	D. Obolnsky, " Cherson and the Conversion of Rus': an anti-revisionist view ", *BMGS*, 13(1989), pp. 244-256.
Obolnsky, *Crimea*	D. Obolnsky, " The Crimea and the North before 1204 ", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer,* ' *Αρχ. Πόν.*, 35(1978), pp.123-133.
OC	*Orientalia Christiana*, (Rome, 1924 ff).
OCP	*Orientalia Christiana Periodica*, (Rome, 1935 ff.).
ODB	*Oxford Dictionary of Byzantium*,(Oxford, New York, 1999), 3 Vols.
Oikonomidès,*Les listes*	N. Oikonomidès, *Les listes des préséance byzantines des IX^e^ et X^e^ siècles*, (Paris, 1972).
Oikonomidès, *Presthlavitza*	N. Oikonomidès, " Presthlavitza, the little Preslav", *Sudost-Forschungen*, 42(1983), pp. 1-10. Reprinted also in: *Byzantium from the Ninth Century to the Fourth Crusade*, (Hampshire, 1992).

OSP	*Oxford Slavonic Papers*, (Oxford).
Ostrogorsky,*Byz.State*	G. Ostrogorsky, *History of the Byzantine State*, (Oxford, 1956).
Pares, *Russia*	B. Pares, *A History of Russia*, (New York, 1947).
Pargoire,*Saint Mamas*	R. Pargoire, " Saint – Mamas le quartier des Russes à Constantinople ", *EO*, 11(1908), pp. 203-210.
PG	*Patrologia cursus completus, series Graeco-Latina, ed. J. P. Migne*, (Paris, 1857-1866, 1880-1903, reprinted in Turnholti), 161 vols.
PO	*Patrologia Orientalis*, ed. R. Graffin et F. Nau, (Paris, 1904 ff.).
Poppe, *The political background*	A. Poppe, " The Political Background to the Baptism of Rus', Byzantine - Russian Relations between 986-89 ", *DOP*, 30(1976), pp.195 -244.
Pritsak, *Pecenegs*	O. Pritsak, " The Pecengs, a Case of Social and Economic Transformation", *AEM*, 1(1975), pp. 211-235.
Psellus	M. Psellus, *Chronographia*,Eng. trans E. R. Sewter, (Penguin Books, 1966).
Rambaud, *la Russie*	A. Rambaud, *Histoire de la Russie*, (Paris, 1878).
RÉB	*Revue des Études Byzantines*, (Paris, 1944 ff.)
RHSEE	*Revue Historique du Sud-Est Européen*, (Bucharest, 1963 ff.).
R.P.C.	*The Russian Primary Chronicle*, Laurentian text Eng. trans. & ed. by S. H. Cross O. P. Sherbawitz-Wetzor,(Cambridge, Mass., 1953).
RQH	*Revue des Questions Historiques*, (Paris, 1876 ff.).
Runciman, *Bulgarian Empire*	S. Runciman, *A History of the First Bulgarian Empire*, (London, 1930).
Runciman, *Romanus Lecapenus*	S. Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign*, (Cambridge, 1963).
Rybakov, *Russian History*	B. Rybakov, *The Early Centuries of Russian History*, Eng. trans. J. Weir, (Moscow, 1965).
Schlumberger, *L'épopée*	G. Schlumberger, *L' épopée byzantine à la fin du dixième siècle, Jean Tzimiskes*, (Paris, 1896).
Schlumberger, *Russes*	G. Schlumberger, " Russes et Byzantins dans les

Schlumberger, *Russes*	*et des Croisades*, (Paris, 1917), pp.22-33.
SEER	*Slavonic and East European Review*.
Shepard, *Khazars*	J. Shepard,"The Khazars' Formal Adoption of Juadism and Byzantium's Northern Policy", *OSP*, 31(1998), pp. 11-34.
Shepard, *Russians attack*	J. Shepard, " Why did the Russians attack Byzantium in 1043? ", *BNJbb*, 22(1979), pp. 147-212.
Shepard,*Steppe Frontier*	J. Shepard, " The Russian Steppe-Frontier and the Black Sea Zone", *in: The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer*, *'Αρχ. Πόν.* ,35(1978), pp.218-237.
SK	*Seminarium Kondakovianum*
Smedley,*Archaeology*	J. Smedley, " Archaeology and the History of Cherson: A Survey of Some Results and Problems", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978,ed. A. Bryer*, *'Αρχ. Πόν.*, 35(1978), pp. 123-133.
Soloviev, *Domination*	A. Soloviev, " Domination byzantine ou russe au nord de la mer à l'époque des Comnènes?" *Akten des XI Internationalen Byzantinisten Kongresses, 1958*, (Munich, 1960), pp. 569-580.
Soloviev, *l'etat russe*	A. Soloviev, " L' organisation de l'etat russe au X^e^ siècle ", *L' Europe aux IX^e^-XI^e^ siècles*, (Varsovie, 1968), pp. 249- 268. Reprinted also in: *Byzance et la formation de l'etat Russe*, (London, 1979).
Sorlin, *Les traités*	I. Sorlin, " Les traités de Byzance avec la Russie au X^e^ siècle ", *CMRS*, vol. II-3, (Paris, 1961), pp. 313-360.
Sorlin, I., *Le traité de 944*	I. Sorlin, " Les traités de Byzance avec la Russie au X^e^ siècle: le traité de 944 ", *CMRS*, vol.-4, (Paris, 1961), pp. 447-475.
SP	*Speculum*.
	Symeon Magister ac Logothetae, *Chronographia,* ed.I.Bekker,in:*Theophanes Continuatus*,

	aphia, ed. I. Bekker, in: *Theophanes Continuatus, CSHB*, (Bonnae, 1838).
Vasiliev, *Old Russia*	A. Vasiliev, " Was Old Russia a Vassal State of Byzantium? ", *SP*, 7(1932), pp. 350-360.
Vernadsky, *Crimea*	G. Vernadsky, " The Rus' in the Crimea and the Russo – Byzantine Treaty of 945 ", *Byzantina-Meta Byzantina*, 1(1949), pp. 249-260.
Vernadsky, *Kievan Russia*	G. Vernadsky, *Kievan Russia*, (New Haven, 1948).
Vernadsky, *Russia*	G. Vernadsky, *The Origins of Russia*, (Oxford, 1959).
Whittow, *Byzantium*	M. Whittow, *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025*, (London, 1996).
Yahya d'Antioche	Yahya Ibn Sa'id d'Antioche, *Histoire de Yahya d' Antioche*, éd. et trad. J. Kratchkovsky et A. Vasiliev, *PO*, XVIII (Paris, 1924).
Zonaras	Ioannis Zonaras, Epitomae *Historiarum*, vol. III, ed. T. Bütter-Wobst, *CSHB*, (Bonnae, 1897).

مقدمة

لقد قدم المؤرخون الروس المحدثون الكثير من الدراسات التاريخية التى تعنى بتاريخ روسيا فى العصور الوسطى. وهؤلاء المؤرخون يمكن تقسيمهم إلى فئتين ، أولهما تعود إلى ما قبل قيام الاتحاد السوفيتى، والثانية تعود إلى ما بعد قيامه . وقد ارتبطت كتابات الكثيرين منهم بالنزعة السياسية للروس فى العصر الحديث، الأمر الذى يجعل المؤرخ غير الروسى يتوخى الحذر عند قراءة كتاباتهم عن تاريخ بلادهم. وتلمع فى المدرسة التاريخية الروسية، التى قدمت دراسات كثيرة تميزت تارة بالسمو وأخرى بالانحدار، أسماء بعض المؤرخين أمثال شخماتوف Shakhmatov(†)، فيرنادسكى Vernadsky (†)، سولوفيف Soloviev(†)، ريباكوف Rybakov (†)، اوستروجورسكى Ostrogorsky (†)؛ وجميعهم اهتموا بالتاريخ الروسى الوسيط.

ولم يقف المؤرخون الأوربيون الحديثون ساكنين أمام تكون الاتحاد السوفيتى بل نشطت حركة التأريخ للأمة الروسية فى أوروبا، لاسيما عشية الحرب العالمية الثانية. وقد برزت العديد من الأسماء الأوربية فى هذا المجال من أشهرها العالم الإنجليزي ديمترى ابولنسكى D.Obolensky، أستاذ كرسى التاريخ الروسى بجامعة اكسفورد، وجوناثان شبرد J.Shepard، أستاذ التاريخ الروسى بجامعة كامبردج، والمؤرخة الفرنسية هيلين أرفيلر H.Arweiler، وايرين سورلان I.Sorlin، والمؤرخ البلجيكى هنرى جريجوار H.Grégoire (†)، والمؤرخ البولندى آندريه بوبA.Poppe؛ وجميعهم قدموا دراسات غاية فى الأهمية ، عالجت نواح عديدة فى التاريخ الروسى الوسيط.

وبعد...... قد يقف المرء مكتوف الأيدى معقود اللسان لا يستطيع أن يخطو إلى الأمام على الدرب الذى سار عليه هؤلاء المؤرخون السابقون. ولكن ما أن يضع المرء قدميه على ذلك الدرب حتى يجد نفسه محاصرا بالضروريات التى تفرض نفسها

عليه، ليتمكن من محاولة السير إلى جوار هؤلاء المؤرخين وإحراز شيء من النجاح. ويكفى أن نشير إلى أن واحدة من هذه الضروريات هى اللغة! وقد فطن أساتذتى إلى هذا، فشجعنى الأستاذ الدكتور/ رأفت عبد الحميد على إتمام دراستى بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية، وكذلك على دراسة اللغة الفرنسية؛ كما شجعنى الأستاذ الدكتور/ جوناثان شبرد، وبإصرار منه، على تعلم اللغة الروسية. والحق أنه لولا بعد نظر هذين العالمين لما تمكن الباحث من السير على هذا الدرب واختيار هذا الموضوع وإتمامه على هذا النحو.

وقد آثرت أن أتناول بالدراسة هذه الفترة من تاريخ الروس بالذات لما تشكله من أهمية قصوى فى تاريخ روسيا القديمة، أو روسيا الكييفية كما يسميها البعض، ولإزالة الغموض الذى يكتنفها أمام القارئ العربى. كما أن هذه الفترة مليئة بالإشكاليات التاريخية المعقدة، التى ربما أكون قد أضفت شيئاً يستحق القراءة حولها، بعد توفير الأستاذ الدكتور/ جوناثان شبرد لى فرصة الاتصال ببعض الأساتذة الأوربيين العاملين فى هذا المجال والتشاور معهم بشأنها.

والفترة محل البحث ٩٤٥-١٠٥٤م تبدأ بعهد الأميرة الروسية اولجا Olga، الذى يعكس شكلاً جديداً من أشكال الفكر السياسى الروسى. فقد كانت هذه الأميرة وصية على العرش حتى يشب ابنها Sviatoslav عن الطوق، وهى المرأة الوحيدة التى حكمت الروس حتى الغزو المغولى لبلادهم فى القرن الثالث عشر، كما أنها تخلت عن سياسة أسلافها العدوانية تجاه الإمبراطورية البيزنطية، بل ذهبت إلى أكثر من هذا وقامت بزيارة القسطنطينية فى عام ٩٥٧م. ويمكن أن نضيف إلى هذا أنها أول حكام الروس الذين اعتنقوا المسيحية، على المذهب الأرثوذكسى، أثناء زيارتها إلى القسطنطينية. كل هذا كان حافزاً للباحث لأن يبدأ هذه الدراسة بعهد الأميرة اولجا.

والآن وقد شب الأمير سفياتوسلاف عن الطوق، وصار مؤهلاً لأن يبدأ فى ممارسة سلطته بحرية فى البلاد. فجعل هذا الأمير من سياسة أجداده نبراساً يهتدى به فى سياسته الخارجية، بل والداخلية أيضاً. فناصب قوى الفولجا العداء وزحف بقواته صوب شبه جزيرة القرم مهدداً الوجود البيزنطى هناك؛ الأمر الذى دفع بالإمبراطور

نقفور فوقاس(٩٦٣-٩٦٩م) إلى أن يجذبه نحو جبهة جديدة ليصرف فيها قواه العسكرية. وبحكم الظروف العصيبة التى كانت تمر بها بيزنطة فى ذلك الوقت داخلياً وخارجياً طلب الإمبراطور البيزنطى نقفور فوقاس من سفياتوسلاف أن يعينه على إيقاف التقدم البلغارى فى البلقان وزحفهم صوب القسطنطينية. وقد استجاب الأمير الروسى على الفور وتقدم صوب الأراضى البلغارية حتى وصل إلى العاصمة البلغارية، فمات القيصر البلغارى بسكتة قلبية على أثر سقوط بلاده فى أيدى الروس. وبعد أن وطأت أقدام الروس أرض البلقان ولمسوا بأنفسهم ثراء وخصوبة هذه البلاد وتميزها الاقتصادى تناسوا تحالفهم مع إمبراطور بيزنطة، وقرروا البقاء فيها وعزم الأمير الروسى على اتخاذ برياسلاف عاصمة لبلاده، سواء رضى الإمبراطور أم أبى. واندلعت الحرب بين الطرفين لتستمر سنوات طويلة بينهما وتسفر فى نهاية المطاف عن هزيمة الروس وانسحابهم من البلقان. وقد انتهت هذه العلاقة العدائية بين الطرفين بمصرع سفياتوسلاف على أيدى البشناق فى عام ٩٧٢ م، بتدبير بيزنطى بحت.

وعندما تولى الأمير الروسى فلاديمير Vladimir I الحكم، بعد حرب أهلية عنيفة، أشاح بوجهه عن بيزنطة واتجه بسياسته الخارجية نحو أوروبا ولم يلجأ إلى غزو الأراضى البيزنطية إلا بعد أن حنث الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى Basil II (٩٧٦-١٠٢٥م) بوعده له بتزويجه من الأميرة آنا بورفيروجنيتا Anna Porphyrognita مقابل تزويده بقوات عسكرية.

ويبدو أن هذه المرحلة من تاريخ الروس فى العصور الوسطى قد حملت سمات معينة فرضت نفسها على الروس. فبوفاة الأمير الروسى فلاديمير صارت روسيا الوسيطة مسيحية الجسد إلى حد كبير، أما القلب فلازال يحاول التخلص من وثنيته. فالحروب الأهلية التى كانت تشتعل بين الأمراء الروس من حين إلى آخر، والتى كانت تقضى على البنية الحضارية للدولة كلما نمت، لم تكن سوى امتداد لطابع وثنى تأصل فى الروس منذ نشأتهم يجعل من الحسام قاضياً نافذ القول بينهم، ولم تفلح المسيحية فى انتزاع هذا الطابع منهم أو تبديله بآخر، على الرغم من تشريعات فلاديمير المسيحية وجهود ابنه ياروسلاف Yaroslav فى هذا المجال.

وجاء ياروسلاف، الملقب بالحكيم، ليجعل من بلاده دولة تخطب ودها الدول والممالك المجاورة؛ فقد نبذ الحرب واتجه إلى البناء والتعمير، كما أحدث نهضة تعليمية

بالبلاد، بالإضافة إلى أنة ألقى بثقله السياسى نحو الغرب الأوروبى. أما عن بيزنطة فلم يعيرها ياروسلاف اهتماماً اللهم فى عام ١٠٤٣ م حيث شن ابنه فلاديمير، حاكم نوفجورود Novgorod، هجوماً عليها كانت نتيجته فى صالح بيزنطة.وقد عقدت معاهدة بين الطرفين فى عام ١٠٤٦م لا نعرف شيئاً من بنودها سوى زواج الأميرة مارى ابنة الإمبراطور قسطنطين مونوماخوس (١٠٤٢-١٠٥٤م) من فسيفولود Vsevolod ابن الأمير الروسى ياروسلاف. ونظراً لأن عهد الأمير الروسى ياروسلاف كان متميزاً فى السياسة الخارجية والداخلية ولم تشهد بلاد الروس نظيراً له بعد ذلك فقد آثر الباحث أن يجعل ختام بحثه بعهد ذلك الأمير.

هذا وقد تم تقسيم البحث إلى ثلاثة أبواب تسبقهم دراسة لأهم مصادر البحث وتمهيد له، ويعقبها الخاتمة والخرائط وقائمة المصادر والمراجع. وقد جعلت الباب الأول يتحدث عن "الروس والإمبراطورية البيزنطية " وجاءت فصوله الداخلية لتعكس لنا التحول فى السياسة الخارجية الروسية ما بين بيزنطة والقوى الأخرى. أما الباب الثانى فيتحدث عن " الروس والقوى الشرقية " وقد احتوى هذا الباب على فصلين الأول منهما يتحدث عن سياسة الروس تجاه المسلمين فى بلاد القوقاز والثانى عن سياسة الروس تجاه البشناق والخزر والبرطاس والبلغار. أما الباب الثالث فيتحدث عن " الروس والتجارة الدولية " وقد احتوى على فصلين أولهما يتحدث عن العلاقات التجارية بين الروس وبيزنطة والثانى يتحدث عن العلاقات التجارية بين الروس من ناحية والخزر والبرطاس والبلغار من ناحية أخرى.

وتنبغى الإشارة إلى أن الباحث واجهته العديد من الصعاب طوال فترة إعداد البحث كان من أهمها ندرة المادة العلمية الخاصة به فى المكتبات المصرية، الأمر الذى حدا بالباحث إلى قبول دعوة جامعة أثينا باليونان لزيارتها فى عام ١٩٩٧ م. وقد كان لهذه الرحلة العلمية أكبر الأثر فى إثراء ذهن الباحث واطلاعه على أحدث المراجع المتخصصة فى التاريخ البيزنطى وتجميع مادة هذا البحث العلمية. وتنبغى هنا الإشارة إلى جهود بعض الأصدقاء المخلصين الذين ساعدونى فى إتمام مادة هذا البحث من إيطاليا والمملكة المتحدة.

وفى النهاية يشرفنى أن اكرر شكرى وتقديرى وعظيم امتناني إلى أستاذى الجليل الأستاذ الدكتور/ رأفت عبد الحميد لما بذله معى من مجهودات ونصائح طوال فترة إعداد هذا البحث ، والذى لولا خبرته الطويلة وصبره العميق لما خرج البحث بهذا الشكل. كما اكرر شكرى إلى الأستاذ الدكتور جوناثان شبرد على مجهوداته الكبيرة ومساعداته الدائمة لإنجاز

هذا البحث على هذا النحو. جزاهما الله عنى خيراً. ولا يفوتنى أن أتقـــدم بخـــالص الشـــكر والتقدير للأستاذ الدكتور/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، والأستاذ الدكتور/ اســحق عبيــد علـــى ملاحظاتهما القيمة على هذا البحث ، والتى أفدت منها كثيراً. كمـــا أتقــدم بخـــالص الشـــكر والتقدير إلى كل من مد لى يد المساعدة ولم يسع المقام هنا لذكره.أخيراً أسأل الله العلى القدير أن أكون قد وفقت فى إنجاز هذا البحث على أكمل وجه فإن أصبت فمن الله وإن أخفقت فمــن نفسى.

عرض وتقديم لأهم مصادر البحث التاريخية

تستهدف هذه الصفحات تقديم رؤية عامة عن أهم المصادر التاريخية التى استخدمت فى إجراء هذا البحث ، وليس عرضاً لكل مصادره أو مراجعه . والهدف الرئيسى من هذا العرض هو أن نوضح للقارئ عامة ماذا قدمت هذه المصادر من مادة تاريخية كفلت لهذا البحث الخروج إلى النور ؛ مع ضرورة توضيح أننا لسنا بصدد إعداد دراسة تحليلية نقدية لهذه المصادر، وهو الأمر الذى قد يحتاج لبضعة سنين من البحث والدراسة، الأمر الذى يتنافى مع الهدف من البحث .

لقد تم الاعتماد فى هذا البحث على عدة مجموعات من المصادر التاريخية ، ثلاثاً منها تقف على قدم المساواة من حيث الأهمية ، وهى مجموعة المصادر البيزنطية، مجموعة المصادر الروسية ، مجموعة المصادر العربية . ثم تأتى بعد ذلك بعض المصادر الفارسية والمصادر اللاتينية .

أولاً : المصادر البيزنطية :

١. **ليو الشماس** *Leo Diaconus* ، ولد قرب عام ٩٥٠م فى كالوى *Kaloe* فى آسيا الصغرى ، وقد درس فى القسطنطينية حتى أصبح شاباً، والتحق بالخدمة الكنسية عند اعتلاء الإمبراطور باسيل الثانى*Basil II* ٩٧٦-١٠٢٥م الحكم؛ وقد صحب الإمبراطور باسيل الثانى فى حربه ضد البلغار فى عام ٩٨٦م، وسرعان ما أصبح ليو شماساً فى القصر الإمبراطورى فى عهد ذلك الإمبراطور . وقد ترك لنا كتاباً أسماه التاريخ ، ويشمل الأحداث التى وقعت فى الفترة من عام ٩٥٩-٩٧٦م، وهذا الكتاب يقع فى عشرة فصول أو عشرة كتب على حد تسمية ليو الشماس نفسه، مكتوبة باللغة اليونانية البيزنطية . والشيء الذى يتميز به كتاب ليو الشماس أنه كان شاهد عيان فى معظم ما كتبه . لذا جاءت روايته ، وإن كانت من وجهة نظره ، دقيقة إلى حد كبير . وقد تحدث فى كتابه عن الأحداث التى وقعت فى عهد أسلاف باسيل الثانى ، أى الإمبراطورين نقفورفوقاس *Nicephor Phocas* ٩٦٣-٩٦٩م ويوحنا تزيمسكس *Jean Tzimiskes* ٩٦٩-٩٧٦م ، وعن حروبهما ضد مسلمى كريت ، ومسلمى آسيا الصغرى ، وضد البلغار والروس فى أوروبا(١) . وقد ألقى

---

(1) Nicole, D., *A Biographical Dictionary of the Byzantine Empire*, (London, 1991), p. 75; Každan, A., "Leo the Deacon", *ODB*, vol. 2, (New York, Oxford, 1991), p. 1217

ليو الشماس الضوء على حروب الإمبراطور نقفورفوقاس ويوحنا تزيمسكس ضد الأمير الروس سفياتوسلاف *Svyatoslav* فى منطقة البلقان . ويعتبر ليو الشماس هو المصدر الرئيسى لهذه الأحداث، لذلك كان مصدره من المصادر البيزنطية الرئيسية عند حديثنا عن التوسع الروس الخارجى فى منطقة البلقان ، فى عهد سفياتوسلاف ، على حساب الوجود البيزنطى هناك، ولا نبالغ إذا قلنا إن تاريخ ليو الشماس كان المصدر الوحيد المعاصر لهذه الأحداث .

٢. **جورج كدرينوس** *G. Cedrenus* : يعتبر من مؤرخى القرن الثانى عشر الميلادى. ولا توجد لدينا معلومات عن حياته وسيرته الذاتية . وقد ترك لنا مدونة تاريخية بعنوان التاريخ الشامل *Synopsis Historion* ويبدأ فيه التأريخ منذ بدء الخليقة وحتى عام ١٠٥٧م، وهو عبارة عن مقتطفات تاريخية استقاها من المدعو سيمون الماجستير *Symeon Mag.* ومن ثيوفانيس *Theophanes* ومن جورج هامارتولوس *George Hamartolos* . وبدءاً من عام ٨١١م فصاعداً يتبع بحرفية يوحنا سكيلتزس *John Skylitzes*[٢] . وقد ألقى كدرينوس الضوء على العلاقات الروسية – البيزنطية طوال فترة البحث ، فكان اعتمادنا عليه رئيسياً فى معظم فصول الدراسة ، لاسيما الفصلين الثانى والثالث من الباب الأول . وعلى الرغم من انه نقل حرفياً عن يوحنا سكيلتزس إلا أننا أدرجناه فى هوامش البحث تحت اسم *Cedrenus* فقط ، لأنه تعذر علينا الحصول على الجزء الخاص بسكيلتزس ، الذى طبع حديثاً مستقلا عنه. ولا غرو، فسنجد بعض المؤرخين المحدثين يستخدمون *Scylitzes* فى كتاباتهم بينما نستخدم *Cedrenus* عند الكتابة ، وكلاهما يشير إلى كتاب واحد .

٣. **يوحنا زوناراس** *I. Zonaras* : يعتبر مؤرخاً للقرن الثانى عشر أيضاً . ولا توجد معلومات غزيرة عن سيرته الذاتية . وقد ترك لنا مؤلفاً أطلق عليه اسم "مختصر التواريخ" *Epitomae Historiarum* ويقع فى عدة أجزاء . ويبدأ تاريخه منذ بدء الخليقة وحتى اعتلاء الإمبراطور يوحنا كومنينوس *Jean Comnenus* العرش عام ١١١٨م . وعلى الرغم من أن روايات زوناراس عن الأحداث التاريخية التى وقعت فى بيزنطة ليست تفصيلية ، إلا أنها تتميز بالدقة التاريخية ، لأن مدونها تميز بأنه استقى معظم معلوماته من السجلات الرسمية المحفوظة بالقصر ، من

---

(٢) Kažhdan, A., " Kedrenos ", *ODB*, vol. 2, (1991), p. 1118.

خلال عمله كقائد للحرس الإمبراطورى[٣] وقد أمدنا روناراس بمعلومات دقيقة عن العلاقات الروسية - البيزنطية خلال فترة البحث ، لاسيما الأحداث التى وقعت فى البلقان على عهد الإمبراطور يوحنا تزيمسكس والأمير الروس سفياتوسلاف ، وكذلك أشار إلى غزو فلاديمير *Vladimir* لخرسون *Cherson* وحملة الروس على بيزنطة فى عام ١٠٤٣م فى عهد ياروسلاف الحكيم *Yaroslav* . ويمكن القول أن زوناراس نهج منهج كدرينوس ، وتكاد تكون معلومات الاثنين متطابقة ، مما يشير إلى وحدة المصدر الذى استقيا منه معلوماتهما ، أو أن زوناراس نقل عن كدرينوس.

٤. قسطنطين بورفيروجنيتوس *Constantine Porphyrognetus* : قد يكون الحديث عن الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس، ٩١٩-٩٥٩م ، فى هذا الموضع فى غير محله، فتاريخ وسيرة هذا الإمبراطور الذاتية معلومة جيدة لكل المؤرخين المحدثين ، لكن ما يهمنا هنا هو قسطنطين المؤلف والمؤرخ . لقد ترك لنا الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنتيوس عدة كتب تاريخية ذات مكانة تاريخية هامة بين كتب التاريخ البيزنطى وهى كتابه عن الإدارة الإمبراطورية *De Administrando Imperio* ، وكتابه عن المراسم *De Cerimoniis Aulae Byzantinae* ، وكتابه عن الثيمات *De Thematibus* ، وكتابه عن حياة جده الإمبراطور باسيل الأول *Vita Basilii*،٨٦٧-٨٨٦م. ويمكن القول أنه لا يوجد مؤرخ من المؤرخين البيزنطيين ترك وراءه كل هذا الكم من الكتب ، المتنوعة الموضوعات ، والبالغة الأهمية بالنسبة للبلاط البيزنطى، ومن بين هذه المؤلفات التاريخية الهامة استفاد البحث باثنين منهما، الأول: كتابه عن الإدارة الإمبراطورية، وثانيهما: كتابه عن المراسم .

ولنبدأ الحديث بالكتاب الثانى " عن مراسم البلاط البيزنطى" . وضع الإمبراطور قسطنطين السابع هذا الكتاب ليكون مرجعاً لأعضاء البلاط البيزنطي لقواعد البروتوكول التى ينبغى العمل بها؛ لكنه مع ذلك جاء كتاباً تاريخياً هاماً ومرجعاً رئيسياً عن الحياة الاجتماعية داخل القسطنطينية فى القرن العاشر الميلادى . وهذا الكتاب يقع فى جزأين ، كتبا باللغة اليونانية البيزنطية . ومخطوطة هذا الكتاب الأصلية محفوظة فى مكتبة جامعة ليبزج *Leipzig* ، وتعود إلى القرن العاشر الميلادى . وقد

[٣] ليلى عبد الجواد ، *الدولة البيزنطية فى عهد الإمبراطور هرقل* ، (القاهرة ، ١٩٨٥) ، ص ١٥

احتوى هذا الكتاب الراقى على عدة موضوعات متنوعة منها ما يتحدث عن المراسم الدنيوية، الاحتفالات فى الهيبودروم، الترقيات الرسمية، احتفالات التتويج ، الجنائز، مراسم استقبال السفراء الأجانب وغير ذلك من الموضوعات الشيقة[٤] . كذلك احتوى هذا الكتاب الشيق على موضوعات عسكرية لعل أهمها الفصلين ٤٥-٤٦ اللذين يتحدثان عن الحملة البيزنطية لاسترداد كريت من أيدى المسلمين، وفى هذين الفصلين يرد ذكر للمرتزقة الروس الذين عملوا فى الجيش البيزنطى وللمرتبات التى كانوا يتقاضوها فى الأسطول البيزنطى. وقد انفرد هذا الكتاب بذكر تفاصيل استقبال الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس للأميرة الروسية أولجا *Olga* فى عام ٩٥٧م ، وقدم تفصيلات دقيقة لم ترد حتى فى المصادر الروسية .

أما الكتاب الثانى لهذا الإمبراطور الذى استفاد منه الباحث بدرجة كبيرة عند الحديث عن سياسة بيزنطة تجاه شعوب منطقة السهوب ، فكان كتابه عن ا?دارة ا?مبراطورية . لقد وضع هذا الكتاب الإمبراطور قسطنطين السابع إما بنفسه أو تحت إشرافه وكرسه لابنه رومانوس الثانى *Romanos II* ، ٩٥٩-٩٦٢م. وقد وضع هذا الكتاب لكى يوضح لابنه كيفية التعامل مع الشعوب المجاورة، لهذا فهو يعتبر مرآة صادقة تعكس أسس الدبلوماسية البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى . ويتكون هذا الكتاب من أربعة محاور رئيسية، علاقة بيزنطة بالأمم والشعوب المجاورة، وكيفية تسخير هذه الشعوب لخدمة الأغراض البيزنطية، كتسليط البشناق على الروس مثلاً؛ وإغداق الهدايا الثمينة عليها لكسب ودها وتحقيق مآربها، وأخيراً وصف مواقعهم الجغرافية وعاداتهم والتغيرات التى طرأت على الإمبراطورية البيزنطية . وكتاب الإدارة الإمبراطورية يحوى مستويين من قاعدة البيانات ، الأول عبارة عن أقسام مفيدة للغاية مأخوذة عن وثائق الأرشيف البيزنطى والثانى عن المبادئ التعليمية المتعلقة بوسائل الدبلوماسية فى بيزنطة . على أنه ينبغى على المرء أن يفرق بين تاريخ وضع الكتاب (نحو عام ٩٥٠ تقريباً) وبين تاريخ النصوص الواردة به[٥] .

على أية حال، انفرد هذا الكتاب بروايات غاية فى الأهمية عن الروس وسياسة بيزنطة تجاههم، وكيفية إيقاع بيزنطة بين شعوب السهوب، وضرب البشناق بالروس، والبلغار بالخزر وغيرهم من الشعوب القاطنة هناك . وتأتى رواية هذا الكتاب عن الطريق المائى العظيم الذى يسلكه الروس إلى القسطنطينية غاية فى

---

[٤] McCormick, M., " De Ceremoniis ", *ODB*, vol. 1, (1991), pp. 595-597.

[٥] Kažhdan, A., " De Administrando Imperio ", *ODB*, vol. 1, (1991), p. 593.

الأهمية والدقة ، بل يمكننا القول أن هذا الكتاب انفرد دون بقية المصادر البيزنطية والروسية بذكر تفاصيل رحلة الروس من نوفجورود *Novgorod* إلى القسطنطينية مروراً بكييف *Kiev* ، ويمكن القول أن هذا الكتاب كان المرجع الرئيسى عند كتابة الفصل الأول من الباب الأول ، والفصل الثانى من الباب الثانى من البحث .

٥. **ميخائيل بسللوس** *M. Psellos* : لا يمكن للمرء أن يتحدث هنا عن بسللوس ويقدمه فى بضع كلمات سوى بأنه عالم وفيلسوف وسياسى ورجل من رجال الدولة البيزنطية . ولد ميخائيل بسللوس فى القسطنطينية فى عام ١٠١٨م وتوفى إما فى عام ١٠٧٨م أو ١٠٩٦م . وتلقى تعليمه هناك ، وسرعان ما أحرز شهرة كبيرة فى عهد الإمبراطور ميخائيل الخامس *Michael V* وقسطنطين التاسع *Constantine IX* ، الذى عينه فى عام ١٠٤٥م أستاذاً للفلسفة فى الجامعة الإمبراطورية . وعندما توفى هذا الإمبراطور انخرط بسللوس فى سلك الرهبانية، تحت اسم ميخائيل ؛ لكنه سرعان ما عاد للبلاط البيزنطى حيث عمل فى عدة وظائف ، فقد عمل سكرتيراً فى البلاط ، ومستشاراً ، ودبلوماسياً وفى بعض الأحيان صانع ملوك ، على حد قول المؤرخ الإنجليزي ديفيد نيقول *D.Nicole* . وقد ترك بسللوس وراءه العديد من المؤلفات الفلسفية والتاريخية ، يهمنا منها كتابه المسمى *Chronographia* . فقد سرد فى هذا الكتاب الأحداث التى مرت بها بيزنطة على مدى أربعة عشر إمبراطوراً وإمبراطورة ، بدءاً من الإمبراطور باسيل الثانى فى ٩٧٦م وحتى اعتلاء نقفور الثالث العرش فى عام ١٠٧٨م، وهذا الكتاب عبارة عن مذكرات شخصية أكثر منه سرداً تاريخياً[٦] . وتأتى أهمية هذا الكتاب من أن بسللوس قد شارك بنفسه فى صنع الكثير من أحداث هذه الفترة ، فقد كان على مقربة من القصر منذ حداثة سنه ، وعمل فى خدمة تسعة من الأباطرة الذين عاصرهم ابتداءً بميخائيل الخامس وحتى ميخائيل السابع *Michael VII* ، وترقى فى المناصب حتى أصبح الوزير الأول المسئول فى الإمبراطورية[٧] . ولا ريب، فقد كان بسللوس أعظم مثقفى عصره على الإطلاق ، والحارس الأمين على التقاليد القديمة ، وفى الوقت نفسه الضمين الأساسى لكل ما هو جديد فى الفكر ومبتكر، وهكذا أضحى المسئول الرئيسى عن حركة التجديد والإحياء التى يمكن أن يكون أفضل وصف لها هو "حركة الإنسانيات" . ويضيف أحد المؤرخين المحدثين

---

(٦) Nicole, *BDBF*, p. 109.

(٧) رأفت عبد الحميد ، *بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة* ، (القاهرة ، ١٩٩٧) ، ص ٢٥٨.

أيضاً أن بسللوس كان يتميز بدقة الملاحظة وقوة الذاكرة وحصافة الرأى وبلاغة الأسلوب وسعة الثقافة[٨] .

وقد أمدنا بسللوس بتفاصيل الهجوم الروس الأخير على القسطنطينية فى عام ١٠٤٣م ، ولا يضاهى روايته عن هذا الحدث سوى المؤرخ البيزنطى كدرينوس .

٦. **كتاب والى المدينة** *Eparchion Biblion* : ألف هذا الكتاب الإمبراطور ليو السادس *Leo VI* ، ٨٨٦-٩١٢م ، وهو عبارة عن مجموعة من القوانين التى كان على والى المدينة تنفيذها بدقة شديدة . وكان غرض الإمبراطور البيزنطى من إصدار مثل هذه القوانين الإبقاء على كل مهنة تجارية أو حرفية فى الإطار الدقيق لنشاطها فقط ، وتركيزها فى موقع واحد حتى يكون من السهل على الوالى ومساعديه الإشراف عليها ومراقبتها لمنع العاملين فيها من الحصول على أرباح زائدة ، ولمنع تصدير سلع معينة فاخرة كالثياب والأقمشة الحريرية الأرجوانية إلى الخارج . وهذا الكتاب ، الذى يعرف باسم "كتاب والى المدينة" يبين حرص الحكومة البيزنطية على تقييد التجارة ، كما أنه يعطى صورة حية للحياة التجارية فى القسطنطينية[٩] . وقد كان هذا الكتاب خير معين لنا عند كتابة الفصل الأول من الباب الثالث ، والذى يتحدث عن العلاقات البيزنطية - الروسية التجارية . فقد زودنا بمادة وفيرة عن القوانين التى كانت مفروضة على تجارة الحرير والذهب والأسماك عند التعامل فيها مع التجار الأجانب .

هذا وقد استفاد الباحث من الكثير من المصادر البيزنطية الأخرى، إلا أنها استخدمت بدرجة ثانوية أثناء الكتابة، منها كتاب التاريخ لميخائيل أطالياتس *M. Attaleiates* ؛ وحولية إفرايموس الراهب *Ephraemus* ؛ وكتاب جورج كودينوس *G. Codinus* عن المنشآت ؛ وقصائد يوحنا الجيومترى *J. Geometrus* فى رثاء الإمبراطور نقفورفوقاس ؛ وقائمة فيلوثيوس الحاجب *Philothius* ؛ وحولية ليو النحوى *Leo Grammaticus* ؛ وحولية ميخائيل جليكاس *M. Glycas* ؛ وخطابات البطريرك نيقولا مستيكوس؛ وحولية سيمون الماجستير واللغثيت *Symeon* ، وغيرها من المصادر الأخرى .

---

[٨] رأفت عبد الحميد ، *بيزنطة* ، ص ٣٢٢ ، ولمزيد من التفاصيل حول بسللوس وعصره انظر، رأفت عبد الحميد ، *بيزنطة* ، ص ٢٥٣-٣٢٢ .

[٩] وسام عبد العزيز فرج ، الدولة والتجارة فى العصر البيزنطى الأوسط ، *حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت* ، ٩ (١٩٨٧/١٩٨٨) ، ص ١٩ .

وتأتى المجموعة الثانية من المصادر الرئيسية التى اعتمدت عليها هذه الدراسة بدرجة رئيسية ومساوية تماما للمجموعة الأولى ، المصـــادر البيزنطيـــة ، ألا وهـــى المصادر الروسية .

ثانيا : المصادر الروسية :

١. **حولية نسطور** *Nestor* : ولد نسطور نحو عام ١٠٥٠م وتوفى فى مستهل القـــرن الثانى عشر الميلادى . وقد كان راهبا فى دير الكهوف *Caves Monastery* بمدينـــــة كييف منذ بداية الربع الأخير من القرن الحادى عشر تقريبا وحتى مستهل القرن الثـانى عشر الميلادى . كتب العديد من السير الذاتية والكتب الأخرى . فقد تركه وراءه كتابـا عن سيرة القديسين بوريس *Boris* وجلب *Gleb*، ابنى فلاديمير ، اللذين قتلا على أيدى سفياتوبولك *Svyatopolk* ، نحو عام ١٠٨٠م ؛ وهذه الحولية كانت تعرف باسم "وقـائع الأيام الخالية". وقد رسم نسطور من خلال كتبه صورة أدبية عن المواطنيـن الـروس الأوائل باستخدامه تقنيات الكتابة البيزنطية التقليدية لسير القديسين، عندما يسرد قصصاً معينة من كييف . وهو بهذا تأثر تأثيراً مباشراً بالهجيوجرافيا البيزنطية، والتى تظـــهر خصائصها فى كتاباته بصورة جلية[١٠] .

وإذا ما تناولنا هذه الحولية بالدراسة ، علينا أن نشير إلى أن هذه الحولية فى نصها الحالى المترجم إلى اللغة الإنجليزية، يطلق عليها نص لورانـــس *Laurentian text* ؛ وذلك لأن هذه النسخة كانت قد نسخت فيما بين ١٤ ينـــاير و ٢٠ مـــارس عام ١٣٧٧م على أيدى الراهب لورانس *Lawrence* للأمير ديمترى قنسطنطينوفيتش مـــن سوزدال *Dimitriy Konstantinovich of Suzdal*[١١] . كما أن النســـخة التـــى قـامَ لورانس بنسخها فى القرن الرابع عشر الميلادى ، كانت نقلاً عن نسخة تم نسخها فـــى عام ١١١٦م . حيث وردت عبارة فى نهاية الحولية يقول فيها الناسخ " .. أنا سيلفســتر *Sylvester* ، الراجى عفو ربه ، رئيس دير سان ميخائيل *St.Michaels* ، كتبت هـــذه الحولية فى عام ٦٦٢٤ (١١١٦م) ، الخمس عشرية التاسعة، أثناء حكم الأمير فلاديمير فى كييف وأثناء رئاستى لدير سان ميخائيل؛ فليتذكرنى كل من يقرأ هذا الكتـــاب فـــى صلواته "[١٢] . وهذه الحولية يبدأ نسطور الحديث فيها عن البدايات الأولـــى لمجـــيء

---

(١٠) Franklin, S., & Hollingsworth, P., " Nestor ," *ODB*, (1991), p. 1459.
(١١) *R.P.C.*, p.4.
(١٢) *R.P.C.*, p.205.

الروس إلى البلاد والمناطق التى كانت تغص بالقبائل السلافية والفنلندية فـــى القـــرن التاسع الميلادى ، وكيف خضعت للروس وصارت تحمل اسمهم ، ويتوقف فى ســـرده التاريخى ، الذى سار فيه على النظام الحولى ، عند عام ١١١٦م . ومن المحتمل أيضا أن نسطور عند كتابته لهذه الحولية قد تأثر بنظام الكتابة التاريخية عنـــد البـــيزنطيين، فالمتصفح لهذه الحولية يشعر كما لو كان يقرأ كتابا كتب بأيد بيزنطية. ولا غرو، فقـــد جاءت الثقافة والفكر إلى روسيا عن طريق بيزنطة وكنيستها الأرثوذكسية . وبطبيعـــة الحال فقد شكلت هذه الحولية عصب الأحداث التاريخية خلال فترة البحـــث ، وكـــانت تسير جنبا إلى جنب مع المصادر البيزنطية . ومع هذا ينبغى أن نشير إلى أن الكـــاتب قد قلب بعض الأحداث وزيف حقيقتها، فعلى سبيل المثال عندما هزم سفياتوسلاف على أيدى يوحنا تزيمسكس *Jean Tzimisks* ، على حد قول الروايات البيزنطيـــة وعلـــى رأسها ليو الشماس المعاصر للأحداث ، جعل نسطور الروس فى وضـــع المنتصـــر . وفى المقابل تميز نسطور بأنه أورد نصوص جميع المعاهدات التى عقدت بين الـــروس وبيزنطة ، معاهدة ٩٠٧م ، ٩١١ ، ٩٤٥ ، ٩٧١م، على نحو مفصل ؛ فى الوقت الذى لم تشر فيه المصادر البيزنطية إلا إلى القليل منها . ومن الأشياء التـــى تؤخـــذ علـــى نسطور أن نظام التأريخ الزمنى عنده ليس دقيقا فيما يتعلق بـــأحداث القـــرن التاســـع الميلادى وأوائل العاشر . فعلى سبيل المثال يذكر أن المعاهدة التى عقدت بين الـــروس وبيزنطة فى عام ٩١١م، عقدت فى عام ٩١٢م . لذلك فإن الاعتماد على رواياته عنـــد الكتابة عن تاريخ الروس لا يكفى، فلا بد من مقارنة رواياته بالمصادر الأخرى ســـواء بيزنطية أو عربية أو لاتينية حتى لا يقع المرء فى أخطاء تاريخية جسيمة. والشـــــىء الملاحظ على نسطور أيضا أنه لم ينطق ببنت شفة عن النشاط الروسى فـــى منطقـــة القوقاز ضد المسلمين ؛ ولسنا نعرف السبب الذى حدا به لذلك . وينبغى أن نشير إلـــى أن نسطور كان ينظر إلى بيزنطة على أنها مملكة يونانية وإلى أباطرتها علـــى أنـــهم أباطرة يونانيون يحكمون شعبا يونانيا . وقد يقف المرء أمـــام رؤيـــة نســـطور هـــذه للبيزنطيين ، ويمضى بخياله ليربط بينها وبين رؤية أباطرة الإمبراطورية الرومانيـــة المقدسة لهم ، الذين اعتـــبروا الإمبراطور البـــيزنطى ملكـــا علـــى اليونـــانيين *Rex Graecorum* . ولكن ، هيهات فالفارق بين الظروف التاريخية والسياسية للاثنين بعيد. ففى الوقت الذى كان ينظر فيه أباطرة ألمانيا إلى بيزنطة بهذه النظرة، كانت نظرتـــهم هذه ترتكز على أسس سياسية تامة، وأنهم ورثة قيصر وحاملى اللقب الإمـــبراطورى

Imperator Romanorum وليس الإمبراطور البيربطى الذى يحيا على أرض يونانية، ويحكم شعبا يتحدث اليونانية . أما نسطور فيبدو أنه لم يذهب به الفكر إلى ألمانيا ، بل استخدم الواقع الفعلى لبيزنطة، من حيث إنها تحيا على أرض يونانية وتتحدث اليونانية، والدليل على ذلك أنه عندما يشير إلى حكام بيزنطة يستخدم لقب إمبراطور وليس *Rex*، الذى استخدمه أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة للإشارة إلى الباسيليوس البيزنطى. وأخيرا من الضرورى أن نذكر أن نسطور غلبت عليه ثقافته الدينية أثناء الكتابة، لذلك كثيرا ما يستشهد بالقصص الدينى للأنبياء السابقين، عدا الرسول محمد عليه الصلاة والسلام؛ كما أنه اهتم بإبراز الحروب الأهلية التى نشبت بين الأمراء الروس مرارا وتأثيرها على البلاد(١٣) .

٢. **حولية نوفجورود** *The Chronicle of Novgorod* : هى واحدة من الحوليات التاريخية الروسية التى تعنى بتاريخ المدن الإقليمية . فقد استخدم كاتب هذه الحولية الأحداث التاريخية التى مرت بها نوفجورود منذ عام ١٠١٦م وحتى عام ١٤٧١م كمادة تاريخية ، تؤرخ لهذه الإمارة . وفى الواقع فإن هذه الحولية كانت من المصادر الروسية الثانوية فى هذه الدراسة ، فلم تمدنا إلا بمادة ضئيلة عن أحداث عصر الأمير الروسى العظيم ياروسلاف الحكيم .

ونأتى الآن إلى المجموعة الثالثة من المصادر الرئيسية التى اعتمدت عليها هذه الدراسة بدرجة رئيسية ومساوية تماما للمجموعتين الأولى والثانية ، أعنى المصادر الإسلامية . ولما كانت هذه المصادر من الكم ما يصعب معه تقديمه ودراسته ، فسوف نكتفى بأهم المصادر العربية وبماذا أفادت الدراسة .

ثالثا : المصادر العربية :

١. **تجارب الأمم لابن مسكويه** : المؤلف هو أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه ، الذى توفى عام ٤٢١هـ/١٠٣٠م . يعتبر كتابه تجارب الأمم من المصادر العربية الهامة للبحث ، لأنه أورد ذكرا لهجوم الروس على بلاد القوقاز الإسلامية فى عام ٣٣٢هـ/٩٤٣-٩٤٤م . بل لا نبالغ أن نقول انه هو المصدر الوحيد الذى ذكر كل

---

(١٣) لمزيد من التفاصيل حول الحولية الروسية الأولى ، انظر :
R.P.C., pp. 3-35; Obolensky, D., "Early Russian Literature", *An Introduction to Russian Language and Literature, ed. R.Auty and D. Obolensky, Companion to Russian Studies. 2 Cambridge*, (Cambridge, 1977), pp. 69-71

تفاصيل الهجوم وما ارتكبه الروس في البلاد وكيف خرجوا منها، ومما يزيد روايته أهمية أنه كان شاهد عيان للأحداث، وذلك باعترافه نفسه، وقد نقل بعضاً من حديثه عن هذا الهجوم عن المرزبان نفسه .

٢. **الكامل فى التاريخ لابن الأثير** : يعتبر كتاب الكامل فى التاريخ من أهم المصادر العربية التى أفادت البحث وزودته بمادة غزيرة عن هجوم الروس على بلاد القوقاز الإسلامية فى عام ٣٣٢هـ/٩٤٣-٩٤٤م . ويتضح من مقارنة روايته عن هذا الهجوم برواية ابن مسكويه ، أنه نقل أحداثه عن الأخير بصورة كاملة . وعلى الرغم من هذا يعتبر هذا المصدر من المصادر الهامة للبحث، لأنه ذكر الروس العاملين فى الجيش البيزنطى فى مواضع كثيرة أثناء حروب البيزنطيين مع المسلمين .

٣. **مروج الذهب للمسعودى** : على الرغم من أن هذه الدراسة قد أفادت من كتب المسعودى الأخرى ، ككتابه التنبيه والإشراف أو أخبار الزمان ، إلا أن مروج الذهب يأتى من حيث الأهمية فى المقدمة، فقد أنفرد بذكر تفاصيل الهجوم الروسى على بلاد القوقاز الإسلامية فى عام ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م، ويمكن اعتباره المصدر الوحيد الذى يتحدث عن هذا الهجوم .

٤. **كتاب جامع الدول لمنجم باشى** : مؤلف هذا الكتاب هو أحمد بن لطف الله منجم باشى، الذى ألف لنا كتاباً نحو عام ٥٠٠؟ أسماه جامع الدول. وقد قام المستشرق الروس فلاديمير مينورسكى بنشر أجزاء من هذا الكتاب فى عام ١٩٥٣ ، تحت عنوان "باب فى الشدادية" ، وهذا الباب يلقى الضوء على أسرة الشدادية التى حكمت آران فى القرن الحادى عشر الميلادى . وفى هذا الفصل انفرد منجم باشى بذكر تفاصيل غارتين قام بهما الروس على منطقة آران وشروان فى عامى ٤٢١هـ/١٠٣٠م، ٤٢٢هـ/١٠٣١م ، وقد بين كيف تمكن موسى بن الفضل بن محمد بن شداد وأبيه من استخدام الروس كمرتزقة فى عام ١٠٣١م .

٥. **رسالة أحمد بن فضلان** : قام الوزير العباسى أحمد بن فضلان فى عام ٣٠٩هـ/٩٢١م برحلة ، بناءً على أوامر الخليفة العباسى المقتدر ، إلى بلاد بلغار الفولجا استجابة لطلب ملك البلغار ، الذى اعتنق الإسلام لتوه ، وطلب من الخليفة العباسى إرسال فقهاء له وبناء حصن له يحميه من هجمات الخزر . وقد مر الوزير ابن فضلان بالعديد من الأمم والقبائل طوال هذه المرحلة ، وترك وراءه تفاصيل

هذه الرحلة فى كتاب أسماه "رسالة أحمد بن فضلان فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة" . وقد أعطى صورة صادقة فى هذا الكتاب للحياة الاجتماعية لقبائل منطقة السهوب لاسيما الخزر والروس وبلغار الفولجا . ويمكن القول أن المؤرخين الروس المحدثين يعتبرون كتاب ابن فضلان المصدر الوحيد الثمين الذى يمدهم بمعلومات عن المجتمع الروس الأول، لأن كل ما ورد عنده عن الروس لم نعثر له على مثيل فى المصادر الأخرى بما فيها المصادر الروسية[١٤] . وفى النهاية، لابد لنا أن نؤكد على أن المصادر العربية ، خاصة الجغرافية ، هى واحدة من أهم المصادر التاريخية التى تتحدث عن تاريخ الروس ونظمهم وحياتهم . وحتى الآن لم تحظ هذه المصادر بدراسة مقارنة مع المصادر الروسية ، لوضع صورة كاملة عن المجتمع الروسى الأول ونظمه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . هذا ، وقد اعتمد البحث على العديد من المصادر الفارسية مثل كتاب زين الأخبار للجرديزى ، وكتاب تاريخ طبرستان لابن اسفنديار ، والذى انفرد بذكر هجوم الروس على بلاد القوقاز الإسلامية فى عام ٢٥٠-٢٧١هـ/٨٦٤-٨٨٤م . كما اعتمدت الدراسة أيضا على كتاب حدود العالم ، وهو مؤلف فارسى مجهول المؤلف يعود إلى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . كما تم الاستعانة ببعض المصادر اللاتينية كتقرير الأسقف ليوتبراند الكريمونى *Liutprand of Cremona* عن زيارته للقسطنطينية ، وما تعرض له من مشاكل هناك أثناء زيارته الثانية ، على أيدى رجال الجمارك البيزنطيين ، وكذلك كتاب الأسقف ثيتمار من ميرسبرج *Thietmar of Merseburg* ، الذى يعتبر من أهم المصادر عن تاريخ بولندا فى العصر الوسيط .

أما عن المراجع المتخصصة والتى اعتمدت عليها هذه الدراسة فهى كثيرة ولا يتسع المجال هنا لعرضها ، ويكفى أن نلقى نظرة عامة على ببليوجرافيا الدراسة لنتعرف عليها . لكن يمكن القول أن أهم المؤرخين المحدثين الذين استفادت منهم هذه الدراسة هم : المؤرخون الإنجليز ديمترى اوبولنسكى *D. Obolensky* ، وجوناثان شبرد *J. Shepard* ، وسيمون فرانكلين *S. Franklin* ، والمؤرخ البولندى أندريه بوب

---

[١٤] لمزيد من التفاصيل عن ابن فضلان انظر : رسالة ابن فضلان فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ، تحقيق/ سامى الدهان ، (دمشق ، ١٩٧٨) ، ص ١١-٤٧ .

A. Poppe ، والمؤرخ البلجيكى هنرى جريجوار *H. Grégoire* ، والمؤرخة الفرنسية أيرين سورلان *I. Sorlin* ، والمؤرخون الروس الكسندر سولوفيف *A. Soloviev* ، و أ. فازيلييف *A. Vasiliev* ، جورج اوستروجورسكى *G. Ostrogorsky* ، ج . فرنادسكى *G. Vernadsky* ، م. كارامزين *M. Karamsin* ؛ والمؤرخ الأمريكى صمويل كروس *S. Cross* وغيرهم من المؤرخين المحدثين.

التمهيد

تمهيد

الروس على الخريطة الدولية في النصف الأول من القرن العاشر الميلادى

لقد أطلق البيزنطيون اسم روس *Rus'* بصفة خاصة على الاسكندنافيين الذين اعتادوا غزو الأراضى الواقعة إلى الشرق منهم . وظهروا بهذا الاسم للمرة الأولى فى الغرب الأوربى فى حوليات برتنيانى *Bertiniani* ، عند ذكرها للسفارة التى بعثها الإمبراطور ثيوفيل *Theophilus* (٨٢٩-٨٤٢م) إلى الملك الفرنجى لويس التقى (٨١٣-٨٤٠م)؛ وهذه السفارة كانت تحوى أناساً يطلق عليهم اسم روس، كانوا قد جاءوا إلى القسطنطينية لإبرام اتفاق صداقة؛ وكانت هذه السفارة قد وصلت إلى بلاط الملك الفرنجي فى السابع عشر من شهر يونيو من عام ٨٣٩م . وكان على رأس هذه السفارة ثيودور *Theodore* أسقف خلقدونية ، والاسباثاريوس ثيوفانيس *Theophanes* . وقد نقلت هذه السفارة طلب الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل إلى لويس التقي ليبعث له بقوات تعينه على صد العرب ، وأن يساعد أعضاء السفارة من الروس فى العودة إلى بلادهم سالمين، نظراً لأن الطريق الذى سلكوه للوصول إلى بيزنطة صار مهدداً من البرابرة على حد ذكر الحولية . وقد لقى لويس التقى هذه السفارة لقاءً طيباً ، وورد على رسالة ثيوفيل حيث وعده بعمل كل ما هو مستطاع لعودة هؤلاء الروس إلى بلادهم سالمين[١] . ويعتقد بعض العلماء أن أعضاء هذه السفارة من الروس كانوا من نوفجورود[٢] .

---

(١) Banešcu, N., "Deux études byzantines, II. La première attaque russe de Constantinople 860 ", *REB*, 6 (1948), p.195; Vasiliev, A., *The Russian Attack on Constantinople in 860 AD*, (Cambridge, Mass., 1947), pp. 6-13; Ahrweiler, H.,"Les relations entre les Byzantins et les Russes au IXe siècle ", dans: *Bulletin d' Information et de coordination de l'Association International des Études Byzantines,* 5. (Athens-Paris, 1971), pp.47-56; Sorlin, I., "Les traités de Byzance avec la Russie au Xe siècle ", *CMRS*, vol. II-3, (Paris, 1961), p.317; Court, A., "La Russie à Constantinople ", *RQH*, 1 (Paris, 1876), pp. 76-78.

انظر أيضاً، فازيليف، *العرب والروم*، ترجمة/ محمد عبد الهادى شعيرة (القاهرة ، د.ت)، ص ١٦٣-١٦٤.

(٢) Banešcu, *Deux études*, p.195.

وفى الثامن عشر من شهر يونيو من عام ٨٦٠م فوجئ سكان القسطنطينية بمائتي قارب وقد ملأت البوسفور، ونزل راكبوها من المقاتلين الروس إلى السواحل وحول القسطنطينية فى الآونة التى كان الإمبراطور ميخائيل الثالث Michael III (٨٤٢-٨٧٦م) بقواته فى الشرق لقتال المسلمين . وبدأ الروس فى تخريب سواحل البوسفور وتهديد القسطنطينية نفسها . وقد انهارت معنويات سكان القسطنطينية من هول المفاجأة ، ومن التخريب والجرائم التى ارتكبوها ضد البيزنطيين فى ضواحى القسطنطينية . وبعد انتهاء الروس من سلب ونهب هذه المناطق كان عليهم الانسحاب سواء كان هذا بسبب العاصفة التى هبت عليهم أو بسبب عودة ميخائيل الثالث إلى عاصمته ونجاحه فى القيام بهجوم مضاد للروس(٣) . وبانسحابهم تنفست القسطنطينية الصعداء ، وعرف البيزنطيون جميعاً أن هناك شعباً جديداً يعيش فى النواحى الشمالية لهم ، وصاروا يطلقون عليهم آنذاك عدة مسميات منها الروس ?Ρῶς ، والتاورسكيذيون Ταυροθκυζοι أو الدروميتيون Δρομῖται(٤) ؛ وأن هذا الشعب أصبح يشكل خطراً عليهم عند الجبهة الشمالية . وكدأب بيزنطة فى التعامل مع مثل هذه الشعوب ، بعد زوال الخطر عنها ، أرسلت سفارة إلى مملكة الخزر Χαζαρια لتجدد علاقاتها بها، وكان على رأس هذه السفارة شاب يدعى قسطنطين التسالونيكى(٥) . وبطبيعة الحال كانت بيزنطة تبغى من وراء هذه السفارة تقوية علاقتها بالخزر، الذين كانوا القوة الوحيدة المهيمنة على منطقة حوض نهر الفولجا Volga وما حوله فى منطقة السهوب ، لتضرب بهم الشعوب المناوئة لها كالروس على سبيل المثال .

---

(٣) Symeon Magister ac Loghothetae, *Chronographia*, ed. I. Bekker,in: Theophanes Continuates, *CSHB*, (Bonnae, 1838), pp.674 – 675; Cedrenus, G., *Historiarum Compendium*, vol. II, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1838), p.173; Zonaras, I., *Epitomae Historiarum*, vol. III, ed. T. Bütter-Wobst, *CSHB*, (Bonnae, 1897), 404; Sorlin, *Les traités*, p.321; Vasiliev, *Russian attack*, pp.150-239; Court, *La Russie*, pp.78-84; Jenkins, R., *Byzantium: the Imperial Centuries A.D.610-1071*, (London, 1966), p.161; Ostrogorsky, G.,*History of the Byzantine State*, (Oxford, 1956), pp.202-203.

(٤) *Symeon Mag*., p.707; Ahrweiler, *Les relations*, pp.44 - 46; Sorlin, *Les traités*, p. 36, n. 11; Jenkins, R., " The Supposed Russien Attack on Constantinople in 907 ", *SP*., 4 (1949), p.405.

(٥) Ostrogorsky, *Byz. State*, p. 203.

والآن يسرع الزمان خطاه نحو القرن العاشر ليصوب سهماً جديداً من سهامه نحو بيزنطة ، ويصفع القسطنطينية بلطمة جديدة جاءتها عن طريق الروس في عام ٩٠٧م ولكن قبل أن يمضى بنا الحديث عن هذا الحدث إلى الأمام ، لنتمهل قليلاً ونلقى نظرة سريعة على الخريطة الدولية للعالم الوسيط فى تلك الآونة، لما له من فائدة فى تقييم وضع ومقام الروس منها .

لنبدأ بكلمات البطريرك نيقولا مستيكوس *Nicolas I* (٩٠١-٩٠٧ ، ٩١٢-٩٢٥م) التى بعث بها إلى أمير كريت يقول فيها : ".. إن ما أعنيه هنا، هو وجود سلطتين تعلوان فوق كل السلطات على الأرض ، وهما سلطان السراقنة (أى المسلمين) وسلطان الرومان (أى البيزنطيين) ، وهما اللتان تشعان الضياء كنجمين فى السماء ..."[٦] بهذه الكلمات البسيطة والتشبيهات البديعة أوجز لنا بطريرك القسطنطينية الحديث عن الخريطة السياسية للعالم الوسيط فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى، بيد أن هاتين القوتين لم تكونا من القوة مثلما كانا عليه بدءاً من القرن السابع فصاعداً . فالإمبراطورية البيزنطية كانت مثخنة بالجراح لاسيما فى جبهة البلقان بصفة خاصة، حيث كان البلغار فى صراع دائم مع بيزنطة من أجل البقاء والحفاظ على امتيازاتهم الاقتصادية فى عهد سيمون البلغارى (٨٩٣-٩٢٧م)، الذى بدأ سلسلة من الحروب المتواصلة ضد أباطرة بيزنطة بدءاً من عام ٨٩٤م وحتى عام ٩٠٤م، وهو العام الذى عقدت فيه معاهدة بينه وبين الإمبراطور البيزنطى ليو السادس (٨٨٦-٩١٢م)[٧] .

وجدد سيمون البلغارى هجماته على الأراضى البيزنطية بعد وفاة الإمبراطور ليو السادس . وقد لاقت القوات البيزنطية عدة هزائم من القوات البلغارية ، لعل أقساها كانت هزيمة انخيالوس *Anchialus* فى عام ٩١٧م، وانتهى الأمر بين الطرفين بدفع بيزنطة الجزية لسيمون البلغارى، بعد لقائة مع الإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس *Romanus Lecapenus* (٩١٩-٩٤٤م) وعقدت معاهدة بينها . ولم تهدأ الأوضاع على الجبهة البلغارية – البيزنطية إلا بوفاة سيمون البلغارى فى عام

---

[٦] يقول نيقولا مستيكوس :

" ..οτι δυο κυριότητες πάσης τής 'εν γῇ κυριότητες ῾η τε τῶν Σαρακηνῶν καὶ ῾η τῶν Ῥωμαίων, υπερανέχουσι, καὶ διαλα-μπουσιν, ώσπερ οἱ δύο μεγάλοι ἐν τῳ στερεώματι φοστῆρες..."

Nicholas I Patriarch of Constantinople, *Letters*, ed. and Eng. trans. R. J. Jenkins and L. G. Westerink, *CFHB*, vol. 4, (Washington, 1973), p. 2.

[٧] السيد الباز العرينى، *الدولة البيزنطية* ، (القاهرة ، ١٩٦٠) ، ص ٣٢٦-٣٢٩ .

٩٢٧م[٨]. وفى الواقع ، يمكن القول أن دولة البلغار الأولى بلغت ذروة مجدها فى عهد القيصر سيمون، على حساب الوجود البيزنطى المتزعزع فى البلقان. وليس أدل على ذلك من كلمات البطريرك نيقولا مستيكوس فى إحدى رسائله إلى القيصر سيمون البلغارى والتى يصفه فيها بـ "الذائع الصيت ، الشديد الشكيمة ، سيمون حاكم البلغار"[٩] .

وما أن هدأت الجبهة البلغارية البيزنطية حتى ظهر عدو جديد فى البلقان، تمثل فى شعب تركى جديد عرف باسم المجيار فى المصادر العربية، وباسم الترك *Τύρκοι* فى المصادر البيزنطية، ففى شهر أبريل من عام ٩٣٤م شن المجيار وللمرة الأولى هجوما على أراضى الدولة البيزنطية ، حيث قاموا بتخريب تراقيا وهم فى طريقهم إلى القسطنطينية[١٠]، ومن المحتمل أن البشناق *Petchenegs* تحالفوا معهم فى هذا الهجوم[١١] . وعلى الرغم من أن الإمبراطور البيزنطى عقد معاهدة سلام مع المجيار إلا أنهم أعادوا الهجوم مرة ثانية على أراضى الإمبراطورية البيزنطية فى عام ٩٤٣م، وهذه المرة أيضا عقد الإمبراطور البيزنطى معهم معاهدة سلام[١٢] . وبعد ختام خمسة أعوام من هذه المعاهدة وأثناء حكم قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس *Constantine Porphyrognetus* (٩١٣-٩٤٤ ، ٩٤٤-٩٥٩م) اتخذت بيزنطة سياسة سلمية تجاه المجيار، ولم تعد هناك هجمات مجيارية لفترة من الزمان عليها . كما قام أعضاء من الأسرة المالكة المجيارية بزيارات إلى البلاط البيزنطى ؛ وتم تبادل المراسلات بين الطرفين[١٣] . على هذا النحو كان البلقان يمثل جرحا لا يندمل لبيزنطة.

---

(٨) انظر، العرينى، *الدولة البيزنطية* ، ص ٣٣٤-٣٤٠ .

(٩) *Nicholas I*, p. 16, says that τῷ ὑπερφυεστάτῳ μεγαλοδόξῳ πανευλατ-ικῷτέκνῳ Συμεὼν ’αρχοντι Βουλγαρίας "

(١٠) *The Russian Primary Chronicle*, Laurentian text, ed. and trans. S. H. Cross & Θ. P. Sherbowitz - Wetzor, (Cambridge, Mass., 1953), p. 109; Runciman,S., *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign*, (Cambridge, 1963), pp.105-108.

حول الموطن الأول للمجيار على نهر الرون، ثم تحركهم صوب الدانوب، بسبب ضغط الغز عليهم من الشرق ووضعهم السياسى فى موطنهم الجديد، انظر،

Runciman, *Romanus Lecapenus*, pp.103-108.

(١١) Runciman, *Romanus Lecapenus*, p.109.

(١٢) *R. P. C.*, p.72.

(١٣) Moravcsik, G., *Byzantium and the Magyars*, (Amsterdam, 1970), p.56.

أما فى الجبهة الشرقية فقد كان المسلمون أقل تفاعلاً عن البلقان مع بيزنطة؛ ولم تبذل بيزنطة جهداً على جبهتها الشرقية يفوق ما كانت تبذله من أجل البلقان ، بل تمكنت وحتى عهد نقفورفوقاس (٩٦٣-٩٦٩م) ، من المحافظة على آسيا الصغرى من الضياع . ولم يكن هذا نتيجة ارتفاع مستوى القوة العسكرية البيزنطية بقدر ما كان بسبب التدهور السياسى الذى أصاب الخلافة العباسية فى بغداد .

ولنترك الحديث الآن عن بيزنطة ونرحل إلى بغداد للتعرف على القوة العظمى الثانية فى العالم الوسيط ، حسبما أقر بهذا نيقولا مستيكوس . كانت الخلافة العباسية تعانى هى الأخرى من آلام مبرحة لازمتها طوال العصر العباسى الثانى . فقد سيطر العجم من الترك عليها ولم يعد للخليفة العباسى قول ولا سلطان ، بل صار الحل والربط بأيدى وزرائه الأتراك . ومن الأمثلة الدالة على ذلك أن الوزير صالح بن وصيف كانت له الغلبة فى البلاد فى عهد الخليفة المعتز (٢٥٢هـ-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٨م) ؛ ويقول المسعودى عنه "كانت الكتب تخرج باسم صالح بن وصيف كأنه مرسوم بالوزارة لغلبته على الأمر، وكان نقش خاتمه "المعتز بالله".[١٤] وبلغ الأمر من السوء أن النساء كن يتحكمن فى الخلافة العباسية وخليفتها، ففى عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥هـ-٣٢٠هـ/٩٠٧-٩٣٢م) كانت جارية أمه، والتى كانت تسمى "ثمل القهرمانة"، تجلس للنظر فى مظالم الخاصة والعامة ويحضرها الوزير والكاتب والقضاة وأهل العلم[١٥] . وقد شهد العصر العباسى الثانى أيضاً انهياراً فى الأقاليم التابعة للخلافة العباسية . ومن الأمثلة على ذلك قيام أبو زكريا البحرينى عامل البحرين، بغزو مكة بستمائة فارس وتسعمائة راجل، وأعمل القتل فيمن فيها حتى بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفاً، واقتلع باب البيت الحرام ، وكان مصفحاً بالذهب، وأخذ جميع ما كان بالبيت من المحاريب الفضية ومناطق الذهب وانازيرات ذهب وفضة وقلع الحجر الأسود وجرد البيت مما كان عليه من الكسوة ؛ وحمل كل ذلك على خمسين جملاً عائداً إلى البحرين فى ذى الحجة سنة ٣١٧هـ/ يناير ٩٣٠م[١٦]. **ويعكس لنا هذا المثال قمة الضعف السياسى وعجز الخلافة حتى عن حماية بيت الله الحرام من الطامعين.**

وقد أدى ظهور النزعات الاستقلالية ، سواء ما كان استقلالها كاملاً كدولة الأغالبة فى شمال أفريقية أو الدولة السامانية فى بلاد ما وراء النهر، أو مع بقاء

---

[١٤] المسعودى ، *التنبيه والإشراف*، (بيروت ، ١٦٩٣)، ص ٣٣٣ .
[١٥] المسعودى ، *التنبيه والإشراف*، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .
[١٦] المسعودى ، *التنبيه والإشراف*، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

الاعتراف بالسلطة الروحية للخليفة كالدولة الطولونية أو الإخشيدية فى مصر، إلى زيادة ضعف الخليفة العباسى وزاد موقفه سوءاً عدم وصول واردات وضرائب هذه الأقاليم – إلا النذر اليسير منها – إلى بغداد، إذ ترتب على ذلك عجز الخليفة عن مواجهة متطلبات حكومته والانفاق على جيش قوى يحميه ، وهذا بدوره دعاه إلى إهمال ثغور دار الإسلام فطمع فيها البيزنطيون . وكانت حالة الضعف التى وصلت إليها الخلافة العباسية واضحة للإدارة البيزنطية فى عهد ليو السادس . فقد أهمل العباسيون تدعيم الثغور الشامية والجزرية وتركوها لمصيرها[١٧] .

وعلى الرغم من هذه الحالة من الضعف التى كانت تعانى منها الخلافة العباسية، إلا أنها ظلت فى نظر العالم الخارجى القوة العظمى الثانية فى العالم الوسيط، وأصبح العالم الإسلامي كله يقف وحدة واحدة، على الرغم من انهياره السياسى، فى مواجهة بيزنطة، القوة العظمى الأولى فى العالم الوسيط . وعلى هذا، لم يكن من المستغرب أن يقر بطريرك القسطنطينية بأن أعظم قوتين فى العالم هما الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية .

على أية حال ، يمكن القول أن الدولة البيزنطية كانت صاحبة أكبر ميراث حضارى فى أوربا فى العصر الوسيط ، مما جعل القسطنطينية هدفاً استراتيجياً يلوح فى سماء جيرانها البلغار، المجيار ، البشناق ، الروس وغيرهم من الشعوب المجاورة. وقد أثبتت هذه المدينة دوماً لهم أنها هدف صعب المنال، الأمر الذى كان يدفعهم للتشديد عليها عسى أن تسقط فى أيديهم .

ولنعد ثانية إلى الروس فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، بعد أن تعرفنا على القوى العظمى فى تلك الفترة . لقد كان الروس يصوبون بصرهم فى هذه المرحلة من تاريخهم نحو القسطنطينية، فهى المركز الحضارى والاقتصادى الوحيد الأقرب لهم، والذى يمكن أن يسيل لعابهم من أجله. وتخبرنا الحولية الروسية الأولى أن أمير الروس أولج، بعد أن استقر فى كييف، جمع حشوداً من الفارانجيين، والسلاف، والتشود *Chuds*، والكريفتشيين *Krivichians*، والميريين *Merians*، والبوليين *Polyanins*، والسيفيريين *Severians*، والرادمتشيين *Radimichians*، والكروات *Croats*، والدوليبيين *Dulebians*، والتفيرسيين *Tivercians*، وجميعهم وثنيون، وقادهم جميعاً للهجوم على البيزنطيين فى عام ٩٠٧م. وعندما وصلت الأخبار إلى

---

[١٧] وسام عبد العزيز فرج ، *دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية* ، جـ١ ، (الإسكندرية ، ١٩٨٥)، ص ٢٥٦ .

القسطنطينية تم تحصين المدينة وإغلاقها فى وجه الروس، وهنا قام الــــروس بإنزال القوات براً وقاموا بقتال البيزنطيين حول العاصمة وأحرقوا العديد من القصــور والكنائس . ويقول نسطور أن الروس انتشلوا مراكبهم من المـــاء ووضعوهـــا فــوق عجلات ودفعوا بها براً نحو القسطنطينية لحصارها، وهنـــا لجــأ البــيزنطيون إلـــى المفاوضات؛ وقد قبلوا دفع الجزية لأولج ، ثم أبرموا معـــه ســـلاماً تمــهيدياً ، ذكــر باختصار فى الحولية الروسية . وأقسم الطرفـــان كـــل حســـب عاداتـــه : الأبـــاطرة البيزنطيون ليو السادس *Leo* والاسكندر *Alexander* قبلوا الصليب ، بينما أقسم أولـــج ورفاقه على أسلحتهم ، وباسم آلهتهم الوثنية، وثبت أولج درعه عند باب القسطنطينية ثم غادر بيزنطة منتصراً عائداً إلى بلاده [١٨] .

وفى عام ٩١١م أبرم الطرفان معاهدة بينهما ورد نصها بالكامل فى الحولية الروسية الأولى ، تضمنت العديد من الشروط السياسية والعسكرية والتجارية . وقد أعطت البـيزنطيين الكثير من الحقوق السياسية والعسكرية مثلما أعطت الروس الكثير من المزايا التجاريــــة[١٩]، وهذه المعاهدة صورة مقننة ومفصلة من السلام التمهيدى والاتفاق الـــذى تـــم عنـــد أســـوار القسطنطينية فى عام ٩٠٧م. على هذا النحو ، أفلــــح الـــروس فـــى الفـــوز بمعـــاهدة مـــع الإمبراطورية البيزنطية أعطتهم ما كانوا يسعون إليه من الحصول على موطـــن قـــدم فـــى القسطنطينية، فقد صار للتجار الروس منذ ذلك اليوم حياً يستقرون فيـــه بـــإحدى ضواحـــى القسطنطينية عرف باسم حى سان ماماس *St. Mamas* ، وفتحت هذه المعاهدة للروس بـــاب التجارة مع بيزنطة على مصراعيه، لاسيما وأن السلع البيزنطية كانت مرتفعة الأثمـــان فـــى بلاد الروس واسكندنافيا ، كما أن السلع الروسية كان مرغوباً فيها فى القسطنطينية .

أياً كان الأمر ، بعد نجاح أولج فى حملته على القسطنطينية فى عام ٩٠٧م تخبرنـــا الحولية الروسية الأولى أن خليفته الأمير الروسى ايجور *Igor* ، قام بشن هجوم على بيزنطة

---

(١٨) *R.P.C*, pp.64-65; Ostrogorsky, G., " L'expédition du prince Oleg contre Constantinople en 907 ", *AIK*, 11 (Beograd, 1940) , pp. 48-49; Vasiliev, A, "The Second Russian Attack on Constantinople ", *DOP*, 6 (1951), 161-225; Jenkins, *Russian attack*, pp. 403-406 وينكر بعـــض المؤرخين وقوع مثل هذه الحملة ، ويعتبرونها عملاً أسطورياً يخلو مـــن الحقيقـــة، انظـــر، Runciman, *Romanus Lecapenus*, pp.110- 112; Grégoire,H., " La legende d'Oleg et l' expédition d' Igor ", *BAcBelg* , 23(1937), pp. 80-94; Dolley, R., " Oleg's Mythical Campaign against Constantinople ", *BLSMPARB*, 40 (1949), pp.106-130; Grégoire, H.," Miscellanea Epica et Etynologica, I. La legende d'Oleg, II. L'expédition d'Igor ", *B*, 11 (1936), pp.601-607.

لكن استطاع اوستروجورسكى فى مقالته المذكورة عاليه تفنيد أراء هؤلاء المعارضين ، انظر أيضاً ، Sorlin, *Les traités*, pp. 336 - 342.

(١٩) انظر، *R.P.C.*, pp.65-68.

في عام ٩٤١م[٢٠]، وهذا الهجوم الروسي مذكور على نحو واضح ومفصل في المصادر البيزنطية[٢١]، وكذلك في المصادر العربية[٢٢] . ونظراً لتكامل رواية كدرينوس عن هذه الحملة، فسوف نعول عليها في حديثنا عنها حيث يذكر : " في شهر يونية، الخمس عشرية الرابعة عشرة، جاء الروس إلى المدينة بأسطولهم المعادي، المكون من عشرة آلاف مركب . وقد تصدى لهم البطريق ثيوفانيس *Theophanes* بالأسطول، الذي وصل إلى هيرا *Hera*، حيث رابط بسفنه هناك عند فاروس *Pharos* والشاطئ المجاور لها . وعندما واتته الفرصة انقض على الروس وفك صفوفهم وأحرق بالنار الإغريقية عدداً كبيراً من مراكبهم ، وما تبقى منها لاذ بالهرب . أما من تبقى من الروس فقد عبروا إلى الجهة الشرقية[٢٣]، وهناك التقى بهم البطريق برداس فوقاس *Bardas Phocas* أثناء بحثهم عن المؤن، فقتل رهطاً منهم . كذلك هرع كوركواز *Courcuas*، دمستق الاسكلارية، وهاجم جيش الروس وبددهم ونكل بهم. ومن المآساى التي ارتكبها الروس قبل هزيمتهم أنهم صلبوا بعض الأسرى البيزنطيين، وقاموا بتثبيت البعض الآخر منهم فوق الأرض بمسامير، كما جعلوا من غيرهم أهدافاً يطلقون عليها السهام . أما الكهنة الذين وقعوا في الأسر فقد ثقبوا رؤوسهم بمسامير حادة، وأحرقوا عدداً كبيراً من الكنائس . لكن عندما هزموا في المعركة البحرية وتكبدوا خسائر فادحة، تقهقروا واختبأوا في مراكبهم؛ ثم أفسدوا الأطعمة التي كانت بحوزتهم، ليعودوا إلى بلادهم، خوفاً من أسطول الرومان المجاور لهم؛ ثم أطلقت الإشارة لهم بالهرب . لكنهم لم يفلتوا من يد البطريق ثيوفانيس الذي أدرك اتجاههم، وأسرع للحاق بهم . وهزم الروس في معركة بحرية ثانية وغرقت بعض مراكبهم وأحرق البعض الآخر، كما سقط في أيدي البيزنطيين بعضاً من مراكبهم بمن عليها. ولم ينج من المعركة إلا نفر قليل عاد إلى بلاده "[٢٤] .

على هذا النحو ، تنتهي حملة ايجور على القسطنطينية في عام ٩٤١م، وقد انتهت بفشل ذريع في تحقيق أي هدف مما كان الروس يسعون إليه. وفي الواقع، لم تفصح المصادر عن الأسباب التي دفعت بالروس للقيام بمثل هذا الهجوم، الأمر الذي يدفعنا للقول أن ايجور ربما كان يهدف إلى السلب والنهب، حسبما اعتادوا في حملاتهم السابقة على القسطنطينية، أو أنه كان يطمع في تحقيق المزيد من المكاسب التجارية الشرعية .

---

(٢٠) 24 *R.P.C.*, p.72; Grégoire, H. et Orgels,, " La guerre russe byzantine de 941, ", *B* , (1955), pp.155-156.

(٢١) *Cedrenus*, II, pp.316-317; *Symeon Mag.*, pp. 746-747; *Ephraemii Chronographia*, ed. J. P. Migne, *PG*, vol. 143, (Turnholti, 1977), Col. 112 .

(٢٢) انظر على سبيل المثال، Yahya Ibn-Sa'id d'Antoiche, *Histoire de Yahya d'Antoiche*, ed. & trad. A.Vasiliev et J. Kratchkovsky, *PO*, 18 (1924), p.727.

(٢٣) أي بثينيا Bithynia ، انظر، *Symeon Mag.*, p.747.

(٢٤) *Cedrenus*, II, pp. 316-317; Runciman, *Romanus Lecapenus*, pp.112-113.

أخيراً ، ينبغى أن نشير إلى أن الروس فى تلك الفترة لم يكتفوا بشن هجمات خارج حدود بلادهم أى على بيزنطة فقط ، بل بدءوا سلسلة من الهجمات المتوالية على الشعوب السلافية القاطنة فى منطقة السهوب ، كما شنوا هجمات أخرى على المسلمين القاطنين فى منطقة القوقاز ، كما سنفصل فى الفصول القادمة من البحث . ويبقى لنا أن نقول إن الروس بقدر ما نجحوا فى دق أبواب بيزنطة عدة مرات ، نجحوا فى تنبيه بيزنطة إلى خطورة الجبهة الشمالية لها ، التى شهدت فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى تغيرات إثنية وسياسية كبيرة على أيدى الروس والبشناق . كما أن الروس نجحوا فى هذه الآونة فى مد رقعة بلادهم شرقاً وجنوباً ، حتى وصلوا إلى شواطئ بحر بونتس (البحر الأسود) ، وارتبطوا بعلاقات تجارية وسياسية فى بعض الأحيان بمملكتى الخزر والبلغار الواقعتين بطول نهر الفولجا .

الباب الأول

الروس والإمبراطورية البيزنطية

الفصل الأول: الروس وبيزنطة ومعاهدة ٩٤٥ م.

الفصل الثاني: الروس وبيزنطة والبلقان ٩٤٥-٩٧٣ م.

الفصل الثالث: الروس بين بيزنطة والقوى الأوربية ٩٧٣-١٠٥٤ م.

الفصل الأول

الروس وبيزنطة ومعاهدة ٩٤٥م

رأينا فى الصفحات السابقة المحاولات الروسية المستمرة للخروج بقوتهم السياسية والعسكرية إلى ما وراء كييف وحزام السهوب . ولكن يبدو أن المجتمع الدولى آنذاك لم يكن مؤهلاً بعد لقبول قوى جديدة على الخريطة السياسية له . فإذا كانت بيزنطة قد أجبرت على قبول شريك لها على هذه الخريطة، بدءاً من القرن السابع الميلادى، أعنى الدولة الإسلامية، فإنها لم تكن لتقبل قوة جديدة فى القرن العاشر تنافسها السيادة على منطقة السهوب.

لقد أفلحت الدبلوماسية البيزنطية طوال عدة عقود من عمر بيزنطة فى القرن العاشر الميلادى أن تروض القبائل القاطنة على حدها الشمالى، فجعلتهم يعملون فى خدمتها وهم قانعون بما يفعلون، فلا شئ يوازى، فى نظرهم، ما تقدمه لهم بيزنطة من مغريات الحياة، الأموال، الذهب، الطيالس الحريرية، التسهيلات التجارية، وفوق هذا وذاك الرضى الإمبراطورى عنهم، وهو الأمر الذى يعطى هذه القبيلة أو تلك دعماً سياسياً بين أقرانها، فهم بهذا أصبحوا أداة الإمبراطور البيزنطى المنفذة لحكمه أينما ومتى شاء . وليس أدل على ذلك مما يذكره الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس، فى كتابه عن الإدارة الإمبراطورية، عند حديثه عن البشناق مثلا . فها هو يقول : "إنها لفائدة عظيمة لإمبراطور الرومان أن يحافظ على العلاقات السلمية مع البشناق، وأن يعقد معهم معاهدات واتفاقيات الصداقة . وعليه أن يرسل إليهم أيضاً كل عام مبعوثاً دبلوماسياً محملا بالهدايا المناسبة لهم"[1]. بهذا كان الإمبراطور البيزنطى يحرص كل الحرص على حسن علاقاته مع القبائل القاطنة فى منطقة السهوب .

وبقراءة كتاب الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس "عن الإدارة الإمبراطورية" يمكن القول أن الإمبراطورية البيزنطية نجحت فى ترويض قبائل البشناق[2]، بعد أن أشاحت بوجهها عن الخزر، الذين كانوا يوماً ما حلفاء الإمبراطورية الوحيدين فى منطقة السهوب، بعدما نجح البشناق فى فرض كلمتهم على قوى السهوب

---

[1] Constantine Porphyrognetus, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik , Eng. trans. R. J. H. Jenkins (Budapest, 1949), p.49;
قسطنطين بورفيروجنيتوس، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية* ترجمة/ محمود سعيد عمران،(بيروت، ١٩٨٠)، ص ٥٣-٥٤.

[2] انظر، قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، الفصول ١ – ٧، ٩ – ١٠، ١٢، ٣٧، ٤٠؛
DAI, I, chaps.1-7, 9-10, 12, 37, 40.

بقوة السلاح تارة، وبالدخول فى تحالفات عسكرية مع طرف ضد طرف ثالث تارة أخرى[٣].

والآن، ونحن على أعتاب منتصف القرن العاشر تقريبا، تبدو لنا قوة جديدة تحاول انتزاع السيادة السياسية على منطقة السهوب . فكما عرضنا فى التمهيد تمكن الروس من انتزاع السيادة من الخزر Χαζαροι / Khazars، على القبائل السلافية التى تقطن السهوب؛ وتبدل الحال، فبعد أن كانوا يطلبون الإذن من خاقان الخزر بالمرور، صاروا يغيرون عليه بالجيوش، فأفل نجمه لا فى سماء الفولجا فقط، بل فى سماء بيزنطة أيضا . وحل البشناق مكانه، فى السياسة البيزنطية نحو السهوب، فصار الإمبراطور البيزنطى يستخدمهم ضد قوى السهوب، الروس، الخزر، بلغار الفولجا، بل أيضا ضد المجيار[٤]. وكما يقول قسطنطين السابع، "إذا كان الإمبراطور مرتبطا بروابط الصداقة مع البشناق، وضمهم إلى جانبه بالهدايا والمراسلات، فبوسعهم الهجوم على الأراضى الروسية والتركية[٥] ويسبون نساءهم وأطفالهم وينهبون بلادهم"[٦]. بهذه الكلمات يوجز لنا الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس مدى أهمية البشناق لبيزنطة، خاصة وأنهم فى ذلك الوقت كانوا يسكنون المنطقة الواقعة فيما بين أراضى الروس شمالا وبلغار الطونة جنوبا[٧]، وبهذا صاروا دولة حاجزة بالمصطلح السياسى المعاصر، أو لنقل شعبا حاجزا بين الروس شمالا وبيزنطة والبلقان جنوبا وهذا بالطبع سينعكس على سياسة كل من القوتين تجاههم، كما سنرى فيما بعد.

ومما يزيد الأمر خطورة بالنسبة للروس، أن البشناق كان يتحكمون حتى فى المجارى المائية، التى يبحر فيها الروس بقواربهم، وهم متجهون من كييف إلى بيزنطه جنوبا . فعندما كانوا يصلون إلى الشلال الثالث من شلالات نهر الدنيبر، كان من المحتم عليهم مراقبة البشناق، حتى لا يهاجمونهم أثناء عبورهم لهذا الشلال؛ وهذا الأمر يتكرر أيضا عند عبورهم للشلال السابع حيث يتسع النهر هناك[٨]. بناء على هذا كان لابد أن يكسب الروس البشناق إلى صفهم فى صراعهم مع الإمبراطورية البيزنطية، خاصة وأن الأمير الروسى ايجور هاجمهم فى عام ٩١٦م ردا على

---

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر، الفصل الخامس من البحث .

(٤) قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ٥٤ – ٥٨ ; *DAI*, I, pp.48 -55;

(٥) أى المجيار .

(٦) قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ٥٦ ; *DAI*, I, pp.50-53;

(٧) Browning, R., *Byzantium and Bulgaria*, (Oxford, 1980), p. 69

(٨) قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ٦١، ٦٢ ; *DAI*, I, pp.58-61;
انظر أيضا، Pares, B., *A History of Russia*, (New York, 1947), p. 23.

إغارتهم، وللمرة الأولي، على الأراضى الروسية فى عام ٩١٥م[٩]. والحل العسكرى عند الروس وارد دائماً فى تعاملاتهم مع القوى المجاورة، بل يمكننا أن نضعه فى مقدمة الحلول الروسية للأزمات السياسية التى تطفو على سطح السهوب . ولا غضاضة فى أن نرى البشناق يقفون فى صفوف الروس المقاتلة ضد بيزنطة، وهم فى نفس الوقت حلفاء بيزنطة، كما بين لنا قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس .

وإذا كان الأمير الروسى ايجور قد هزم فى هجومه الأول على القسطنطينية فى عام ٩٤١م، كما مر بنا، فإنه لم ينس العار السياسى الذى ربما جرته عليه هذه الهزيمة لا بين أمرائه فحسب بل بين القوى المحيطة به فى منطقة السهوب . وفى غضون ثلاث سنوات تمكن ايجور من حشد جيش عرمرم، ليعيد الكرة مرة أخرى ضد القسطنطينية[١٠]. وتمدنا الحولية الروسية الأولى بتفاصيل هذه الحملة الثانية التى قام بها الأمير الروسى ايجور . فتحت أحداث عام ٩٤٤م تذكر ما يلى :

"تقدم ايجور نحو اليونانيين [أى البيزنطيين] بالسفن والقوات العسكرية، بعد أن حشد كثيرا من المحاربين من بين الفارانجيين، الروس، البوليان *Polyanians*، السلاف، الكريفتشيين *Krivichians*، التفيرسيان *Tivercians*، والبشناق، بعد أن تسلم منهم الرهائن، وهو متعطش للثأر . وعلى أثر سماع أخبار هذه الحملة أرسل الخرسونيون إلى رومانوس ليخبروه أن الروس يتقدمون بعدد لا يحصى من السفن، حتى غطوا البحر بقواربهم . وبالمثل أرسل البلغار الأنباء التى تفيد بأن الروس فى الطريق، وأنهم قد كسبوا البشناق حلفاء لهم "[١١]. ويمدنا كورت *Court* بتفاصيل عن الجيش الروسى، فالمحاربون الروس القدامى، الذين امتنعوا عن القتال ضد البيزنطيين فى الحملة الأولى، نظراً لأنهم كانوا يعملون فيما مضى فى صفوف الجيش البيزنطى، تجمعوا حول قائدهم، وبعثت إمارة نوفجورود *Novgorod* بفيلق من المرتزقة، بينما زوده بلغار الفولجا بالفرسان، أما البشناق فقد أغدق عليهم الهدايا، ليصيروا أتباعاً لايجور[١٢].

ويلاحظ من رواية نسطور عن هذه الحملة أن أهل خرسون *Cherson* قاموا على الفور بإبلاغ الإمبراطور بما حدث، حتى يتخذ التدابير اللازمة لمواجهة هذا الهجوم، وهذا بالطبع يفسر أهمية خرسون البالغة للإمبراطورية الأمر الذى جعلها

---

(٩) *R.P.C.*, p. 71.

(١٠) Court, A., *La Russie*, p. 96.

(١١) *R.P.C.*, PP. 72 - 73; Court, *La Russie*, p. 96.

(١٢) Court, *La Russie*, p. 96.

تستميت فى الدفاع عنها ضد قبائل السهوب، والإبقاء عليها فى حوزتها . والسؤال الذى قد يفرض نفسه الآن كيف علم الخرسونيين بأنباء هذه الحملة على الرغم من أن المسافة بين مصب الدنيبر وخرسون ثلاثمائة ميل؟[١٣] وقد نجد إجابة على هذا التساؤل عند قسطنطين السابع، فمن كتابه عن الإدارة الإمبراطورية نعلم أن المنطقة الواقعة بين مصب نهر الدنيبر وخرسون توجد بها موانئ وملاحات يستخرج أهل خرسون الملح منها[١٤]، ولاشك فى أن هؤلاء الخرسونيين قد أبلغوا الإدارة الحكومية فى خرسون بما يجرى فى المنطقة من قبل الروس، فأرسلوا إلى الإمبراطور على الفور ليعلموه بما يدبره الروس له بقيادة زعيمهم ايجور . وقد قام بلغار الطونة بإبلاغ الإمبراطور البيزنطى أيضاً بتقدم الروس نحوه .

أما النقطة الأخيرة التى نتوقف عندها فى رواية نسطور عن الحملة، هى نجاح ايجور فى كسب البشناق إلى صفه، والذين يقع إقليمهم كما سبق وقلنا، بين أراضى الروس شمالا وبلغاريا جنوباً، وهم الذين سعى الإمبراطور للحفاظ على صداقتهم دائماً[١٥]. واستناداً إلى رواية الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس أن " الروس لا يستطيعون القدوم إلى عاصمة الإمبراطورية لشن الحرب أو للتجارة إلا إذا كانوا فى سلام مع البشناق[١٦]" فإنه علينا أن نتساءل ماذا كان سيحدث إذا فكر الروس فى قتال البيزنطيين ولم يكونوا على وفاق مع البشناق؟ لابد إذن حسب الحقيقة التى ساقها قسطنطين بورفيروجنيتوس أنهم سيعجزون عن القيام بهذا، ويصير من الصعب على الروس شن الحرب على بيزنطة إلا إذا سالموا البشناق[١٧]، بل إن البشناق فى إمكانهم أن يضربوا الروس فى ظهورهم ويهاجمون أراضيهم مدمرين مخربين[١٨]، وبإيعاز من بيزنطة، إذا نجح الروس فى عبور أراضى البشناق دون وقوع قتال بينهم، وهم فى طريقهم إليها .

على أية حال، عندما علم الإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس بأمر هذه الحملة، أرسل خيرة نبلائه *boyars* ليطلبوا من ايجور ألا يتقدم نحو القسطنطينية[١٩].

وعندما وصل الأسطول الروسى إلى مياه نهر الدانوب عند محطة تسمى محطة

---

[١٣] قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ١٤٩ ؛ *DAI*, I, pp.186-187;

[١٤] قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ١٤٩ ؛ *DAI*, I, pp.186-187;

[١٥] Browning, *Bulgaria*, p. 69.

[١٦] قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ٥٥ ؛ *DAI*, I, pp.50-51;

[١٧] قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ٥٤ ؛ *DAI*, I, pp.48-51;

[١٨] قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ٥٤ ؛ *DAI*, I, pp.50-51;

[١٩] *R.P.C.*, p. 73.

القراصنة، القائمة فى البحيرات الشاطئية فى قيليا *Kilia*[٢٠]، تقابل سفراء الإمبراطور مع الأمير الروسى مقدمين له هدايا سخية عارضين عليه الجزية[٢١].

ويخبرنا نسطور أن الإمبراطور حاول كسب البشناق إلى صفه فى نفس الآونة، حيث أرسل لهم ذهباً وفيراً وطيالس حريرية[٢٢]. ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى أرسل الذهب والطيالس الحريرية لا إلى البشناق العاملين بالفعل فى الجيش الروسى، تحت إمرة ايجور، بل إلى زعمائهم فى الإقليم الذى يقطنونه، نظرا لأننا نعرف من نسطور أن البشناق قاموا بتخريب بلغاريا[٢٣].

ولنعد مرة ثانية إلى الحولية الروسية الأولى لنتعرف على موقف الروس، بزعامة ايجور، من رسل الإمبراطور، فتذكر الحولية أن ايجور بعد أن وصل إلى الدانوب : "استدعى حاشيته جميعا، وبعد برهة من التفكير أبلغهم بعرض الإمبراطور . وعندئذ أجابت عليه الحاشية : "بما أن الإمبراطور يتحدث على هذا النحو، ففيما نود أن نفعل أكثر من تلقى الذهب، والفضة، والطيالس دون أن يتحتم علينا قتالهم ؟ [أى البيزنطيين] فمن ذا الذى يستطيع أن يتنبأ بمن سيكون المنتصر، نحن أم هو ؟ ومن سيكون البحر حليفه ؟ حيث أننا لا نسير براً، بل من خلال مضايق بحرية . فالموت فى انتظارنا جميعا [إما هم أو البيزنطيين] " وقد أولاهم ايجور اهتمامه . وعلى الفور أمر البشناق العاملين في جيشه بتخريب بلغاريا ." ويبدو أن الأمير ايجور قد أخذ برأى الأغلبية، وقبل عرض الإمبراطور البيزنطى، حيث تذكر الحولية الروسية الأولى أنه "بعد تلقيه الذهب والطيالس الكافية من اليونانيين لكل فرد من أفراد جيشه، عاد ايجور ثانية من حيث جاء إلى كييف الواقعة في وطنه"[٢٤]. ومما يذكر هنا، أن الإمبراطورية البيزنطية، لم تحرك ساكنا لوقف التخريب والنهب البشناقى لأراضى بلغاريا، فكانت الخسائر البلغارية لا تحصى[٢٥]. وقد أرسل الإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس رسلا باسمه هو ووليا العهد قسطنطين وستيفن إلى ايجور ليجددوا المعاهدة السابقة، أى معاهدة ٩١١م، وقد تناقش ايجور معهم فى الأمر[٢٦]. وعلى هذا النحو تنتهى الحملة

---

(٢٠) Court, *La Russie*, p. 96.

(٢١) *R.P.C* , p. 73; Court, *La Russie*, p. 96; Pares, *Russia* , p. 25 ; Finlany, G., *History of Byzantine Empire*, (New York, 1913), p. 318;Da Costa-Louillet, G. "Yeut-il invasions russes dans l'empire byzantin avant 860 ", *B*, 15 (1940 - 41), p. 234.

(٢٢) *R.P.C.*, p. 73.

(٢٣) *R.P.C.*, p. 73; Browning, *Bulgaria*, p. 69.

(٢٤) *R.P.C.*, p. 73; Court, *La Russie*, p. 69.

(٢٥) Browning, *Bulgaria*, p. 70.

(٢٦) *R.P.C.*, P. 73; Runciman, *Romanus Lecapenus*, P.113.

بعقد معاهدة بين الطرفين، دام السلام على أثرها بين الطرفين لما يزيد على عشـــرين عاما تلت[٢٧].

وقد وصلت إلينا تفاصيل وبنود هذه المعاهدة كاملة فى الحولية الروسية الأولـــى، وقد يكون من الأفضل الآن أن نقوم بعرض بنود المعاهدة ثم نتبعه بتحليل كامل لبنوهـا وتاريخها الدقيق .

فتحت أحداث عام ٩٤٥م يذكر نسطور ما يلـــى : " أرســـل ايجــور مبعوثيـه الشخصيين إلى رومانوس، وجمع الإمبراطور نبلاؤه *boyars* وخاصته وأدخل الرسل الروس إلى حضرته وأمرهم بالحديث وأمر بأن تسجل ملاحظات الطرفين على الـوق. وختمت نسخة من الاتفاق من قبل الأمراء الأكثر ورعاً رومانوس، قسطنطين، ســتفن وهى على النحو التالى :

"نحن رسل الأمة الروسية : إيفار *Ivar*، رسول ايجور، أمير الروس العظيـــم، والرسل الآخرون على النحـــو التـــالى : فيفاســت *Vefast*، ممثــلا لسفياتوسـلاف *Sviatoslav*، ابن ايجور؛ ايسجوت *Isgaut*، عن الأمـــيرة أولجــا *Olga*؛ ســلوثى *Slouthi* عن ايجور، ابن أخ الأمـــير ايجــور؛ أوليــف *Olief*، عــن فلاديســلاف *Vladislav*؛ كــانيتزار *Kanitzar* عــن بريــد ســلافا *Predslava*؛ ســيجبيورن *Sigbjorn* عن سفانهلد *Svanhild*، زوجة أوليف؛ فريستين *Freystein* عن ثــورث *Thorth*؛ ليف عن أرفاست *Arfast*؛ جريم *Grim* عن ســفركى *Sverki*؛ فريســتين *Freystein* عن هاقون *Haakon*، ابن أخ ايجـــور؛ قــارى *Kari* عــن ســتويثنج *Stoething*؛ كارل سفنى *Karlsefni* عن ثورث *Thorth*؛ هجرى *Hegri* عن إفلنج *Efling*؛ فويست *Voist* عن فويلك *Voilk*؛ إيستــر *Eistr* عــن أمونــد *Amound*؛ فريستين *Freystein* عن بيورن *Bjorn*؛ ياتفنج *Yatving* عــن جونــار *Gunnar*؛ سيجفريد *Sigfrid* عن هالفدان *Halfdan*؛ كيل *Kill* عن كالكى Kalkki؛ ســتينجى *Steggi* عن يوتون *Jotune*؛ سفركى *Sverki*؛ هللفارث *Hallvarth* عـــن جوتـــى *Guthi*؛ فورتى *Forthi* عن ثروأند *Throand*؛ منثور *Munthor* عـــن أوت *Ut*؛ ومعهم التجار أوتـــون *Authun*، أوتولــف *Authulf*، إنجيفــالد *Ingivald*، أوليــف *Olief*، فروتان *Frutan*، جمل *Gamal*، قوسى *Kussi*، هيمنج *Heming*، ثورفريد *Thorfrid*، ثورستين *Thorstein*، برونى *Bruni*، هروالـــد *Hroald*، جونفاســت *Gunnfast*، فريستين *Frystein*، انجيالد *Ingjald*، ثوربيورن *Thorbjorn*، مـــانى

(٢٧) Browning, *Bulgaria*, p. 70; Court, *La Russie*, p. 97; Jenkins, *Byzantium*, p. 250.

Manni، هروالد *Hroald*، سفين *Svein*، ستير *Styr*، هالفدان *Halfdan*، تير *Tirr*، أسكبراند *Askbrand*، فيسليف *Visleif*، سفينكى بوريش *Sveinki Borish*[٢٨] : أرسلنا من قبل ايجور، أمير الروس العظيم، ومن قبل كل أمير [من الأمراء] وكل شعب أرض الروس، الذين بواسطتهم يتم تجديد السلام السابق، الذى تقوض عن طريق الشيطان، الذى يمقت السلام ويحب الشقاق، وترسيخ الوئام بين اليونانيين والروس لسنوات طوال قادمة".

"وقد بعثنا أميرنا العظيم ايجور، وأمراؤه ونبلاؤه *boyars* التابعون له، وكل الشعب الروسى إلى أباطرة اليونان [أى بيزنطة] العظماء رومانوس وقسطنطين وستفن، لكى نقيم رابطة الصداقة مع الأباطرة أنفسهم، بالإضافة إلى نبلائهم، والشعب اليونانى كله من الآن فصاعدا وإلى الأبد، مادامت الشمس تشرق، والعالم يقف راسخا".

"إذا حاول أى ساكن من سكان أرض الروس أن ينتهك هذا الاتفاق، فإن مثل هؤلاء المنتهكين، إذا ما كانوا ممن اعتنقوا الدين المسيحى، فإنهم فى حالة إدانتهم يستحقون عقاب الرب القادر والهلاك إلى الأبد . وإذا كانوا من غير المسيحيين، فإنهم لن يتلقوا العون لا من الرب ولا من بيرون *Perun* : وقد لا تحميهم دروعهم الخاصة، بل قد يذبحون أنفسهم بواسطة سيوفهم الخاصة، أو يطرحون أرضا بواسطة سهامهم أو بواسطة أى سلاح من أسلحتهم الخاصة، وقد يرزحون فى العبودية للأبد" .

البند الأول :[واشترط اليونانيون التالى :] "سوف يرسل أمير الروس العظيم ونبلاؤه إلى اليونان، وإلى الأباطرة اليونانيين العظماء كثيرا من السفن حسبما يشاءون، بصحبة وكلائهم وتجارهم، طبقاً لما هو معمول به . وقد حمل الوكلاء حتى يومنا هذا أختاماً ذهبية، والتجار أختاماً فضية. بل إن أميركم أحيط علما بأن عليه أن يبعث بشهادة إلى حكومتنا. وأى من هؤلاء الوكلاء أو التجار يرسله الروس إلينا، لابد وأن يزود بمثل هذه الشهادة لإثبات أن عدداً معيناً من السفن قد أرسل؛ وبهذه الوسائل سنكون متأكدين من أن مجيئهم ينطوى على حسن النوايا" .

البند الثاني : "لكن لو جاءوا إلينا بدون هذه الشهادة واستسلموا لنا فإننا سوف نحتجزهم ونبقى عليهم حتى نبلغ أميركم، وإذا لم يستسلموا بل لجئوا إلى المقاومة فإننا سنقتلهم، ولا دية تسلم للأمير جزاء قتلهم. ومن ناحية ثانية، إذا هربوا إلى الروس سوف نخبر أميركم، وليتصرف معهم حسبما يراه نافعاً" .

[٢٨] تنبغى الإشارة هنا إلى أن تعريب هذه الأسماء جميعا نقلاً عن الترجمة الإنجليزية للحولية الروسية الأولى .

البند الثالث : "إذا جاء الروس بلا بضائع، فلن يصرف لهم المخصص الشهرى وفوق هذا فإن أميركم عليه أن يمنع وكلاءه والروس الآخرين القادمين إلينا من ارتكاب العنف فى قرانا وبلادنا . وعلى هؤلاء الروس القادمين إلينا أن يقيموا بضاحية كنيسة سان ماماس *St. Mamas*[٢٩]. وسوف تقوم سلطاتنا بتسجيل أسمائهم، وعندئذ سوف يتلقون مخصصهم الشهرى . وهذه المعونة حسب مكانة الوكلاء، أما التجار فتصرف لهم المعونة الشهرية المعتادة، يتقدمهم أولئك الذين من كييف، ثم الذين من تشرينجوف *Chernigov*[٣٠] وبيرياسلاف *Pereyaslavl'*[٣١]. وهؤلاء سوف يدخلون المدينة من خلال بوابة واحدة فى مجموعات قوام كل منها خمسون رجلاً وهم مجردون من السلاح . وسيمارسون تجارتهم كيفما يشاءون ثم يغادرون المدينة . وسوف يحرسهم ضابط

---

(٢٩) ضاحية سان ماماس : لم تكن ضاحية نائية، بل كانت على قدر من الأهمية بالنسبة للقسطنطينية . فيخبرنا كودينوس، فى كتابه عن المنشآت، أنه كان بها قصر إمبراطورى ومضمار خاص بالأباطرة ، انظر، *Georgii Codini De Aedificiis*, in: *Opera Omnia*, ed. J. P. Migne, *PG*, tome 157, (Turnholti,1970), col. 598.

وفى هذا القصر كان يعيش الإمبراطور قسطنطين الخامس فى كثير من فترات حكمه . كذلك أقامت به الإمبراطورة إيرين وابنها قسطنطين السادس عندما وقع زلزال بالقسطنطينية فى ٧٩٠/٢/٩م. وفى نفس هذا القصر الذى شهد الاحتفال بزواج قسطنطين السادس، شهد أيضا حادثة حرمانه من البصر . كما أقام به ميخائيل الثالث مرارا، بل إن اغتياله على أيدى باسيل المقدونى، كان فى هذا القصر أيضا. ويذكر أن كروم *Crum*، خان البلغار، قد اجتاح ضاحية سان ماماس سنة ٨١٣م، وأضرم النيران فى القصر الإمبراطوري، وحطم التماثيل بعد أن حمل معه كل ما هو ثمين على عربات إلى عاصمته . وبالرغم من هول الكارثة، لم تلبث سان ماماس أن تصبح ثانية مقرا إمبراطوريا . وأصبح بناؤها لا يقل أهمية عن ذى قبل . وبهذه الضاحية أيضا كان يوجد سجن البروأستيون *Proasteion*، الذى شهد الكثير من المعتقلين السياسيين، لاسيما إبان الحركة اللأيقونية . وكانت سان ماماس تستقبل الحجاج السلاف عند مرورهم بها، وهم فى طريقهم إلى القدس . ولامراء أن هؤلاء الحجاج، الذين توفر لهم القسطنطينية أماكن كثيرة للعبادة، كانوا يتخذون من الأديرة محال إقامة لهم، برغم أنها كانت ممتلئة بالرهبان البيزنطيين ، انظر، Porgoire, R., " Saint Mamas le quartier des Russes à Constantinople ", *EO*, 11 (1908), pp. 206 – 209.

(٣٠) تشرينجوف : كانت تقع على أحد روافد نهر الدنيبر، ويسمى نهر ديزنا، شمالى العاصمة الروسية كييف .

(٣١) بيرياسلاف : المقصود هنا بيريا سلاف الصغرى، والتى كانت تسمى باليونانية Πρεσθλαβίτζας . وتقع جنوب شرق كييف، فى دلتا نهر الدانوب، من المحتمل بالقرب من كيرنافودا *Cernavoda* . ومن المحتمل أنها كانت موضع بلاط البلغار قبل نزوح اسباروخ إلى الأراضى البيزنطية . وكانت ذات أهمية تجارية عالية آنذاك .انظر، Browning, *Bulgaria*, p. 100; Oikonomidès, N., " Presthlavitza, the Little Preslav " , *Sudot-Forschungen*, 42(1983), p. 4; reprinted also in: *Byzantium from the Ninth Century to the Fourth Crusade,* (Hampshire, 1992).

من حكومتنا، فإذا ما ارتكب أحد الروس أو اليونانيين [أى البيزنطيين] خطأ، كان عليه تقويمه" .

البند الرابع : "وعندما يدخل الروس المدينة، لن يكون لهم الحق فى شراء حرير إلا بما يوازى قيمته خمسين بيزنط [دينار بيزنطى] . ومن ناحية ثانية فإن عليهم عرض مشترواتهم من الحرير على الضابط الإمبراطوري ليقوم بدمغها ثم إعادتها لهم ثانية . وعندما يعتزم الروس الرحيل من هنا فإننا سوف نمدهم بالإمدادات اللازمة للرحلة، وكذا ما يحتاجونه لسفنهم، (وهذا منصوص عليه سابقاً)، وسيعودون إلى بلادهم سالمين . وليس لهم الحق فى قضاء الشتاء فى سان ماماس" .

البند الخامس : "إذا هرب أحد الأرقاء من سادته الروس، بينما هم داخل نطاق إمبراطوريتنا، أو بالقرب من حى سان ماماس، فإنه سوف يعتقل إذا ما عثر عليه فى هذا النطاق؛ وإذا لم يعثر عليه، فعلى الروس المسيحيين أن يقسموا طبقاً لعقيدتهم المسيحية، وغير المسيحيين طبقاً لعرفهم، وعندئذ سوف يتلقون منا ثمنهم، وهو عبارة عن قطعتين من الحرير لكل رقيق، طبقا للشروط السابقة . وإذا هرب أى رقيق من أرقاء إمبراطوريتنا أو من مدينتنا أو من أى مكان آخر عندكم حاملاً أى شئ معه، على الروس أن يردوه إلينا ثانية ؛ وإذا لم يمس ما استولى عليه، يتلقى من عثر عليه اثنين بيزنط من قيمته" .

البند السادس : "إذا حاول أحد الروس سرقة رعايا إمبراطوريتنا، فإن من يقترف مثل هذه الأفعال سوف يعاقب عقاباً شديداً وسوف يدفع ضعف قيمة ما سرقه . وإذا ارتكب يونانى إثماً ضد أحد الروس، فإنه سوف يعاقب بنفس عقوبة الأخير . وإذا ما قام أحد الروس بسرقة أحد اليونانيين، أو سرق أحد اليونانيين أحد الروس، فإن عليه أن يعيد له ليس فقط الشيء المسروق بل أيضاً ما يوازى قيمته . وإذا حدث وأن الشيء المسروق قد تم بيعه، فإنه سوف يرد ضعف ثمنه، وتوقع العقوبة على السارق طبقاً للقانون اليونانى [أى القانون البيزنطى] وطبقاً للقانون الروسى" .

البند السابع : "ومهما يكن الأسرى من الشباب والفتيات الذين أسرهم الروس من ممتلكاتنا، فسوف يدفع اليونانيون فدية لهم قدرها عشرة بيزنط لكل منهم ويسترد الأسرى . وإذا كان الأسرى فى منتصف العمر فإن اليونانيين

[أى البيزنطيين] سوف يدفعون ثمانية بيزنط لكل منهم ويستردوا . لكن فى حالة ما إذا كان الأسرى شيوخاً أو أطفالًا صغاراً فإن الفدية ستكون خمسة بيزنط . ولو أن هناك أسرى من الروس مستعبدون فى اليونان [أى بيزنطة] فإن الروس سوف يدفعون فدية لهم قدرها عشرة بيزنط لكل منهم . وإذا كان قد اشتراهم أحد اليونانيين، فيتعين عليه أن يؤدى القسم وسوف يتلقى ما يوازى سعره كاملاً" .

البند الثامن : "فيما يتعلق بإقليم خرسون وكل المدن الواقعة فى نطاقه، فليس لأمير الروس الحق فى أن يغير على هذه المواضع، ولن يكون هذا الإقليم خاضعاً لكم وإذا طلب أمير الروس منا جنوداً ليشن حرباً فنحن موافقون على تزويده بأى عدد يطلبه"(٣٢).

البند التاسع : "إذا وجد الروس سفينة يونانية تجنح نحو الشاطئ عليهم ألا يلحقوا بها الأذى، وإذا انتزع أحدهم أى شئ منها أو أسر أحد ملاحيها أو قتله، فسيعاقب طبقا لأحكام القانون اليونانى [أى البيزنطى] والروسى . وإذا قابل الروس الصيادين الخرسونيين عند فم نهر الدنيبر، فلا يتعرضوا لهم بأى أذى . وعلاوة على ذلك لن يكون للروس الحق فى قضاء الشتاء عند فم نهر الدنيبر، سواء عند بيلوبيرج *Belobereg* أو سان ايليوثيروس St. *Eleutherius* ، لكن عندما يهل فصل الخريف يعودوا إلى بلادهم . وبالنسبة للبلغار السود الذين يأتون ويخربون إقليم خرسون، فإننا نطالب أمير الروس ألا يسمح لهم بأن يلحقوا الضرر بهذا الإقليم" .

البند العاشر : "إذا اقترف أحد الرعايا اليونانيين [أى البيزنطيين] جريمة فليس للروس الحق فى معاقبته بل سيعاقبون طبقا لشرع إمبراطوريتنا، وعلى قدر ما اقترفوه من جرم" .

البند الحادى عشر : "إذا قتل مسيحى روسياً أو قتل روسى مسيحياً فإن من ارتكب جريمة القتل سوف يقبض عليه أقرباء الميت ويقومون بقتله . وإذا

(٣٢) تقترح المؤرخة الفرنسية ايرين سورلان تصحيح عبارة "ولن يكون هذا الإقليم خاضعاً لكم" إلى "وإذا كان هذا الإقليم غير خاضع لنا" . وهذا التصحيح قد يكون أوقع، لأنه إذا ثارت خرسون على بيزنطة، وهى مركز المراقبة البيزنطية فى منطقة السهوب، يجب على الروس التدخل لإعادة النظام إليها، وهنا يمكنهم طلب المدد العسكرى من الإمبراطور البيزنطى ، انظر،

Sorlin, I., "Les traités de Byzance avec *la Russie*: Le traité de 944 ", *CMRS*, vol. - 4 (1961), p. 450, n. 168 .

ولمزيد من التفاصيل عن هذه المادة من مواد المعاهدة انظر الصفحات التالية .

هرب القاتل فمن حق أقرباء الميت الاستيلاء على أملاكه فى حالة ما إذا كان ثرياً، وإذا كان القاتل الفار فقيراً فسوف يقتفى أثره لحين العثور عليه وعندئذ يعدم" .

البند الثانى عشر : "إذا ضرب روسى يونياً، أو يونانى روسياً بسيف أو رمح أو بأى سلاح آخر يغرم فاعل هذه الجريمة خمسة جنيهات فضية طبقا للقانون الروسى . وإذا كان فقيراً سوف يباع كل ما يملك حتى الثياب التى بحوزته، وفيما عدا ذلك فليقسم فى نهاية الأمر حسب عقيدته بأنه لم يعد يملك شيئاً، ومن ثم يطلق سراحه" .

البند الثالث عشر : "إذا رغبت حكومتنا فى الحصول على المساعدة العسكرية منكم لاستخدامها ضد أعدائنا فسوف نرسل إلى أميركم العظيم وسوف يرسل إلينا بدوره ما نحتاج إليه من الجنود . ومن هذا المنطلق سوف تعلم الأمم الأخرى مدى الصداقة القائمة بين اليونانيين والروس" .

البند الرابع عشر : "لقد دونا، وبتراض مشترك بيننا، هذه المعاهدة على نسختين من الرق، لتظل واحدة منهما فى أيدى حكومتنا موقع عليها أسماؤنا والصليب، بينما وقع وكلاؤكم وتجاركم على النسخة الأخرى . وسوف يمضى رسل حكومتنا مع ممثليكم للمثول أمام ايجور، أمير الروس العظيم، ورعاياه . وعند استلامهم لهذه الوثيقة سوف يقسمون على أن يراعوا الصدق فيما اتفق عليه بيننا وكتب على الرق وسجلت عليه أسماؤنا" .

البند الخامس عشر : [وعلى هذا النحو ألزم الروس أنفسهم:] "وقد أقسم ذوونا من المسيحيين فى الكاتدرائية بكنيسة سان الياس *St.Elias*[٣٣] على الصليب المقدس القائم أمامنا، وعلى هذا الرق، على أن يحافظوا على **كل ما ورد هنا وألا ينتهكوا أى شرط من شروطها؛ وإذا انتهكها أى فرد سواء كان الأمير أو العامة، مسيحياً كان أو غير مسيحى، فلن ينال عون الرب وسيهلك بسلاحه الشخصى".**

---

[٣٣] يمكننا معرفة موقع كنيسة سان الياس، التى من المحتمل أنها كانت كنيسة خشبية . ويمكن القول أنها كانت تقع على تل فوق بوشينا *Pochayna* اليونانية السابقة، وبالقرب من موقع سان ميخائيل *St. Michael* . حيث كان يوجد الكثير من المسيحيين الفارانجيين. ويعتقد البعض أنها تقع فى منطقة بودول *Podol*، جنوب كييف، والتى تقع على تل ميهاجلوفسكايا *Mihaglovskaja*، حيث توجد أقدم قلعه فى كييف، أيام أن كانت تحت سيادة الخزر . انظر، Cross, S., " The Earliest Mediaeval Churches of Kiev ", *SP*, 11(1936), pp. 477 - 478; Sorlin, *Le traité de 944*, p. 451, n. 170; *R.P.C., Comm.*, P.238, n. 53.

البند السادس عشر : "أما الروس غير المسيحيين فسوف يلقون دروعهم وسيوفهم المسلولة وأساورهم وأسلحتهم الأخرى، وسوف يقسمون على كل ما كتب على هذا الرق . وليحافظ عليه ايجور وكل نبلائه وكل سكان أرض الروس بإخلاص وإلى الأبد . وإذا انتهك أحد الأمراء أو المواطنين الروس، مسيحيا كان أو غير مسيحي، بنود هذا الاتفاق فإنه سيلقى الموت بواسطة سلاحه الشخصي ويصير ملعونا من الرب ومن بيرون، لأنه حنث بقسمه. وإذا أراد الأمير العظيم ايجور أن يحافظ على العلاقات الودية بيننا فليحافظ على الحب النزيه، حتى لايئول إلى الزوال، مادامت الشمس تشرق والعالم يقف راسخا من الآن فصاعدا وإلى الأبد"(٣٤).

وعلى هذا النحو تنتهي بنود المعاهدة التي وقعت بين البيزنطيين والروس على أثر حملة ايجور الثانية سنة ٩٤٤م على الإمبراطورية البيزنطية، إلا أن كلمات كاتب الحولية الروسية الأولى لم تنته بعد . فقد عاد رسل ايجور إليه ثانية ومعهم المبعوثون البيزنطيون، ونقلوا إليه كل ما كلفوا به من الإمبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس. فقد دعوا للمثول بين يديه، فأمرهم بعرض ما كلفهم به الإمبراطور، فأجابوا عليه على النحو التالي : "لقد أرسلنا إليك الإمبراطور، وهو يحب السلام ويرغب في الإبقاء على الود والوئام معكم . وقد تسلم رسلك تعهد أباطرتنا، وقد أرسلونا لتلقى قسمك أنت واتباعك" . وصرفهم ايجور بعد أن وعدهم بالرد عليهم(٣٥).

وفي صبيحة اليوم التالي دعى ايجور رسل الإمبراطور البيزنطي للمثول بين يديه، والذهاب معه إلى تل يقع عليه تمثال لكبير آلهتهم، والمسمى بيرون . وهناك ألقى الروس أسلحتهم ودروعهم وحليهم الذهبية على الأرض وأدى ايجور وكل من تبعه من الروس القسم على الطريقة الوثنية . أما الروس المسيحيون فقد ذهبوا إلى كنيسة القديس إلياس، التي ورد ذكرها في المعاهدة، وهناك أدوا القسم أيضا بالطريقة التي وردت في المعاهدة . وبعد أن أدى الجميع مراسم القسم، عادوا أدراجهم، ووقع ايجور على المعاهدة المبرمة مع البيزنطيين . وقبل أن يودع ايجور سفراء الإمبراطور البيزنطي أغدق عليهم هدايا كثير من فراء، وأرقاء، وشمع، وودعهم إلى بلادهم . وعندما عاد الرسل إلى القسطنطينية أخذوا الإمبراطور البيزنطي بكل مادار، ونقلوا إليه كلمات ايجور، ووصفوا له شعوره نحو البيزنطيين(٣٦).

(٣٤) *R.P.C.*, pp. 73 - 77; *Sorlin, Le traité de 944*, pp. 447 - 452.
(٣٥) *R.P.C.*, p. 77.
(٣٦) *R.P.C.*, pp.77-78.

وهكذا، تم توقيع المعاهدة بين البيزنطيين والروس، والتـــى اعتبرهـــا المـــؤرخ الروسى فيرنادسكى *Vernadsky* أعظم إنجاز حققه ايجور خلال فترة حكمه[٣٧].

وقبل أن نتحول الآن لتحليل بنود هذه المعاهدة، ينبغى علينا توضيـــح التـــاريخ الدقيق لها . فقد ذهب فريق من المؤرخين إلى أن هذه المعاهدة قد تمـــت فـــى عـــام ٩٤٤م[٣٨]. ويقول المؤرخان الإنجليزيان جوناثان شبرد *J. Shepard* وزميله ســيمون فرانكلين *S. Franklin* أنه من المحتمل أنها عقدت فى عام ٩٤٤م[٣٩]. أمـــا الفريـــق الأخر من المؤرخين، وعلى رأسهم نسطور كاتب الحولية الروسية الأولى، فـــيرى أن هذه المعاهدة قد تمت فى عام ٩٤٥م[٤٠].

ولكى نجزم برأى قاطع فى هذه الإشكالية ينبغى أن نعـــرض لـــرأى المؤرخـــة الفرنسية سورلان *Sorlin*، حيث تنكر قيام ايجور بحملة ثانية على بيزنطة فـــى عـــام ٩٤٤، وتقول أنها ما هى إلا اقتباس من حولية جورج الراهب *George* الذى يتحـــدث عن حملة مجرية على القسطنطينية فى عام ٩٣٤م، حيث تتشابه أحداثها تماما مع حملة ايجور سنة ٩٤٤م[٤١]. لكن ينبغى أن نلاحظ أن هذه الحملة المجرية ذكرها أيضا كاتب الحولية الروسية الأولى حيث يقـــول أن المجيـــار هـــاجموا مدينـــة تســـارجراد [أى القسطنطينية] للمرة الأولى وخربوا تراقيا، وعقد رومانوس سلاما معهم" وذلك تحـــت أحداث عام ٩٣٤م[٤٢]. كما أن نفس الكاتب يميز بين هذه الحملة المجياريـــة الأولـــى، وبين حملة ثانية قام بها المجيار على القسطنطينية فى عام ٩٤٣م، وفيها قام رومانوس بعقد السلام معهم أيضا[٤٣]. ومع هذا تعود وتناقض نفســـها بـــالقول أن حملـــة ٩٤٤م اتبعت نفس خطوات الحملات المجيارية السابق ذكرها، حيث انتـــهت جميعـــها بعقـــد السلام بين الطرفين. وعلى هذا لا ينبغى ربط المعاهدة بحملة ايجور الثانية، بل بحملته

---

(٣٧) Vernadsky, G. *Kievan Russia*, (New Haven, 1948), p. 37.

(٣٨) Vernadsky, G. *The Origins of Russia*, (Oxford, 1959), p. 266; Sorlin, *Le traité de 944*, pp. 447, 455; Court, *La Russie*, p. 97; Pares, *Russia*, p. 25; Ostrogorsky, *Byz. State*, p. 242.

(٣٩) Franklin, S. & Shepard, J., *The Emergence of Rus' 750 - 1200*, (London, 1996), p. 117.

(٤٠) *R.P.C.*, p. 73; Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 113; Jenkins, *Byzantium*, p. 250; Vernadsky, *Kievan Russia*, p. 37; Finlay, *Byz. Empire*, p. 318.

(٤١) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 453.

(٤٢) *R.P.C.*, p. 71.

(٤٣) *R.P.C.*, p. 72.

الأولى على القسطنطينية فى عام ٩٤١م(٤٤). على أية حال، لا يمكن إنكار قيام ايجور بحملته الثانية على بيزنطة، فنسطور يميز بين الأحداث بوضوح تام، ولا يعنى قيام رومانوس بعقد السلام فى كل مرة مع المغيرين على دولته أن الكاتب يخلط الأحداث بعضها البعض أو يقتبس من الكتاب الآخرين . فالدبلوماسية البيزنطية فى هذا العصر كانت فى أبهى حلتها وأنشط حالاتها، وكان السلام هو واحد من أسرع الحلول التى تسارع بها بيزنطة لحفظ ماء وجهها .

وإذا عدنا إلى كلمات نسطور في الحولية الروسية الأولى، سنجد أنه يدون أحداث هذه الحملة والمعاهدة التى تلتها تحت أحداث أعوام ٩٤٤ – ٩٤٥م(٤٥) لكن ينبغى أن نلاحظ أن الأباطرة البيزنطيين المذكورين عنده هم رومانوس ليكابينوس وقسطنطين وستفن، وأن الإمبراطور رومانوس ليكابينوس قد خلعه أولاده فى ١٦ ديسمبر ٩٤٤م(٤٦). إذن فالمعاهدة لا يمكن أن تكون وقعت بعد هذا التاريخ . ولنعد ثانية إلى كلمات كاتب الحولية الروسية الأولى، حيث نعرف منه أن الإمبراطور البيزنطى [دون أن يحدد اسمه في هذا الموضع من حديثه] بعث رسله إلى ايجور لأخذ القسم منه على وثيقة المعاهدة(٤٧) . وقد وصل هؤلاء الرسل إلى كييف فى مستهل عام ٩٤٥م(٤٨)، وأخذوا القسم من ايجور وشعبه على وثيقة المعاهدة، والتى بالطبع كان الإمبراطور قد وقع عليها في عام ٩٤٤م قبل إرسالها . فنحن نعرف من نسطور أنه كانت هناك نسختان من هذه المعاهدة التى كتبت على الرق، واحدة وقع عليها الوكلاء والتجار الروس وهى التى حفظت فى أرشيف البلاط البيزنطى، والثانية وقع عليها الأباطرة رومانوس، وقسطنطين، وستفن، وهى التى حملها رسل الإمبراطور إلى ايجور(٤٩). وعلى هذا فالمعاهدة تنسب إلى عصر الإمبراطور رومانوس ليكابينوس، حيث وقع عليها ايجور فى الشهور الأولى من عام ٩٤٥م، وبتوقيع ايجور يكون قد تم عقد المعاهدة بين الطرفين . وعلى هذا فعام ٩٤٤م هو عام توقيع الإمبراطور البيزنطى عليها، وعام ٩٤٥م هو عام توقيع ايجور عليها(٥٠). وينبغى علينا أن ننسب هذه المعاهدة إلى العام الذى اكتملت فيه أركانها، أى بتوقيع الأمير الروسى ايجور عليها .

---

(٤٤) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 454.
(٤٥) *R.P.C.*, pp. 72-73.
(٤٦) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 454.
(٤٧) *R.P.C.*, pp. 76-77.
(٤٨) Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 113.
(٤٩) *R.P.C.*, p. 76.
(٥٠) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 455.

وإذا ما تحولنا الآن لتحليل بنود هذه المعاهدة سنجد أنها نموذجاً كاملاً للمعاهدات البيزنطية الدولية فى القرن العاشر الميلادى . فقد احتوت على مقدمة بين فيها الكاتب أن رسل الأمير الروسى ايجور قد جاءوا إلى القسطنطينية لإقامة السلام بين البيزنطيين، وعلى رأسهم الإمبراطور رومانوس ليكابينوس، وقسطنطين، وستفن، والروس، وعلى رأسهم الأمير الروسى العظيم ايجور ونبلاؤه . بعد ذلك يتحول الكاتب إلى الحديث عن محتوياتها والبنود التى أقرها الطرفان. أما خاتمة المعاهدة فكانت تعبيراً عن أنها قد دونت برضى من الطرفين وعلى نسختين من الرق، لتحفظ إحداهما فى أرشيف البلاط البيزنطى، وترسل الأخرى إلى ايجور فى كييف . وفى الخاتمة كان هناك التزام من الرسل بالمحافظة على كل ما ورد فى الوثيقة لحين تسليمها إلى ايجور. ومثلما وقع الأباطرة على إحدى النسختين بأسمائهم وبالصليب، فإنه كان لابد وأن يوقع الطرف الآخر على النسخة الأخرى، وهو ما قام به رسل الأمير الروسى ايجور من وكلاء وتجار، بل ذهب الإمبراطور البيزنطى إلى أبعد من ذلك وهو ضرورة أخذ القسم من الأمير الروسى نفسه ونبلائه وشعبه على النسخة المرسلة إليه من المعاهدة . ونظراً لأهميتها فقد أمر الإمبراطور البيزنطى أن تكتب على الرق، وهو الأطول عمراً، على الرغم من أن الورق كان معروفاً للبيزنطيين .

وإذا ما دققنا النظر فى أسماء الرسل الذين بعث بهم ايجور إلى القسطنطينية لعقد معاهدة ٩٤٥م سنجد أنهم ينقسمون إلى فئتين : الأولى وهم الممثلون الرسميون للأمير الروسى ايجور وباقى الأمراء الروس . الثانية وهم التجار الروس أنفسهم، المعنيون بأمور التجارة مع بيزنطة . والفئة الأولى من السفراء عبارة عن قائمة لخمسة وعشرين سفيرا، وباستثناء إيفار ممثل ايجور، هناك أربعة وعشرون سفيراً يمثلون أربعة وعشرين أميراً روسياً، وهم يشكلون خاصة الأمير الروسى من النبلاء، ويسمون *boyards*. إذن فنحن أمام تنظيم سياسى يعكس لنا الوضع السياسى فى بلاد الروس فى منتصف القرن العاشر الميلادى، قوامه الأمير الأعظم يتبعه أربعة وعشرون أميراً آخرين .

وهذا التنظيم السياسى أكثر اتساعا مما كان عليه فى مستهل القرن العاشر الميلادى، حيث كان التنظيم الروسى عبارة عن الأمير الروسي العظيم يتبعه اثنا عشر أميرا[٥١]. وهذا يعنى أنه بعد ثلاث وثلاثين عاما تقريبا من توقيع معاهدة ٩١١م بين الطرفين ازداد حجم الأراضى الروسية واتسع نطاق سيادة الأمير الروسى . أما فيما يخص أسماء الأعلام التى وردت فى الفئة الأولى من سفراء الأمير الروسى ايجور فسنجد أن غالبيتها اسكندنافية، ما عدا مبعوثى الأميرة أولجا، والأميرة بريدسلافا، وكذلك مبعوث الأمير أدفاست، ومبعوث الأمير جونار، فهم يحملون أسماء سلافية . وينتمى مبعوثو الأميرتين أولجا وبريدسلافا إلى استونيا، فى الشمال الغربى من كييف[٥٢]. وربما كان ذلك بسبب أن أولجا ولدت فى مدينة بسكوف *Pskov*، الواقعة فى الشمال الغربى من كييف[٥٣]. أما ليف، مبعوث الأمير أوفاست، فإن اسمه مشتق من اسم إحدى القبائل الفنلندية وتسمى *Livi* أو *Libi* . وأخيرا فإن ياتفنج مبعوث الأمير جونار، فإسمه مشتق من اسم قبيلة ليتوانية عاشت فى منطقة نمن السفلى[٥٤].

وفيما يخص الفئة الثانية من سفراء الأمير الروسى ايجور وهم التجار، فلا نجد بينهم سوى اسم واحد فقط استونى وهو التاجر اسكبراند، أما الاسم الأخير فى قائمة التجار هذه والمدعو سفينكى بورش فربما كان المترجم الذى صحب هذه السفارة الروسية[٥٥] . أما بقية الأسماء فقد كانت اسكندنافية تماما، وهذا يعنى أن رؤوس الأموال الروسية كانت لا تزال يحتكرها التجار الاسكندنافيون، وقد قبلوا أن يشترك معهم أحد التجار السلافيين فى سفارتهم إلى القسطنطينية[٥٦].

---

(٥١) Sorlin, *Les traités*, pp. 331 - 332; Soloviev, A., "L'organisation de L'etat russe au X^e siècle ", *L'Europe aux IX^e-XI^e σιε϶χλεσ*, (Varsovie, 1968), pp. 251– 253; reprinted also in: *Byzance et l'information de L'etat russe*, (London, 1979).

(٥٢) Soloviev, *L'état russe*, p. 253.

(٥٣) Soloviev, *L'état russe*, p. 253, n.25.

(٥٤) Soloviev, *L'état russe*, p. 253.

(٥٥) Soloviev, *L'état russe*, pp. 251,254.

(٥٦) Soloviev, *L'état russe*, p. 254.

والآن نجد لزاماً علينا أن نسرع الخطى لنقرأ بنود معاهدة ٩٤٥م البيزنطية – الروسية، ونرى عما ستسفر هذه القراءة . وإذا تفحصنا بنود هذه المعاهدة سنجد أنها تكاد تنقسم إلى ثلاثة أقسام، يعالج كل قسم منها موضوعا بعينه . فالبنود الأول والثانى والثالث والرابع كلها تعالج العلاقات التجارية بين الطرفين. والبندين الثامن والتاسع يعالجا موضوعاً أخراً، ففيه تسوية للأمور المتعلقة بين الطرفين حول وضع خرسون فى العلاقات السياسية بينهما . والبنود الخامس والسادس والعاشر والحادى عشر والثانى عشر تختص بجرائم الاعتداءات والسرقة والقتل وماهيتها وعقوباتها بين الطرفين، وبقول آخر فهى تختص بالقانون الدولى؛ كذلك البندين السابع والثالث عشر يتعلقان بالأمور العسكرية بينهما وتبادل الأسرى . وإلى جانب هذه الأقسام الثلاثة لبنود الوثيقة، فإنه توجد هناك مقدمة وخاتمة وهى التى صنفناها هنا بالبنود الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر . ويبدو أن هذه المقدمة والخاتمة قد أضيفتا للمعاهدة بناء على طلب الروس[٥٧].

وبالنظر إلى البند الأول من القسم الأول سنجد فيه تحفظات دقيقة للغاية من الجانب البيزنطى للتأكد من أهلية وهوية القادمين الروس إلى القسطنطينية[٥٨]. وحتى يتم التأكد من نواياهم السلمية لم يكتف البيزنطيون بالأختام التى حملها التجار الروس، بل أقروا ضرورة إحضار شهادة موثقة من قبل الأمير الروسى لتكون شاهداً على نواياهم السلمية[٥٩]. وقد نتساءل عن سر هذه القيود الصارمة التى يضعها البيزنطيون على دخول الروس إلى بلادهم ! هل السبب فى هذا الحملات العسكرية التى شنها الروس عليهم ؟ ربما كانت الإجابة عن هذه التساؤلات تحتاج منا التريث قليلاً ونحن نقرأ كتاب الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس عن الإدارة الإمبراطورية . فهذا الكتاب، وبالتحديد الفصل التاسع منه، يوضح لنا الرؤية ونعرف منه أن التجار الروس كانوا دائماً يسافرون وهم مدججون بالسلاح، بهدف الدفاع عن النفس، كما فى حالة

---

(٥٧) Sorlin, *Le traité de* 944, p. 456.
(٥٨) Court, *La Russie*, p. 97.
(٥٩) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 457.

مرورهم بإقليم البشناق وهم فى طريقهم إلى القسطنطينية[٦٠]. إذن فالتاجر الروسى يمكن أن نسمية "التاجر المقاتل"، والذى قد يتحول فى لحظة إلى مقاتل شرس ضاربا بالتجارة فى هذه اللحظة عرض الحائط . ولذلك فقد حتم عليهم الإمبراطور رومانوس ليكابينوس الدخول إلى العاصمة القسطنطينية وهم مجردون من السلاح[٦١]، خشية ارتكاب جرائم العنف ضد المدنيين البيزنطيين[٦٢]. وهناك ثمة ملاحظة هامة تشير إليها المؤرخة الفرنسية سورلان، وهى أن الروس قديما لم يستخدموا الكتابة، أما الآن فهم يستخدمونها فى علاقتهم مع بيزنطة[٦٣].

وفى البند الثانى من المعاهدة توضيح للإجراءات التى ستتخذ ضد التجار الروس غير الشرعيين، وهى القبض عليهم وايداعهم السجن . وإذا لجأ هؤلاء إلى استخدام السلاح فعقوبتهم القتل، وفى هذه الحالة فليس للأمير الروسى العظيم الحق فى المطالبة بدية لهم . أما إذا تمكن هؤلاء التجار غير الشرعيين من الهروب إلى بلادهم فسيرسل البيزنطيون إلى الأمير الروسى ليخبروه بما حدث، وليتصرف هو معهم كيفما يشاء .

والبند الثالث من المعاهدة، يبين حرص البيزنطيين الشديد على الحصول على المنتجات الروسية[٦٤]، ويبين لنا عقوبة من يأتى للاتجار فى القسطنطينية وهو خالى الوفاض من منتجات بلاده، وذلك بحرمانه من المعونة الشهرية التى تصرفها الإدارة الحكومية فى القسطنطينية لهم . ولضمان عدم اعتدائهم على المدنيين بالقسطنطينية، فقد خصصت لهم ضاحية من ضواحى العاصمة، وهى ضاحية سان ماماس، الواقعة خارج المدينة شمالا، على القرن الذهبى، وفى مواجهة الجبانة اليهودية[٦٥]. وعند دخولهم إلى

---

(٦٠) قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ٦٠ - ٦٤ *DAI*, I, pp. 56-63;

(٦١) *R.P.C.*, pp. 74 –75.

(٦٢) *R.P.C.*, pp. 74.

(٦٣) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 457.
يبين لنا ابن النديم، الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى، شكل الخط الذى كان يكتب به الروس، ويعطى مثالا عليه : انظر، كتاب الفهرست، تحقيق/ Gustav Flugel مراجعة وتقديم/ Johannes Roediger، (بيروت، ١٩٦٤)، ص ٢٠ .

(٦٤) انظر الفصل الأول من الباب الثالث من البحث .

(٦٥) Court, *La Russie*, p. 97.

العاصمة يدخلون في مجموعات صغيرة، الواحدة تلو الأخرى، وهم تحت الحراسة، حيث كان يصحبهم أحد الضباط البيزنطيين، الذى كانت واحدة من مهامه ردع المخطئين منهم أثناء وجودهم داخل القسطنطينية .

أما البند الرابع، من القسم الأول من المعاهدة، فيختص بتجارة الحرير داخل أسواق القسطنطينية، وفيه تعهد من قبل الحكومة البيزنطية بتزويد التجار الروس بالعتاد اللازم، من مواد الإعاشة والخشب، وكل ما هو ضرورى لرحلة العودة إلى بلادهم مجانا(٦٦).

وهكذا ينتهى القسم الأول من المعاهدة، والذى عالج العلاقات التجارية بين البيزنطيين والروس . أما القسم الثانى من المعاهدة، فيحتوى على ستة بنود تضم الخامس والسادس، ومن التاسع إلى الثانى عشر، وكما قلنا سابقا فجميعها تختص بما نعرفه الآن بالقانون الدولى، المعمول به بين الدول، وعلى وجه التحديد بين بيزنطة والروس .

والبند الخامس من المعاهدة، يتعلق بالأرقاء سواء الفارين من بلاد الروس إلى الإمبراطورية البيزنطية، أو العكس . فإذا عثر البيزنطيون على رقيق روسى هارب من سيده فإنهم على الفور سيلقون القبض عليه وإيداعه المعتقل، وإذا لم يعثروا عليه فإنهم سيدفعون للروس ثمنه(٦٧). أما إذا هرب رقيق من أرقاء بيزنطة إلى بلاد الروس، كان لزاما عليهم رده إلى بيزنطة مرة ثانية . وإذا كان هذا الرقيق قد حمل شيئا معه أثناء هروبه وضبط معه فليرده الروس أيضا . وإذا كان كاملا ولم ينتقص منه شيئا فسوف تصرف مكافأة قدرها اثنان نوميزما بيزنطية لمن عثر عليه ولم تسول له نفسه الاستئثار به أو بجزء منه .

الواقع أن هذا البند اقتبس من معاهدة ٩٠٧م بين البيزنطيين والروس، ومن ثم يبدو لنا أن الروس قد اتخذوا من سان ماماس مقاما لهم لحين سماح السلطات البيزنطية لهم بالدخول إلى العاصمة. انظر،
R.P.C., p. 65; Sorlin, *Les traités*, p. 330.

(٦٦) Court, *La Russie*, p. 98.

(٦٧) *R.P.C.*, p. 75.

جدير بالذكر هنا أن قيمة الرقيق كانت عبارة عن قطعتين من الحرير، بينما فى معاهدة ٩١١ المبرمة أيضا بين الطرفين، كان ثمنه عشرين نوميزما[٦٨]. ومن الملفت للنظر أن قيمة الرقيق تغيرت فى خلال ثلاثة وثلاثين عاما تقريبا، ما بين عام ٩١١ وعام ٩٤٥م، وهذا قد يثير تساؤلا! فمن المحتمل أن التجار الروس كانوا يفضلون المقايضة على العملة وأن الذهب لا يعنى لهم قيمة كبيرة عن البضاعة خاصة إذا كانت بضاعة ثمينة، أو أن بيزنطة كانت تفرض عليهم هذا النظام آنذاك . وينبغى أن نضع فى الحسبان أن هروب أحد الأرقاء الروس كان يعنى خسارة كبيرة لهم، لأن الأرقاء كانوا يشكلون إحدى الصادرات الروسية الهامة إلى العالم الخارجى[٦٩].

ويتناول البند السادس من المعاهدة جرائم السرقة التى تحدث بين الطرفين، سواء السرقة بالإكراه، أو غير الإكراه . والشيء الملفت للنظر هنا أن هذا البند احتوى على عبارتين كلتيهما يعالجان جرائم السرقة وتكاد تكون العقوبات متشابهة . فيقول نسطور فى الحولية الروسية الأولى، "إذا حاول أحد الروس سرقة رعايا إمبراطوريتنا ... " ثم يذكر عبارة أخرى مشابهة للأولى "إذا قام أحد الروس بسرقة أحد اليونانيين ... "، واستكمالا للعبارة الأولى، على الجانب الروسى يقول "... إذا ارتكب يونانى إثما ضد أحد الروس ... "، والعبارة الثانية "... أو سرق أحد اليونانيين أحد الروس ..."[٧٠]. ما الفرق إذن بين هاتين العبارتين ، ولماذا يكرر الكاتب نفس الكلام فى نفس البند؟! يبدو أن العبارة الأولى قصد بها الكاتب السرقة بالإكراه، سواء كان السارق روسيا أم بيزنطيا . ومما يعضد ذلك صيغة العبارة الأولى "... إذا حاول ..." ففيها إشارة ضمنية للقيام بجريمة السرقة بالإكراه . أما العبارة الثانية فقد قصد بها السرقة بوجه عام[٧١].

وتتفاوت عقوبة السرقة فى هذا البند، طبقا للآتي :

•

---

(٦٨) Sorlin, *Les traités*, p. 335.
(٦٩) Sorlin, *Le traité de 944*, pp. 458-459.
(٧٠) *R. P.C.*, p. 75.
(٧١) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 459.

أ – إذا لم تنجح السرقة بالإكراه وتم القبض على السارق، ففى هذه الحالة سوف يعاقب عقابا شديدا .

ب – إذا نجحت محاولة السرقة بالإكراه، فلن يكتفى بالعقاب الشديد بل يدفع السارق ضعف قيمة ما سرقه .

جـ – إذا تمت السرقة بصورة أو بأخرى وقبض على السارق، فعليه أن يعيد الشيء المسروق، علاوة على ما يوازى ثمنه .

د – إذا تمت السرقة وباع السارق ما سرقه، ففى هذه الحالة عليه أن يدفع ضعف ثمنه، ويعاقب طبقا للقانون إما البيزنطى أو الروسى . وهذه العقوبات هى عقوبات مدنية أكثر منها جنائية . وإذا أدان الأمير الروسى أحد رعاياه فى هذه الجريمة، حكم بدفع غرامة مالية إلى خزائنه، أو عينية وهى عبارة عن ماشية وفراء . أما إذا أدين أحد البيزنطيين بالسرقة، فكان القاضى يحكم عليه إما بالضرب بالمقرعة أو الحرق حيا أو الأشغال الشاقة المؤبدة أو النفى المؤقت خارج البلاد[٧٢].

والجدير بالذكر أنه توجد عبارة هامة عند الوزير العباسى أحمد بن فضلان، الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى، يقول فيها "وإذا أصابوا [أى الروس] سارقا أو لصا جاءوا به إلى شجرة غليظة وشدوا فى عنقه حبلا وثيقا وعلقوه فيها، ويبقى معلقا حتى يتقطع من المكث بالرياح والأمطار"[٧٣]. وتبدو هذه الرواية فى غاية الخطورة إذا ما عممناها على الروس جميعا، خاصة وأن المصادر العربية تؤكد على أن الأمير الروسى كان هو الذى يبت فى القضايا بنفسه ويحكم فيها . فقد كان الأمير الروسى يجلس بنفسه للقضاء وفض المنازعات بين المتخاصمين، إذا ما لجئوا إليه بالشكوى[٧٤]. وقد يبدو أن هناك تضارب فيما يقول ابن فضلان وما تذكره المصادر العربية الأخرى. لكن ينبغى أن ننتبه إلى أن ابن فضلان كان يتحدث عن التجار الروس، الذين يعملون بالتجارة مع الشعوب القاطنة على ضفاف نهر الفولجا، وهذه الشعوب مهما كان مستواها الحضارى فهى لا ترقى إلى مستوى الحضارة البيزنطية،

---

(٧٢) Court, *La Russie*, p. 100.

(٧٣) ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة*، تحقيق/ سامى الدهان، (دمشق، ١٩٧٨)، ص ١٨٠ .

(٧٤) ابن رسته، *الأعلاق النفيسة*، مج ٧، (ليدن، ١٩٦٧)، ص ١٤٦؛ ياقوت الحموى، *معجم البلدان*، جـ ٤، (القاهرة، ١٩٠٨)، ص ٣٠١ . انظر أيضا، ليلى عبد الجواد، *الروس فى المصادر العربية*، (القاهرة، ١٩٩٠)، ص ٥١ – ٥٢ .

كما أن وزنها السياسى فى علاقاتها مع الروس أخف بكثير مما كان عليه الحال بين الروس والبيزنطيين . ولذلك فربما تجرأ الروس وعاقبوا السارق منهم، إذا قبضوا عليه، بمثل هذا العقاب، لأن السارق جاء ليسرق منهم بضائعهم وتجارتهم التى حملوها مئات الأميال، ولا أقل من أن يصبح عبرة للآخرين، فلا يتجرأون على الاقتراب من بضائع الروس ثانية . أما من يعيشون فى كييف والإمارات التابعة لها فكانوا يحتكمون إلى أميرهم للبت فى قضاياهم . وعلى كل حال، فقد احتاط البيزنطيون لأنفسهم من الشطط القانونى الروسى، وأعطوا لأنفسهم امتياز قانونى يمنح للمجرمين البيزنطيين، فلا يحاكمون طبقا للقانون الروسى، بل طبقا للقانون البيزنطى، وحسب الجريمة التى اقترفوها . وهذا ما نص عليه البيزنطيون فى البند العاشر من المعاهدة .

أما البند السابع من المعاهدة فهو يتعلق بأمر من الأمور الهامة بين البلدين وهو مسألة تبادل الأسرى وكيفية تنظيمها . ونحن نعرف إلى أى مدى كانت بيزنطة حريصة كل الحرص على استرداد أسراها وفك أسرهم، وقد حدث هذا مرارا بين البيزنطيين والمسلمين، على سبيل المثال(٧٥). والطريف هنا أن البيزنطيين قد وضعوا سعرا لافتداء أسراهم، يتباين من أسير لآخر حسب مرحلته السنية . فالشاب اليافع يفتدونه بعشر نوميزمات، والرجل متوسط العمر يفتدونه بثمان نوميزمات، أما الشيوخ والأطفال فيفتدونهم بخمس نوميزمات للفرد منهم . واشترطوا على الروس أن تكون قيمة فديتهم لأسراهم عشر نوميزمات للفرد، دون النظر لمرحلته السنية . أما إذا اشترى أحد البيزنطيين أحدا من الأسرى الروس، فكان على البيزنطيين أن يدفعوا ثمنه كاملا للروس(٧٦). وهكذا احتفظ البيزنطيون بحق تقدير فدية الأسير، طبقا للقيمة الحقيقية له، ما بين الزيادة والنقصان . وفى الحقيقة، فقد تعرض الروس لافتداء أسراهم، أى من هم فى سن الشباب، بينما البيزنطيون الذين أسرهم الروس خلال هجماتهم على الإمبراطورية البيزنطية كانوا فى الغالب من الشيوخ والأطفال(٧٧).

والبند الحادى عشر من المعاهدة يتعلق بجرائم القتل بين الطرفين . والعقوبة هنا واضحة تماما، فالقاتل يقتل متى تم القبض عليه؛ ولكن الغريب هنا هو جعل حق تنفيذ الحكم موكلا إلى أقرباء المتوفى، وعليه فإنهم هم الذين يتولون القيام بتنفيذ حكم الإعدام فيه مباشرة ودون الرجوع إلى القضاء . ويبدو أن هذا تأثير اسكندنافى على

(٧٥) عن الأفدية التى تمت بين الطرفين، والمصادر التاريخية التى تحدثت عنها، انظر، حامد زيان، *الأسرى المسلمون فى بلاد الروم*، (القاهرة، ١٩٨٩) .

(٧٦) Court, *La Russie*, p. 101.

(٧٧) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 459.

المتعاهدين(٧٨)، حيث كان الروس لازالوا يحتكمون إلى السيف(٧٩). أما إذا هرب القاتل، ففى هذه الحالة ليس هناك سوى التعويض المادى الذى يتوقف على مدى ثراء القاتل؛ فإذا كان ثريا تصادر أملاكه لصالح ورثة المتوفى، أما إذا كان فقيرا فلن تهدأ لهم ثائرة إلا بعد العثور عليه وتنفيذ الإعدام فيه .

والبند الثانى عشر من المعاهدة يتحدث عن جرائم الضرب سواء كان بسيف أو رمح أو أية آلة أخرى، المهم أنها ستفضى إلى حدوث إصابة . ففى هذه الحالة يتم تطبيق القانون الروسى على الطرفين، البيزنطيين أو الروس، ويكون بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات فضية للشخص المصاب، هذا إذا كان الفاعل ثريا . أما إذا كان الفاعل فقيرا، فسيباع كل ما يملك، حتى ثيابه وليقسم بأنه لم يعد يملك شيئا حتى يطلق سراحه.

والبند الثالث عشر من المعاهدة، يخص الجانب البيزنطى فقط، ففيه يشترط البيزنطيون على الروس ضرورة تقديم القوات العسكرية لهم، متى طلبوا ذلك من الأمير الروسى، وبالأعداد التى يحتاجونها . ولعل هذا البند من المعاهدة هو الذى استند إليه الأباطرة البيزنطيون فى طلبهم فيما بعد المدد العسكرى من الأميرين سفياتوسلاف، وفلاديمير الأول كما سنرى بعد ذلك . ولكن السؤال الذى يتبادر إلى الذهن لماذا اشترطت بيزنطة على الروس هذا الشرط، على الرغم من أن القرن العاشر الميلادى هو العصر الذهبى للعسكرية البيزنطية، بل العصر الذى أفرز العديد من المؤلفات العسكرية الثمينة بحق، والتى نقف منها على حالة الجيش البيزنطى وأسلحته وتكتيكاته.

لامراء فى أن الفارانجيين والروس قد عرفوا طريقهم إلى الجيش البيزنطى بدءا من القرن العاشر الميلادى فصاعدا، ليزداد تألقهم كمحاربين أشداء فى القرن الحادى عشر الميلادى بعد أن تشكل منهم الحرس الإمبراطورى . وقد أسهبت المصادر العربية فى الحديث عن المرتزقة الروس العاملين فى الجيش البيزنطى فى القرن العاشر الميلادى . فقد ذكر المسعودى عنهم ما يلى "... وقد دخل كثير منهم [أى الروس] فى وقتنا الحالى هذا فى جملة الروم ... فشحنوا بهم كثيرا من حصونهم التى تلى الثغور الشامية، وجعلوهم بإزاء برجان [إحدى الأمم التركية] وغيرهم من الأمم المتأبدة لهم والمحيطة بملكهم(٨٠)..." وهناك الكثير من الأمثلة الأخرى التى وردت فى

---

(٧٨) Court, *La Russie*, p. 99.

(٧٩) ليلى عبد الجواد، *الروس*، ص٧٩؛ الرمزى، *تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار*، جـ٢، (أو نبورغ، د.ت)، ص ١٦٠ .

(٨٠) المسعودى، *التنبيه والإشراف*، (القاهرة، ١٩٣٨)، ص ١٢٢ .

المصادر العربية المختلفة، والتى توضح أن الروس كانوا يشكلون جزءا لا بأس به من المرتزقة العاملين فى الجيش البيزنطى[٨١].

وبالإضافة إلى المصادر العربية، تؤكد لنا المصادر البيزنطية العسكرية، التى تعود إلى القرن العاشر الميلادى، الدور الذى لعبه المرتزقة الروس فى الجيش البيزنطى آنذاك . فيذكر قسطنطين بورفيروجنيتوس فى كتابه الهام عن مراسم البلاط البيزنطى *De Cerimoniis Aulae Byzantinae* أن الروس اشتركوا فى الحملة البيزنطية على كريت فى عام ٩١١م وكان قوامهم فيها سبعمائة روسى[٨٢]، يتقاضى الفرد منهم اثنين وأربعين نوميزما[٨٣]. وقد اشترك حوالى ٤١٥ روسيا فى الحملة البيزنطية المرسلة إلى لونجوبارديا *Longbardia*[٨٤] وحوالى ٦٢٩ روسيا فى الحملة البيزنطية الثانية على كريت سنة ٩٤٩م[٨٥]. وفى كتاب *De Re Militari*، المجهول المؤلف، والذى يعود إلى القرن العاشر الميلادى نجد هذا التعبير *ρ̈ως ἱπποτας* الذى يدل على عمل الروس بالجيش البيزنطى[٨٦]. ومن المؤلفات البيزنطية الأخرى لنقفورفوقاس ونقفور أورانوس، يتأكد لنا عمل الروس فى الجيش البيزنطى[٨٧]. وكان يتميز هؤلاء المقاتلون الروس بالبسالة والشجاعة والثبات فى أرض المعركة لساعات طويلة دون إبداء أى تعب أو عناء من القتال. فهم كما يقول المؤرخ الروسى سولفيف

---

(٨١) ابن الأثير، *الكامل فى التاريخ*، تحقيق/ نخبة من العلماء، جـ٢، (بيروت، ١٩٨٣)، ص ٣١، ١٠٩؛ ابن العديم، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، تحقيق/ سامى الدهان، جـ٢، (دمشق، ١٩٥٤)، ص٢٤؛ ابن القلانسى، *ذيل تاريخ دمشق*، تحقيق/ هـ.ف. أميدروز، (بيروت، ١٩٠٨)، ص٤٣.

(٨٢) Constantine Porphyrogenitus, *De Cerimoniis Aulae Byzantinae*, ed., I. Reiskii, *CSHB*, Vol. II, (Bonnae, 1829), chap. 44, pp. 651, 654 – 655; Mcgeer, E., *Sowing the Dragon's Teeth*, (Washington, 1995), p. 209.

(٨٣) Const. Porph., *De Cerimoniis, II*, p. 654.

ذكرت د/ أسمت غنيم خطأ أن المجند الروسى فى هذه الحملة كان يتلقى ٤٣ نوميزما . انظر ، *الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية*، (الإسكندرية، ١٩٨٣)، ص ٢٠٧ . والصحيح هو ما ذكر أعلاه نقلا عن قسطنطين بورفيروجنيتوس .

(٨٤) Const. Porph., *De Cerimoniis*, II, p. 660; Mcgeer, *Sowing*, p. 209 .

(٨٥) Mcgeer, *Sowing*, p. 209; Benedikz, B., " The Evolution of the Varangian Regiment in the Byzantine Army ", *BZ*, 62 (1969), p. 22.

(٨٦) *Liber De Re Militari* ,ed. R. Vari, (Lipsiae, 1901), pp. 21, 31, 44.

(٨٧) *Στρατηγική Ἔκθεσις καὶ Σύνταξις Νικηφόρου Δεσπότου* , Eng. trans. E. Mcgeer, in: *Sowing the Drogon's Teeth*, (Washington, 1995), P.15; *Τακτικά Στρατηγικά τοῦ Οὐρανοῦ*, Eng. trans. E. Mcgeer, in: *Sowing the Dragon's Teeth* (Washington, 1995), p.91.

Soloviev بواسل شجعان، عندما يغيرون على شعب آخر، لايوقفـــون هجماتـــهم إلا عندما يجهزون على عدوهم تماما[٨٨]. ويكفى أن المتنبى، شاعر البـــلاط الحمدانـــى، امتدح شجاعتهم[٨٩] قائلا :

وكيف ترجى الروم والروس هدمها وذا الطعن أساس لها ودعائم[٩٠].

وهكذا، بناء على المصادر التاريخية السابقة، تتضح لنا القيمة الحقيقية للمقـــاتل الروسى فى الجيش البيزنطى؛ وقد ظل المرتزقة الروس يشكلون عنصرا رئيسيا فيـــه فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين . ومن واقع عمل المرتزقة الروس فـــى الجيش البيزنطى أدرك البيزنطيون السمات العامة والخصـــائص القتاليـــة للمحـــارب الروسى، والتى كان يتفوق بها على أقرانه من المرتزقة الآخرين القادمين سواء مـــن شرق بيزنطة أو غربها . ومما يؤكد حرص بيزنطة على الحصول علـــى المحـــاربين الروس أننا لم نسمع من قبل أنها وضعت مثل هذا الشرط فى معاهداتها مع البلغار مثلا أو مع الأمم الأخرى. وعلى هذا فإن وضع بيزنطة لمثل هـــذا البنـــد العســـكرى فـــى المعاهدة، هو شرط بيزنطى محض، راعت فيه صالحها العام، وضمنت مـــن خلالـــه الحصول على أفضل وأقوى المحاربين آنذاك، وهم المحـــاربون الـــروس، لمواجهـــة التفوق العسكرى الذى قد يفرضه عليها أحد أعدائها .

وننتقل الآن إلى القسم الثالث من المعاهدة وهو الذى يتحدث عن وضعية خرسون السياسية بين البيزنطيين والروس ويشتمل على البندين الثامن والتاسع، لنجد أن أولـــهما يعتبر غاية فى الأهمية لا لأنه يعنى بأمر خرسون، لكن نظرا للخلط الذى حدث بيـــن المؤرخين فى تفسيرهم لإحدى عباراته . ففى بداية هذا البند اشترط البيزنطيون علـــى الروس ألا يغيروا على إقليم خرسون والمدن الواقعة فى نطاقه وهذا قد يعطى انطباعـا بأن الروس تحرشوا إن لم يكن بخرسون فعلى الأقل بإحدى مدنه من قبل . لكن نظـــرا لأنه لم يرد فى المصادر سواء البيزنطية أو الروسية أى ذكر لـــهجوم روســـى علـــى خرسون من قبل، فإن هذا يرجح أن نفوذهم السياسى قد امتد جنوبا ليصلوا بحدودهـــم الجنوبية إلى إقليم خرسون، مما جعلهم يتحرشون بإحدى مدنه . وهذا الجزء من هـــذا

---

(٨٨) Soloviev, *L'état russe*, p. 261.

(٨٩) Benedikz, *Varangian*, p. 22; Schlumberger, G., *Un empereur de Byzance Nicephore Phocas*, (Paris, 1930), pp. 128 - 134 .

(٩٠) ليلى عبد الجواد، *الروس*، ص٤٨ ؛ زبيل، *أخبـــار أمـــم المجـــوس مـــن الأرمـــن وورنـــك والـــروس*، ج١، (١٨٩٦)، ص ٦٨ .

البند ليس وعدا من الأمير الروسى بعدم مهاجمة القرم *Crimea* كما ذهب فيرنادسكى[٩١]، بقدر ما هو شرط من البيزنطيين، حسبما ورد بالمعاهدة.

وحتى تتبدد المخاوف البيزنطية من التقدم الروسى جنوبا، كان لابد من وضع مثل هذا الشرط . وقد نتفق مع فيرنادسكى فى أن المقصود "بإقليم خرسون والمدن الواقعة فى نطاقه"، كما ورد بالمعاهدة، ليس مدينة خرسون البيزنطية، بل منطقة القرم، وعلى حسب كلامه فإن القرم كانت تسمى "أرض خرسون" *Strana Korsunskaia*[٩٢]. وقد توحى لنا المصادر العربية بأن الروس امتدوا بحدودهم جنوبا، وبرضى من الخزر، الذين كانوا حلفاء لبيزنطة حتى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى . ففى عام ٩١٣م تذكر هذه المصادر حملة روسية على الأراضى الإسلامية حول بحر الخزر . والروس كى يصلوا إلى هذه المناطق كانوا ينحدرون مع نهر الدنيبر حتى البحر الأسود ثم يعبرون مضيق كيرتش *Kerc*، بموافقة خاقان الخزر، ثم عن طريق مجرى نهرى الدون والفولجا يصلون إلى بحر الخزر حيث خربوا سواحله . كما تحدثنا هذه المصادر عن الحملة الروسية الكبرى على برذعة سنة ٩٤٣م – ٩٤٤م[٩٣]. وهناك أدلة نستقيها من المصادر العربية تؤكد أن الروس فى هذه الفترة، إمتدوا بنفوذهم السياسى جنوبا حتى سيطروا على سواحل بحر بونتس (البحر الأسود) . فالمسعودى يطلق على بحر بونتس اسم "بحر البرغر والروس وغيرهم من الأمم"[٩٤]. أما الإدريسى فيقول فى وصفه "... وعلى ضفة هذا البحر الجنوبية مما يلى المغرب بلاد هرقلية ثم بلاد القلات وبلاد البنطيم وبلاد الخزرية وبلاد القمانية والروسية وأرض برجان"[٩٥] وأخيرا يصفه الكتاب المتأخرون أيضا ببحر الروس[٩٦]. وعلى هذا النحو يصير مؤكدا لنا أن الروس أصبح لهم موضع قدم على البحر الأسود (بحر بونتس)، وصار وجودهم هناك خطرا على المصالح البيزنطية فى القرم . ويشير

---

(٩١) Vernadsky, G., " The Rus' in the Crimea and the Russo-Byzantine treaty of 945 ",*Byzantina - MetaByzantina,* 1(1949), pt. II, p. 258.

(٩٢) Vernadsky, *Crimea,* p.249; Sorlin, *Le traité de 944*, p.460.

(٩٣) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 460; Soloviev, A., " Domination byzantine ou russe au nord de la mer noire á l'époque des Comnénes ? "*Akten des* XI *internationalen byzantinisten Kongress, 1958* (Munch, 1960), p. 574 .

ولمزيد من التفاصيل عن النشاط الروسى فى القوقاز انظر، الفصل الأول من الباب الثانى من البحث.

(٩٤) المسعودى، *التنبيه والإشراف*، ص٥٨ .

(٩٥) الادريسى، *نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق*، جـ٢، (القاهرة، د.ت)، ص ٩٠٥ .

(٩٦) انظر، الدمشقى، *كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر*، نشره/ أ. ميهرن، (ليبزج، ١٩٢٣)، ص ١٤٥؛ ابن الوردى، *خريدة العجائب وفريدة الغرائب*، (مصر، ١٨٥٩)، ص١٠٦؛ الحميرى، *الروض المعطار فى خبر الأقطار*، تحقيق/ إحسان عباس، (بيروت، ١٩٨٠)، ص٥٨٥.

سولوفيف إلى أن الروس فى هذه الفترة أقاموا مستعمرة لهم فى تموتوراكان (مطرخه *Matracha*) الواقعة على ساحل بحر بونتس، شرقى القرم[٩٧] .

وبعد هذا الشرط الذى وضعه البيزنطيون على الروس، تأتى عبارة عجيبة التركيب حيرت المؤرخين يقول فيها الكاتب "... ولن يكون هذا الإقليم خاضعا لكم . وإذا طلب أمير الروس منا جنودا ليشن حربا، فنحن موافقون على تزويده بأى عدد يطلبه"[٩٨]. وكما سبق القول فإن أحد المؤرخين قد غير تركيبة هذه العبارة إلى "وإذا كان هذا الإقليم غير خاضع لنا "[٩٩]. وفى هذه العبارة يعد الإمبراطور البيزنطى بتقديم قوات عسكرية، دون تحديد عددها، إلى الأمير الروسى، وهذه بالطبع ليستخدمها ضد طرف ثالث . إذن لابد وأن هذا الطرف قد يغير على القرم البيزنطية أو على الممتلكات الروسية الواقعة على بحر بونتس . ويقترح فيرنادسكى أن يكون الطرف الثالث هذا هو الخزر[١٠٠] .

والبند التاسع من المعاهدة يحظر على الروس الاقتراب من أية سفينة بيزنطية تكون قد جنحت إلى الشاطئ ونهبها أو أسر أى فرد من طاقمها وإلا سينالون العقاب إما حسب القانون البيزنطى، إذا قبض عليهم البيزنطيون، أو الروسى، إذا قبض عليهم الروس . كما يعطى هذا البند للصيادين البيزنطيين الخرسونيين حرية الصيد فى مداخل نهر الدنيبر، ويحظر على الروس التعرض لهم بالأذى . وهذا قد يدعونا للقول بأن هذه التجارة، تجارة الأسماك سواء الطازجة أو المملحة، كانت على قدر من الأهمية بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية[١٠١]. ويحظر هذا البند من المعاهدة على الروس قضاء الشتاء سواء عند بيلوبيرج أو سان ايليوثيروس . ونعلم من قسطنطين بورفيروجنيتوس أن الروس، بعد أن ينحدروا مع نهر الدنيبر، نحو القسطنطينية، كانوا يقيمون فى جزيرة سان ايليوثيروس بضعة أيام، وهى تقع بالقرب من مصبات النهر[١٠٢]، أما بيلوبيرج فلا نعرف هل المقصود بها ضفة نهر الدنيبر عند مصبه أم مكان معين[١٠٣]. وهناك كانت تقع مصايد أسماك الخرسونيين، ويمكن اعتبار جزيرة سان ايليوثيروس نقطة

---

(٩٧) Soloviev, *Domination*, p. 574

(٩٨) *R.P.C.*, P. 76.

(٩٩) انظر، هـ ٣٢، من هذا الفصل .

(١٠٠) Vernadsky, *Crimea*, p. 258.

(١٠١) Smedley, J., "Archaeology and the History of Cherson: a Survey of Some Results and Problems ", *'Apχ. Πόν.*, 35(1978), p. 189; Sorlin, *Le traité de 944*, p. 461.

(١٠٢) قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ٦٣ . جزيرة سان ايليوثيروس هى الآن بيريزان .

(١٠٣) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 461.

انطلاق صالحة للغاية للروس أكثر من عاصمتهم كييف(١٠٤)، وهم يتوجهون شطر القسطنطينية. عندئذ لاغرابة فى أن يحظر عليهم البيزنطيون الإقامة شتاء بهذه الجزيرة.

ونأتى للنقطة الأخيرة فى هذا البند من المعاهدة، وهى تختص بإقليم خرسون أيضا . ففيها يطلب الإمبراطور البيزنطى من الأمير الروسى العظيم ألا يسمح للبلغار السود بمهاجمة خرسون. والبلغار السمر هنا ليسوا بالطبع بلغار الطونة، الذين كانوا يعيشون عند الدانوب، لكن ربما كانوا فرعا لبلغار الفولجا . ونحن نجد ذكر للبلغار السود عند قسطنطين بورفيروجنيتوس حيث يقول "ويمكن أيضا للبلغار السود مهاجمة الخزر"(١٠٥).

وبهذا أعتبر قسطنطين بورفيروجنيتوس الخزر أعداء للإمبراطورية البيزنطية، لأنهم يمثلون تهديدا للقرم البيزنطية، خاصة خرسون. لكن فى هذه المعاهدة يحض البيزنطيون الروس على الدفاع عن خرسون(١٠٦) إذا هاجمها البلغار السود(١٠٧). ويبدو لنا من عبارة قسطنطين بورفيروجنيتوس أن قوة البلغار السمر صارت أقوى من الخزر، حلفاء بيزنطة بالأمس، ومن ثم فالطريق أمامهم سيصبح مفتوحا للوصول إلى بحر بونتس، وربما تهديد الممتلكات البيزنطية فى القرم. وبالمثل فإنهم سوف يهددون المواضع الروسية على بحر بونتس أيضا، ومن ثم وجب الدفاع عنها . ولما كان للروس موضع قدم فى هذه المناطق، فهم الذين سيتولون الدفاع عن خرسون باسم الإمبراطور البيزنطى .

وعلى هذا النحو تنتهى أقسام المعاهدة الثلاثة الرئيسية، والتى تشكل قلب المعاهدة. واللافت للنظر فى خاتمة المعاهدة أن الروس كانوا خليط من المسيحيين والوثنيين، لكن كان البيزنطيون يتقدمون بالحديث أولا عن الروس المسيحيين ثم إخوانهم الوثنيين . ولم ينس كاتب المعاهدة أن يوضح فى خاتمة أن هذه المعاهدة كتبت بتراض تام بين الطرفين . كما وضح العقاب الذى سيحل بأى شخص يفكر فى انتهاك هذه المعاهدة، وهذا حتى يحث الجميع على الالتزام ببنودها دون الإخلال بها .

---

(١٠٤) Court, *La Russie*, p. 102.

(١٠٥) قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ٦٥ .

(١٠٦) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 144.

(١٠٧) إذا لم تكن بلغاريا السمراء هى مدينة بلغار الواقعة على نهر الفولجا، فإن البلغار السمر على الأقل كانوا يعيشون فى المنطقة الواقعة بين الحدود الروسية الجنوبية وبلاد الخزر شمالا. انظر، Sorlin, *Le traité de 944*, pp.461–462.

وتعتبر معاهدة ٩٤٥م، من بين المصادر الكاملة التى تعكس لنا العلاقات المتبادلة بين البيزنطيين والروس فى القرن العاشر الميلادى، فهى توضح لنـــا الأهميـــة التـــى أولاها الطرفان للعلاقات التجارية بينهما، كذلك تبين لنا طبيعة العلاقات السياسية بينهما . وعلى هذا النحو أفلحت بيزنطة فى إيقاف ايجور عند حدود الدانـــوب، فـــى حملتـــه الثانية، بذكائها الدبلوماسى . ويمكن القول أنه إذا كانت بيزنطة هى التى قدمت عـــوض السلام، فلا يعنى هذا أنها كانت فى موقف أضعف من الروس . بل على العكس، فإنـــه من خلال تحليل معاهدة ٩٤٥م يتضح لنا أنها كانت الأقوى، فالامتيازات التى أعطتـــها لنفسها فى هذه المعاهدة تفوق التى منحت للروس، خاصة إذا علمنـــا أن معظـــم هـــذه الامتيازات الروسية قد سبق وحصل عليها الروس فى معاهدات سابقة أبرمـــــت بيـــن الطرفين . ولنا أن نقول أن الكلمات المعسولة والهدايا البيزنطية نجحـــت فـــى كســـب الروس ناحية بيزنطة فى هذه المرحلة من عمر العلاقات بين الطرفين(١٠٨).

(١٠٨) Shepard, J., " Byzantine Diplomacy 800 - 1204 AD means and ends " in: *Byzantine Diplomacy, ed. J. Shepard & S. Franklin*, (Hampshire, 1992), p.66.

الفصل الثانى

الروس وبيزنطة والبلقان

٩٤٥ - ٩٧٢م

أدار الأمير الروسى العظيم ظهره إلى البيزنطيين ، بعد أن وقع على معاهدة ٩٤٥م ، وبعد أن اطمأن على مستقبل العلاقات معهم ، يمم وجهه شطر منطقة السهوب، ليبسط سيطرته على القبائل القاطنة بها . فتوجه إلى الدريفليين *Derevlians* ليجمع منهم الجزية ، التى كان قد رفع قيمتها . ونظراً لشدته فى جباية هذه الجزية فقد اضطر الدريفليون إلى الدفع له هو ورفاقه ، لكن جشع وطمع ايجور جعلاه يعود إليهم ثانية ليجمع منهم المزيد من الضرائب لنفسه . وهنا رفض الدريفليون دفع المزيد من الضرائب وتشاوروا فى الأمر واتفقوا جميعاً على قتله . ويقول نسطور ، فى حوليته الروسية الأولى ، إن زعيم الدريفليين قال لأقرانه "إذا جاء الذئب بين الأغنام ، فإنه سيلتهم القطيع كله ، الواحدة تلو الأخرى ، إذا لم نقتله"(١) . وبهذا أوقعوا بالأمير الروسى العظيم ايجور وذبحوه هو ورجاله(٢) .مات ايجور وكان ابنه المسمى سفياتوسلاف *Sviatoslav* لايزال فى طور الصبا ، وحسبما جرى عليه العرف بين الروس ، فقد قامت أمه الأميرة اولجا *Olga* بالوصاية عليه حتى يشب عن الطوق(٣) .

وكان أول ما فعلته الأميرة اولجا ، عقب توليها الوصاية على ابنها سفياتوسلاف فى عام ٩٤٥م ، أن جعلت جل اهتمامها الانتقام من قتلة زوجها الأمير ايجور . فتحت أحداث عام ٩٤٥ - ٩٤٦م يحدثنا كاتب الحولية الروسية الأولى عن كيفية انتقام الأميرة اولجا من الدريفليين ، وتتجلى فى حكاياته عن هذا الانتقام قمة قسوة الروس فى معاملة أعدائهم . كما يصور لنا نسطور مدى ذكاء ومكر ودهاء اولجا فى التخطيط لهذا الانتقام ، بل من رواياته الطريفة عن هذا الانتقام ، ما قد ينكره المرء ، على الرغم من إمكانية حدوثه ، أنها طلبت جزية من الدرفيليين ، فى نهاية مراحل الحرب بينهما ، وكانت عبارة عن حمام أو نوع من الطيور المشابهة . وجمعت الجزية منهم ، لينام الدرفيليون على أثرها قريرى العين ، وما أن حل الظلام

---

(١) *R.P.C.*, p. 78.

(٢) Rambaud, A., *Histoire de la Russie*, (Paris, 1878), p. 66.

(٣) Karamsin, M., *Histoire de l'empire de la Russie*, trad. Fra. S. Thomas et Jauffret, tome I, (Paris, 1819), pp. 179-197.

حتى أشعلت النيران فى هذا الحمام وأطلقته فى الهواء ليعود إلى أعشاشه ثانية . وهنا هرع الدرفيليون من منازلهم ليلاً وهم يعدون بين منازلهم المشتعلة ، فاستقبلتهم سيوف الروس وحصدت رؤوسهم بلا رحمة[(٤)] . وفرضت عليهم الجزية[(٥)] ، التى خصصت ثلثيها للعاصمة الروسية كييف ، والثلث الآخر لمدينة فيتشجورود *Vešgorod* [(٦)] .

ولن نقف طويلاً أمام انتقام اولجا من الدريفليين ، فقد أسهبت فيه الحولية الروسية الأولى ، ويكفى القول إن اولجا أدارت دفة الحكم فى هذه الفترة الحرجة من عمر البلاد بحنكة واقتدار ، كما أنها نظمت شئون الحكم فى بلادها بعد أن تجولت فيما بين الإمارات الروسية . وهناك شئ ينبغى أن نشير إليه وإلى دلالته ألا وهو دفع الأميرة اولجا ثلثى الجزية إلى مدينة كييف والثلث الآخر إلى مدينة فيتشجورود ، التى كانت تمتلكها . فقد كان هناك تقليد بين الأمراء الروس يلزم كل أمير أن يدفع ثلثى ما يجمعه من الجزية للعاصمة الروسية كييف ، والثلث الباقى لإمارته . ومن هذا المنطلق تصرفت اولجا ، بوصفها أميرة مالكة لمدينة فيتشجورود ، فدفعت ثلثى ما جمعته من الدرفيليين لمدينة كييف والثلث الأخير لمدينتها[(٧)] .

وإذا كانت الأميرة اولجا قد انشغلت لبعض الوقت بالجبهة الداخلية ، فإنها عقب الانتهاء من إقرار الأمور فى البلاد ، والذى استغرق أثنى عشر عاماً ، قررت اولجا الاحتكاك بالعالم الخارجى ، وكان فى طليعة المتعاملين معها الإمبراطورية البيزنطية . فعلى إثر معاهدة ٩٤٥م استقرت الأمور بين البيزنطيين والروس ، ولم نسمع فى المصادر التاريخية عن شئ عكر صفو هذه العلاقات . وقد توج هذا الصفاء بين الطرفين بزيارة الأميرة اولجا إلى القسطنطينية فى التاسع من شهر سبتمبر عام ٩٥٧م، وهو التاريخ الذى أعطاه قسطنطين بورفيروجنيتوس فى كتابه عن المراسم ، ويكاد يتفق معظم المؤرخين عليه[(٨)] ، وبرغم أن نسطور ذكر زيارتها هذه تحت أحداث

---

(٤) *R.P.C.*, pp. 78-81; Le Clerc, *Histoire physique, morale, civile et politique de La Russie ancienne* ,tome I, (Paris, 1783), I, pp. 129-131; Karamsin, *Histoire*, I, pp. 199-204.

(٥) Le Clerc, *La Russie*, p. 131; Soloviev, *L'etat russe*, p. 256.

(٦) Karamsin, *Histoire*, p. 205; Le Clerc, *La Russie*, p. 131.

هذه المدينة كان قد أسسها اولج ، وأعطيت كمهر إلى اولجا ، باعتبارها خطيبة الأمير ايجور . وهى على بعد ٧ فراسخ من كييف ، وتقع على ضفاف نهر الدينبر شمالاً . انظر،

Karamsin, *Histoire*, p. 205.

(٧) Soloviev, *L'état russe*, p. 256.

(٨) Const. Porph.,*De Cerimoniis*, II, p.594; Soloviev, *L'etat russe*, p. 255; Jenkins, *Byzantium*, p. 265 ; Pares, *Russia*, p. 26; Ostrogorsky, *Byz. State*, pp.250-251.

عام ٩٥٥م[٩] . وينبغى أن نشارك المؤرخين اتحادهم على أن هذه الزيارة تمت فى عام ٩٥٧م ، لأن كاتب الرواية ، وهو قسطنطين بورفيروجنيتوس، كان معاصراً لمثل هذا الحدث، على عكس نسطور الذى دونها بعده بما يقرب من قرن من الزمان .

ولنمض مع كلمات قسطنطين بورفيروجنيتوس لنتعرف على مراسم الاستقبال الإمبراطورى للأميرة اولجا ومرافقيها فى البلاط الملكى البيزنطى، الذى استقبلها فيه مرتين[١٠] . والمرة الأولى التى استقبلها فيها الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس كان يوم الأربعاء الموافق التاسع من شهر سبتمبر عام ٩٥٧م[١١] . وفى هذه المرة حضر كبار رجال الدولة وسيدات المجتمع البيزنطى الاحتفال بمجيء الأميرة اولجا إلى القصر الإمبراطوري، بينما وقف الإمبراطور فى بهو جستينان أو كما يسمى فى اليونانية تريكلينوس جستنيان τρικλίνῳ τοῦ 'Ιουστινιανοῦ[١٢]. لقد اصطف عليه القوم أمام القصر فى ترتيب هيراركى تبع فى البلاط البيزنطى فى مثل هذه المناسبات ، وكانوا على النحو التالى :

أولاً : من حملن لقب زوستى α'ι ζωσται[١٣] ، ثانياً : زوجات الماجستيرات α'ι μαγίστρεσσαι[١٤] ، ثالثاً: البطريقات α'ι πατρικίαι، أى زوجات البطارقة ، رابعاً: من حملن لقب بروتوسباثاريوس أوفيكياليوس α'ι 'οφφικιαλέαι πρωτοσπαθαρέαι[١٥]، خامساً: الأخريات ممن حملن

---

(٩) R.P.C., p. 82.

(١٠) Soloviev, *L'etat russe*, P. 255.

عن المراسم البيزنطية المتبعة مع السفراء الأجانب عند استقبالهم بالبلاط البيزنطى ، انظر،
Tinnefeld, F., " Ceremonies for Foreign Ambassadors at the Court of Byzantium and their Political Background ", *ByzF*, 19(1993), pp. 193-214.

(١١) Jenkins, *Byzantium*, p. 265.

(١٢) Const. Porph., *De Cerimoniis*, II, p. 595.

(١٣) Const. Porph., *De Cerimoniis*, II, pp. 595-596.

لقب البطريقة الزوستى ، كان يمنحه الإمبراطور للسيدات اللاتى يحملن لقب بطريقة ، وبهذا يعلون شأناً عمن يحملن لقب بطريقة فقط . انظر،
Le traité de Philothée, ed. & trad N. Oikonomides, dans: *Les listes des préséance byzantines des IXᵉ et Xᵉ siècles*, (Paris, 1972), pp. 94-95; Bury, J.B., *The Imperial Administrative System in the Ninth Century*, (London, 1911), p. 33.

(١٤) نلاحظ أن هذا الاسم هنا مركب من المقطع μαγ ίστρ + ισσα وهو المقطع الذى يضاف إلى الاسم ليعطيه صفة التأنيث . ويقول بالمر إن هذا الأمر كان شائعاً فى العصور الوسطى وبصفة خاصة مع الأسماء اللاتينية الأصل . انظر، Palmer, L., *A Grammer of the Post-Potlemaic Papyri*, (London, 1948), vol. I, p.93.

(١٥) لقب بروتوسباثاريوس، كان حملته يشكلون طبقة خاصة بين حملة الألقاب، ويقتضى التسجيل فيها أن تدفع الخزانة راتباً سنوياً من المال لهم . انظر،

لقب بروتوسباثاريوس فقط ، سادساً: من حملن لقب سباثاروكانديدات *αἰ σπαθαροκανδιδατισσάι*[16] ، سابعاً: من حملن لقب سباثاريوس[17] والاستراتورات *αι στρατώρισσαι*[18]، والكانديدات *αι κανδιδάτισσαι*[19]. هكذا تم استقبال الأميرة اولجا . ولكن ماذا عن كل هذا الحشد من النبيلات البيزنطيات اللاتى احتشدن لاستقبال الأميرة الروسية ؟ إن الألقاب التى حملتها تلك النبيلات البيزنطيات ، والتى تعكس سموهم فى بيزنطة ، لكفيلة بأن تعكس لنا أهمية وعلو شأن حاكم بلاد الروس آنذاك ، كما أنها تعكس حرص الإدارة البيزنطية على إبراز مفاتن البلاط البيزنطى وبهاؤه أمام الحكام الأجانب . وهذا ليس بمستغرب على بيزنطة أن تحرص على سكر زوارها الأجانب برونقها وجمالها وحسن محياها ، بل وزيادة فى نشوتهم بها كانت تغدق عليهم الأموال، مثلما حدث مع الأميرة اولجا وحاشيتها فى نهاية زيارتها إلى القسطنطينية.

وبعد هذا الاستقبال النسائى ، إذا جاز القول ، استقبل الإمبراطور الأميرة اولجا داخل القصر ، وفى هذا اليوم تناول سفراء الأمراء الروس والتجار الذين كانوا برفقتها العشاء معها فى القصر الإمبراطورى[20] . وقد استمرت زيارة الأميرة اولجا حتى الثامن عشر من شهر أكتوبر ، حيث عقدت فى هذا اليوم جلسة الوداع ، وفيها تم للمرة الأولى تقديم الهدايا إلى اولجا ، وإلى ابن أخيها ايجور أو حاقون *Hakon* ، وإلى أقاربها الثمانية ، وإلى عشرين سفيراً (للأمراء المحليين) ، وإلى ثلاثة وأربعين تاجراً ، وإلى مترجمين اثنين ، وإلى ست خادمات . وفى نفس هذا اليوم تم تقديم هدايا أخرى إلى ابن الأخ وإلى ستة عشر قريباً له ، وإلى ثمانى عشرة خادمة ، وإلى اثنين وعشرين سفيراً ، وإلى أربعة وأربعين تاجراً وإلى مترجمين اثنين[21] . وعلى هذا

" Constantine VII Porphyrogénéte et les theme de Cephalonia et de Longobardia ", *REB*, 21 (1963), p. 121; Oikonomides, N., *Les listes des préséance byzantines de IX^e et X^e siècle*, (Paris,1972), p. 297; Bury, Adm. Sys., p. 27 .

أما أوفيكيالوس فهى لمزيد من التميز والرفعة فى الدرجة ، انظر،
Le traité de Philothée, pp. 95 & n. 43, 129 & n. 85.

(١٦) سباثاروكانديدات ، هذا اللقب مركب من لقبين سباثاروبوس + كانديدات، وقد ظهر هكذا فى القرن التاسع الميلادى وحتى القرن الحادى عشر الميلادى، وهو يعود إلى النصف الأول من القرن السابع الميلادى .انظر، Bury, *Adm. Sys*., p. 26; Oikonomides, *Les listes*, p. 247.

(١٧) عن الاسباثاريوس، انظر Bury, *Adm, Sys*., pp. 27.

(١٨) عن الاستراتور ، انظر، Bury, *Adm, Sys*., pp. 117-118.

(١٩) عن الكانديدات ، انظر، Oikonomides, *Les listes*, p. 298.

(٢٠) Const. Porph., *De Cerimoniis*, II., p. 596.

(٢١) Const. Porph., *De Cerimoniis*, II, p. 598; Soloviev, *L'état russe*, P. 255.

النحو تم وداع الأميرة اولجا وعادت إلى موطنها . ولا يفصح كتاب المراسم عن تفاصيل الزيارة والأحداث التى دارت فيها ، بل اكتفى بذكر هذه التفاصيل لتوضيح مراسم الاستقبال فى البلاط البيزنطى .

ومما يجدر ذكره هنا أن الأميرة اولجا قد وردت فى نص كتاب المراسم بألقاب ومسميات متباينة منها "اولجا دوقة روسيا" (٢٢) ، والأرخونتيسا" (٢٣) أى الحاكمة ، وهى مؤنث أرخون ، اولجا حاكمة روسيا" (٢٤) . وكل هذه المسميات التى أطلقت عليها إنما تعنى أنها كانت الأميرة الوحيدة الحاكمة لبلاد الروس(٢٥) .

وإذا ما انتقلنا إلى كاتب الحولية الروسية الأولى ، سنعرف بعض الأحداث التى دارت فى هذه الزيارة . فيذكر نسطور " أن الأميرة اولجا ذهبت إلى القسطنطينية، حيث كان الإمبراطور الحاكم يدعى قسطنطين بن ليو . وجاءت اولجا إلى حضرته" . إلى هنا تتفق روايته مع رواية قسطنطين بورفيروجنيتوس، كما ذكرنا من قبل. ثم يستكمل نسطور روايته قائلاً "وعندما رأى الإمبراطور أنها جميلة الملامح وحكيمة أيضاً ، تعجب من فطنتها وتحدث معها ، فلاحظ أنها جديرة بأن تحكم معه فى مدينته ، وعندما سمعت اولجا كلماته أجابت بأنها لا تزال وثنية ، وإذا رغب فى تعميدها ، فإن عليه أن يتولى هذا الأمر بنفسه ؛ ومن ناحية أخرى ، فإنها لم تكن راغبة فى التعميد . وبطبيعة الحال قام الإمبراطور ومعه البطريرك بتعميدها .. وبعد الانتهاء من تعميد اولجا دعاها (إلى حضرته) وأخبرها أنه يريد الزواج منها . لكنها أجابت عليه بقولها "كيف تتزوجنى بعد تعميدك لى بنفسك ونداءك لى بابنتى ؟ وعلى حد علمك ، أنت نفسك ، فإن هذا غير جائز بين المسيحيين" . وعندئذ قال لها الإمبراطور "أى اولجا لقد فقتنى حيلة ودهاء" . ثم قدم لها هدايا عديدة من الذهب والفضة والحرير ومزهريات متنوعة ، وودعها وهو لا يزال يدعوها بابنتى"(٢٦) .

وعلى الرغم من أن نسطور أمدنا ببعض تفاصيل زيارة اولجا ، إلا أنه أراد أن يبرز بعض الأمور فى روايته ، ربما إعجاباً منه بشخصية هذه الأميرة ، مثل جمالها الطاغى الذى شد الإمبراطور فنسى تقاليد المسيحية وطلب الزواج منها منذ رآها للمرة الأولى ؛ وأنها لم تسع للتعميد بل الإمبراطور نفسه هو الذى سعى لذلك ، حتى يتمكن من الزواج منها . لكن تمكنت اولجا من الرد على طلب الإمبراطور بحنكة

---

(٢٢) Const. Porph., *De Cerimoniis,* II, p. 594.

(٢٣) Const. Porph., *De Cerimoniis,* II, p. 596.

(٢٤) Const. Porph., *De Cerimoniis,* II, p. 594.

(٢٥) Soloviev, A., " 'ΑΡΧΩΝ ΡΩΣΙΑΣ", *B,* 31 (1961), pp. , 238-240.

(٢٦) *R.P.C.,* P. 82.

وذكاء ، الأمر الذى أعجز الإمبراطور ، فلم يعز نفسه فى حبها إلا بتقديم الهدايا الثمينة لها . لكن لا يمكن للمرء أن يسلم بكل كلمات نسطور، الأمر الذى يدفعنا للتساؤل لماذا ذهبت اولجا لزيارة القسطنطينية فى عام ٩٥٧م ؟!.

يذكر نسطور أن اولجا عندما ذهبت إلى القسطنطينية كانت لا تزال وثنية ، فكيف إذن جاءتها المعرفة بأن الأب فى المعمودية لا يجوز له الزواج ممن عمدها؟! هل قصت على البطريرك ما أفضى به الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس إليها ، فأخبرها بأن ذلك غير جائز ؛ أم أنها كانت على دراية بتعاليم الكنيسة قبل ذهابها إلى القسطنطينية ، أو بمعنى آخر أنها كانت قد تنصرت فى كييف ، على حد قول اوستروجورسكى[٢٧] !؟ إننا نعلم ، من خلال معاهدة ٩٤٥م المبرمة بين البيزنطيين والروس ، انه كان هناك العديد من المسيحيين الروس يعيشون فى الإمارات الروسية[٢٨] ، فلماذا نستبعد الفرض الثانى ، برغم إمكانية حدوثه . وللأسف الشديد لا يمكننا الفصل فى هذه الناحية بصورة جازمة ، فلا نملك الأدلة التاريخية التى تساعدنا على الأخذ برأى دون الآخر . ونجد أنفسنا نعود مرة ثانية إلى التساؤل لماذا ذهبت اولجا لزيارة القسطنطينية فى عام ٩٥٧م؟!.

ربما كان فى الكلمات التالية المأخوذة عن الحولية الروسية الأولى ، ما يساعدنا على وضع إجابة لهذا التساؤل . يقول نسطور أن الأميرة اولجا غادرت القسطنطينية وعادت إلى بلادها ، وكان لها نشاطها بعدئذ فى نشر المسيحية بين شعبها . لكنه يذكر قصة غاية فى الأهمية التاريخية فهو يقول أنها بعد أن عادت إلى كييف بعث إليها الإمبراطور البيزنطى برسالة قائلاً فيها "بما أننى أغدقت عليك الهدايا العديدة ، فقد وعدتنى أن ترسلى لى، عند عودتك إلى بلاد الروس ، هدايا من العبيد والشمع والفراء ، وأن تبعثى بجنود لمساعدتى"[٢٩] . ماذا تعنى هذه القصة بالنسبة لنا ؟ فلنعد سوياً القهقرى ، إلى بنود معاهدة ٩٤٥م ، لنرى ما بين هذه القصة والمعاهدة من ترابط . إن العبيد والشمع والفراء هى السلع الرئيسية الثمينة التى يأتى بها التجار الروس إلى القسطنطينية[٣٠] ، أى البضائع التى ينتظرها البيزنطيون من تجار الشمال والتى تم وضع البند الأول والثانى والثالث والرابع بشأنها . ولابد أن الأميرة كانت تحمل الكثير منها إلى الإمبراطور، وهو الأمر الذى نال إعجابه فوعدته بالمزيد عند عودتها ، أما

---

(٢٧) Ostrogorsky, *Byz, State*, p. 251 n. 2.

(٢٨) *R.P.C.*, pp. 74 ff.; Pares, *Russia*, p. 26.

(٢٩) *R.P.C.*, p. 83.

(٣٠) انظر الفصل الأول من الباب الثالث من البحث .

وعدها بأنها ستبعث له بجنود فما هو إلا توكيد منها على البند الثالث عشر من المعاهدة ، وهذا يعكس لنا أحد الموضوعات التى تناولها الطرفان فى مباحثاتهما . وعلى هذا يمكن القول إن المباحثات بين الأميرة اولجا والإمبراطور البيزنطى احتوت على بندين أساسيين هما التجارة والمساعدات العسكرية. وينبغى أن نلاحظ أن الحاشية التى كانت ترافق الأميرة اولجا كان قوامها إثنين وعشرين سفيراً ينوبون عن أمرائهم الروس ، بالإضافة إلى ابن أخيها ايجور . وبهذا يكون المجموع أربعة وعشرين أميراً محلياً تتزعمهم الأميرة اولجا وابنها ، وهذا قد يشير إلى التنظيم السياسى لبلاد الروس آنذاك[٣١] ؛ بالإضافة إلى وفد تجارى روسى قوامه أربعة وأربعون تاجراً روسياً . فماذا إذن يعنى كل هذا ؟! ألا يعكس هذا الوفد المرافق للأميرة اولجا الغرض من الزيارة التى قامت بها إلى القسطنطينية ، خاصة إذا ما ربطنا كل هذا للقول بأن زيارة الأميرة اولجا إلى القسطنطينية فى عام ٩٥٧م كان الغرض منها تجديد اتفاقية عام ٩٤٥م المبرمة بين البيزنطيين والروس[٣٢] ، أو بمعنى آخر التوكيد على سريان مفعولها بينهما، وليس كما قد يذهب البعض أن الغرض منها كان دينياً ، على النحو الذى سرده نسطور . وإلا فما السبب الذى جعل الإمبراطور البيزنطى يتركها بعض الوقت قبل أن يسمح لها بلقائه . إننا نعرف رد الأميرة اولجا على رسل الإمبراطور البيزنطى ، حيث قالت لهم " بأنها سوف تحقق مطلب الإمبراطور إذا وافق على البقاء معها فى بوشاينا *Pochyna* لمدة طويلة ، كتلك التى قضتها على البسفور " وبهذا صرفت رسل الإمبراطور بخفى حنين[٣٣] . ويقول المؤرخون أنها أقامت بحى سان ماماس فى هذه الأثناء ، حيث عشيرتها من الروس ، لحين سماح الإمبراطور لها بالذهاب للقائه[٣٤] . وقد عدت الأميرة اولجا هذا العمل غير لائق بمكانتها ، الأمر الذى أضمرته فى نفسها لحين عودتها إلى بلادها لترد له الصاع صاعين . وإذا كان قسطنطين قد أفلح فى تعميدها على المذهب الأرثوذكسى ، فإننا نعلم أنها بعثت فى عام ٩٥٩م برسالة إلى الإمبراطور الألمانى أوتو Otto العظيم تطلب منه أن يرسل إليها

---

(٣١) Soloviev, *L'état russe*, p. 255.

(٣٢) Soloviev, *L'état russe*, p. 255.

(٣٣) *R.P.C.*, p. 83 ; Pargoire, *Saint-Mamas*, p. 20.

(٣٤) Pargoire, *Saint-Mamas*,. P. 209.
انظر أيضاً، كويستلر ، الخزر ، ص ١٣٦ .

أسقفاً من عنده[٣٥] . وبهذا العمل الأخير تكون قد ردت الصاع صاعين للإمبراطور البيزنطى ، لما ألحقه بها من إهانة أدبية لدى وصولها إلى بيزنطة.

إن السياسة الدبلوماسية البيزنطية تجاه الحكام المستقلين اختلفت طبقاً لمدى صلاحيته للمصالح البيزنطية[٣٦] . وعلى هذا الأساس استقبل البيزنطيون الأميرة اولجا عند وصولها بلا اكتراث ، لأنها جاءت وهى فى وضع المحتاج ، كما سبق وبينا . ولعل هذا يؤكد ما ذهبنا إليه فى السطور الماضية من أن الهدف من زيارة اولجا كان سياسياً فى المقام الأول وليس دينياً ، فما أسهل عليها أن تبعث برسالة إلى الإمبراطور البيزنطى ، كتلك التى بعثت بها إلى الإمبراطور الألمانى أوتو ، تطلب منه بعثة دينية لتعليمها هى وشعبها تعاليم المسيحية . والآن تشير كل الشواهد التاريخية بالدليل القاطع إلى ما ذهبنا إليه من أسباب زيارة الأميرة اولجا إلى القسطنطينية . ولنا أن نجمل القول بأن هذه الزيارة قد أثبتت استمرار المصالح المشتركة بين الطرفين وأعطت دفعة قوية للعمل التبشيرى البيزنطى بين الروس[٣٧].

على هذا النحو، كانت الأميرة اولجا تمتلك من الصفات الشخصية ما جعلها تدير دفة الحكم فى البلاد على خير وجه ، وليس أدل على ذلك من كلمات المؤرخ الفرنسى لوكليرك *Le Clerc* " أنه من الضعف يولد الحياء ، ومن الحياء الرقة ، ومن هذه يتولد المكر والزيف ، ولا يملك التاريخ شيئاً يوجه به اللوم إلى اولجا "[٣٨] بل قال عنها المؤرخ الروسى كارامزين *Karamsin* " إن امرأة ضعيفة يمكنها أحياناً أن تعادل أعظم الرجال "[٣٩] .

والآن ، تحت أحداث عام ٩٥٦-٩٦٤م ، يحدثنا كاتب الحولية الروسية الأولى أن الأمير سفياتوسلاف قد شب عن الطوق ، وتولى مقاليد الحكم فى البلاد . وكان أول ما فعله سفياتوسلاف أن بدأ فى تجميع جيش كبير قوى ، ليبسط به كلمته على القبائل المجاورة ، وعلى الشعوب السلافية التابعة[٤٠] . ولدينا وصف للأمير الروسى سفياتوسلاف يكشف عن طبيعة شخصيته ، فقد كان لا يصطحب فى حملاته العسكرية أية عربات أو ماشية ، وكان أكله عبارة عن شرائح من لحم الخيل أو الحيوانات البرية

---

(٣٥) Baumgarten, N., " Saint Vladimir et la conversion de la Russie", *OC*, 27(1932), pp. 58-59.

(٣٦) Shepard, J., "Aspects of Byzantine Attitudes and Policy towards the West in the Tenth and Eleventh Centuries ", *ByzF*, 13 (1988), p. 68.

(٣٧) Ostrogorsky, *Byz. State*, p. 251; Court, *La Russie*, p. 103.

(٣٨) Le Clerc, *La Russie*, p. 128.

(٣٩) Karamsin, *Histoire*, p. 199.

(٤٠) *R P.C.*, p. 84.

أو البقر ، بعد أن يقوم بشيها على الفحم بنفسه . ولم تضرب خيمة له قط ، بل يفترش دثار جواده تحته ، واضعاً سرجه أسفل رأسه ، ويلتحف بالسماء الزرقاء . وبالمثل كان كل أتباعه يسيرون على نهجه[٤١] . والأهم من كل هذه الصفات ، أن كاتب الحولية الروسية الأولى يضفى عليه صفة نبل الأخلاق فيجعله لا يشن حرباً على عدو من أعدائه إلا بعد أن يرسل إليه يخبره بمجيئه للهجوم عليه[٤٢] .

بدأ الأمير الروسى سفياتوسلاف حكمه بقتال الخزر والشعوب القاطنة على نهرى الفولجا والأوكا *Oka* ؛ وتحارب مع كثير من القبائل السلافية مثل الفياتشيين *Vyatichians* ، والياسيين *Yasians* ، والكاسوجيين *Kasogians* ، وأخضعهم للجزية[٤٣] .

وبعد هذا النشاط العسكرى المتقد فى منطقة السهوب ونهر الفولجا ، تخبرنا الحولية الروسية الأولى بأنه فى عام ٩٦٧م سار سفياتوسلاف صوب الدانوب ليهاجم البلغار . وعندما التقى الطرفان معاً تغلب سفياتوسلاف عليهم واستولى على ما يقرب من ثمانين بلدة بلغارية بطول نهر الدانوب ، واتخذ مقامه فى مدينة بيرياسلاف ....[٤٤] . فما قصة هذا الهجوم ؟! .

وللإجابة على مثل هذا التساؤل ، علينا الرحيل إلى البلقان قليلاً للتعرف عما يجرى على أراضيه ، عسى أن يفيدنا فيما نحن بصدده . ففى عام ٩٥٩م ، وفى عيد الفصح ، سار جيش مجيارى ضخم صوب القسطنطينية ، حيث خرب تراقيا وجمع منها غنائم كثيرة . وأرسل الإمبراطور البيزنطى جيشاً قوياً بقيادة البطريق فوتيوس أرجيروس *Photius Argyrus* ، تمكن من الهجوم على العدو ليلاً وهزيمته . وهكذا عاد المجيار إلى بلادهم بخفى حنين ، بعد أن فقدوا الكثير من الأسرى[٤٥] .

وفيما بعد بعامين ، وبالتحديد فى عام ٩٦١م ، وأثناء حكم الإمبراطور رومانوس الثانى (٩٥٩-٩٦٣م) ، جدد المجيار هجماتهم على الأراضى البيزنطية ، حيث هاجموا تراقيا . إلا أن ماريانوس أرجيروس *Marianus Argyrus* ، حاكم مقدونيه، تمكن من إلحاق الهزيمة بهم وعادوا إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة[٤٦]؛ وبالرغم من هاتين الهزيمتين الثقيلتين للمجيار على أيدى القوات البيزنطية لم يوقف

---

(٤١) *R.P.C.*, p. 84; Karamsin , *Histoire*, p. 213; Le Clerc, *La Russie*, p. 134.
(٤٢) *R.P.C.*, p.84.
(٤٣) *R.P.C.*, p. 84.
(٤٤) *R.P.C.*, pp. 84-85.
(٤٥) Moravcsik, *Magyars* p. 57.
(٤٦) Moravcsik, *Magyars*, p. 59.

المجيار هجماتهم على الإمبراطورية البيزنطية ، وهذا ثابت عن طريق أن الإمبراطور البيزنطى نقفورفوقاس أرسل فى عام ٩٦٦م إلى القيصر البلغارى بطرس رسالة يتهمه فيها بالسماح للمجيار بعبور الدانوب والهجوم على الإمبراطورية البيزنطية . ولم يكن لدى بطرس أية إجابة على الإمبراطور، فقد كان يرغب فى منع المجيار من الاغارة على البلاد ، لكنه لم يكن يملك القوة العسكرية الكافية لعمل هذا . لذلك ، وحتى يجنب بلاده ما قد ينجم عن هذا الهجوم من تدمير وتخريب، شجعهم بطرس على العبور بأقصى ما يمكنهم إلى الولايات البيزنطية ... وبهذا صار نقفورفوقاس صاحب حق فى عقاب البلغار(٤٧) . ويقول كدرينوس *Cedrenus* أن قيصر البلغار بطرس لم يصغ لكلمات الإمبراطور البيزنطى ، وتعلل بذرائع شتى(٤٨) . ويؤكد المؤرخ العربى المسيحى يحيى الأنطاكى هذه الأحداث بقوله ".. وكان البلغار قد انتهزوا الفرصة بتشاغل نقفور الملك بغزو بلدان المسلمين، وأعاثوا فى أطراف أعماله على ما يجاورهم من بلدانه..."(٤٩) . والمقصود هنا عند يحيى أن البلغار هم الذين تسببوا فى تخريب البلقان ، بسماحهم للمجيار بالهجوم على الولايات البيزنطية الواقعة به . لكن ما السبب الذى دعى البلغار للإخلال بتعهداتهم مع الإمبراطورية البيزنطية ، بعد ما تم التفاهم بينهما فى عام ٩٢٧م ، بعقد سلام مع القيصر بطرس ، يدفع البيزنطيون بموجبه جزية سنوية للبلغار ؟! .

لقد ظهر رسل البلغار فى عام ٩٦٥م فى البلاط البيزنطى ليتسلموا الجزية السنوية المقررة على بيزنطة ، بموجب معاهدة السلام مع بطرس البلغارى فى عام ٩٢٧م . وكانت هذه الفترة من عمر بيزنطة هى فترة الإنجازات العسكرية فى الشرق على حساب المسلمين ؛ فكيف يجرؤ البلغار الوضعاء على طلب الجزية منه ، وعلاوة على ذلك ، فإن ماريا ليكابينا *Maria Lecapena* ، زوجة بطرس قيصر البلغار ، وحفيدة الإمبراطور رومانوس ليكابينوس ، قد توفيت آنذاك ، وادعى نقفور أن ما تدفعه بيزنطة للبلغار سنوياً ليس بجزية ، بل هو عبارة عن مال يدفع لمعاشها . وطالما أنها رحلت عنا فليس هناك ثمة داع لإرساله ، وهكذا وجد نقفور فوقاس السبيل للخلاص من هذه الجزية(٥٠) . ويذكر ليو الشماس أن الإمبراطور البيزنطى " أمر بجلد

---

(٤٧) *Zonaras*, III, pp. 512-513; *Cedrenus*, II, p. 372; Runciman, S., *A History of the First Bulgarian Empire*, (London, 1930), p. 201; Moravcsik, *Magyars*, p. 59.

(٤٨) *Cedrenus*, II, p. 372.

(٤٩) *Y ahya d'Antoiche*, p. 813.

(٥٠) Leonis Diaconi Caloensis Historiae Libri Decem et Liber De Veltitione Bellica Nicephori Augusti, ed. C. B. Hase, *CSHB*, (Bonnae, 1828), pp. 61-62; Fine, J.,

رسل البلغار ، قائلاً لهم اذهبوا إلى ملككم ، آكل الجلود ، وقولوا له إن ملــك الــروم العظيم قادم إليه .. ولا تنسى أن الروم يطلبون الجزية لا يؤدونها ، ثم صرفــهم إلــى بلادهم "[٥١] . وعلى هذا خرج الإمبراطور البيزنطى نقفورفوقاس فى العام الرابع مــن حكمه إلى حدوده مع البلغار ليتفقد مدن مؤيزيا كما استولى على الحصــون المتاخمــة لبــلاده[٥٢]، التــى كــانت تحــرس ممــرات جبــال رودوبــى*Rodopi* ومضــايق هيموس*Haemus*[٥٣] . وفى الحقيقة لم يرد نقفورفوقاس أن يذل البلغار فقط ، بــل أن يسحقهم وأن يدمج بلادهم ، التى كانت تعد امتداداً للإمبراطورية البيزنطيــة ، داخــل حدود دولته[٥٤] . لكنه لم يكن متلهفاً على القتال على أرض البلغار ، بسبب وعورتها . فقد كانت مليئة بالجبال والغابات والوديان ، الأمر الذى يجعل قواته عرضة للكمــائن البلغارية ، وقد تهزم قواته كما هزمت القوات البيزنطية منهم مراراً من قبــل فقــرر العودة إلى القسطنطينية ، والبحث عن حل آخر لعقاب البلغــار[٥٥] ، الذيــن ســمحوا للمجيار بالهجوم على الأراضى البيزنطية فى البلقان . وهناك رواية لشاهد عيان هــو ليوتبراند الكريمونى *Lutiprand of Crimona* ، نقلتها لنا المؤرخة المجريــة جيــولا مورافزيك *Gyula Moravcsik* مضمونها أنه فى أثناء حكم الإمبراطور نقفورفوقــاس أسر المجيار خمسمائة أسير بيزنطى قرب تسالونيك، واقتادوهم إلى بلادهــم بواســطة ثلاثمائة مجيارى . ويضيف فى مناسبة أخرى أن أربعين جندياً مجرياً من كتيبة قوامها مائتا رجل أسروا فى مقدونيه، بالقرب من القسطنطينية. وهم الذين أصبحوا فيما بعــد حرساً للإمبراطور نقفورفوقاس، واشتركوا معه فى الحملات ضد المسلمين[٥٦] .

على هذا النحو، تبدو لنا التحرشات والأطماع المجيارية فى الأراضى البيزنطية ، وتخاذل البلغار عن أداء الدور المرسوم لهم بالدفــاع عــن حــدود الإمبراطوريــة البيزنطية الدانوبية . ومن ثم ، كما قلنا من قبل ، كان على نقفورفوقاس بعد عودته إلى القسطنطينية البحث عن حل عسكرى لعقاب البلغار ، وعن طريق طرف آخر ، نظــراً لانشغال القوات البيزنطية بالقتال فى الجبهة الشرقية مع المسلمين ، الأمر الذى يتعــذر معه القتال فى جبهتين فى آن واحد حسب السياسة البيزنطية . ولثقته فى أن الــروس

The *Early Medieval Balkans*, (Michigan, 1993), p. 71.

(٥١) *Leo Diaconus*, p. 62.

(٥٢) *Leo Diaconus*, p. 62; *Cedrenus*, II, p. 372; *Yahya d'Antoiche*, p. 813.

(٥٣) Court, *La Russie*, p. 106.

(٥٤) Browning, *Bulgaria*, p 71.

(٥٥) *Leo Diaconus*, pp. 62-63.

(٥٦) Moravcsik, *Magyars*, p. 59.

يمكنهم القيام بهذا العمل بصورة كاملة فقد ولى وجهه شطرهم(٥٧) . ويذكر يحيى الأنطاكى أن الإمبراطور البيزنطى نقفورفوقاس " سلط الروس على البلغر ، ملكهم إياها من قبله حتى صار الجميع من تحت يده .."(٥٨) ؛ حيث قد " سالم الروس وكانوا حزباً له "(٥٩) . فقد أرسل الإمبراطور نقفور فوقاس كالوكيروس / *Kalocyros* *Καλοκουρος* ابن حاكم خرسون ، بعد أن خلع عليه لقب بطريق، إلى بلاط الأمير الروسى فى كييف . فقد كان كالوكيروس الذى عاش معظم حياته فى وطنه خرسون ، خير من يتعامل ، وبصورة تدعو للإعجاب ، مع قبائل السهوب ، فقد كان يعرف لغاتهم وعاداتهم جيداً. وفوق كل هذا فقد حمله الإمبراطور مبلغاً من المال يوازى ألفاً وخمسمائة رطل من الذهب ليقدمها إلى سفياتوسلاف ؛ طالباً منه أن يقوم بمهاجمة البلغار . ووافق الأمير الروسى بسهولة بفضل كلمات كالوكيروس المعسولة ووعودة ، بالاضافة إلى ذلك المبلغ الضخم الذى سلمه له(٦٠) .

واستعد الأمير الروسى لتنفيذ رغبة الإمبراطور البيزنطى . وفى شهر أغسطس(٦١) من عام ٩٦٨م ، على حد ذكر المؤرخين فرانكلين وشبرد(٦٢) ، خرج سفياتوسلاف ومعه ستون ألفاً من الجنود وبصحبته البطريق كالوكيروس ، بادئاً هجومه على الأراضى البلغارية(٦٣) ؛ وعبر سفياتوسلاف نهر الدانوب ليهاجم الإقليم الواقع بين نهر الدانوب وجبال البلقان . وعندئذ خرج البلغار للقائه فى ثلاثين ألفاً من الجنود للتصدى للروس محاولين منعهم من النزول من سفنهم إلى الشاطئ . لكن الروس نزلوا من سفنهم بشجاعة وخلعوا الدروع عنهم واشتبكوا مع البلغار فى معركة حامية الوطيس ، ولى البلغار على أثرها الأدبار ليعتصموا بقلعة دروستول *τὸ Δορυστολον* التى تحمى عاصمة البلغار دريسترا(٦٤) . إلا أن الروس تمكنوا

---

(٥٧) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 201.

(٥٨) *Yahya d'Antoiche*, p. 826.

(٥٩) *Yahya d'Antoiche*, p. 813.

(٦٠) *Leo Diaconus*, p. 63; *Cedrenus*, II, p. 372; Runciman, *Bulgarian Empire*, pp. 200-201; Karamsin, *Histoire*, pp. 215-216; Court, *La Russie*, p. 106; Browning, *Bulgaria*, p. 71; Finlay, G., *A History of Greece*, vol. II, (Oxford, 1877), p. 333; Pares, *Russia*, p. 27; Le Clerc, *La Russie*, p. 135; Franklin & Shepard, *Rus'*, p145.

(٦١) *Cedrenus*, II, p. 372.

(٦٢) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 146.

(٦٣) *Leo Diaconus*, p. 77.

(٦٤) *Leo Diaconus*, p. 78.

دريسترا ، كانت مدينة عظيمة يوماً ما ، إلى أن انحدر شأنها فى القرن السادس الميلادى بفعل الهجمات السلافية والآفارية . وتمكن البلغار من إصلاحها فى نهاية القرن السابع الميلادى . وصمدت فى عهد

من دحرهم ، وكما يقول يحيى الأنطاكى " استظهر الروس علـــى البلغـــر ، وكبســوا مدينتهم المسماه طلسيرا ، وهـــى دار ملكـــهم ، وأخذوهــا بالأمـــان "[٦٥]. واجتــاح سفياتوسلاف شمالي البلاد على هذا النحو مستولياً على أربع وعشرين مدينة. وإســتعد لقضاء الشتاء في منطقة أونجلوس *Onglus* بالذات ، حيث كـــانت تتحكـــم فـــى دلتــا الدانوب، متخذاً من مدينة برياسلاف على الدانوب مقاماً له [٦٦] . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى قد بعث له فى هذه الآونة إعانة مالية ، وهذا ما قد يفهم من كلام نسطور من أن البيزنطيين بعثوا بالجزية إلى سفياتوسلاف آنذاك[٦٧] . وفى الربيـــع التـــالى أغـــار سفياتوسلاف على الشطر الجنوبى لمملكة البلغار ، مدمراً إياه[٦٨] . ويقول نســطور ان جملة ما استولى عليه سفياتوسلاف كان ثمانين بلدة بطول نهر الدانوب[٦٩] . ويبــدو أن هذا الرقم الذى أعطاه نسطور يحوى مدنـــاً وحصونـــاً وقلاعـــاً[٧٠] . وهكـــذا صـــار سفياتوسلاف سيداً على بلغاريا . والسؤال الذى يفرض نفســـه الآن ، لمـــاذا اســتعان نقفورفوقاس بالروس ضد عدو ضعيف للغاية ؟ وإذا أراد الإمبراطور عقاب البلغـــار ، فلماذا لم يستدع البشناق كالعادة ؟

يذكر أحد العلماء البريطـــانيين ، بصـــورة مقنعـــة ، أن الأمـــير الروســـى سفياتوسلاف الذى سحق لتوه الخزر فاتحاً الطريق أمامه إلى شبه جزيرة القـــرم كـــان يهدد مدينة خرسون ، وهى مركزاً للاستخبارات والتجارة البيزنطيـــة بـــالغ الأهميـــة، وإزاء هذا فقد قصد نقفورفوقاس أن يقصيه عنها[٧١] . وقد تدعم العبارة الواردة عنـــد يحيى الأنطاكى هذا الرأى حيث يقول ".. وسالم(أى نقفورفوقاس) الروس وكانوا حزبـــاً له.."[٧٢] . وهذا يعنى أن الإمبراطور البيزنطى قد عقد سلاماً مع الروس قبل أن يطلب منهم غزو بلاد البلغار . ومما يؤكد قصد الإمبراطور نقفورفوقاس وعزمه على إقصاء الأمير الروسى سفياتوسلاف عن منطقة القرم ، النص الوارد في المعاهدة التى عقـــدت بين الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزيمسكس (٩٦٩-٩٧٦م) والأمير سفياتوسلاف عـــام

سيميون أمام المجيار ، إلى أن سقطت فى أيدى سفياتوسلاف. وتشير النقوش التى عثر عليها إلى أى مـــدى كانت أهميتها . وهى الان سيلسترا الحديثة. انظر، Browning, *Bulgaria*, p. 99

(٦٥) *Yahya d'Antoiche*, p. 813.

(٦٦) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 202.

(٦٧) *R.P.C.*, p. 84.

(٦٨) Runciman, *Bulgarian E mpire*, p. 202.

(٦٩) *R.P.C.*, p. 84.

(٧٠) *Cedrenus*, II, p. 372.

(٧١) Fine, *Balkans*, p. 181.

(٧٢) *Yahya d'Antoiche*, p. 813.

٩٧١م ، على إثر هزيمة الروس منه ؛ والذى يلزم الروس بعدم الإغارة على خرسون وبلغاريا مرة ثانية[٧٣]. وهكذا يبدو أن الإمبراطور البيزنطى فكر فى أن يتبع المذهب الرومانى الشائع "فرق تسد" ، فقام بتسليط الروس على البلغار ، على حد قول يحيى الأنطاكى[٧٤] . وقد استجابوا لتوهم لمطلب الإمبراطور البيزنطى . وبهذا يتخلص من الخطر الروسى فى منطقة السهوب ، ويقضى إما على القوة العسكرية للروس أو على القوة العسكرية للبلغار ، ومن يتبقى منهما يعيد الكرة ثانية فيسلط عليه البشناق .. وهكذا يستمر البيزنطيون ، وبذكاء شديد ، فى التلاعب بهذه الشعوب لفرض سيطرتهم فى نهاية المطاف على جيرانهم وتأمين حدودهم . وينبغى علينا ألا ننسى أن الإمبراطور نقفورفوقاس لم يشأ أن يضحى بقواته العسكرية فى شعاب ومضايق وممرات جبال البلقان ، فى الوقت الذى كان فى أمس الحاجة إليها فى عملياته العسكرية فى الشرق ضد المسلمين .

على أية حال ، يمكن القول إن الأمير الروسى سفياتوسلاف قد نفذ وعده للإمبراطور البيزنطى بمهاجمة البلغار . لكن يبدو أن البلاد البلغارية قد راقت له ، فلم يشأ الرحيل عنها ، بالرغم من الانتهاء من مهمته العسكرية فى البلاد ، حسب اتفاقه مع الإمبراطور البيزنطى . وهذا ما يؤكده المؤرخ البيزنطى سكيلتزس - كدرينوس بقوله " .. لم يعودوا يفكرون (أى الروس) فى العودة ثانية إلى بلادهم ، بل راقهم جمال البلاد ، فألقوا بمعاهدتهم مع نقفور إلى عالم النسيان ، وقرروا الاستيلاء على هذه البلاد والبقاء فيها[٧٥] . ومما يؤكد رواية كدرينوس كلمات سفياتوسلاف نفسه لأمه اولجا ، عندما اضطرته الظروف الداخلية فى بلاده للعودة إليها مؤقتا ، حيث قال لها " .. لست مهتما بالبقاء فى كييف ، بل أفضل العيش فى برياسلاف على الدانوب ، حيث إنها مركز مملكتى ، وفيها تتركز كل الثروات ، فالذهب والحرير والخمر والفاكهة المتنوعة تأتى من بلاد اليونان ، والفضة والجياد تأتى من المجر وبوهيميا ، والفراء والشمع والعبيد فيأتى من بلاد الروس .."[٧٦] .

وهكذا يتأكد لنا أن الأمير الروسى سفياتوسلاف ما أن دخل بلاد البلغار واكتشف أهميتها التجارية وحسن موقعها ، وخصوبة أراضيها ، حتى اتخذ قراره بعدم التخلى عنها، رغم أنف الإمبراطور البيزنطى . وإذا كانت أمه الأميرة اولجا قد حاولت

---

(٧٣) انظر الصفحات التالية من هذا الفصل .

(٧٤) *Yahya d'Antoiche*, p. 826.

(٧٥) *Cedrenus*, II, p. 383.

(٧٦) *R.P.C.*, p. 85; Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 145.

أن تثنيه عن الاستمرار فى هذا ، وبدافع منها على حسن العلاقات مع بيزنطة ، كما سنرى ، إلا أن سحر البلقان كان أقوى من كلماتها . وفى غضون بضعة أشهر كان سفياتوسلاف سيدا على البلقان .

ولعل ما زاد الأمر سوءا ورفع مؤشر الإصرار عند سفياتوسلاف على البقاء فى بلغاريا وعدم الرحيل عنها ، المبعوث البيزنطى كالوكيروس نفسه ، الذى ما أن رأى الانتصارات الروسية هذه على البلغار حتى راقت له الخيانة ، واتخذها سبيلا للاستيلاء على العرش البيزنطى والاستئثار به لنفسه . فقد شجع كالوكيروس سفياتوسلاف على مهاجمة الأراضى البيزنطية نفسها ، وعقد معه اتفاقا يساعده الروس بموجبه على تولى العرش البيزنطى وفى المقابل سيمنحهم بلغاريا ، وإلى الأبد . ويضيف كدرينوس أنه قدم لهم أضعاف ما قدمه البيزنطيون لهم من الأموال المتفق عليها ، وجعلهم بهذا حلفاء له ، وأصدقاء مدى الحياة[٧٧] . أخيرا ينبغى ألا ننسى أن الأمير الروسى سفياتوسلاف كان لديه مصادر لا تنضب من القوة البشرية، والتى ستوفر له المدد العسكرى المستمر فى صراعه من أجل السيطرة على البلقان[٧٨] . وهكذا بانتهاء فترة وصاية الأميرة اولجا على ابنها سفياتوسلاف ، انتهت العلاقات السلمية بين الروس والبيزنطيين[٧٩] . فقد كان سفياتوسلاف شجاعا، مقداما، متعطشا للسلب وإحراز النصر، على حد قول ليو الشماس[٨٠] .

والآن تأكد الإمبراطور البيزنطى نقفورفوقاس، عن طريق جواسيسه فى البلقان، أن بلغاريا قد ضاعت من يديه وأن سفياتوسلاف صار سيدا لها . فكان لزاما عليه البحث عن حليف آخر ليخفف به الضغط الروسى على الدانوب والبلقان، ويزيل به عبء اللحظات القادمة ، حتى يستدعى قواته من الشرق ويرتب أوراقه ثانية .

وفى عام ٩٦٨م نقرأ عن هجوم شديد قام به البشناق على العاصمة الروسية كييف ، حتى حالوا بين شقى المدينة الواقعة على ضفاف نهر الدنيبر . وتحصنت الأميرة اولجا مع أحفادها خلف أسوار المدينة ، التى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من السقوط فى أيدى البشناق[٨١] . وعلى الرغم من نجاح الروس فى كييف من صد

---

(٧٧) Cedrenus, II, p. 383; Fine, *Balkans*, p. 181; Finlay, *Greece*, II, p. 334.

(٧٨) Browning, *Bulgaria*, p. 71.

(٧٩) Göllner, C.,“ Les expéditions byzantines contre les Russes sous Jean Tzimicés ”, (970-971), *RHSEE*, 13 (1936), p. 343.

(٨٠) Leo Diaconus, p. 77.

(٨١) *R.P.C.*, pp. 85-86; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 202; Baumgarten, *Saint* Vladimir, pp. 34-35; Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 146.

البشناق فى نهاية المطاف ، إلا أن حاشية الأمير الروسى أرسلوا له رسالة يطلبون منه العودة على وجه السرعة لإنقاذ عاصمته من السقوط فى أيدى البشناق . وما أن وصلت هذه الأنباء إلى سفياتوسلاف حتى اضطر إلى ترك كل شئ والاسراع إلى كييف لإنقاذها من السقوط فى أيدى البشناق . وقد تمكن من الوصول إلى عاصمته كييف وطرد البشناق بعيدا عنها ، بعد أن لقنهم درسا لم ينسوه البتة[٨٢].

والآن علينا أن نتمهل قليلا قبل المضى قدما مع الأحداث ولنفكر قليلا فى الهجوم البشناقى على كييف ، لماذا وقع فى هذا التوقيت بالذات ؟ إن الإنسان الواعى جيدا لطبيعة العلاقات البيزنطية – البشناقية فى هذه الفترة بالذات ، وما يقوله الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس عن الفوائد الجمة التى تعود على بيزنطة من وراء التحالف معهم ، يدرك وللوهلة الأولى أن هذا الهجوم حدث بدافع بيزنطى محض . فقد جاءت اللحظة التى من أجلها يستخدم البشناق حسبما كان يخطط للأحداث . وعلى الرغم من أن الأحداث سارت بأسرع مما كان يتخيل الإمبراطور ، إلا أن حدسه من البداية أكد له أن البشناق سوف يكونون يوما ما عنصرا للتوازن بين هذه الشعوب شمال الدانوب[٨٣] . لقد أصاب الإمبراطور البيزنطى فيا ذهب إليه من تأليب البشناق على الروس ، وها هو سفياتوسلاف يترك بلغاريا مضطرا ، ويسرع الخطى نحو عاصمته كييف لإنقاذها من أيدى البشناق . وبهذا خف الضغط الروسى العسكرى عن البلقان فى عام ٩٦٨م .

ويزودنا المؤرخان البيزنطيان ليو الشماس وسكيلتزس – كدرينوس بروايتين هامتين عن إجراء آخر اتخذه الإمبراطور نقفورفوقاس لتقوية جبهة البلقان ضد الروس . فقد حشد جيشا من المشاة والفرسان ، واضعا الفرسان عند المداخل ، كما جهز الآلات الحربية وسد مدخل البسفور بسلسلة ضخمة من الحديد[٨٤] . ويمضى ليو الشماس إلى القول بأن الإمبراطور ظل يفكر كيف يصرف أموره ، فقرر أن يتحالف مع أحد الطرفين للقضاء على الطرف الآخر . ونظرا لأنه لم يعد يثق فى الروس ولا فى كالوكيروس ، فقد قرر أن يتحالف مع البلغار ضد الروس ، وبالفعل أرسل سفارة إلى قيصر البلغار بطرس كان على رأسها أفصح الخطباء حينئذ البطريق نقفور الملقب

---

(٨٢) Karamsin, *Histoire*, pp. 218-219; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 34-35.
لمزيد من التفاصيل عن هجوم البشناق على كييف انظر ، الفصل الثانى من الباب الثانى من البحث.

(٨٣) عن الفوائد التى تعود على بيزنطة من التحالف مع البشناق ، انظر ، الفصل الأول من الباب الأول ؛الفصل الثانى من الباب الثانى فى البحث .

(٨٤) *Leo Diaconus*, p. 79; *Cedrenus*, II, p. 384.

بـــــ "إروتيكـــــــوس Ἐρωτικός " وفيلوثيـــــــوس Φιλόθεος أســــــقف يوخايتا Εὐχαΐτων[٨٥] .

جدير بالذكر أن قيصر البلغار بطرس كان قد أصيب بنوبة قلبية ، على أثـــر اجتياح سفياتوسلاف لبلاده وفشل القوات البلغارية فى صده ؛ ومع هـــذا ظـــل يحكـــم البلغار حتى وافته المنية فى ٣٠ يناير عام ٩٦٩م . وقبل وفاته كان قد أرسل رســـالة فى عام ٩٦٨م إلى القسطنطينية ليطلب العون العسكرى من الإمـــبراطور البـــيزنطى نقفور فوقاس[٨٦] . وقد تصادف وصول رسل البلغار إلى البـــلاط البـــيزنطى وجـــود ليوتبراند الكريمونى ، الذى تذمر من المكانة التى احتلها رسل البلغـــار فـــى القصـــر الإمبراطورى ، والتى كانت أعلى من مكانة الأجانب الآخرين[٨٧] . لكن الإمـــبراطور البيزنطى لم يكن قادرا على الاستجابة لمطلب السفارة البلغارية ، نظرا لأنه كان كـــان مشغولا بحروبه فى الشرق مع المسلمين .

لكن إزاء تدهور الأوضاع فى البلقان ، اضطر الإمبراطور البيزنطى فيما بعد إلى إرسال سفارته ، السابق ذكرها ، إلى قيصر البلغار . ويبدو أن هذه الســـفارة قـــد عرضت عليه التدخل العسكرى البيزنطى لصد الروس وطردهم من البلقـــان ، وفـــى المقابل يتم إرسال ابنتى القيصر إلى القسطنطينية لتتم خطبتهما إلـــى الإمـــبراطورين الشابين باسيل الثانى وقسطنطين الثامن . ويذكر ليو الشماس أن البلغار استقبلوا الوفـــد البيزنطى ببالغ الفرح ، وقد أرسلوا الأميرتين البلغاريتين على عربات (حسب عادتـــهم) إلى القسطنطينية ، ليتم ما اتفق عليه بين الطرفين والإسراع بـــالنجدة العســـكرية[٨٨] . وفى وسط هذه الترتيبات توفى القيصر بطرس[٨٩] . وبوفاة بطرس سمح الإمـــبراطور البيزنطى بعودة أبناء القيصر إلى بلغاريا ؛ واعتلى الابـــن الأكـــبر بوريـــس *Boris* العرش ، ونودى به قيصرا فى بيرياسلاف . ولم يسفر اعتلاء بوريس للعـــرش عـــن سياسة جديدة . وبالفعل ، فإنه تحت هذه الظروف ، لم يكـــن هنـــاك شـــىء ليفعلـــه ، باستثناء وضع البلاد فى حالة دفاعية ضد الهجوم الروسى المرتقـــب[٩٠] . ويبـــدو أن

---

(٨٥) *Leo Diaconus*, p. 79.

(٨٦) Fine, *Balkans*, p. 183; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 202.

(٨٧) Fine, *Balkans*, p. 183.

(٨٨) *Leo Diaconus*, pp. 79-80; Fine, *Balkans*, p. 183; Runciman, *Bulgarian Empire*, pp. 203-204.

(٨٩) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 204.

(٩٠) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 205; Fine, *Balkans*, p. 182.

بوريس ، مستغلا غياب سفياتوسلاف ، قام بدفع القوات الروسية إلى الوراء واسترد بيرياسلاف من الروس [91] . وعلى هذا النحو كانت تدور الأمور فى البلقان .

أما عما حدث بعد أن وصل الأمير الروسى سفياتوسلاف إلى كييف ، وتمكنه من طرد البشناق ، فكان على النحو الآتى ... وعلى لسان نسطور ... التقى سفياتوسلاف برجال حاشيته ، الذين وجهوا له اللوم على تركه البلاد وأمه وأبنائه والقيام بمغامرات عسكرية فى بلاد أجنبية فرد عليهم سفياتوسلاف حينئذ قائلا مقولته الشهيرة : " لست مهتما بالبقاء فى كييف ، بل أفضل العيش فى بيرياسلاف على الدانوب ، حيث أنها مركز مملكتى وفيها تتركز كل الثروات ؛ فالذهب والحرير والخمر والفاكهة المتنوعة تأتى من بلاد اليونان ، والفضة والجياد تأتى من المجر وبوهيميا ، والفراء والشمع والعبيد يأتى من بلاد الروس " . لكن أمه الأميرة اولجا ردت عليه قائلة " إنك ترى إلى أى مدى بلغت حالتى من الوهن ، فلماذا تود الرحيل عنى ؟ " حيث كانت حالتها الصحية بالفعل معتلة . وعلى هذا النحو اعترضت اولجا عليه وحاولت أن تثنيه عن الاستمرار فى غزو البلقان . وإذا كان ولابد من هذا النشاط العسكرى الخارجى ، فلينتظر حتى يدفنها أولا وليذهب حيثما يشاء[92] . ونرى من كلمات اولجا السابقة أنها كانت حريصة على استمرار حسن العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية ، ومحاولتها إثناء ابنها عن المضى فيما ينوى فعله ، لأن هذا سوف يفسد العلاقات بين البيزنطيين والروس . لكن يبدو أن سحر البلقان كان أقوى من كلمات أمه . فما كان منها فى نهاية الأمر إلا أن طلبت منه البقاء إلى جوارها لحين وفاتها . وبالفعل توفيت اولجا فى هذا العام وقام ابنها الأمير سفياتوسلاف وكل الروس ، على حد قول نسطور ، بتشييعها ودفنها حسب الشعائر المسيحية[93] .

ويبدو أن الأمير الروسى سفياتوسلاف قرر البقاء قليلا فى كييف عقب وفاة والدته الأميرة اولجا ، ليقر الأمور بين الأمراء الروس ويطمئن على جبهته الداخلية ، ليستكمل بعدها مشروعاته التوسعية فى البلقان . فتخبرنا الحولية الروسية الأولى أن الأمير سفياتوسلاف انشغل بعد وفاة أمه الأميرة اولجا بإقرار أحوال البلاد. وفى نهاية المطاف قام بتقسيم الحكم فى البلاد بين أبنائه ، ليقود حشود قواته بعد ذلك ، ربما فى خريف نفس العام ، متحركا صوب بلغاريا مرة ثانية[94] . ويخبرنا سكيلتزس –

---

(٩١) Fine, *Balkans*, p. 184.

(٩٢) *R.P.C.*, p. 85; Karamsin, *Histoire*, p. 219.

(٩٣) *R.P.C.*,pp. 85-87.

(٩٤) *R.P.C.*, p. 87; Karamsin, *Histoire*, pp. 221-222; Franklin & Shepard, *Rus'*, p.147.

كدرينوس أن الأمير الروسى أعاد الكرة ثانية على البلغار ، وبنفس الطريقة ، بل بأشد منها فى العام التالى[٩٥] . وقد حشد جيشا من رعاياه الروس ومن مرتزقته من البشناق والمجيار وقادهم جميعا صوب عاصمته المزمعة على الدانوب برياسلاف ، ومن هناك سار إلى قلب بلغاريا . وأيا كانت الدفاعات التى نظمها بوريس ، فإنها تفتتت تماما أمام جحافل الروس[٩٦] .

الجدير بالذكر أن تعداد الجيش الروسى الذى اجتاح به سفياتوسلاف بلغاريا اختلف من مؤرخ لآخر . فكاتب الحولية الروسية الأولى يجعل تعداده عشرة آلاف جندى[٩٧] ، أما زوناراس فيقول إن قوات سفياتوسلاف بلغت ثلاثمائة ألف جندى[٩٨]، أما ليو الشماس فيقول أن قواته بلغت ثلاثين ألف جندى[٩٩] . وبالطبع فإن الإحصاء الذى قدمه نسطور هو الأقرب إلى الواقع ، كما ينبغى ألا نستبعد إحصاء ليو الشماس خاصة إذا ما أدخلنا فى حسباننا القوات المساعدة لسفياتوسلاف من البشناق والمجيار؛ أما تقدير زوناراس فهو مبالغ فيه بالتأكيد[١٠٠] .

وأيا كان الأمر، فقد قاد سفياتوسلاف كل هذه القوات واجتاح بلغاريا كما قلنا، وتغلغل الأمير الروسى عبر الولايات البلغارية الشمالية إلى أن وصل إلى بيرياسلاف الكبرى نفسها ، والتى تحصن بها البلغار مع قيصرهم بوريس . وضرب الروس الحصار حول المدينة ، وشن البلغار هجوما عنيفا عليهم حتى تخلى البلغار الذين انضموا إلى الروس ، عنهم ؛ ووقعت مذبحة مروعة هناك ، وهو الأمر الذى جعل سفياتوسلاف يصرخ فى جنوده قائلا : " أهنا تكون نهايتنا ! فلنحارب بشجاعة ، أيها الأشقاء والرفاق " . ويبدو أن كلمات القائد الروسى سفياتوسلاف كان لها وقع شديد على نفوس الروس ، فما أن حل الظلام حتى كانت لسفياتوسلاف اليد العليا ، واستولى على المدينة بصورة نهائية[١٠١] . وقد تم أسر القيصر بوريس وأخيه رومانوس وكل أفراد الأسرة المالكة البلغارية[١٠٢] . وبعد هذا الانتصار توجه الروس نحو مدينة

---

(٩٥) *Cedrenus*, II, p. 372.
(٩٦) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 205; Finlay, *Byz.Empire*, p. 319; Pares, *Russia*, p. 27.
(٩٧) *R.P.C.*, p. 88.
(٩٨) *Zonaras*, III, p. 524.
(٩٩) *Leo Diaconus*, p. 109.
(١٠٠) انظر، Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 205, n. 4.
(١٠١) *R.P.C*, p. 87.
(١٠٢) *Cedrenus*, II, p. 383; *Yahya d'Antoiche*, p.813.

فليبوبوليس *Philippopolis*(١٠٣) ، وهى أعظم مدن الجنوب البلغارى . ويبدو أن هـذه المدينة قد أبدت ضروبا من الشجاعة والمقاومة للغزاة الروس ولكن دون جدوى ؛ فقـد سقطت فى نهاية المطاف فى أيديهم. وتقول المصادر البيزنطية إن الأمـير الروسـى سفياتوسلاف أعدم عشرين ألفا من سكانها انتقاما منهم ، بعد أن استولى على المدينـة عنوة(١٠٤) .

وهكذا صار الطريق مفتوحا أمام سفياتوسلاف ، عبر تراقيا ، للوصول إلـى العاصمة الإمبراطورية نفسها . والآن لنتوقف برهة متسائلين عن الدوافع التى حـدت بسفياتوسلاف للعودة ثانية إلى بلغاريا والتغلغل فى تراقيا وعزمه علـى السـير نحـو القسطنطينية ؟ .

لا شك أن البطريق كالوكيروس كان من أهم العوامل التى ساعدت على هذا . فهو الذى حث سفياتوسلاف دوما على المضى قدما فى غزوه لبلغاريا ، وهـو الـذى ضاعف الأموال له ، بل وصلت العلاقة بينهما إلى أن عد الروس حلفاء له وأصدقـاء مدى الحياة . ولم لا ! أليسوا هم الذين سيساعدونه على تولى العرش فى القسطنطينية ، وفى المقابل سيمنحهم بلغاريا مدى الحياة(١٠٥) . وفـى المقـام الثـانى يـأتى تعلـق سفياتوسلاف بهذه البلاد وقوله إن برياسلاف ستكون مركزا لمملكته، وكلماتـه بـهذا الشأن تعكس الأهمية التجارية لها، وحرص سفياتوسلاف على الاستئثار بها لنفسـه(١٠٦) . أما العامل الثالث فهو ربما إدراك سفياتوسلاف أن هجوم البشناق علـى عاصمتـه كييف، والمتزامن مع غزوه الأول لبلغاريا ، كان بتدبير بيزنطى محض . وإلا فبمـاذا نفسر عزمه القاطع على غزو القسطنطينية، كما سنرى فيما بعد . إن غـزوه الثـانى لبلغاريا كان أكثر توسعا عن سابقه، فقد وصل حتى الآن إلى مدينة فليبوبوليـس فـى تراقيا، وبعد قليل سنجد انه يزحف بقواته قرب مدينة أركاديوبوليس ، والتى تبعد عـدة مئات من الأميال عن القسطنطينية . كل هذا يوضح أن غزوه الثانى لبلغاريا لم يكـن الهدف منه تنفيذ اتفاقه السابق مع الإمبراطور نقفورفوقاس بغزو بلغاريا لصالح بيزنطة ، بل كان خطوة أولية للوصول إلى القسطنطينية . ويبدو أن توانى بيزنطة فـى كبـح

---

(١٠٣) فليبوبوليس ، كانت مدينة عظيمة ومركزا أسقفيا . ولا نعرف سوى القليل عنها وعن حجمها وأهميتها فـى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . لمزيد من التفاصيل عنها ، انظر،
Browning, *Bulgaria*, pp. 99-100.

(١٠٤) *Leo Diaconus*, p. 105; Schlumberger, G., " Russes et Byzantins dans les Balkans en l'an 972 ", dans: *Récits de Byzance et des Croisades*, (Paris, 1917), pp.22- 23; Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 148.

(١٠٥) *Cedrenus*, II, pp. 383-384.

(١٠٦) انظر، *R.P.C.*, p. 85.

جماح سفياتوسلاف فى المرة الأولى، وضعف المقاومة البلغارية له ، كل ذلك أعطـاه دفعة قوية للسير نحو القسطنطينية . أما آخر العوامل التى دفعت بسفياتوسلاف إلى غزو بلغاريا مرة ثانية، والتحول إلى غزو القسطنطينية نفسها ، فكان عاملا حديث المولد ؛ حيث يخبرنا يحيى الأنطاكى أن الأنباء وصلت إلى يوحنا تزيمكس تخبره بسير الروس نحو القسطنطينية لقتاله والمطالبة بثأر نقفورفوقاس[١٠٧] .

جدير بالذكر أن الإمبراطورة ثيوفانو *Theophano* كانت قد دبرت مؤامرة مع عشيقها يوحنا تزيمسكس *Jean Tzimisces* قائد نقفورفوقاس الأثير ، لاغتيال زوجها الإمبراطور نقفور فوقاس . وبالفعل اغتيل الإمبراطور نقفور فوقاس فى ١٠ ديسمبر عام ٩٦٩م ، ليجلس يوحنا تزيمسكس بعدها إمبراطورا على العرش البيزنطى ، ولتتجرع ثيوفانو نفس الكأس الذى سقته لزوجها السابق نقفور فوقاس على أيدى عشيقها يوحنا تزيمسكس[١٠٨] . لقد دبت القلاقل فى القصر الإمبراطورى إثر هذه الأحداث ، واضطربت أحوال الإمبراطورية البيزنطية بعض الشيء وخيم الذعر على سكان العاصمة ، لاسيما مع توارد الأنباء إليها عن تقدم سفياتوسلاف فى البلقان . إلا أن الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزيمسكس تمكن من القبض على زمام الأمور ، فتخلص من الإمبراطورة ثيوفانو بإلقائها فى المنفى ، وفيما بعد فتح باب المفاوضات مع الأمير الروسى سفياتوسلاف[١٠٩] . ولا شك أن الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزيمسكس كان يأمل فى تهدئة الأوضاع فى البلقان ، لحين إعادة ترتيب أوراقه السياسية ، ولكسب المزيد من الوقت .

ونستخلص من كلمات المؤرخ البيزنطى سكيلتزس - كدرينوس أن الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزيمسكس كان قد بعث بوفد إلى الأمير الروسى سفياتوسلاف ?جراء مفاوضات معه، عارضا إقامة علاقات سلمية معه وإعطائه المبلغ الذى كان نقفور فوقاس قد وعد به (والذى عده سفياتوسلاف جزية، حسب قول نسطور) بشرط أن ينسحب الروس من الأراضى التى احتلوها[١١٠] . لكن الروس أعلنوا أن بلغاريا ملك لهم ، لأنهم هم الذين سيطروا عليها ، وردوا على وفد

---

(١٠٧) *Yahya d'Antoiche*, p. 833.

(١٠٨) عن هذه الأحداث انظر ، *Leo Diaconus*, p. 84 ff.; *Schlumberger*,G., *L'épopée byzantine à la fin du dixiéme siècle, Jean Tzimickes*, (Paris, 1896), pp. 1-4.
وانظر أيضا، عمر كمال توفيق ، *مقدمات العدوان الصليبى ، الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية*، (الإسكندرية ، ١٩٦٦) ، ص ٢١-٣٠ .

(١٠٩) Browning, *Bulgaria*, p. 72.

(١١٠) *Cedrenus*, II, p. 384; *Leo Diaconus*, p. 103.

الإمبراطور البيزنطى بوقاحة شديدة ، أو بوقاحة البرابرة على حد تعبير كدرينوس[١١١] ؛ فطلب سفياتوسلاف فدية ضخمة عن الأسرى ، ومقابلا ماديا عن الأراضى التى فتحها ، ونوه عما يدعيه بالتهديد التالى : " إذا لم يرد الرومان دفع الأموال، فليس لهم حق إلا فى مغادرة أوروبا τῆς Εὐρωπης θᾶττον...، والتى ليس لهم فيها أى حق ، بل والانسحاب إلى آسيا، وإلا فإن السلام بين الروس والرومان أمر محال "[١١٢] . وهكذا عد سفياتوسلاف الجزء الغربى من الإمبراطورية البيزنطية ملكا له . وفى الواقع لم يكن هناك شئ ليقوم به يوحنا تزيمسكس ، نظرا لأن القوات العسكرية البيزنطية كانت حينئذ موجودة فى الشرق .

ولكى يكسب الإمبراطور يوحنا تزيمسكس الوقت ، حتى يستدعى قواته من الشرق ، ابتلع هذا الصلف الروسى ، وأرسل سفارة ثانية إلى الأمير الروسى سفياتوسلاف اتسمت بالجرأة والشموخ البيزنطى ؛ وكانت تحمل معها إنذارا بمغادرة الأراضى التى احتلها والانسحاب من الأراضى البيزنطية . وفى الواقع فإن هذه السفارة لم يكن لها هدف سوى المراوغة وكسب الوقت[١١٣] . وهذه هى الرسالة التى حملها الوفد البيزنطى إلى سفياتوسلاف : "... لدينا ثقة فى المسيح ، الإله الحى الذى لا يموت ، أنه إذا لم تغادر البلاد طواعية، فسوف تفعل هذا بالقوة . ونعتقد أنك لم تنس المصائب التى حلت بأبيك ايجور ، الذى حنث باليمين وشن حملة بحرية ضد المدينة الإمبراطورية ، بجمعه لحشد من البشر وعدد لا يحصى من السفن . وبالكد الكبير رجع إلى بسبور بعشر مراكب فقط ليعلن عن هزيمته بنفسه. ولن أقول شيئا عن الميتة الحقيرة التى لحقت بالمهزوم فيما بعد . فعندما كان ذاهبا لقتال الجرمان قاموا بأسره وربطه بين جذعى شجرة فانشطر نصفين . لذا فإن المصير نفسه سوف ينتظرك لو أجبرت الجيش الرومانى على السير ضدك، ولن تعود إلى بلادك مطلقا وستدفن فى هذه الأرض ، ولن تفلت أية مركب وتعود إلى سكيذيا (أى بلاد الروس) لكى تعلن عن هزيمتك "[١١٤] .

وفى الحقيقة كان تهديد السفراء البيزنطيين شديد اللهجة ، كما رأينا من خلال رسالة الإمبراطور يوحنا تزيمسكس إلى الأمير الروسى سفياتوسلاف ، فى الوقت الذى

---

(١١١) *Cedrenus*, II, p. 384.

(١١٢) *Bulgaria*, *Leo Diaconus*, p. 105; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 206; Browning, p. 72.

(١١٣) Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 344.

(١١٤) *Leo Diaconus*, pp. 105-106; Grégoire, H., "La dernière compagne de Jean Tzimiskès contre les Russes ", *B*, 12 (1937), p. 973.

كان فيه سفياتوسلاف فى قمة مجده العسكرى فى البلقان ؛ وحيث لم يكن هناك جيش إمبراطورى فى البلقان يضاهى الجيش الروسى(١١٥) . وكان طبيعيا أن تدق طبول الحرب، التى أعلنها سفياتوسلاف على الإمبراطور البيزنطى بقوله للسفراء البيزنطيين " إنه من غير الضرورى أن يتحمل سيدكم مشقة الحضور الينا ، فعما قريب سوف تنصب خيمنا تحت أسوار القسطنطينية وسوف ترون من نكون! محاربون نبلاء ، متعطشون لإراقة الدماء "(١١٦) . ويؤكد كاتب الحولية الروسية الأولى على أن سفياتوسلاف أعلن الحرب على البيزنطيين ، وأخبرهم عن عزمه السير ضدهم والاستيلاء على مدينتهم ، مثلما استولى على برياسلاف(١١٧) .

لم يكن هناك مفر من القتال بين الطرفين واللقاء على الأرض البلغارية . لقد كان على البلغار أن يواجهوا قدرهم المحتوم ، الذى دبره لهم البلاط البيزنطى . فقد استسلموا للبرابرة الذين جاءوا من السهوب ، وكان عليهم أن يشاهدوا القوات الإمبراطورية وهى تتقاتل مع الروس فوق أراضيهم ، وهم مدركون تماما أن أى المنتصرين لن يعيد لهم استقلالهم ؛ وكانت نظرتهم متشائمة ، فالقيصر بوريس حبيس قصره ، وتحولت جنوده لتدعم القوات الروسية ، بينما راقب التجار والمزارعون حلقات الحرب . أما فى غرب بلغاريا ، حيث لم يصل إليه الروس ، فكانت الحياة نشيطة إلى حد ما ولم تتأثر بما يدور فى الشرق البلغارى(١١٨) .

ويخبرنا نسطور فى حوليته أن سفياتوسلاف تقدم ضد البيزنطيين، وبالمثل فعل الأخيرين، حيث خرجوا للقاء الروس(١١٩) . لقد كان لدى الروس كل التجهيزات العسكرية اللازمة للحرب وكان أميرهم يقود جيشا ضخما من عالم البرابرة ، من الروس والمجيار والبشناق بالإضافة إلى البلغار الذين ضمهم إليه(١٢٠). وفى مارس عام ٩٧٠م اخترق سفياتوسلاف شبه جزيرة البلقان وتقدم نحو القسطنطينية . واقترب الروس من مدينة أدرنه *Adrianopolis* ، مخربين تراقيا مرة ثانية، وعسكروا بالقرب من أسوار مدينة أركاديوبوليس *Arcadiopolis* ومكثوا هناك متحينين الفرصة للقتال(١٢١) . أما عن البيزنطيين فقد أسرع يوحنا تزيمسكس، إزاء هذه التطورات ،

(١١٥) Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 344.
(١١٦) *Leo Diaconus*, pp. 106-107; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 344.
(١١٧) *R.P.C.*, p. 87.
(١١٨) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 207.
(١١٩) *R.P.C.*, p. 88.
(١٢٠) *Zonaras*, III, pp. 523-524; *Cedrenus*, II, p. 384.
(١٢١) *Cedrenus*, II, p. 384.

بنقل قواته العسكرية من الشرق إلى البلقان تحت قيادة شقيق زوجته ماريا *Maria* الماجستير برداس سكليروس *Bardas Sclerus* والبطريق بطرس فوقاس *Petrus Phocas*[١٢٢] . وفى الواقع أحسن تزيمسكس اختيار هذين القائدين لقيادة القوات البيزنطية فى البلقان ، فقد كان برداس سكليروس رجلا فريدا بطاقته وشجاعته . أما بطرس فوقاس فقد قدم شواهد على مهاراته الإستراتيجية وبسالته فى الحروب التى وقعت فى عهد الإمبراطور نقفورفوقاس[١٢٣]. وقد دعمها تزيمسكس بفرقة جديدة شكلها من صفوة المحاربين وأطلق عليها اسم الخالدين[١٢٤] . وطبقا للأوامر العسكرية العليا فقد أقام القائدان المعسكر البيزنطى فى تراقيا ، وفى وضع دفاعى ، وأشرف على تدريب القوات البيزنطية استعدادا للقتال المرتقب . كما كان عليهما حماية الأقاليم من سلب ونهب الروس ، وفى الوقت نفسه طلب الإمبراطور منهما تزويده بالمعلومات العسكرية عن سفياتوسلاف ونواياه عن طريق جواسيسه[١٢٥] ومع اقتراب الروس من القوات البيزنطية ، لجأ القائد البيزنطى برداس سكليروس إلى تنفيذ الحيلة التالية ، على أثر رؤيته كثرة قوات العدو . وطبقا لكدرينوس فقد نصب لهم شركا ليقعوا فيه ويتمكن منهم ؛ فقد مكث داخل أسوار مدينة أركاديوبوليس مظهرا الخوف من العدو ، الأمر الذى انطلى على العدو ، وعندما شعر الروس بما فيه البيزنطيون راحوا يتجولون فى المنطقة وقضوا ليلهم بين السكر والعربدة[١٢٦] . ويعتقد المؤرخ جولنيه *Göllner* أن القادة البيزنطيين أرادوا بهذه المناورة الاعتياد على طريقة القتال مع الروس ، وتجهيز أنفسهم للقائهم المحتم[١٢٧] . وبدأ برداس سكليروس فى تنفيذ خطته التى أثبت بها جدارته العسكرية ، وعرف كيف يجبر الروس على خوض المعركة . وكانت الخطة العسكرية البيزنطية لقتال الروس تتلخص فى نشر جزء من القوات بين التلال فى كمائن للعدو ، ثم الهجوم على العدو بجزء من الجيش ، ثم التظاهر بالهرب وأخيرا انقضاض الكمناء على العدو من شتى الجوانب وفى الوقت نفسه تستدير القوات المتظاهرة بالهرب وهكذا تطبق القوات البيزنطية على الروس من جميع الجوانب فتنعدم الفرصة أمامهم للهرب[١٢٨] . لقد اختار برداس سكليروس وادى ريما سو

---

(١٢٢) *Leo Diaconus*, p. 107; *Cedrenus*, II, p. 384; *Zonaras*, III, p. 523.
(١٢٣) Leo Diaconus, p. 107; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 346.
(١٢٤) Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 345.
لمزيد من التفاصيل عن فرقة الخالدين انظر، Mcgeer, *Sowing*, p. 221 .
(١٢٥) Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 346.
(١٢٦) *Cedrenus*, II, pp. 384-385; *Zonaras*, III, p. 524.
(١٢٧) Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 346.
(١٢٨) *Cedrenus*, II, p. 385.

Rima-Sou ، وهو رافد لنهر الإركينيلي *Erkeneli* ، حيث تقع مدينة أركاديوبوليس[١٢٩] ؛ وهى المدينة التى حملت الموقعة اسمها وكانت تقع فى الجناح الأيمن للقوات البيزنطية . وهنا رأى برداس سكليروس إمكانية نشر قواته بين تلال الضفة اليسرى للريما سو ، فوضع أفضل الفرق بينها وبين أركاديوبوليس[١٣٠] . وكانت قوات الروس مقسمة إلى ثلاث جبهات : فى الجبهة الأولى كان الروس ومعهم البلغار ، وفى الثانية المجيار وفى الثالثة البشناق . وقد نجحت خطة القائد البيزنطى برداس سكليروس ، وقام البطريق يوحنا آلاكاس *Jean Alakas* بالإشتباك مع سلاح فرسان العدو ، متظاهرا بالهرب الإضطرارى ، وبهذا جر البشناق إلى شرك جهز لهم سلفا . وفى هذا المكان ، حيث لم يتوقع الروس أدنى مقاومة ، تعرضوا للهجوم البيزنطى من الجبهة الأمامية، فى حين أخذ جناحا القوات البيزنطية فى الإطباق عليهم كالكماشة[١٣١] .

جدير بالذكر أن القوات البيزنطية كانت قد قسمت إلى ثلاثة أجنحة ، الوسط والميمنة والميسرة ؛ أما الوسط فقد تولاه برداس سكليروس ، بينما الجناحان كانا تحت قيادة قادة أدنى مرتبة ووضعا فى الغابة الممتدة بطول النهر.وصدرت الأوامر للجناحين بأن يمكثا فى وضع الترقب والإسراع بالانقضاض على العدو عند إعطاء الإشارة لهم[١٣٢] . وعلى هذا النحو تم القضاء على جناح البشناق ، وتلاهم الآخرون حيث اشتعلت المعركة بين الطرفين . ويبدو أن الروس قد ارتعدوا من تكتيك القوات البيزنطية ، وهنا خطب سفياتوسلاف فى جنوده قائلا : " الآن ليس لنا ملاذ نلجأ إليه، علينا دخول الحرب سواء شئنا أم أبينا. لا تدعونا نخزى الروس، بل نضحى بحيواتنا حتى لا نصير غير شرفاء ، لأنه إذا هربنا فسنصبح عارا عليهم، فلا يجب علينا أن نولى الأدبار بل نقاوم بجسارة ، وسوف أتقدمكم فى السير، وإذا سقطت رأسى عن جسدى عندئذ اعتنوا بأنفسكم " . وعندئذ رد عليه الروس قائلين : " أيما مكان فيه تسقط

---

(١٢٩) هى اليوم مدينة لولى بورجاس Lule-Burgas انظر، Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 346; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 207 .

(١٣٠) Göllner, *Jean Tzimiscès*, pp. 346-347; Court, *La Russie*, p. 108 .

(١٣١) *Cedrenus*, II, pp. 385-386; *Zonaras*, III, p. 524.

(١٣٢) *Leo Diaconus*, p. 109; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 347.

رأسك سوف نضحى بأنفسنا "[١٣٣] . ومن المفترض أن هذه الخطبة ألقاها سفياتوسلاف قبيل الاشتباك فى المعركة ، وإن كانت تعكس شيئاً من التردد والخـوف فـى نفـوس الروس بسبب كثرة القوات البيزنطية على حد قول نسطور ، الذى أحصاهم بمائة ألـف مقاتل[١٣٤]، أما ليو الشماس فقد أحصى القوات البيزنطية بعشـرة آلاف جنـدى[١٣٥]، ويذكر كدرينوس أن تعداد القوات البيزنطية كان أثنى عشر ألف جندى[١٣٦]، أخيـراً يذكر جولنيه نقلاً عن زوناراس أنها كانت عشرين ألفاً[١٣٧] . وبالرغم مـن تضـارب روايات المؤرخين حول تعداد القوات البيزنطية والتى لا يمكن الوثوق بأحدها للأخـذ بها بصورة مطلقة إلا أن القوات البيزنطية التى واجهت الروس وجهاً لوجه، مع الأخـذ فى الحسبان الفرق الكامنة بين التلال، لابد وأن تكون أقل من كل هذه الأرقام ، ومن ثم فليست كثرة البيزنطيين هى التى سببت التردد والخوف فى نفوس الروس كما ظهر فى خطبة سفياتوسلاف لهم . لكن ، نظراً لأن هذه هى المرة الأولى التى يواجه الـروس فيها البيزنطيين وجهاً لوجه وعلى أرض مكشوفة ، فقد أدى هذا إلى تسلل شـئ مـن الخوف والتردد إلى أنفسهم .

على كل حال ، بعد انهزام البشناق من البيزنطيين لم يفكر الروس فى الـهرب بل قرروا انتظار الهجوم البيزنطى . وبدأ الهجوم بسلاح الفرسان البـيزنطى الثقيـل (الكاتافراكتى) ثم تلاه هجوم المشاة . وفى بداية الالتحام انـهزمت الفرسـان الخفيفـة البلغارية والمجيارية وأجبرت على الانسحاب . واشتد الروس فى مقاومتهم حتى توقف تقدم القوات البيزنطية . وفى اللحظة المناسبة أعطى القائد البيزنطى الإشارة للقـوات البيزنطية الكامنة ، التى بمجرد تلقيها الإشارة انقضت على الروس المرهقين من طـول القتال مثيرة الذعر والبلبلة بينهم . وحاول القادة الروس تشجيع قواتهم ، بدون جدوى ، حيث كان الانهيار الكامل قد تمكن منهم؛ وانتهت المعركة بالنصر التـام للبـيزنطيين وانسحاب الروس من ميدان القتال[١٣٨] ، حيث لاحقهم البـيزنطيون وأعملـوا القتـل والسبى فيهم[١٣٩] .

---

(١٣٣) *R.P.C.*, p. 88; Karamsin, *Histoire*, pp. 225-226.

(١٣٤) *R.P.C.*, p. 88.

(١٣٥) *Leo Diaconus*, p. 109.

(١٣٦) *Cedrenus*, II, p. 384.

(١٣٧) Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 348.

(١٣٨) Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 348.

(١٣٩) *Zonaras*, III, p. 524.

للتعرف على صور البطولات العسكرية البيزنطية الفردية أثناء القتال بينهما، انظر،

Cedrenus, II, p. 387; Schlumberger, *Russes*, pp. 23-24.

ويعتقد المؤرخون المحدثون أن الجيش الروسى لم يهزم كلية فى أركاديوبوليس وأنه تلقى هزيمة جزئية ، أو على أقصى تقدير هزمت إحدى فرقه من البيزنطيين بينما انسحب باقى الجيش من الميدان[١٤٠] ؛ والدليل على ذلك أن سفياتوسلاف سار بقواته فى تراقيا ، بعد هزيمة أركاديوبوليس ، مقترباً من العاصمة البيزنطية القسطنطينية[١٤١] . وهذا يعنى أن سفياتوسلاف كان لا يزال عندئذ مع البقية الباقية من جيشه فى موقع يؤهله كى يندفع بقواته صوب الجنوب[١٤٢] . وفى الواقع فقد وصل بقواته حتى مدينة أدرنه ، التى قاموا بعدة غارات حولها ، وكانت غاية فى السهولة ، على حد تعبير رنسمان ، بسبب عجز الحاكم المحلى يوحنا كوراكواز[١٤٣] ، الذى كان أسيراً للطعام والشراب بصورة غريبة[١٤٤] . ويبدو أنهم تراجعوا بعد ذلك حتى مدينة فليبوبوليس ، حيث القوة الكبرى لسفياتوسلاف ، وغادروا جميعاً تراقيا وعبروا البلقان على الفور ليتمركزوا ثانية فى بلغاريا[١٤٥] . وهناك تساؤل يفرض نفسه على الأحداث : إذا كان الروس لا يزالون بهذه القوة العسكرية وبرباطة الجأش فما الدافع الذى حدا بهم إلى التخلى عن البلقان والتراجع نحو بلغاريا ؟

وللإجابة على هذا التساؤل لابد وأن نرنو ببصرنا نحو آسيا الصغرى ، فالأحداث القائمة هناك كانت على غير هوى تزيمسكس . فقد هبت الرياح على القسطنطينية تحمل أنباء الثورة التى قام بها برداس فوقاس *Bardas Phocas* فى أماسيا *Amasia* وهو ابن أخى الإمبراطور السابق نقفور فوقاس[١٤٦] ، وهو الأمر الذى جعل الإمبراطور يوحنا تزيمسكس يحجم عن استكمال انتصاراته على الروس فى البلقان ، ويبعث فى طلب برداس سكليروس الذى ترك البلقان على الفور وقاد جيوشاً

---

(١٤٠) Fine, *Balkans*, p. 186; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 349.

(١٤١) *R.P.C.*, pp. 88, 89.

(١٤٢) Fine, *Balkans*, p. 186.

(١٤٣) من المحتمل أن يوحنا كوركواز هذا هو حفيد يوحنا كوركواز ، قائد رومانوس الأول ، وكان يدعى رومانوس ، انظر، Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 208, n.1.

(١٤٤) *Leo Diaconus,* pp. 126-167; Court, *La Russie*, p. 109; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 208; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 350.

(١٤٥) Schlumberger, *Russes*, p. 25; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 351.

(١٤٦) عن ثورة برداس فوقاس انظر، *Leo Diaconus*, pp. 112-121; *Zonaras*, III, pp. 525; *Cedrenus*, II, p. 388; *Yahya d'Antoiche*, pp. 831-832; Schlumberger, *l'épopée*, pp. 60-75.

ضخمة ، تمكن بها من القضاء على ثورة برداس فوقاس[١٤٧] . وللأسف فإن الحوليات البيزنطية غضت الطرف عما يدور فى البلقان ، وأسهبت فى الحديث عن ثورة برداس فوقاس وما يدور فى آسيا الصغرى[١٤٨] . وفى شهادة مكتوبة على قبر نقفور فوقاس ، نظمها شاعر معاصر له هو يوحنا الجيومترى *Joannis Geometrae*، يعطينا بعض المعلومات عن الانطباع النفسى الذى خيم على القسطنطينية فى تلك الآونة . فكان يتضرع إليه بهذه الكلمات :

أيها الملك ، فلتنهض اليوم ، اجمع المشاة والفرسان المسلحين بالرماح،
اجمع جيشك ، كتائبك ، فرقك .
إن قوات الروس فى طريقها إلينا ، إنهم يكدرون شعبك ، عاصمتك .
أولئك الذين كانوا فيما مضى ينشرون الرعب عند أبواب بيزنطة .
لا .. أنت لن تمتنع عن الاستجابة ، إزاء هذا سلح نفسك
بذلك الحجر الذى يغطيك لتسحق هؤلاء المعتدين المتوحشين ،
ولتكن ركيزة لا تتزعزع لأقدامنا الثابتة .
لكن إذا لم تكن راغباً فى مغادرة قبرك ولو للحظة ،
فلتسمعهم فقط دوى صوتك .. فبصدى صوتك سوف يتشتتون .
وإذا عز عليك هذا أيضاً ، فلتستقبلنا فى مثواك .
إنك ستكون كافيا لإنقاذ العالم المسيحى ،
أنت الذى قهرت الجميع فيما عدا امرأة "[١٤٩] .

على هذا النحو كان الشاعر البيزنطي يوحنا الجيومترى يتضرع إلى الإمبراطور الراحل نقفور فوقاس لإنقاذ القسطنطينية مما حل بها من كوارث على الصعيدين الخارجى والداخلى . وكان يملؤه الأمل تماماً فى استجابة الإمبراطور له بقوله : " لا .. أنت لن تمتنع عن الاستجابة " ، وكلماته هذه تعكس أيضاً المكانة التى كانت عليها بيزنطة فى عهد نقفور فوقاس . ويختتم قصيدته بإعلان أن نقفور فوقاس كفيل بإخضاع العالم ، ولكن كيف هذا وقد قهرته زوجته الإمبراطورة ثيودورا !!

---

(١٤٧) *Yahya d'Antoiche*, pp. 831-832.

(١٤٨) Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 350.

(١٤٩) *Joannis Geometrae Hymni quinque in Sanclissiman Deiparam*, in: *S.P.N. Andreae et Arethae Opera Omnia*, ed. J.P.Migne, *PG*, tome 106, (Turnholti), Col. 922; Schlumberger, *L'épopée*, pp. 317-318.
للمزيد من قصائد يوحنا الجيومترى عن نقفور فوقاس ،انظر، *Joannis Geometrae*, Cols. 901, 927.

ويبدو أنه إزاء هذه الأحداث الجسام التى عبثت ببيزنطة فى آسيا الصغرى والبلقان معا قرر يوحنا تزيمسكس اللجوء إلى الطرق الدبلوماسية مع سفياتوسلاف ، لتهدئة الأوضاع فى البلقان . فتخبرنا الحولية الروسية الأولى أن يوحنا تزيمسكس لجأ إلى المفاوضات مع سفياتوسلاف وأنه أرسل إليه ذهبا وحريرا مع رسول محنك؛ وسمح له بالدخول إلى حضرة الأمير الروسى والمثول بين يديه مقدما هداياه. وقابل سفياتوسلاف الأمر بلا اكتراث ، ورد الرسل البيزنطيين بخفى حنين . ومع هذا أرسل يوحنا تزيمسكس سفارة أخرى إلى سفياتوسلاف حملت معها هدايا عسكرية من سيوف وتجهيزات أخرى ، وعندما دخلوا إلى حضرته ومثلوا بين يديه ، ووضعوا هذه الهدايا أمامه فرح سفياتوسلاف بها وحملهم تحياته إلى الإمبراطور يوحنا تزيمسكس . ونظرا لاقتراب سفياتوسلاف من العاصمة البيزنطية ، فقد طلب منه الإمبراطور يوحنا تزيمسكس الانسحاب ، على أن يدفع مقابل ذلك الجزية له، ولعائلات الروس الذين فنوا فى القتال[١٥٠] . وعلى الرغم من خلو المصادر البيزنطية من الإشارة لمثل هذه المفاوضات إلا أنه ينبغى ألا نستبعد رواية نسطور من الواقع ، نظرا لأن الظروف القائمة التى كانت تحيط بالإمبراطور يوحنا تزيمسكس فى آسيا الصغرى جعلته يستدعى برداس سكليروس من البلقان ، وتعويضا عن هذا التزعزع العسكرى البيزنطى فى البلقان ، على الرغم من انتصار أركاديوبوليس ، كان لابد وأن يلجأ يوحنا تزيمسكس إلى مثل هذه المفاوضات وإن اضطر إلى تقديم مبالغ مالية لسفياتوسلاف ، عدها نسطور ، بحسه الوطنى ، جزية. ولعل ما يؤكد كلامنا هذا هو قول نسطور أن سفياتوسلاف قبل الهدايا الكثيرة وانسحب إلى بيرياسلاف يصحبه الهتاف الكبير[١٥١] . وهناك دليل آخر على حدوث اتفاق بين الطرفين عقب هزيمة الروس فى أركاديوبوليس سنة ٩٧٠م ، وهو أن يوحنا تزيمسكس ، كما سنرى ، عندما هاجم بلغاريا فى عام ٩٧١م وكان على رأس قواته وجد الممرات الجبلية ، وهو نموذج أمثل لنصب الكمائن ، بلا حراسة روسية . وهذا يعنى أنه نتيجة الاتفاق الذى تم بينهما عام ٩٧٠م انسحب سفياتوسلاف إلى بيرياسلاف ، الواقعة فى الأراضى البلغارية تاركاً هذه الممرات بلا حراسة ، مرتكناً إلى شعور بالأمن إثر هذا الاتفاق[١٥٢] . وعلى هذا النحو ، تكيف يوحنا تزيمسكس مع الظروف التى أحاطت به وهو مازال حديث العهد بالعرش الإمبراطورى ، بل استطاع أن يقدم أقصى ما كان فى استطاعته حتى يتخلص

---

(١٥٠) *R.P.C.*, pp. 88-89; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 351; Fine, *Balkans*, p. 186.

(١٥١) *R.P.C.*, p. 89.

(١٥٢) Fine, *Balkans*, p. 186.

من الخطر الجاثم على صدره فى آسيا الصغرى ، وما أن تخلص من هذا الخطر وقضى على ثورة برداس فوقاس حتى أخذ يعد العدة للتخلص من الخطر الروسى فى البلقان .

وقبل أن ننتقل إلى المرحلة الأخيرة من الصراع العسكرى بين البيزنطيين والروس على أرض البلقان ، ينبغى علينا أن نتناول بالمناقشة والتحليل أمراً هاماً ، وهو لماذا اشترك البلغار فى القتال إلى جانب الروس فى معركة أركاديوبوليس ؟

لقد سبق أن عرفنا أن سفياتوسلاف عندما دخل مدينة بيرياسلاف أسر القيصر بوريس وأخاه وباقى أفراد الأسرة المالكة . وفى المقابل عندما دخل يوحنا تزيمسكس بعد ذلك ، كما سنرى ، مدينة بيرياسلاف ، بعد أن استولى عليها عنوة فى عام ٩٧١م ، كان القيصر بوريس يتجول حول المدينة بحرية تامة مرتدياً ملابسه الملكية . ويستنتج المؤرخ فاين *Fine* ، بناءً على هذا ، أن بوريس كان قد استسلم لسفياتوسلاف وسلمه مدينة بيرياسلاف شريطة أن يسمح له بحكم المدينة باسم سفياتوسلاف وقد منحه سفياتوسلاف ما يريد ، آملاً فى الحصول على مزيد من الدعم البلغارى له . ولعل البلغار فضلوا أن يحكمهم بلغارى باسم سفياتوسلاف لا أن يحكمهم روسى . وقد يعنى هذا أن سفياتوسلاف لم يكن بحاجة لنشر قواته إلا بقدر ضئيل(١٥٣) . وإذا ما تحتم على بوريس يوماً ما أن يخون سفياتوسلاف أو يصبو إلى طموحات أخرى ، كان بمقدور سفياتوسلاف أن يعزله ، وهو الأمر الذى كان يدركه بوريس جيداً . وهذا سمح له باستعادة لقبه الملكى وإدارة عاصمته باسم سفياتوسلاف وقد أصبح من عمال الأمير الروسى ، رغماً عن إرادته وعلى إثر هذه السياسة الروسية تجاه بوريس كان طبيعياً أن يشارك البلغار إلى جانب سفياتوسلاف فى أركاديوبوليس كما أخبرتنا بذلك المصادر البيزنطية(١٥٤) . وينبغى ألا نفاجأ بهذا الموقف البلغارى من البيزنطيين ، فبالنظر إلى التاريخ الطويل للشعور المعادى لبيزنطة فى بلغاريا ، سنجد تفسيراً لوقوفهم إلى جانب الروس الذين أعطوهم بالمصطلح السياسى الحديث نوعاً من الحكم الذاتى المحدود ، با?ضافة إلى أن سفياتوسلاف سمح لهم بالحصول على جزء من الغنيمة من جراء حملاته الناجحة ؛ كما ينبغى ألا ننسى العلاقات التجارية بين الروس والبلغار . أخيراً يذكر فاين أن سفياتوسلاف عندما دخل المدن البلغارية لم يسمح لجنوده بالسلب والنهب فيها ، كما انه ترك الكنائس وخزائنها دون أذى ، والمكان الوحيد الذى اشتد فى

---

(١٥٣) Fine, *Balkans*, pp. 184-185; Karamsin, *Histoire*, p. 223.

(١٥٤) انظر ، ص ٦٠ .

معاملته كان مدينة فليبوبوليس(١٥٥) . ربما كانت كل هذه العوامل كفيلة بتفسير الوجـود البلغارى بين قوات الروس المحاربة فى أركاديوبوليس ضد البيزنطيين .

ونعود ثانية إلى المرحلة الأخيرة من الصراع العسـكرى بيـن البـيزنطيين والروس على أرض البلقان . فبانتهاء الثورة فى آسيا الصغرى كـان فـى اسـتطاعة الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزيمسكس التصرف فى قواته العسكرية كيفما يشاء . وتـم التحضير وعمل الاستعدادات اللازمة للحملة العسكرية الكبيرة المزمعة ضد الروس فى ربيع عام ٩٧١م . وكان الأسطول البيزنطى كله متمركزا قرب القسطنطينية ومتأهبـا للرحيل صوب الدانوب . وحتى يقـوى يوحنـا تزيمسـكس مركـزه فـى العـرش الإمـبراطورى تـزوج مـن الأمـيرة ثيـودورا ابنـة الإمـبراطور قسـطنطين بورفـيروجنيتوس *Θεοδοδώρα θυγατέρα τοῦ Κονσταντίνου Πορφ-υρογεννήτου* فى شهر نوفمبر عام ٩٧٠م(١٥٦) . وقد أقيمت الاحتفالات بهذه المناسـبة فى القسطنطينية ، انتظارا لحلول الربيع القادم لبدء الحرب الحاسمة ضد الروس(١٥٧) . وها هو الإمبراطور يوحنا تزيمسكس قد استعد بقواته وبأسطوله لخوض غمار الحـوب ضد الروس ، لكنه قبل أن يبدأ السير إلى الميدان كان لابد وأن يستمد العون الإلـهى . ففى اليوم الثامن والعشرين من شهر مارس خرج الإمبراطور فى موكب مهيب مـن القصر ، ممسكا فى يده بشارة الملك، وكان يتبعه رجال البلاط وجميـع النبـلاء لأداء مراسم العبادة الرسمية والابتهال للرب فى كنيسة المسيح المخلص ، كنيسـة الشـالكيه *Chalcé* ، وهى كنيسة ذات مذبح صغير مزين بشكل رائع مكرس للطقوس الخاصـة، وبدأ الإمبراطور بتدشين قبر رائع مذهب ومرصع بالخزف والعاج المزخرف . وبعـد الصلوات الأولى ، انتقل الإمبراطور بهذا الموكب إلى كنيسة آيا صوفيا، وهناك كـان لصلواته طابع خاص ووقع فريد فى النفس؛ وقام بالتضرع إلى الله طالبا منه أن يمـده بملاك عن يمينه لإرشاده ويسير على رأس الجيش ، ومن سيفه السـبراق يدلـه علـى الطريق . وعلى طول الطريق كان الإمبراطور وموكبه ينشـدون بـورع المزامـير والابتهالات الدينية . وبعد كل هذه المراسم الدينية صعد يوحنا تزيمسكس إلـى قصـر البلاشيرن ، ومن خلال شرفاته قام باستعراض الأسطول ذى قاذفات النار الإغريقيـة

---

(١٥٥) Fine, *Balkans*, pp. 185-186.

(١٥٦) *Zonaras*, III, p. 527; *Leo Diaconus*, p. 127; Anastasijevič, D., "Les indications chronologiques de Yahya relatives à la guerre de Tzimiscès contre les Russes ", *Melanges Charle Diehl*, tome I, (Paris, 1930), p. 2.

(١٥٧) Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 351.

والذى سيتوجه إلى نهر الدانوب(١٥٨) . وبعد الانتهاء من هذه المراسم قاد تزيمسكس قواته العسكرية فى ربيع عام ٩٧١م واتجه إلى شبه جزيرة البلقان لقتال الروس . وفى الوقت نفسه توجه الأسطول البيزنطى ، تحت قيادة الدرونجاريوس الأعظم ليو *Leo* ، لاحتلال مصبات نهر الدانوب وقطع خط الرجعة على الروس . وعند مدينة أدرنه انضمت قوات يوحنا كوركواز إلى قوات يوحنا تزيمسكس ، وبدأ الجميع فى السير نحو مضايق وممرات البلقان ، التى وجدها تزيمسكس خالية من الحراسة الروسية ؛ ثم تقدم الجيش فى سكون دون إحداث ضوضاء(١٥٩) . ويذكر ليو الشماس أن تزيمسكس قاد جيشا قوامه خمسة آلاف راجل *πεντα χισχίλιοι* وثلاثة آلاف فارس *ἱππεῖς δὲ μύριοι καὶ τρισχίλιοι*(١٦٠)، أما المؤرخان البيزنطيان زوناراس وكدرينوس فيذكران أنه قاد جيشا قوامه خمسة آلاف من الرجالة وأربعة آلاف من الفرسان(١٦١) . ونظرا لأن هذه الإحصائيات كلها متقاربة فلا يمكن الأخذ بواحدة والوثوق بها دون الأخرى لعدم توافر الأدلة التاريخية التى تساعدنا على ذلك .

وفى الواقع ، لم يكن هناك وقت لاضاعته ، فتم دعوة مجلس الحرب للانعقاد والذى أظهر الإمبراطور فيه ضرورة عبور البلقان دون إبطاء بمجرد حلول عيد الفصح ، وفى الوقت الذى لن يتوقع فيه الروس القيام بهجوم عليهم . وأظهر لهم ضرورة عبورهم مضايق البلقان الجبلية فى التو ، لأن الروس إذا نمى إلى علمهم التحركات البيزنطية فإنهم على الفور سوف يحتلون هذه المضايق ، وعندئذ سيتعرضون لأفدح الخسائر . وبناء عليه تحرك الجيش البيزنطى نحو المرتفعات الجبلية فى البلقان وعلى رأسه فرقة الخالدين . وكان الإمبراطور يتبعهم عن قرب حيث كان يقود قوات الفرسان والمشاه . لقد كانت هذه القوات تتقدم بسرعة كبيرة ، بينما هناك جزء من الجيش يشكل المؤخرة ، ويقوده قائد يدعى باسيل *Basil* ، كان يتقدم ببطء ، لأنه كان يعتنى بإمدادات الجيش وآلات القتال(١٦٢). وتذكر المدونات البيزنطية المحطات العسكرية التى كان يصل إليها الجيش البيزنطى مثل أدرنه ،

---

(١٥٨) Schlumberger, *Russes*, pp. 26-27.

(١٥٩) انظر، *Leo Diaconus*, pp. 128-130; *Cedrenus*, II, pp. 392-393.

(١٦٠) هناك خطأ فى الترجمة اللاتينية لليو الشماس ، فقد ذكر أن عدد القوات البيزنطية كان ١٣ ألف فارس وخمسة آلاف راجل وعشر .انظر، *Leo Diaconus*, p. 132.
" *Legionariorum forrtissim millia quinque et decem equitum tredecim millia* "
وقد سار البعض وراء هذا الخطأ، انظر، Finlay, *Byz. Empire*, p. 320; Karamsin, *Histoire*, p. 228.

(١٦١) *Zonaras*, III, p. 527; *Cedrenus*, II, p. 393.

(١٦٢) *Leo Diaconus*, pp. 130-132.

بيرياسلاف . وقد عبرت القوات البيزنطية مضايق البلقان الجبلية بسهولة تامة ، نظـرا لانعدام وجود قوات من الروس تحرسها، وبعد اجتيازها وجد الجيش البيزنطى نفسـه فى مواجهة منطقة بنيويك – كامتشك الريفية *Benuiuk-Kamtchik* ، والتى تقع فـى منتصفها مدينة بيرياسلاف . وبعد يوم من الراحة داخل المعسكر تم النزول إلى الريف المحيط بمدينة بيرياسلاف يوم ١٢ أبريل ، حيث لم يتوقع الـروس حـدوث شـيء ، وعندما أدركوا اقتراب البيزنطيين منهم كانت هى اللحظة التى انطلقت فيها أصـوات النفير لتعلن عن بدء الهجوم البيزنطى عليهم(١٦٣). وهكذا أصبح تزيمسكس أمام بوابات بيرياسلاف ، التى كان يدافع عنها ثمانية آلاف مقاتل روسى يقودهم القـائد الروسـى سفنجللوس *Σφάγελλος* ومعه الخائن كالوكيروس . وكان سفياتوسلاف نفسه عنـد مدينة دريسترا (سيلسترا) ، الواقعة على الدانوب ، ربما فى محاولة منه لجعـل خـط اتصالاته مع كييف مفتوحا فى مواجهة الأسطول ا?مـبراطورى ، علـى حـد قـول رنسمان(١٦٤) . وما أن هجمت القوات البيزنطية حتى اضطر الـروس للدخـول فـى المعركة ، لكن بعد صراع دام وغير حاسم ، انهزموا فيه مرارا ارتدوا إلـى المدينـة وتحصنوا خلف أسوارها(١٦٥) . وأثناء الليل تمكن كالوكيروس من الهرب من المدينـة للذهاب إلى سفياتوسلاف فى دريسترا لإطلاعـه علـى الموقـف(١٦٦) . والواقـع أن كالوكيروس كان يعلم جيدا المصير الذى سيؤول إليه إذا ما قبض البيزنطيين عليه(١٦٧).

ويذكر كدرينوس بشكل مبهم أن الأمير الروسى سفياتوسلاف قـد انتقـل إلـى بيرياسلاف على رأس جيش مساعد ، حيث اشترك فى معركة ضـد البـيزنطيين(١٦٨) . وهذه الرواية التى ينفرد بها دون بقية المؤرخين البـيزنطيين ليسـت صحيحـة علـى الإطلاق ، ويفندها جولنيه بقوله إن سفياتوسلاف لم يكن لديه الوقـت لقطـع المسـافة الطويلة من دريسترا إلى بيرياسلاف ليتمكن فى اليوم نفسه من الاشتراك بجيش لإنقـاذ الموقف فى معركة تمت فى هذا اليوم بين الروس والبـيزنطيين . وهـذه غفلـة مـن

(١٦٣) *Cedrenus*, II, p. 393; *Zonaras*, III, p. 528.

(١٦٤) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 209.

(١٦٥) *Leo Diaconus*, pp. 133-134; *Cedrenus*, II, pp. 394-395; *Zonaras*, III, pp. 528-529; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 354; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 209.

(١٦٦) *Leo Diaconus*, p. 134; *Cedrenus*, II, p. 394.

(١٦٧) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 209.

(١٦٨) *Cedrenus*, II, p. 394.

كدرينوس ، لأنه أكد على أن الأمير الروسى جاءه خبر سقوط بيرياسلاف في أيدى البيزنطيين بعد ذلك وهو فى دريسترا[١٦٩] .

وفى اليوم التالى الموافق خميس العهد ، كانت قوات المؤخرة بعتادها الحربى وآلات قذف النيران قد وصلت ، وأعطى الإمبراطور أوامره بالهجوم على المدينة نفسها . واندفع البيزنطيون نحو أسوار المدينة ، واستمات القائد الروسى سفنجللوس فى الدفاع عنها ؛ لكن يبدو أن الروس كانوا مجهدين من جراء قتال اليوم السابق فلم يستطيعوا تحصين السور جيدا ضد جحافل المهاجمين ، ولم يصمدوا أمام النيران التى كانت تقذف بها الآلات البيزنطية . وبعد ساعات قلائل انسحب الروس إلى وسط المدينة حيث يقع قصر القياصرة الحصين .

واندفعت قوات الإمبراطور يوحنا تزيمسكس بقوة نحو المدينة ، واجتاحوا المدينة وذبحوا كل من قابلهم من الروس ، كما أهلكوا كثيرا من البلغار أيضا ، سواء أكانوا مذنبين أم مشتبها فيهم بتقديم العون للروس . وقد تم إلقاء القبض على القيصر بوريس وزوجته وطفليهما على حين غرة ؛ ومثلوا بين يدى الإمبراطور . وقد استقبلهم يوحنا تزيمسكس بصورة مهذبة ، معاملا بوريس على أنه أمير على البلغار، قائلا له ، إنه جاء ليثأر من الظلم الذى حل ببلغاريا على أيدى الروس[١٧٠] . وفى هذه الأثناء حاصر الجند القصر الذى احتمى به الروس ، وهذا القصر عبارة عن مجموعة واسعة من المبانى جيدة التحصين ، كالقصر الكبير فى القسطنطينية ، مشكلا مدينة داخل المدينة[١٧١] . وقاوم الروس القوات البيزنطية بشيء من النجاح ، إلى أن أطلقت القاذفات البيزنطية النيران عليهم ، فانطلقت ألسنة اللهب لتلتهم تحصينات القصر ، وتشعل النيران فى المحاربين الروس ليلقوا حتفهم إما حرقا أو بسيوف البيزنطيين . وبحلول المساء كانت المدينة قد سقطت فى أيدى يوحنا تزيمسكس ، بينما تمكن القائد الروسى سفنجللوس من الهرب إلى دريسترا .

وكشف صباح الجمعة الحزينة[١٧٢] عن بقايا ألسنة الدخان المتصاعدة من داخل المدينة وعن الشوارع التى اكتظت بجثث القتلى . وقضى الإمبراطور يوحنا تزيمسكس نهاية أسبوع عيد الفصح هناك ، ومن هناك بعث برسالة إلى سفياتوسلاف

---

(١٦٩) *Cedrenus*, II, p. 397; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 354.

(١٧٠) *Leo Diaconus*, pp. 135-136; *Cedrenus*, II, p. 396.

(١٧١) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 210.

(١٧٢) هى الجمعة السابقة على عيد الفصح والتى تلى خميس العهد، ويطلق عليها البعض اسم الجمعة الكبيرة

يطلب منه فيها الاستسلام له ، وإذا رفض سيستمر فى قتاله . وقد أعاد تزيمسكس بناء تحصينات المدينة وحول اسمها إلى يوحنابوليس *Ioannvpolis*[١٧٣].

وبعد انتهاء عيد الفصح فى يوحنابوليس ، بيرياسلاف سابقا ، عبر بقواته آخر مرتفعات البلقان ، ووادى برافادى *Pravadi* مدمرا كمينا روسيا كان كامنا فى مضايق اريكلى *Erekli* ، وأكمل مسيرته عبر الطريق العسكرى المؤدى إلى دريسترا بطـــول نهر طابان *Taban*[١٧٤] . وقد وصل إلى العاصمة البلغارية القديمـــة بليســكا *Pliska* ومنها اتجه إلى دريسترا عبر طريق مدينة دينيا *Dinea* . ووصل الجيــش البــيزنطى أمام المدينة يوم عيد القديس جورج ، الموافق ٢٣ أبريل ، وفى التو التحم الفريقان فــى السهل الممتد جنوب دريسترا ذى المنحنيات الأرضية . وفى هذا اللقاء الضارى قســم سفياتوسلاف قواته على شكل كتائب واضعا الفرسان البشناق على الأجنحة . وبـــالمثل صف تزيمسكس قواته المشاة أمام المشاة الروس واضعا فرسانه على الأجنحة لتتولـــى مقاومة البشناق[١٧٥] . وقد أبلت المشاة الإمبراطورية بلاء حسنا فى مواجهــــة مشـــاة الروس الشديدة المراس ، واشتبكت فرسان الروس مع الفرسان البيزنطيين الذين كـانوا يتقهقرون أمامهم ، ولكن ثبت الإمبراطور البيزنطى مع مشاته الأرمن ، الذين أجــبروا العدو بدروعهم القوية على الانسحاب والفرار . وقد تبعهم الإمبراطور شاهرا سيفه فى يده ومعه فرسانه حتى تقهقروا خلف أسوار المدينة يتحصنون بها[١٧٦] . وقـــد شـــجع الظلام الدامس الروس على الانسحاب إلى ما وراء أسوار المدينة وأدرك تزيمسكس أن الاقتحام والاستيلاء عليها عنوة أمر مستحيل ، ولكن فى اســـتطاعته الانتظـــار حتـــى يتعجل الروس القتال ، مدفوعين بالمجاعة التى ستلحق بـــهم مـــن جـــراء الحصـــار البيزنطى لهم ، وأنهم مجبرون على?يجاد حل لما هم فيه . وفى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل قام ا?مبراطور بعمل كل التجهيزات لحماية جيشـــه مـــن أى هجـــوم مباغت . فقام بتحصين المعسكر بعمل خندق مربع الشكل ، مدعما أعلاه بســياج مـــن أسلحة الرماح والدروع على شكل طابورين[١٧٧] .

---

(١٧٣) انظر، *Leo Diaconus,* pp. 134-138; *Cedrenus*, II, pp. 396-397; *Zonaras*, III, p. 529; Karamsin, *Histoire*, pp. 228-230; Runciman, *Bulgarian Empire*, pp. 209-210.

(١٧٤) *Leo Diaconus,* p. 139.

(١٧٥) *Leo Diaconus,* p. 140.

(١٧٦) *Cedrenus*, II, p.399; Göllner, *Jean Tzimiscès*, pp. 355-356; Mcgeer, *Sowing*, p. 318.

(١٧٧) *Leo Diaconus*, pp. 142-143.

جدير بالذكر أنه كانت هناك أعداد كبيرة من البلغار داخل دريســــترا تعمــل كرها مع الروس ، وقد صب عليهم سفياتوسلاف آنذك جام غضبه . ونظــرا لتخوفــه منهم عند القتال مع البيزنطيين فقد قطع رؤوس ما يقرب من ثلاثمائــة مــن أقطابــ هم وأعيانهم ؛ أما الضعفاء منهم والأذلاء فقد أطلق سراحهم وألحقهم بجيوشه ، لكنه فــى الوقت نفسه أمر حلفاءه من البشناق أن يحصدوهم بلا رحمة إذا حــاولوا الــهرب أو الخيانة(١٧٨) .

لقد استمر حصار البيزنطيين للروس فى دريسترا خمسة وســتين يومــا(١٧٩)، وكانت مدة الحملة حوالى ثلاثة شهور كاملة ، وانتهت فى يوليو من عام ٩٧١م(١٨٠).

وقد حاول الروس قطع الخطوط البيزنطية ، لكن ايقافهم كان يتم دائمــا مــع ?لحاق الخسائر الفادحة بهم . ففى الخامس والعشرين من شهر أبريل أمر الإمــبراطور بشن هجوم على الروس ، وفشل هذا الهجوم بعد أن رده الروس بهجوم مماثل . لكــن

---

(١٧٨) *Cedrenus*, II, p. 400; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 211.

(١٧٩) Göllner, Jean Tzimiscès, p. 356.

(١٨٠) *Yahya d'Antoiche*, p. 833; Sorlin, *Le traité de 944*, p. 469.

اختلف المؤرخون المحدثون اختلافا كبيرا حول تاريخ ومدة الحملة الأخيرة التى قام بها تزيمسكس ضــد الروس . وليس هنا المجال لسرد آراء كل مؤرخ على حدة ، فهذا ضرب من العبث ، لأن هذه القضية قد حسمت أخيرا . ويكاد يتفق المؤرخون على مدة هذه الحملة وتاريخها . ويتفق المؤرخون على أن الحملــة خرجت فى ربيع ٩٧١م . إلا أن الدكتور أنستازيفتش أثار ثائرتهم بقوله أنها امتدت حتى عام ٩٧٤م ، مــن خلال عدة مقالات أهمها :

Anastasijevic, *Tzimiscès*, pp. 1-5; " La chronologie de la guerre russe de Tzimiscès", *B*, (1931), pp. 337-342; "Leon Diakons "über das Jahr der Befreiung Bulgariens von den Russen durch Tzimiskes", *SK*, 3(1929),pp. 1-2.

وقد ساعده على افتراضه هذا رواية ليو الشماس ، التى تخبرنا أن الإمبراطور خرج فى العام الثانى مــن حكمه لقتال الروس . انظر، *Leo Diaconus*, p. 127 وكذلك رواية يحيى الانطاكى الذى أخطأ ســهوا بقوله?ن ا?مبراطور حاصر دريسترا ثلاث سنوات بدلا من ثلاثة أشهر . انظر، *Yahya d'Antoiche*, p. 833 . لكنه يصحح نفسه فى موضع آخر بقوله أن تزيمسكس كان يحارب فى عام ٩٧٢م فــى آسـيا الصغرى . ويصحح المؤرخ الألمانى دولجر خطأ أنستازيفتش فى مقالته الآتيــة: Dölger, F., "Dei chronologie des grossen feldzuges des kaisers Johannes Tzimiskes gegen die Russen", *BZ*, 32 (1932), pp. 272-292.

ويتفق معظم المؤرخين المحدثين على أن الحملة انتهت فى شهر يولية عــام ٩٧١ م، وهــذا مــا تؤكــده الحولية الروسية أيضا، انظر، *R.P.C.*, p. 89 لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع، انظر، Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 351; Gregoire, *Der. Compagne*, pp. 267-276; Sorlin, *Le traité de 944*, pp. 468-469; Grégoire, H., " Saint Théodore le Stratélate et les Russes d'Igor ",*B*, 13(1938), pp. 291-300; Grégoire et Orgels, " Les invasions russes dans le senaxaire de Constantinople ", *B*, 24 (1955), pp. 141-145.

عند المساء رأى الإمبراطور أسطوله الكبير قادماً إلـــى الدانـــوب . وفـــى الســـادس والعشرين من الشهر نفسه ، وبعد معركة كبيرة بيـــن الطرفيـــن ، بـــدأ البـــيزنطيون يضربون الحصار حول دريسترا ، مراقبين المداخل المؤدية إلـــى المدينـــة . ومـــرت الأسابيع ممتلئة بالجولات العسكرية المثيرة . وشن الروس العديد من الهجمات القاتلة ، ومع هذا لم يستطيعوا اختراق صفوف البيزنطيين ، ولم تســـتطع ســـهامهم أن تمنـــع النيران الإغريقية من حرق سفنهم فى الدانوب . وهكذا بدأ الحصار ، الذى استمر كمـــا سبق وذكرنا خمسة وستين يوماً[١٨١] . وأدرك البلغار أن المسألة ما هى إلا وقت فقـــط وينتهى كل شىء لصالح البيزنطيين . فأرسلت العديد من المدن الشمالية ، بمـــا فيـــها قسطنطينة *Constantina* ، مندوبين عنها إلى معسكر الإمبراطور ليسلموه مفاتيحـــها ويعرضوا عليه المساعدة . ويبدو أن الحظ لم يرد أن يبتسم لتزيمسكس بصور مستمرة، فقد ثارت أسرة فوقاس ثانية عليه فى القسطنطينية . لكن شـــجاعة البـــاراكويموميـنوس *Paracoememenos* باسيل *Basil* ، وكان ابناً لرومـــانوس ليكـــابينوس مـــن إمـــرأة بلغارية، صانت العرش وحفظته من هذه الثورة فى غيبة تزيمسكس[١٨٢] .

الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين بالغوا فى الحالة التى كان عليها الـــروس عندئذ ، فقالوا أن صوت بكائهم كان يسمع كل ليلة على أمواتهم . وكـــان مـــن فـــى معسكر البيزنطيين يسمع نحيبهم الذى كان يستمر حتى الفجر ، وكانوا يخرجون أفواجاً من أبواب المدينة يجمعون جثث قتلاهم فى مكان واحد عند الأسوار ثم يضعون عليـــها الأخشاب والحطب للقيام بحرقها حسب طقوسهم ومعتقداتهم[١٨٣] . وكـــانوا يذبحـــون الأسرى البيزنطيين كقربان لأرواح قتلاهم ثم يحرقونهم معهم[١٨٤] . ويقول ليو الشماس أنهم كانوا يلقون أطفالاً رضعاً فى الدانوب ، كما كانوا يلقون معهم الديكة التى كـــانت تغرق على الفور . وفى اليوم التالى لهذا الاحتفال الجنائزى، أحصى البيزنطيون جثـث الروس الأخرى التى لم يستطعوا رفعها من الميدان فوجدوا بينها جثث لســـيدات كـــن يحاربن إلى جوار أزواجهن الروس حتى الموت[١٨٥].

وأياً كان الحال ، فإن الروس كانوا فى حالة لا يحسدون عليـــها ، فـــها هـــم محصورون داخل مدينة دريسترا ، والقوات الإمبراطورية تقطع الإمدادات عنهم؛ أمـــا

---

(١٨١) Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 356.

(١٨٢) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 212.

(١٨٣) عن عادة حرق الموتى عند الروس ، انظر، ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٨٠-١٨٧ .

(١٨٤) Schlumberger, *Russes*, p. 29.

(١٨٥) *Leo Diaconus*, pp. 143-144; Court, *La Russie*, p. 112.

الأسطول البيزنطى فيقف خلفهم فى الدانوب ليحول بينهم وبين الاتصال بكييف، فماذا بإمكانهم أن يفعلوا !

يقول المؤرخون إنه فى ليلة عاصفة ممطرة يلفها الرعد والبرق نجح سفياتوسلاف فى اختراق الأسطول البيزنطى ؛ فقد أخذ معه ألفين من الجنود وصعدوا إلى بعض القوارب وداروا حول الأسطول البيزنطى ، وذهبوا لجمع القمح والذرة من القرى المحيطة . وعند عودتهم لمحوا فرقة عسكرية بيزنطية كان أفرادها مشغولين بسقى الخيل وقطع الأخشاب ، فخرج الروس من قواربهم وهجموا على أفراد هذه الفرقة فجأة وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، وعادوا بنجاح إلى الشاطئ . لكن ، ومنذ ذلك الحين ، بدأت يقظة البيزنطيين تنهض بشكل أكبر من ذى قبل ، إذ قام يوحنا تزيمسكس بتهديد قادة الأسطول البيزنطى بقطع رؤوسهم إذا نجح الروس ثانية فى اختراق الأسطول[186] .

واشتد الحصار وأصبح نقص الإمدادات شيئاً لا يطاق ، أضف إلى ذلك فقدان الروس لخبرة قادتهم مثل القائد سفنجللوس الذى دافع عن بيرياسلاف فيما مضى . وها هو الشهر الثالث من شهور الحصار ، شهر يوليو ، قد بدأ ينفرط عقده ولا شيء يلوح فى سمائه يبشر بانفراج الكربة . وعلى هذا عقد سفياتوسلاف مجلسه العسكرى ، وقد استقر عزمه على فض الحصار بأية طريقة . فعرض عليهم حله العسكرى وهو القيام بمحاولة أخيرة ضد البيزنطيين . ولكى يلهب حماسهم قال لهم "إذا سقطت فى ميدان الوغى فلتعتنوا عندئذ بأنفسكم " إلا أنهم ردوا عليه قائلين "سوف نسقط معك"[187] .

وفى يوم ٢٠ يوليو غادر سفياتوسلاف وأتباعه دريسترا . وبناءً على أوامره أغلقت أبواب المدينة ، لكى يثبت لمحاربيه أن الانسحاب أمر محال . والآن فتحت بوابات المدينة واندفع الروس فى هجوم ضارٍ مستميت ضد البيزنطيين ، وكانت صيحاتهم تتعالى كما لو كانوا قد ركبتهم الأرواح الشريرة . إلا أن البيزنطيين تمكنوا من الصمود أمامهم ، ووقعت خسائر كبيرة من الجانبين . وعند المساء هاجم الإمبراطور يوحنا تزيمسكس الروس وهو يقود فرسانه الكاتافراكتى الثقيلة التسليح . وقد استمر القتال المتلاحم بين الطرفين ستة أيام[188] دون أن يسفر عن فوز أحد الفريقين . وقد شن البيزنطيون خلالها اثنتى عشرة هجمة ضد الروس، وبالمثل تمكن

---

(١٨٦) *Cedrenus*, II, pp. 402-403; *Zonaras*, III, pp. 531-532; Court, *La Russie*, p. 112; Karamsin, *Histoire*, pp. 232-233.

(١٨٧) *Leo Diaconus*, p. 150-151; *Cedrenus*, II, pp. 407-408; *Zonaras*, III, p. 502.

(١٨٨) Schlumberger, *Russes*, p. 30.

الروس من صدها جميعاً . وأخيراً وبعد استماتة الطرفين فى القتال، هبت رياح عاتية من ا لجنوب أثارت سحباً كثيفة من الغبار على وجوه الروس . وهنا اندفع الإمبراطور يوحنا تزيمسكس بفرسانه الكاتافراكتى فى هجومه الثالث عشر ضد الروس وبحسه العسكرى ، أدرك أن هذه الرياح جاءت لتعلن عن هزيمة الروس ، فهاجم المشاة الروس ، الذين فوجئوا بالإمبراطور وقواته أمامهم . وفى الوقت نفسه هاجمت فرقة بيزنطية يقودها برداس سكليروس الروس من الخلف وقطعت عليهم خط الرجعة(١٨٩) .

وقد أشاع البيزنطيون أن القديس ثيودور الاستراتيلات *Theodore the Stratilates* قد ظهر بينهم فى المعركة وأمدهم بالعون الإلهى ، الذى تمكنوا بفضله من دحر الروس وهزيمتهم(١٩٠) . وقد أسفرت هذه المعركة عن هزيمة الروس شر هزيمة أمام البيزنطيين ، وهو الأمر الذى دفع سفياتوسلاف إلى التفكير فى المفاوضات مع البيزنطيين . وتخبرنا الحولية الروسية الأولى أن سفياتوسلاف لاحظ قلة عدد قواته مقارنة بالبيزنطيين ، وأن البيزنطيين لو هاجموه بغتة فإنهم سيهلكون جميعاً ، لذلك قرر العودة إلى بلاده لجلب التعزيزات العسكرية . وعندئذ أرسل رسله إلى الإمبراطور يوحنا تزيمسكس عند دريسترا مشيراً إلى عزمه على الإبقاء على روابط الود والسلام بينهما(١٩١) . وهذا الجزء من رواية نسطور مقبول ويتماشى مع سير الأحداث ، أما بقية روايته ففيها مغالطة تاريخية ، حيث يجعل الروس هم المنتصرون ، وهم الذين يتلقون جزية من الإمبراطور البيزنطى . لكن كلماته التالية تثبت أنه كان فى وضع المهزوم ، حيث قالت رسله للإمبراطور البيزنطى .. يقول أميرنا " إنى أرغب فى مد أواصر الصداقة الحقيقية مع الإمبراطور اليونانى من الآن فصاعداً وإلى الأبد " . وقد ابتهج الإمبراطور، الذى يبدو أنه مل من طول القتال ، وأمر بتسجيل رسالة سفياتوسلاف المرسلة إليه على الرق(١٩٢) وهى على النحو الآتى :

"هذه نسخة من المعاهدة الموقعة بواسطة سفياتوسلاف ، أمير الروس، وبواسطة سفينالد *Sveinald* مع يوحنا ، المسمى تزيمسكس، وكتبها ثيوفيلوس، السكرتير فى دريسترا ، خلال شهر يوليو من عام ٩٧١م ، الخمس عشرية الرابعة عشرة . أنا

---

(١٨٩) *Leo Diaconus*, pp. 152-155; *Cedrenus*, II, pp. 407-411; *Zonaras*, III, pp. 532-533 ; Ephraemus, *Chronographia*, ed. J. P. Migne, *PG*, tome 143, (Turnholti, 1977), Cols. 116-117 .

(١٩٠) *Ephraemus*, Col. 116; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 212; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 358; Court, *La Russie*, p. 113; Karamsin, *Histoire*, p. 236.

(١٩١) *R.P.C.*, p. 89.

(١٩٢) *R.P.C.*, p. 89.

سفياتوسلاف، أمير الروس، حيث?ننى أقسمت على الملأ، الآن أؤكد بالقسم على هـذه المعاهدة . أنني أرغب فى حفظ السلام والصداقة الوطيدة مع كل من الأباطرة العظام ، خاصة مع باسيل وقسطنطين ، ومع خلفائهم الملهمين من الله، ومع كـل رعاياهم . بقرارى هذا ينضوى كل الروس والنبلاء والعامة تحت سلطانى. وعلى هذا أتعهد بـألا أقوم بشن هجمات على بلادكم ، ولن أجيش جيشاً أو أجمع مرتزقة لهذا الغرض . ولن أحرض أى عدو ضد مملكتكم ، أو ضد أى إقليم يخصكم أيضاً ، خاصة إقليم تخرسون ، أو المدن الواقعة في نطاقه ، أو ضد بلغاريا. بل إنني سوف أقاوم أي عدو يفكر فـي الهجوم على مملكتكم وأشن الحرب عليه . ومثلما أديت القسم للأباطرة اليونانيين ومعى كل نبلائى ورعاياى أيضاً ، فإننا لن ننتهك هذه المعاهدة . بل إذا أخللنا بشـرط مـن شروطها فإننا سنهلك بواسطة الرب الذى نؤمن به ، بيرون *Perun* وفولوس *Volos* ، رب الأنعام ، وسنصير صفر البشرة كالذهب ، وسنذبح أنفسـنا بأسـلحتنا الخاصـة . واحتراماً لمصداقية ما اتفقنا عليه معكم دونا هذا على الرق وختـم بأختامنـا "[١٩٣] . ويكمل المؤرخون البيزنطيون نص الحولية الروسية الأولى بذكرهم لطلب سفياتوسلاف السماح له بالانسحاب الاختيارى إلى بلاده ، وإمداده هو وقواته بالميرة اللازمة لرحلـة العودة ، وتجديد الاتفاقية السابقة الموقعة بين بلديهما فى عام ٩٤٥م ، والسماح للروس بحرية التحرك فى بيزنطة ، وألا يهاجموا سفن الروس وهم فى طريقهم للعـودة[١٩٤] . ويضيف كل من كدرينوس وزوناراس أن سفياتوسلاف طلب أيضاً مـن الإمـبراطور يوحنا تزيمسكس أن يقبله من حلفائه ، وأن يحصل من البشناق على وعد بعدم مهاجمته وهو فى الطريق إلى بلاده[١٩٥] . وقد وافق الإمبراطور يوحنا تزيمسكس على كل هـذه الطلبات الروسية[١٩٦] ، ومما يذكر أن الإمبراطور البيزنطى لم يفكـر فـى استشـارة البلغار فى مصيرهم المقبل فى هذه المعاهدة ، أو كما يقول رنسمان لم يكـن للبلغـار صوت مسموع فى هذه المعاهدة[١٩٧] .

وبعد أن أبرمت هذه المعاهدة بين الطرفين البيزنطى والروسى ، قام متولـى تموين الجيش البيزنطى بتوزيع القمح على كل فرد من الاثنى عشر ألفاً البـاقين مـن الجيش الروسى على قيد الحياة ، بينما هلك ثمانية وثلاثون ألفاً من الجنود الروس فـى

---

(١٩٣) *R.P.C.*, pp. 89-90; Sorlin, *Le traité de 944*, pp. 466-467.

(١٩٤) *Leo Diaconus*, pp. 155-156; *Yahya d'Antoiche*, p. 833.

(١٩٥) *Cedrenus*, II, pp. 411-412; *Zonaras*, III, pp. 534-535.

(١٩٦) *Leo Diaconus*, p. 156.

(١٩٧) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 213.

هذه المعارك ، على حد قول ليو الشماس[١٩٨] . وقد حملت القوارب الروسية الصغيرة ، ذات قطعة الخشب الواحدة ، هذه الجموع إلى الناحية الشمالية من نهر الدانوب ، بينما لم تعترض طريقها سفن النار الإغريقية البيزنطية . وعندما تم تسوية الأمور جميعاً بين الطرفين ، أعلن الأمير الروسى سفياتوسلاف عن رغبته فى لقاء الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزيمسكس ، الذى أجابه إلى طلبه . جاء الإمبراطور يوحنا تزيمسكس إلى شاطئ الدانوب متألقاً فى ملابسه الملكية ودروعه الذهبية البراقة ، وخلفه حاشية لا تحصى من البطارقة ذوى الملابس المذهبة البراقة أيضاً ، فى موكب بهى يأسر الألباب . أما الأمير الروسى سفياتوسلاف فقد شاهده البيزنطيون قادماً فى قارب مع رفقائه وهو يجدف معهم . ويقول عنه ليو الشماس،?نه كان متوسط الطول، ذا حواجب سميكة، وعيون زرقاء ولحية خفيفة ، وشارب طويل، وأنفه معقوف، ورأسه خفيفة الشعر (شبه أصلع) يتدلى منها خصلة من الشعر، علامة للنبل، عريض الصدر، مفتولاً، مرفوع الهامة، ويلبس فى إحدى أذنيه قرطاً ذهبياً مزيناً بلؤلؤتين تتوسطهما ياقوتة حمراء، وثيابه ناصعة البياض غاية فى النظافة وهو ما يميزه عن رفاقه[١٩٩] . ولا شك أن هذا المشهد قد أدهش البيزنطيون، الذين اعتادت أعينهم على هيئة بهية للأمراء والملوك .

وللأسف الشديد فإننا لا نعرف أى شيء آخر عن لقاء العاهلين . ويذكر ليو الشماس فقط ما يأتى " كان سفياتوسلاف يتبادل بعض الكلمات مع الباسيليوس بشأن موضوع الصلح وهو واقف على مقعد المجدفين " . ومن الراجح أن تزيمسكس لم يترجل عن جواده ، وأنه كان يتحدث ممتطياً إياه على الشاطئ إلى سفياتوسلاف[٢٠٠].

وبعد انتهاء هذا اللقاء بين العاهلين انصرف سفياتوسلاف مع قواته وبدأ رحلة العودة إلى وطنه مبحراً بقواربه فى الدانوب[٢٠١] . أما يوحنا تزيمسكس فقد انصرف إلى تنظيم شئون بلغاريا ، فقام بتحويل اسم مدينة دريسترا إلى ثيودوروبوليس *Θεοδωρούπολις*[٢٠٢] ، تكريماً للقديس ثيودور الاستراتيلات الذى آذرهم فى المعركة الأخيرة ضد الروس . ونظراً للأهمية البالغة لحدود بيزنطة على نهر الدانوب ، وهو ما أسفرت عنه الحروب البيزنطية – الروسية على عهد كل من

---

(١٩٨) *Leo Diaconus*, p. 156.

(١٩٩) *Leo Diaconus*, pp. 156-157; Schlumberger, *L'épopée*, pp. 148-149; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 213; Karamsin, *Histoire*, pp. 238-239;Fine, *Balkans*,p.187.

(٢٠٠) Schlumberger, *L'épopée*, p. 149; *Russes*, pp. 32-33.

(٢٠١) *Leo Diaconus*, p. 157 .

(٢٠٢) *Leo Diaconus*, p. 158 .

نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس ، فقد أقام الأخير حداً منيعاً بطول الدانوب حتى لا يمكن قدوم الروس ثانية . ومن المحتمل ، إن لم يكن مؤكداً ، أن ميزوبوتاميا الغرب نظمت على الدانوب الأدنى كوحدة عسكرية - إدارية ذات طابع خاص(٢٠٣) . وعلى هذا النحو ضم تزيمسكس الجزء الشمالى الشرقى من بلغار إلى الإمبراطورية البيزنطية ، لتعود حدود بيزنطة مرة أخرى إلى الدانوب . وعاد تزيمسكس ومعه بوريس وأخاه رومانوس إلى القسطنطينية ، بعد أن ألغى البطريركية البلغارية أيضاً(٢٠٤) . ويصف لنا زوناراس دخول تزيمسكس وموكبه إلى القسطنطينية ، فقد استقبله البطريرك والشيوخ ورجال الدولة والشعب استقبالا مهيباً ، وسار الموكب ، وقد جُعلت ملابس ملوك البلغار على عربة وضع فوقها صورة العذراء مريم . وعندما وصل الموكب إلى ميدان بلاقوتيس *Placotes* خلع بوريس الملابس الملكية وقلده الإمبراطور درجة الماجستير *Magistros*(٢٠٥) . وعلى هذا النحو وضعت الحرب بين البيزنطيين والروس أوزارها ، وقد أعادت إلى بيزنطة سلطانها فى البلقان وسيادتها على البلغار ، بل جعلت من بلغاريا ولاية بيزنطية وأصبح نهر الدانوب يشكل حداً للإمبراطورية البيزنطية كما كان عليه فى الماضى . وإذا كان تزيمسكس قد اغتال الإمبراطور نقفور فوقاس واغتصب العرش لنفسه بعد أن نفى الإمبراطورة ثيودورا ، إلا أنه الآن صار واحداً من ألمع أباطرة الأسرة المقدونية بفضل الإنجازات العسكرية التى أحرزها سواء فى الشرق ضد المسلمين أم فى البلقان ضد الروس .

أما الأمير الروسى سفياتوسلاف ، بعد أن لحقت به هذه الهزيمة الفادحة ، والتى أنهكت قواه العسكرية حتى صار يطلب من الإمبراطور البيزنطى التوسط لدى البشناق للسماح له بالعبور عبر أراضيهم دون مساس ، فقد فشلت مشروعاته التوسعية فى البلقان ولم يعد بمقدوره أن يتخذ من بيرياسلاف عاصمة له ، كما كان يتمنى فى الماضى . وإذا كان قد أصابه التوفيق فى غزو بلغاريا فى المرة الأولى ، إلا أن الغرور أصابه فى المرة الثانية لدرجة أنه فكر فى غزو القسطنطينية ذاتها ، غير مدرك أن هذه المدينة سحقت العشرات من أمثاله قبل ذلك تحت أقدامها ، وهاهو يضاف إلى هؤلاء العشرات فى عام ٩٧١م . إن محاولة سفياتوسلاف إقامة دولة

---

(٢٠٣) Shepard. J., "Information, Disinformation and Delay in Byzantine Diplomacy," *ByzF*, 10(1985),p.253; Diaconu, *Les Pechénèges au Bas-Danube*, (Bucharest, 1970), pp. 24-25.

(٢٠٤) *Leo Diaconus*, p. 158; Fine, *Balkans*, pp. 187-188.

(٢٠٥) *Zonaras*, III, pp. 535-536.

روسية تمتد من نوفجورود شمالاً إلى بيرياسلاف جنوباً مروراً بكييف لم تكن سوى إحدى بنات أفكاره ، فالأمير اولج فى عام ٩٠٧م والأمير ايجور فى عام ٩٤١، ٩٤٤م قاما بشن حملات عسكرية بحرية على القسطنطينية بهدف الكسب والربح إضافة إلى النهب والسلب والغنيمة فحسب . وقد أفلحا فى هذا ، برغم هزيمتهما عسكرياً بفضل سفن النار الإغريقية البيزنطية ، وأبرما معاهدتين مع بيزنطة؛ الأولى فى عام ٩١١م ، والثانية فى عام ٩٤٥م ، وهى التى حوت معظم بنود الأولى . وارتضى العاهلان الروسيان هذه النتيجة ، التى عادت بالخير الكثير على بلادهم ، وأضفت عليهما هالة من المجد السياسى بين شعوب السهوب . لقد كان بإمكان سفياتوسلاف أن يحتفظ ببلغاريا لنفسه ، لكن تضافرت كل العوامل لتدفع به إلى هاوية السقوط ، عندما رد رسل الإمبراطور بوقاحة البرابرة على حد تعبير كدرينوس .. وهاهى النتيجة .. فشل ذريع فى التوسع خارج حدود السهوب ، هزائم فادحة فى البلقان وبلغاريا ، ثم الموت ذليلاً وهو فى طريق العودة إلى بلاده ، بل حرمت كييف من الحصول على جثته ؛ والشيء الوحيد الذى أفلح فيه سفياتوسلاف فى هذا المشروع هو تقويضه لمملكة البلغار، وقيامه بإنهاك بنيتها العسكرية لتصبح صيداً سهلاً فيما بعد للإمبراطور باسيل الثانى .

وقبل أن نتحدث عن المصير المأساوى الذى آل إليه سفياتوسلاف ورفاقه وهم فى طريق العودة إلى بلادهم ، لابد وأن نتوقف قليلاً عند المعاهدة التى أبرمها سفياتوسلاف مع يوحنا تزيمسكس عام ٩٧١م ، لما لذلك من أهمية .

تعد هذه المعاهدة هى المعاهدة الوحيدة من بين المعاهدات البيزنطية – الروسية التى أشير إليها فى المصادر البيزنطية . وقد وافق الإمبراطور على كل الاشياء التى طلبها منه سفياتوسلاف ، حسب المصادر البيزنطية . أما نص المعاهدة فقد ورد كاملاً عند نسطور فى حوليته الروسية الأولى . ومن خلال قراءة محتوى المعاهدة عرفنا أن هذه المعاهدة كتبت فى دريسترا بواسطة سفياتوسلاف وقائده سفينالد وفى حضور ثيوفيلوس ، سكرتير دريسترا الإمبراطورى . ولم تذكر مقدمة المعاهدة أن المحادثات بشأنها قد جرت فى المعسكر البيزنطى أو المعسكر الروسى. لكن وفقاً للحولية الروسية الأولى كان مكانها فى المعسكر البيزنطى ، حيث نقل سفراء سفياتوسلاف كلماته إلى الإمبراطور يوحنا تزيمسكس الذى أمر لفوره بكتابتها على الرق . ومن المحتمل أن شروط المعاهدة أمليت على سفياتوسلاف بواسطة المبعوث

البيزنطى ، ويبرهن على ذلك حجم التعهدات التى أخذها على نفسه سفياتوسلاف[٢٠٦] ، والتى كانت كلها لصالح البيزنطيين . فالأمير الروسى يتعهد بحفظ أواصر الصداقة بين البلدين ، وبعدم شن هجمات لا على خرسون فحسب بل ولا على بلغاريا أيضاً . وهذا التعهد بالتأكيد يعكس الرغبة البيزنطية فى هذا . وهكذا ورد ذكر خرسون للمرة الثانية فيما وصل الينا من معاهدات بين الطرفين بعد معاهدة ٩٤٥م ، وهذا قد يعكس أنه كان لهذا الأمير نشاط عسكرى فى منطقة القرم، الأمر الذى أقلق بيزنطة فحضته على الهجوم على البلغار لتصرفه عن خرسون ؛ وها هو يتعهد برفع يده عن منطقة القرم البيزنطية[٢٠٧] . ونظراً لأنه أصبح له نشاط عسكرى فى بلغاريا فقد تعهد، بناءً على رغبة البيزنطيين ، بألا يهاجم بلغاريا مرة ثانية . والأكثر من هذا أنه تعهد بأن يحارب أى عدو يفكر فى الإغارة على الإمبراطورية البيزنطية . ولعل هذه البنود هى أهم ما فى معاهدة ٩٧١م . وهكذا فإن هذه المعاهدة لا تحتوى إلا على تعهد روسى بحفظ السلام بين البلدين ، وبالشروط المذكورة ، ولا تتضمن أى شروط تجارية . وهذه المعاهدة هى نهاية منطقية للأحداث السياسية التى وقعت بين الطرفين[٢٠٨] .

وجدير بالذكر أن هذه المعاهدة تحدث فيها سفياتوسلاف بصيغة المفرد ، لا الجمع ، وربما يعكس هذا تحمله مسئولية الحرب وما نجم عنها ؛ أو أن بعض رجال حاشيته لم يتفقوا معه فى عقد مثل هذه المعاهدة مع البيزنطيين . وهناك شىء آخر لافت للنظر هو أن اسم يوحنا تزيمسكس لم يرد إلا فى مقدمة المعاهدة وبدون لقب إمبراطور وهذا يعكس وعى نسطور بما كان يجرى من صراعات حول العرش البيزنطى فى القسطنطينية ، وأنه لم يكن ميالاً نحو تزيمسكس مثل سلفه نقفور فوقاس ، الذى حالف الروس ودعاهم للوقوف إلى جانبه . أما الإمبراطوران الشرعيان باسيل وقسطنطين فقد وردا فى المعاهدة مصحوبين بلقب إمبراطور ولقب آخر وهو " الملهمون من الله " . وربما كان هذا متعمداً من الكاتب حيث جرد سفياتوسلاف أيضاً فى نص المعاهدة من لقب " الأمير الروسى العظيم " ، وربما يعكس هذا عدم رضا نسطور عن النهاية المأساوية التى انتهى إليها الجيش الروسى على أيدى سفياتوسلاف، الذى كان سبباً رئيسياً فى تدميره على أرض أجنبيه . أخيراً ينبغى الإشارة إلى أن

---

(٢٠٦) Sorlin, *Le traité de 944*, pp. 470-471.

(٢٠٧) Obolensky, D., "The Crimea and the North before 1204", *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies, The Byzantine Black Sea, 18-20 March, ed. A. Bryer*, *'Αρχ. Πόν.*, 35 (1978), p. 130 .

(٢٠٨) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 473.

شرعية هذه المعاهدة ارتبطت بختم سفياتوسلاف عليها بمفرده . وللمرة الثانية فى المعاهدة تتأكد المسئولية الشخصية له عنها، مقارنة بمعاهدة ٩٤٥م التى وقع السفراء الروس جميعهم عليها، إلى جانب أميرهم . أخيراً ينبغى القول?ن هذه المعاهدة هى معاهدة فض اشتباك بين الطرفين ، يملى فيها المنتصر شروطه على المهزوم، الذى كان ولابد أن يرضخ لها ، حتى يعود إلى بلاده سالماً ومعه قواته العسكرية الباقية .

لكن اللافت للنظر أن المؤرخين البيزنطيين أمثال ليو الشماس وكدرينوس قد ذكروا أن سفياتوسلاف طلب من يوحنا تزيمسكس تزويد قواته بالميرة لأجل رحلة العودة ، والسماح له بالعودة إلى بلاده ، وعدم مهاجمة السفن البيزنطية قاذفات النار الإغريقية لهم وهم فى طريق العودة ، وعودة امتيازات ٩٤٥م التجارية ، والتوسط لدى البشناق للسماح له بالمرور عبر أراضيهم دون مساس ، ورغبة سفياتوسلاف فى أن يصير من حلفاء بيزنطة(٢٠٩) . ولا شيء يشير ، على عكس معاهدة ٩٤٥م ، إلى ميثاق إمبراطورى قد تم وضعه أو سنه بهذا الشأن . وبالتمعن فى طلبات الأمير الروسى سفياتوسلاف من الإمبراطور يوحنا تزيمسكس سنجد أنها جميعاً تختص بالوضع الراهن للقوات الروسية ، والذى كانت لا تحسد عليه ؛ أى أن سفياتوسلاف أراد بهذه المطالب أن يضمن السلامة له ولقواته حتى وصولهم إلى كييف فقط . ومن ثم فليست هناك حاجة لتسجيل مطالب روسية هى من قبيل الحاجة الوقتية ، تنقضى بانقضاء الحاجة ، حيث استجاب الإمبراطور لها . ويشير يحيى الأنطاكى إلى أن الأمير الروسى طلب من الإمبراطور هذه المطالب مقابل الجلاء عن دريسترا وإعادتها للبيزنطيين(٢١٠). ولا بد إذن أن تكون هذه المطالب شفهية ، وقد اعتنى المؤرخون البيزنطيون بتسجيلها نقلاً عن لسان سفياتوسلاف . أما محتوى معاهدة ٩٧١م فيكشف عن أنها تخص موضوعاً واحداً حدث به خلل بين البلدين ، وهو اعتداء الروس على الإمبراطورية البيزنطية . وحتى يضمن البيزنطيون عدم قيام الروس بمثل هذا الاعتداء فى المستقبل كان لابد من أخذ هذا التعهد على سفياتوسلاف . وهكذا فإن هذه المعاهدة تخص مستقبل العلاقات بين البلدين ، ومن ثم كانت هناك ضرورة لتسجيلها على الورق حتى يلتزم بها الروس فيما بعد ، سواء فى حضرة سفياتوسلاف أو فى عهد خلفائه من بعده . ويبدو أن هذه المعاهدة قد وقعت بعد هزيمة سفياتوسلاف فى المعركة الأخيرة

---

(٢٠٩) *Leo Diaconus*, pp. 155-156; *Cedrenus*, II, pp. 411-412.

(٢١٠) *Yahya d'Antoiche*, p. 833.

مع البيزنطيين عند دريسترا بعدة أيام ، وأن النسخة التى وقع عليها يوحنا تزيمسكس كانت قد كتبت باليونانية طالما أنها ستسلم إلى الإمبراطور البيزنطى[٢١١] .

على كل حال ، بعد التوقيع على المعاهدة بين الطرفين ثم لقاء العاهلين على شاطئ الدانوب ، بدأ سفياتوسلاف رحلة العودة إلى كييف . وتنفيذاً لطلب سفياتوسلاف من يوحنا تزيمسكس بأن يتوسط له لدى البشناق للسماح له وقواته بالعبور عبر أراضيهم دون مساس ، فقد أرسل يوحنا تزيمسكس رسوله ثيوفيلوس من يوخايتا[٢١٢] إلى قوريا *Kuria* زعيم البشناق ، ليعقد معه سلاماً مستقلاً ؛ وقد وعده بأن الروس لن يعبروا نهر الدانوب وأنهم موافقون على التحالف معه . وعلى حد قول كدرينوس وزوناراس فإن البشناق وافقوا على كل طلبات الإمبراطور فيما عدا طلباً واحداً وهو السماح للروس بعبور أراضيهم[٢١٣] . وبطبيعة الحال كان ولابد أن هذا المبعوث الإمبراطورى يحمل هدايا ثمينة وأموالاً إلى البشناق . ومما يدعم هذا أن كورت *Court* يذكر أنه تم العثور على جرة برونزية بالقرب من نهر الدنيبر ، عرفت باسم كنز البشناق ، وهى مملوءة بالعملات الذهبية البيزنطية والتى تحمل صورة الإمبراطورين نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس[٢١٤] . وتخبرنا الحولية الروسية الأولى أن سكان بيرياسلاف أرسلوا إلى البشناق رسلاً يخبروهم أن سفياتوسلاف عائد إلى بلاده فى نفر قليل من قواته بعد أن استولى على ثروات ضخمة من اليونان وغنائم هائلة[٢١٥] .

وفى الواقع هناك تناقض بين ما يذكره المؤرخون البيزنطيون وما تذكره الحولية الروسية الأولى . فالمؤرخون البيزنطيون يبرئون أنفسهم من دم الأمير الروسى سفياتوسلاف الذى اغتيل كما سنرى على أيدى البشناق ، ويعزون هذا إلى رفض البشناق لطلبهم السماح لسفياتوسلاف ورفاقه المرور بسلام عبر أراضيهم . أما الحولية الروسية الأولى فتلقى باللوم على سكان بيرياسلاف ، وإن كنا نتساءل ما العلاقة بين سكان بيرياسلاف والبشناق ، وما الفائدة التى ستعود عليهم من إخبار البشناق بهذا ؟! ومن المحتمل أن رسل بيرياسلاف جاءت إلى البشناق بأمر يوحنا تزيمسكس ، حتى إذا ما قبض عليهم من الروس فإن هويتهم المدنية لن تدل على أنهم

---

(٢١١) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 472.

(٢١٢) يطلق رنسمان عليه اسم فيلوثيوس ، انظر، Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 214.

(٢١٣) *Cedrenus*, II, p. 412; *Zonaras*, III, p. 535.

(٢١٤) Court, *La Russie*, p. 115.

(٢١٥) *R.P.C.*, p. 90 .

ينتمون إلى يوحنا تزيمسكس . ونكاد نتفق مع المؤرخ الروسى كارامزين على أن الكرم ليس هو محرك السياسة البيزنطية ، ومن الأرجح أن البيزنطيين توقعوا أن سفياتوسلاف لن يتركهم فى سلام لمدة طويلة بعد عودته إلى بلاده ، ومن ثم فقد أوصى الإمبراطور البشناق باغتيال سفياتوسلاف دون أن يؤخذ عليه شيىء(٢١٦) .

لقد وصل سفياتوسلاف الآن إلى شلالات الدنيبر ، وهناك نصحه قائده سفينالد أن يمضى فى الطريق وهو راكب جواده ، لأن البشناق كانوا يعسكرون بالقرب منهم . لكن سفياتوسلاف لم يلق بالاً لنصيحة قائده ومضى معهم بالقارب . وقد كمن له البشناق فى منطقة الشلالات ، لذلك عندما وصل إليها سفياتوسلاف كان من المحال أن يجتازها. ونظراً لحلول الشتاء على سفياتوسلاف وقواته فقد قرر قضاءه فى بيلوبيرج *Belobereg*(٢١٧) . ولم يكن لدى الروس المؤن الكافية وحلت بهم مجاعة طاحنة لدرجة أن رأس الحصان كانت تباع بنصف جريفنا *grivna*(٢١٨). ورغم ذلك قضى الروس الشتاء هناك .

وعندما أقبل الربيع فى عام ٩٧٢م بدأ الروس فى التحرك وقد اقتربوا من الشلالات ، التى أشار قسطنطين بورفيروجنيتوس إلى خطورتها على الروس عند المرور بها(٢١٩) ، وهجم البشناق عليهم بقيادة زعيمهم قوريا وقتل سفياتوسلاف وهلكت قواته ، واحتزوا رأسه ليصنع منها قوريا قدحاً مصفحاً بالذهب يحتسى فيه الخمر . ولم ينج من هذه المذبحة سوى سفينالد الذى فر إلى كييف ليخبر ياروبولك *Yaropollk* بما وقع لأبيه(٢٢٠) . وهكذا دفع سفياتوسلاف حياته ثمناً لمشروعاته التوسعية فى البلقان ، وعدم إدراكه على نحو صحيح لسر تفوق بيزنطة وصمودها أمام القوى المجاورة والمتمثل فى جهازها الدبلوماسى وجيشها النظامى.

---

(٢١٦) Karamsin, *Histoire*, pp. 239-240.

(٢١٧) تقع بيلوبيرج على شاطئ البحر الأسود عند مدخل نهر الدنيبر ، انظر،
R..P.C., pp. 241-242, n. 73.

(٢١٨) الجريفنا ، هى عملة روسية آنذاك ولا نعرف كم كانت تساوى فى وقتنا الحاضر .

(٢١٩) انظر ، الفصلين الأول والخامس من البحث.

(٢٢٠) *R..P.C.*, p.90; *Cedrenus*, II, pp.412-413; *Zonaras*, III, p. 53; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 214; Schlumberger, *Russes*, p. 33; Jenkins, *Byzantium*, p. 207; Fine, *Balkans*, p. 187; Karamsin, *Histoire*, pp. 240-241 .

الفصل الثالث

الروس بين بيزنطة والقوى الأوربية

٩٧٣ - ١٠٥٤م

يشير الراهب نسطور فى حوليته إلى أن الأمير الروسى العظيم سفياتوسلاف قد قسم الحكم فى البلاد بين أبنائه، بعد ما انتهى من قتال البشناق وطردهم بعيداً عن عاصمته كييف ، فقد وضع ياروبولك *Yaropolk* على عرش كييف، واولج *Oleg* على المنطقة التى كان يقطنها الدريفليون ، وكانت تسمى ديريفا *Dereva* ، وفلاديمير *Vladimir* على نوفجورود *Novgorod* . ثم رحل سفياتوسلاف بعد ذلك إلى البلقان لاستكمال مشروعاته التوسعية الطموحة هناك[١] .

وبهذا العمل الذى أقدم عليه سفياتوسلاف أصبح هناك ثلاثة أمراء شرعيين يحكمون بلاد الروس، وكانت لكييف الكلمة العليا على غيرها من الإمارات، ولياروبولك الابن الأكبر لسفياتوسلاف، الكلمة النافذة على أخويه . لكن يبدو أن الأمور سارت على عكس هوى سفياتوسلاف . فقد قتل هذا الأخير على أيدى البشناق فى علم ٩٧٢م ، وبموته صار ياروبولك من الناحية النظرية يحمل لقب أمير الروس العظيم خلفاً لأبيه فى عام ٩٧٣م[٢] .

ويشير بعض المؤرخين إلى أن ياروبولك قبل أن يشعل فتيل الحرب الأهلية فى البلاد ، أرسل سفارة إلى الإمبراطور الألمانى أوتو ، قدمت له هدايا نفيسة . وقد شوهد أعضاء هذه السفارة فى مدينة كنيدلنبورج *Knedlinbourg* الألمانية، ولا نعلم الأسباب التى من أجلها أرسلت هذه السفارة الروسية إلى ألمانيا ، هل كانت تبحث عن دعم سياسى وعسكرى لياروبولك نظراً لتحطيم بنية الروس العسكرية فى البلقان آنذاك، أم أنها كانت لأهداف دينية[٣] . وللأسف لا توجد شواهد تاريخية تساعدنا على ترجيح

---

(١) *R.P.C.*, p. 87.
لقد جاء وفد من نوفجورود *Novgorod* إلى سفياتوسلاف يطلبون حاكماً عليهم وقالوا له: " إذا لم تأت إلينا فإننا سوف نختار أميراً منا " ، عندئذ رد عليهم قائلاً: " إنكم بحاجة إلى أمير ، لكن ياروبولك واولج رفضا " . فاقترح دوبراينيا *Dobryaya* أن يسند الحكم فى نوفجورود إلى فلاديمير، وكان ابنا لسفياتوسلاف من مالوشا *Malusha* ، أخت دوبراينيا ووصيفة الأميرة أولجا . وحينئذ دعاه أهل نوفجورود لتولية فلاديميرعليهم، وهو ما حدث بالفعل ؛ وسار إليهم فلاديمير بصحبة خاله دوبراينيا .

(٢) *R.P.C.*, p. 90; Karamsin, *Histoire*, p. 242 .

(٣) Karamsin, *Histoire*, pp. 248-249; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 48.

أى الاحتمالين ، لتبقى الأسباب التى أرسلت من أجلها هذه السفارة إلى ألمانيا موضع تخمين وافتراض . لكن ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن هذه ليست المرة الأولى التى يسجل التاريخ فيها سفارات متبادلة بين الروس والإمبراطور الألمانى ؛ فقد سبقت الأميرة أولجا حفيدها ياروبولك فى هذا الشأن .

وباستثناء السفارة الروسية التى أرسلها ياروبولك إلى الإمبراطور الألمانى أوتو فى عام ٩٧٣م ، لا ندرى شيئا عن علاقات الروس بالقوى الخارجية فى عهد ياروبولك . فقد انصرفت المصادر الروسية إلى الحرب الطاحنة التى دارت بين أبناء سفياتوسلاف من أجل الانفراد بالحكم فى البلاد . وإذا كانت هناك حاجة للحديث عن هذه الحرب فليس من باب الدخول فى غمارها بل من أجل التعرف على القوى الأجنبية غير الروسية ، التى لجأ إليها الأمراء الروس فى صراعهم الدامى من أجل العرش. وتبدأ أحداث هذه الحرب عندما قام اولج *Oleg* أخو ياروبولك بقتل ليوت *Lyut* [٤] ابن القائد الروسى سفينالد ، الذى أخبر ياروبولك بمصرع أبيه سفياتوسلاف على أيدى البشناق فى عام ٩٧٢م . وقد زادها اشتعالا سيطرة سفينالد على ياروبولك ، الذى ثارت ثائرته لمقتل ابنه ، فراح يحث ياروبولك على قتال أخيه والاستيلاء على أملاكه ؛ وظل هكذا إلى أن استجاب له ياروبولك . وفى عام ٩٧٦م سار ياروبولك ضد اولج فى مقاطعة ديريفا *Dereva* . وقد حاول اولج المقاومة لكنه هزم وفر إلى مدينة أوفريتش ، حيث لقى حتفه وهو فى الطريق إليها . وبهذا كان النصر من نصيب ياروبولك الذى استولى على أملاك أخيه ودخل مدينته[٥] .

وعندما وصلت هذه الأنباء إلى فلاديمير أمير نوفجورود شعر أنه فى خطر وأن دائرة ياروبولك سوف تدور عليه أيضا ، وخشى أن يلقى نفس مصير اولج ، لاسيما وأنه لم يكن يملك قوات كافية للوقوف فى وجه أخيه ياروبولك وقائده سفينالد؛

---

[٤] فى ذات يوم من عام ٩٧٤م خرج ليوت ابن سفينالد للصيد خارج كييف ، وقد ساقته قدماه إلى الغابات الواقعة خارج كييف فى مناطق نفوذ الأمير اولج أخو ياروبولك. وتصادف أن كان اولج يصطاد فى هذه المنطقة أيضا ، وعندما رأى ليوت أبدى استياءه وتساءل عن هويته وعرف من رفاقه أنه ابن سفينالد ، فقبض عليه وقتله .

[٥] يذكر المؤرخون أن اولج سقط فى خندق وهو يهرب صوب مدينة أوفريتش ، وسقطت فوقه الجياد أيضا . وقد أحضر ياروبولك جثته وأكرم مثواها ، بعد أن بكى طويلا أمامها ، وبعد أن وجه اللوم إلى سفينالد ، لأنه كان الباعث على الحرب . انظر،

Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 41-42; Karamsin, *Histoire*, p. 243.

لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث انظر،

R.P.C., pp. 90-91; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 41-42; Karamsin, *Histoire*, pp. 242-243; Le Clerc, *La Russie*, pp. 148-149.

فهجر ولايته نوفجورود ولجأ إلى اسكندنافيا حيث مكث هناك مدة عامين . وكان ياروبولك قد استغل هذه الفرصة وزحف على أملاك أخيه فلاديمير واستولى عليها وضم نوفجورود إليه[٦]. ومن المحتمل أن فلاديمير قد شارك النورمانديين فى غزواتهم المروعة على سواحل أوربا الغربية ، من ألمانيا حتى إيطاليا، خلال هذين العامين[٧] .

وفى عام ٩٧٨م تمكن فلاديمير من حشد جيش من الفارانجيين ، عاد على رأسه إلى نوفجورود ؛ وهناك أمر قادة ياروبولك أن يذهبوا إليه ويخبروه أن فلاديمير آت فى الطريق لقتاله[٨] . وقبل أن يتجه فلاديمير إلى كييف عرج على ولاية بولتسك *Polotsk* ، الواقعة فى موطن الكريفتشيين ، وكان يحكمها آنذاك أحد الفارانجيين ويدعى روجفولود *Rogvolod*[٩] . وقد أراد فلاديمير أن يختص نفسه بابنه روجفولود انتقاماً من ياروبولك ، حيث كانت خطيبته. إلا أن الفتاة رفضت قبوله قائلة أنها لن تتزوج من ابن إحدى الإماء وأنها ترغب فى الزواج من ياروبولك . وهذا التلميح إلى أصل أمه أثار ثائرته واتخذها ذريعة للاستيلاء على هذه الإمارة[١٠] . وعلى الفور توجه فلاديمير ومعه خاله دوبرانيا إلى إمارة بولتسك وتم الاستيلاء عليها عنوة وأسر روجفولود وأسرته ، ثم سرعان ما قام فلاديمير بتحريض من خاله دوبرانيا ، باتخاذ ابنة روجفولود والتى كانت تدعى روجنيد *Rogned* زوجة له[١١]؛ كما قام بقتل والدها وأخويها بعد ذلك[١٢] . وبعد استيلاء فلاديمير على إمارة بولتسك، صار على أهبة الاستعداد للزحف نحو كييف نفسها لقتال أخيه ياروبولك .

جدير بالذكر أن هناك رواية فى الحولية الروسية الأولى ينبغى الوقوف عندها لمعرفة الفائدة التى عادت على فلاديمير من فترة إقامته فى اسكندنافيا حيث تذكر أن جيش فلاديمير كان يتكون من حشود من الفارانجيين الذين جندهم من اسكندنافيا ومن النوفجوروديين السلاف ، ومن التشوديين (الفنلنديين) وأخيراً من

---

(٦) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 42; Karamsin, *Histoire*, p. 244.

(٧) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 42.

(٨) *R.P.C.*, p. 93; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 42; Karamsin, *Histoire*, p. 244.

(٩) *R.P.C.*, 91; Karamsin, *Histoire*, p. 244.

(١٠) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 43.

(١١) انجبت روجنيد ابناً يدعى ايسياسلاف Isyaslav من فلاديمير. وفيما بعد حرضته على قتل أبيه فى أثناء إحدى زياراته لها . لكن فلاديمير اكتشف المؤامرة . وبعد تشاوره مع نبلائه انتهى إلى العفو عنهما ومنحهما إمارة بولتسك إرثاً لهما ، انظر، Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 43-44.

(١٢) عن هذه الأحداث انظر، *R.P.C.*, p. 91; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 42-44; Karamsin, *Histoire*, pp. 244-245; Le Cleric, *La Russie*, pp. 149-151.

الكريفتشيين[١٣] . ويبدو أن إقامة فلاديمير فى اسكندنافيا بين الفارانجيين ، واشتراكه معهم فى مغامراتهم العسكرية على السواحل الأوربية قد اكسبه شعبية بينهم ، مكنته من تجنيد فرق عسكرية منهم . وفى نهاية الأمر وصل فلاديمير إلى كييف وحاصرها وتمكن من فتحها عن طريق أحد ضباط ياروبولك المدعو بلودPloud، والذى اتهمه المؤرخون بخيانة سيده ياروبولك . وأياً كان الأمر فقد كانت الغلبة لفلاديمير ولم يستطع ياروبولك مواجهته . وقد نصحه أحد قادته ويدعى فاريازكو Varyazhko أن يهرب ويلجأ إلى البشناق ويحشد منهم جيشاً، لكن ياروبولك رفض هذه الفكرة ودفع ثمنها من حياته ؛ وهرب فاريازكو إلى البشناق واحتمى بهم[١٤]. ودخل فلاديمير كييف وأعلن نفسه سيداً على كل أنحاء روسيا ، واحتفل بهذه المناسبة ونصب تماثيل الآلهة فى العاصمة والمدن الروسية الأخرى وقدمت القرابين البشرية لها[١٥].

وينبغى الوقوف قليلاً عند رواية الحولية الروسية الأولى عن موقف فلاديمير من الفارانجيين الذين ساعدوه فى رحلته العسكرية من أجل عرش كييف . ففى عام ٩٨٠م بعد أن قتل فلاديمير أخاه وانتصر على قواته واستولى على أملاكه قال له الفارانجيون : "لقد أصبحت هذه المدينة الآن لنا، فنحن الذين استولينا عليها، ولهذا نرغب فى جباية الجزية منها بواقع جريفنتين اثنتين عن كل رجل " . فطلب منهم فلاديمير أن يتريثوا لحين جمع جلود السمور فى غضون شهرين من الآن . وبعد انقضاء المدة لم يعطهم فلاديمير شيئاً، فتأكدوا عندئذ من أنه يخدعهم وطلبوا منه رحيلهم إلى بلاد اليونان (أى بيزنطة) . وقد حثهم الأمير الروسى على القيام بهذا ، وتخير منهم الصفوة والشجعان وعهد إليهم بحكم المدن الروسية، أما البقية الباقية فرحلت إلى القسطنطينية " . وفى نفس الوقت بعث فلاديمير برسالة إلى بيزنطة ليخبر البيزنطيين أن الفارانجيين فى الطريق إليهم، وعليهم ألاّ يبقوا على الكثير منهم فى القسطنطينية حتى لا يلحقوا بهم الأذى ؛ وعلى البيزنطيين أن يوزعوهم على مناطق مختلفة وألاّ يدعوا أحداً منهم يعود ثانية[١٦] .

وفى الحقيقة ، فان إرسال الفرقة الفارانجية المساعدة إلى بيزنطة لم يكن تحت أحداث عام ٩٨٠م كما ذكر نسطور بل حدث بعد ذلك ببضع سنوات ، كما سنرى فيما

---

(١٣) *R.P.C.*, p. 91; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 44.

(١٤) *R.P.C.*, p. 94; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 44-45; Karamsin, *Histoire*, pp. 245-247.

(١٥) *R.P.C.*, p. 93.

(١٦) *R.P.C.*, p. 93; Le Clerc, *La Russie*, p. 154.

بعد ، وبالتحديد فى عام ٩٨٨م وهو العام الذى تصمت فيه الحولية الروسية ولا تذكر شيئاً من أمر الفرقة الفارانجية التى أرسلها فلاديمير إلى بيزنطة آنذاك . وجدير بالذكر أن علاقات فلاديمير السياسية المباشرة مع بيزنطة لم تبدأ إلا من عام ٩٨٧م وقبل هذا التاريخ كانت العلاقات عدائية بين البلدين[١٧] . فكيف إذن يسمح فلاديمير للفارانجيين بالذهاب إلى القسطنطينية والعلاقات على هذا النحو بل ويبعث برسالة إلى الإمبراطور البيزنطى بشأنهم ؟! كما أن فلاديمير عقب دخوله كييف كان بحاجة ماسة إليهم لمواجهة أعدائه فى الداخل والخارج لاسيما البشناق الذين ناصبوه العداء كما سنرى فيما بعد[١٨]، فكيف له أن يتخلى عنهم وأمن كييف مرتبط ببقائهم إلى جانب فلاديمير . على كل حال، فإن إرسال الفارانجيين إلى القسطنطينية فى عام ٩٨٨م حقيقة ثابتة لامراء فيها وأن رحيلهم إليها فى عام ٩٨٠م، على حد ذكر نسطور ، أمر غير صحيح والمقصود هو عام ٩٨٨م[١٩] .

والآن حسب الترتيب الزمنى للحولية الروسية الأولى ، بدأ فلاديمير بشن حملاته العسكرية لإقرار الأمور فى البلاد وامتلاك ذمامها . فشن حملة على الرادمتشيين فى عام ٩٨٤م انتهت بدفعهم الجزية له ؛ كما شن حملة أخرى على بلغار الفولجا فى عام ٩٨٥م عاد بعدها إلى كييف[٢٠] ، بعد أن عجز عن إحراز نصر حاسم عليهم[٢١] . ومع هذا نقرأ عن بعثة دينية بعث بها ملك البلغار إلى كييف لشرح تعاليم ومزايا الدين الإسلامى عسى أن يقبل فلاديمير الإسلام ديانة سماوية لشعبه . وقد رفض فلاديمير قبول الإسلام ديانة له ولشعبه لأنه يحرم شرب الخمر الذى هو متعة الروس، على حد قول نسطور[٢٢]. أما عن علاقته بالخزر فلا تمدنا المصادر الروسية بتفاصيل عنها ، اللهم تلك الرواية التى ترويها الحولية الروسية عن تلك البعثة الخزرية التى زارت كييف فى عهد فلاديمير لتعرض عليه اليهودية كديانة تصلح له ولشعبه، إلا أن الرفض كان من نصيبها أيضاً لأن فلاديمير علم منهم أنه كتب عليهم التشتت فى الأرض فكيف له أن يتبعهم وهم مشتتون[٢٣] . ومن المحتمل وجود علاقات سلمية بين

---

(١٧) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 46.

(١٨) انظر الفصل الخامس من البحث .

(١٩) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 46.

(٢٠) *R.P.C.*, p. 96.

(٢١) انظر الفصل الخامس من البحث . جدير بالذكر أن فلاديمير كان متزوجاً من سيدة بلغارية ،انجب منها بوريس وجلب،انظر، Baumgarten, N. , "La dernier mariage de Saint Vladimir", *OC*, XVIII, 61 (1930), p. 166.

(٢٢) *R.P.C.* , p. 97.

(٢٣) *R.P.C.* , p. 97.

الخزر وفلاديمير فى ذلك الوقت بالإضافة إلى العلاقات التجارية القائمة بين الجـانبين بعيداً عن أهواء حكامها .

أما عن سياسة فلاديمير تجاه قوى السهوب وبالتحديد تجاه البشناق فقد كـانت عدائية الطابع ، نظراً لازدياد هجمات هذه القبائل على حدود بلاده، فقد قـام البشـناق بالهجوم على أراضيه فـى أعـوام ٩٩٢م ، ٩٩٤م ، ٩٩٧م ، ١٠١٥م؛ ولـم ينجـح فلاديمير فى صدهم كل مرة ، بل أنه فى هجومهم عليه فى عام ٩٩٤م لم ينـج مـن الموت إلا بفضل اختبائه أسفل أحد الجسور . وفى عام ١٠١٥م أرسل ابنـه بوريـس *Boris* للقائهم لكنه لم يكمل المسير إليهم عندما علم بمرض ووفاة أبيه فلاديمير حيـث اضطر إلى العود من حيث خرج[٢٤] .

والآن نصل إلى المحور الرئيسى فى السياسة الخارجية خلال هذه المرحلـة من مراحل الفكر السياسى عند الروس . فقد كانت الجبهة البيزنطية تشكل ذلك المحور الذى تحتم على أمراء الروس العظام التعامل معه سواء أبوا أم شاءوا . فمنذ تفتحـت أعين الأمراء الروس على المجتمع الخارجى أدركوا ضرورة التعامل مع بيزنطة على نحو منفرد عن باقى القوى الخارجية بل وبشكل خاص أيضاً . لكن هذه المرة حـدث العكس ! فقد جاء النداء من قلب القسطنطينية فالمدينة الآن تستغيث ويتعـالى صوتـها طالبة الغوث الروسى وإلا سيلتهمها الثوار وتذهب العباءة الأرجوانية التـى يرتديـها باسيل الثانى أدراج الرياح . ولكن ماذا يمكنه أن يقدم إلى أمير الروس العظيـم حتـى يستجيب لاستغاثة المدينة ! هذا ما ستفصح عنه الأحداث التالية والتى كانت زاداً خصباً للعلاقات الروسية – البيزنطية فى تلك الفترة .

ولكى نتعرف على ماهية العلاقات بين فلاديمير وبيزنطة من الضـرورى أن نقف على أرض القسطنطينية لنرقب الأحداث الدائرة فيها ، سواء على حدها الشـرقى فى آسيا الصغرى أو على حدها الغربى فى شبه جزيرة البلقان . لقد بلغـت الأحـداث الجارية فى كلا الجانبين درجة عظيمة من التدهور الأمنى والاضطـراب العسـكرى والاجتماعى حتى صارت القسطنطينية تلتقط أنفاسها بصعوبة بالغة .

فعلى الحد الغربى لبيزنطة ، أى شبه جزيرة البلقان ، بدأ القيصـر البلغـارى صمويل *Samuel* محاولاته الدائبة لاسترداد الجزء الشرقى من مملكة البلغار والـذى كان يوحنا تزيمسكس قد ضمه إلى أملاك الإمبراطورية البيزنطية على أثـر هزيمـة الأمير الروسى سفياتوسلاف عند مدينة سليسترا فى عـام ٩٧١م . وبـالفعل تمكـن

---

[٢٤] عن تفاصيل العلاقة بين الروس والبشناق فى عهد فلاديمير ، انظر الفصل الخامس من البحث .

صمويل من استرداد أجزاء من الجانب الشرقى من مملكته والواقع عند نهر الدانـوب، واسترد مدن بريسلافا وفيدين *Vidin* وصوفيا *Sophia* . كما دخل فى نطاق مملكتـه أيضاً جزء كبير من صربيا وألبانيا بالإضافة إلى مقدونية وصارت مدينـة أوخريـدا *Ochrida* عاصمة لبلاده . وأعاد صمويل بطريركية بلغاريـا ثانيـة بعـد أن كـان تزيمسكس قد ألغاها . وبعد ذلك بدأ صمويل فى التغلغل فى بلاد اليونان وشكل تـهديداً مستمراً لمدينة تسالونيك وتساليا ؛ وفى نهاية المطاف استولى على لاريسـا *Larissa* الواقعة فى إقليم تساليا فى عام ٩٨٦م(٢٥)؛ كما تمكن من التغلغل فـى شـبه جزيـرة البلوبونيز أيضاً(٢٦) . وبكلمات موجزة يمكننا القول أن القيصر صمويل البلغارى تمكـن من بعث الروح فى مملكة البلغار بعد أن قبضها يوحنا تزيمسكس فـى عـام ٩٧١م، ولكن عودة الروح هذه إلى جسد بلغاريا لم تكن على هوى البلاط البـيزنطى، الأمـر الذى دفع الإمبراطور باسيل الثانى *Basil II* إلى تجريد حملة عسكرية علـى البلغـار برأسها هو بنفسه فى عام ٩٨٦م . وبالفعل نجح باسيل الثـانى فـى إعـداد الحملـة العسكرية وخرج بها فى يوليو من عام ٩٨٦م متوجهاً نحو البلقان . وما أن وصلـت أنباء هذه الحملة إلى مسامع القيصر صمويل حتى تخلى عن غزو البلوبونـيز وعـاد مسرعاً إلى شمال مملكته للزود عنها. وعلى الرغم من نجاح باسيل الثانى فى حصـار مدينة فليبوبوليس واحتلالها ثم حصار مدينة صوفيا إلا أن لجوء البلغار إلـى حـرب الكمائن مع البيزنطيين وخيانة بعض القادة البيزنطيين للإمبراطور باسيل الثانى اضطر الإمبراطور البيزنطى لرفع الحصار عن صوفيا والعودة إلى القسطنطينية ؛ لكن البلغار انتهزوا الفرصة والحقوا هزيمة بالإمبراطور البيزنطى بعد ملاحقة قواته ومطاردتـها وهى فى الطريق إلى القسطنطينية(٢٧) .

وفى السنوات التالية نجح البلغار فى استرداد مدن بريسلافا وبليسكا *Pliska* ثم تقدموا غرباً واستولوا على ديراخيوم *Dyrrachium* ، الواقعة علـى سـاحل البحـر الأدرياتى ، وبهذا أصبح لهم منفذاً فى الغرب يشكل تهديداً للوجود البيزنطى فى البحر الأدرياتى(٢٨) . على هذا النحو كان البلغار يشكلون تهديداً مباشراً للجانب الغربى مـن القسطنطينية ، أى شبه جزيرة البلقان .

---

(٢٥) العرينى ، *الدولة البيزنطية* ، ص ٥٤٦ – ٥٤٧ .

(٢٦) وسام عبد العزيز ، *دراسات* ، ص ٣١١ .

(٢٧) العرينى ، *الدولة البيزنطية* ، ص ٥٥٠–٥٥١ . ولمزيد من التفاصيل حول هذه المرحلـة مـن الصـراع البيزنطى انظر، *Leo Diaconus*, p. 171-173; *Zonaras*, III, pp.548-549.

(٢٨) وسام عبد العزيز فرج ، الإمبراطور باسيل الثانى (سفاح البلغار) (٩٧٦–١٠٢٥م) ، العوامل التى أثـرت على السياسة فى عصره ، *ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط* ، ١ (١٩٨٢) ، ص ١٨٠ .

كان هذا هو الحال على الحد الغربى للإمبراطورية البيزنطية، أما عن الحد الشرقى لها، أى آسيا الصغرى، فالوضع السياسى والاجتماعى بها كان أكثر خطورة مما يتوقع الإمبراطور باسيل الثانى نفسه . لقد شبت ثورة عارمة فى آسيا الصغرى كان على رأسها واحد من أبناء الطبقة الأرستقراطية العسكرية بها ألا وهو برداس فوقاس *Bardas Phocas* ، فبدلاً من أن ينفذ المهمة التى أوكلها إليه الإمبراطور باسيل الثانى ويخمد ثورة برداس سكليروس *Bardas Sclerus* التى اشتعلت فى آسيا الصغرى فى أعقاب هزيمة الإمبراطور من صمويل البلغارى نجده ينضم إلى هذا الثائر ويشكلا جبهة واحدة ضد باسيل الثانى[٢٩] . ثم سرعان ما أعلن نفسه إمبراطوراً فى ثيم خرشنة فى الخامس عشر من شهر أغسطس من عام ٩٨٧م. وقد ألقى القبض بعد ذلك على حليف الأمس برداس سكليروس ووضعه فى حصن تيروبايون *Tyropaeon* ، الذى كانت تقيم به زوجة برداس فوقاس ، وقد أعلن أنه سوف يطلق سراحه بعد دخوله إلى القسطنطينية وتتويجه إمبراطوراً بها وأنه لن يغدر به[٣٠] . وقد استطاع برداس فوقاس السيطرة على آسيا الصغرى كلها والتحرك بقواته العسكرية صوب القسطنطينية، وفى الوقت الذى ارتفع فيه شأن برداس فوقاس بما له من قوة وبما لأسرته من مجد وبما لقيه من تأييد من الطبقة الأرستقراطية تحرج مركز الأسرة المقدونية الحاكمة فى بيزنطة[٣١] . ويصف لنا المؤرخ العربى أبو شجاع[٣٢] الحالة العامة لبيزنطة فى تلك الآونة بصورة بليغة فى عبارته التالية : ".. وانصرف ورديس (أى برداس فوقاس) فنزل بإزاء قسطنطينية منازلا لباسيل وقسطنطين ملكى الروم . وقد اجتمعت الكلمة عليه وانضوى العساكر وأهل البلاد إليه ، وبقى الملكان فى قل من الناس متحصنين بالمدينة ويحصنيها " . هكذا سلط أبو شجاع مجهرا دقيقا على الحالة العامة فى بيزنطة فيما بين على ٩٨٧-٩٨٨م . أما المؤرخ العربى المسيحى يحيى الأنطاكى فيشير إلى جزع الإمبراطور باسيل الثانى من برداس فوقاس " لقوة جيوشه

---

(٢٩) Angold, *Byz. Empire*, p. 2.

(٣٠) *Yahya d'Antoiche*, p. 168;

أبو شجاع محمد بن الحسين ، *ذيل كتاب تجارب الأمم* ، تحقيق /هـ . ف . آمدروز ، جـ٣ ، (القاهرة ، ١٩١٦) ، ص ١١٤-١١٥.

(٣١) العرينى ، *الدولة البيزنطية* ، ص ٥٣٢ .

(٣٢) *ذيل تجارب الأمم* ، ص ١١٥ - ١١٦ .

واستظهاره عليه .."[٣٣]، وعندئذ أدرك أنه لابد له من الاستعانة بقوى خارجية لتعينـه على قمع ثورة برداس فوقاس بأسرع ما يمكن[٣٤] .

إزاء هذه الأوضاع المتردية فى آسيا الصغرى بعث الإمبراطور باسيل الثـانى سفارة سرية إلى أمير الروس العظيم فلاديمير لطلب العون العسكرى منه[٣٥] ، وربمـا كان هذا الطلب يستند إلى البند الذى دون فى معاهدة ٩٤٥م المبرمـة بيـن الطرفيـن والذى تأكد فى معاهدة ٩٧١م أيضا والذى يفيد بتزويد الأمير الروسـى للإمـبراطور البيزنطى بالقوات اللازمة له للزود عن بلاده وقتما يبعث فى طلبها .

وفى هذا الصدد يقول أبو شجاع ".. ولما انتهت الحال منهما إلـى الضعـف راسلا ملك الروسية واستنجداه .."[٣٦] . وهذه العبارة الهامة تؤكد ذهاب سفارة من قبل الإمبراطور البيزنطى إلى فلاديمير لطلب النجدة منه . وفى الحقيقـة فـإن المـؤرخ بومجارتن *Baumgarton* يلقى الضوء على هذه السفارة بصورة تفصيلية .

يفترض بومجارتن أن فلاديمير قد تنصر فى كييف وأن الأمـير الـنرويجى أولاف تريجويزون *Olaf Tryggwison* قد أخبر البيزنطيين بهذا الحدث عند وصولـه إلى القسطنطينية فى ثمانينات القرن العاشر الميلادى[٣٧] . وإزاء اشتعال ثورة بـرداس فوقاس وتمكن الثائر من القبض على آسيا الصغرى كلها بعث الإمبراطور باسيل الثانى تلك السفارة ، التى أشرنا إليها فى الأسطر الماضية، وكانت تضم الأمـير الـنرويجى أولاف وأحد رجال الدين ويسمى الأسقف بولس *Paul*؛ وقد وصلت هذه السفارة إلـى كييف فى نهاية عام ٩٨٧م[٣٨] أو على أقصى تقدير فى بداية عـام ٩٨٨م[٣٩] . هـذه

---

(٣٣) *Yahya d'Antoiche*, p. 168.

(٣٤) لمزيد من التفاصيل حول هذه الثورة انظر، أبو شجاع ، *ذيل تجارب الأمم* ، ص ١١٣-١١٧ ؛ ابن الأثـير، *الكامل* ، جـ٧ ، ص ١٢٦-١٢٧ ؛ الدمشقى ، *نخبة الدهر* ، ص ٢٦٢ ؛ العرينى ، *الدولة البيزنطيـة*، ص ٥٢٦-٥٣٦. انظر أيضا ، Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp.69-78.

(٣٥) Vasiliev, A. " Was Old Russia a Vassal State of Byzantium ? ", *SP*, 7(1932), p. 351; Angold, *Byz. Empire*, p. 2; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 69-70.

(٣٦) أبو شجاع ، *ذيل تجارب الأمم* ، ص ١١٦ ؛ ابن الأثير ، *الكامل* ، جـ٧ ، ص ١٢٧ ؛ الدمشـقى ، *نخبـة الدهر* ، ص ٢٩٢ .

(٣٧) Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 69-70.

(٣٨) Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 69-70; Baumgarten, "Olaf Tryggwison roi de Norvège et ses relations avec saint Vladimir de Russie", *OC*, 24 (1931), pp.32-33.

(٣٩) Baumgarten, *Olaf Tryggwison*, p. 32.

السفارة لم يرد لها ذكر فى المصادر البيزنطية، والفضل فى ذكرها يعود إلى المصادر العربية وإلى الساغا الاسكندنافية[٤٠] التى ألقت الضوء عليها إلى حد كبير .

على أية حال ، قبل أن نناقش رواية الساغا حول هذه السفارة البيزنطية إلى أمير الروس العظيم فلاديمير ينبغى أن نشير ، استنادا إلى يحيى الانطاكى ، إلى أن العلاقات بين الروس وبيزنطة وحتى عام ٩٨٦م كانت مشوبة بالعداء منذ مصرع الأمير سفياتوسلاف على أيدى البشناق فى عام ٩٧٢م[٤١] . لكن فى بداية عام ٩٨٨م وصلت السفارة البيزنطية إلى كييف لطلب النجدة العسكرية من فلاديمير، إلا أن فلاديمير اشترط على البيزنطيين الموافقة على زواجه من الأميرة آنا بورفيروجنيتا شقيقة الإمبراطور باسيل الثانى وقسطنطين *Anna Porphyrognita*، وفى هذا الصدد يقول أبو شجاع " فاقترح عليهما الوصلة بأختهما.." . وبهذا فإن طلب الزواج من الأميرة أنا كان بدافع من فلاديمير نفسه وليس عرضا بيزنطيا . فمثل هذه الزيجة ، على حد قول المؤرخ أنجولد *Angold* ، سوف تعطى الأمير الروسى هيبة ممتازة لأن عروسه لم تكن أميرة بيزنطية فحسب بل واحدة ممن ولدن لإمبراطور حاكم وهى واحدة ممن ولدن فى الغرفة الأرجوانية[٤٣] . وبطبيعة الحال أصبح الإمبراطور باسيل الثانى فى موقف لا يحسد عليه ، فالأعداء يهددون دولته فى الداخل والخارج وفلاديمير الروسى يطلب منه مخالفة واحدة من قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، أو بقول آخر مخالفة نهج الأسلاف. وفى هذا الصدد يقول قسطنطين بورفيروجنيتوس : ".. وتقابلنا نوع آخر من المطالب ، وهو مطلب جد عظيم وغير لائق . فإذا حدث وطلبت إحدى القبائل الشمالية المراوغة الوضيعة عقد تحالف زواج مع إمبراطور الرومان ، إما باتخاذ ابنته زوجة لأحدهم ، أو بإعطائه واحدة منهم لتصبح زوجة له أو لابنه ، فإن مثل هذا الطلب الغريب يمكنك الاعتراض عليه بهذه الكلمات قائلا : " بأن هذا الأمر له أيضا عهد ووصية موثوق بها للإمبراطور المقدس قسطنطين . وهذا العهد محفور على المنضدة المقدسة فى كنيسة المسيحيين ، أى كنيسة سان صوفيا ، وقد ورد فيها أنه يحرم على أى إمبراطور رومانى أن يعقد تحالفا عن طريق الزواج مع أمة تختلف تقاليدها عما جبل عليه الرمان ، وتتعارض معها ، لاسيما إذا كانت هذه الأمة وثنية ولم

---

(٤٠) الساغا ، هو اسم يطلق على نوع من المصادر الاسكندنافية ، وتتميز بأن لها طابع شعبى بطولى يحوى بين طياته معلومات تاريخية هامة ؛ وبعضها بمثابة سير ذاتية لأمراء وملوك من شبه جزيرة اسكنديناوة.

(٤١) *Yahya d'Antoiche*, p. 168.

(٤٣) Angold, *Byz. Empire*, p. 2.

تعمد .. ومن يتجرأ على مخالفة هذه القواعد يعتبر خارجا على المسيحية ، وتحل عليه اللعنة لأنه خالف ناموس الأجداد وتشريعات الإمبراطورية "[٤٤] .

كانت هذه هى الوصية الإمبراطورية التى تفرض على أباطرة بيزنطة رفض أى زيجة قد تحدث بين القبائل المجاورة ، ومنها الروس بطبيعة الحال ، وبين الأميرات البيزنطيات أو العكس ، وإذا تجرأ أحد الأباطرة وخالف هذه الوصية فسيكون ملعونا ومطرودا من الكنيسة . ولكن ماذا بمقدور باسيل الثاني أن يفعل ، هل يعطى الفرصة لغريمه برداس فوقاس ليخلعه من العرش ويجلس مكانه أم يضحى بوصية قسطنطين بورفيروجنيتوس وليكن ما يكون .

على أية حال ، لم يكن هناك خيار أمام باسيل الثانى وبدت الموافقة الإمبراطورية على مثل هذا الزواج أمر مفروغ منه، وهذا ما يؤكده أبو شجاع بقوله " فأجاباه إلى ذلك .."[٤٥] . وهكذا تم الاتفاق بين الطرفين وعقدت معاهدة بينهما فى بداية عام ٩٨٨م لا نعرف من شروطها سوى تعهد فلاديمير بإرسال فيلق من القوات الروسية إلى القسطنطينية لمساعدة باسيل الثانى فى قمع ثورة برداس فوقاس مقابل زواج فلاديمير من آنا شقيقة الإمبراطور البيزنطى[٤٦] . وبالفعل وصلت إلى القسطنطينية فرقة عسكرية من كييف قوامها ستة آلاف مرتزق فارانجى فى ربيع عام ٩٨٨م[٤٧] . وهنا ينبغى أن نعترف بالذكاء السياسى للأمير الروسى فلاديمير ، الذى طلب من الإمبراطور البيزنطى أعز ما عنده وعرف كيف يتخلص من المرتزقة الفارانجيين الذين اعلنوا تذمرهم من سياسة فلاديمير معهم ، وهو ما بينه لنا كاتب الحولية الروسية الأولى[٤٨] .

---

(٤٤) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٦٩-٧٠ ؛ *DAI*, I, pp. 70-73; انظر أيضا : رأفت عبد الحميد ، قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، *المجلة التاريخية المصرية* ، ٣٣(١٩٨٦) ، ص ٤٨-٤٩؛
Whittow, *Byzantium*, p. 372.

(٤٥) أبو شجاع ، *ذيل تجارب الأمم* ، ص ١١٦ .

(٤٦) *Cedrenus*, II, p. 444; *Zonaras*, IV, p. 114; Baumgarten, N., " Chronologie ecclésiastique des terres russes, du X^{e} au XIII^{e} siècle", *OC*, 17 (1930), p. 27; Obolensky, D.," Cherson and the Conversion of Rus' :an anti revisionist view", *BMGS*, 13 (1989), p. 244.

(٤٧) Baumgarten, *SaintVladimir*, p. 71; Ostrogorsky, *Byz. State*, p. 269; Vasiliev, *Old Russia*, p. 351; Angold, *Byz. Empire*, p. 2; Obolensky, D., " The Byzantine Sources on the Scandinavian in Eastern Europe ", *Varangian Problems. Scando-Slavica, Supplementum 1.*, (Copenhagen, 1970), p. 162; Benedikz, *Varangian*, p. 23; Obolensky, *Cherson*, p. 244; Schumberger, *L'épopée*, p. 721.

(٤٨) *R.P.C.*, p. 93.

ومما لا شك فيه أن هذا الطلب الروسى بزواج الأميرة آنا كان يفوق السلطات المخولة لأعضاء السفارة البيزنطية التى تتباحث مع فلاديمير فى أمر النجدة العسكرية، ومن ثم كان لزاما على هذه السفارة أن تخبر الإمبراطور البيزنطى بطلب فلاديمير ، ويبدو أن باسيل الثانى عرض الأمر على أخته آنا إلا أنها رفضت مثل هذا الزواج فكيف لها أن تتزوج من وثنى حتى ولو كان أميرا يحكم دولة بعينها[٤٩] . وهكذا تعقدت الأمور أمام باسيل الثانى ، فلم يكن أمامه إلا أن يبعث إلى فلاديمير ليخبره بعدم جواز مثل هذا الزواج بين مسيحية ووثنى وإن كان ولابد فعليه أن يقبل المسيحية دينا له . ويبدو أن الأوامر حملت إلى أعضاء السفارة بأنه فى حالة قبول فلاديمير المسيحية دينا له تتم المعاهدة على أساس الموافقة على زواج آنا بورفيروجنيتا من فلاديمير مقابل إمداد الإمبراطور البيزنطى بالمدد العسكرى . ويؤكد هذا أبو شجاع بقوله : "وامتنعت المرأة من تسليم نفسها إلى من يخالفها فى دينها وتردد من الخطاب فى ذلك وانتهى إلى (دخول) ملك الروسية فى النصرانية وتمت الوصلة معه وهديت المرأة إليه ...."[٥٠] .

وهكذا، تقودنا الأحداث إلى إشكالية معقدة وهى متى تزوج فلاديمير بالأميرة آنا وأين ؟ وكذلك هل تنصر فلاديمير على أيدى السفارة البيزنطية المرسلة إلى كييف؟ يؤكد المؤرخون العرب أمثال أبو شجاع وابن الأثير والدمشقى[٥١] أن الزواج قد تم قبل إرساله القوات الفارانجية إلى القسطنطينية . ولكن كيف يبعث باسيل الثانى بأخته إلى كييف فى موكب عرس والبلاد تئن تحت ضربات البلغار وتهديدات برداس فوقاس؟! كما أن الثابت من الأحداث التاريخية ، كما سنرى بعد قليل، أن الأميرة آنا لم تذهب إلى كييف مطلقا فى هذا العام ٩٨٨م بل ذهبت إلى خرسون فى عام ٩٨٩م بصحبة حاشيتها وقساوستها للقاء زوج المستقبل الأمير الروسى فلاديمير. وبهذا فقد سجل الكتاب العرب هذه الأحداث بنوع من التقديم التاريخى للأحداث. أما فيما يتعلق بالتساؤل الأخر وهو هل تنصر فلاديمير على أيدى السفارة البيزنطية الموجودة فى كييف فى بداية عام ٩٨٨م، فان إحدى الساغات الاسكندنافية تذكرأن الهدف من هذه السفارة كان هدفا دينيا بحتا ، وأن الأسقف بولس كان معنيا بتعميد فلاديمير فقط . لكن ظهرت عبارة فى نص هذه الساغا تشير إلى أن مهمة الأسقف بولس كانت مهمة

---

[٤٩] أبو شجاع ، *ذيل تجارب الأمم* ، ص ١١٦ .

[٥٠] أبو شجاع ، *ذيل تجارب الأمم* ، ص ١١٦ ، ابن الاثير ، *الكامل* ، جـ٧ ، ص ١٢٧ ، الدمشقى، *نخبة الدهر* ، ص ٢٦٢ .

[٥١] أبو شجاع ، *ذيل تجارب الأمم* ، ص ١١٦ ابن الاثير ، *الكامل* ، جـ٧ ، ص ١٢٧ ، الدمشقى، *نخبة الدهر*، ص ٢٦٢

مزدوجة أى لتعميد فلاديمير وعقد معاهدة سياسية معه. ذلك أن الأسقف بولس عندما وصل إلى كييف لم يبدأ إجراءاته فى الحال لكنه طلب التريث حتى يتقابل فلاديمير مع الأمير النرويجى أولاف. وقد لزمت المصادر البيزنطية الصمت حيال هذه الأحداث لاسيما تعميد صهر المستقبل على يد أحد الأساقفة البيزنطيين. وهذا الصمت بطبيعة الحال يدعونا إلى الاعتقاد بأن ذلك اختلاق من هذه الساغا، لأن فى حالة ما يكون تعميد فلاديمير عملا بيزنطيا لن تصمت هذه المصادر حيال هذا الحدث التاريخى. وأخيرا سيكون أمرا غريبا استدعاء قس بيزنطى لتعميد فلاديمير بينما هناك الكثير من الفارانجيين والروس المسيحيين فى كييف[٥٢] وهم يتحدثون اللغة التى يجيدها فلاديمير، بينما بولس يتحدث اليونانية ! كما لا ينبغى أن نغفل أن الأمير أولاف صديق فلاديمير كان مسيحيا ؛ ولابد أن نضيف إلى كل ذلك أن الوقت كان عصيبا بالنسبة لبيزنطة، فالقسطنطينية قاب قوسين أو أدنى من السقوط فى أيدى برداس فوقاس والبلقان فى أيدى البلغار[٥٣] . على كل حال ، يذكر الكاهن يعقوب أن فلاديمير كان قد تنصر فى عام ٩٨٧م ، وربما كان هذا بتشجيع من صديقه الأمير النرويجى أولاف

---

(٥٢) ورد ذكر للمسيحين الروس فى مواضع كثيرة فى معاهدة ٩٤٥م . انظر الفصل الأول من الباب الأول.والجدير بالذكر أن بيزنطة كانت تلجأ إلى سياسة تنصير القبائل المجاورة كأداة من أدوات الدبلوماسية . وعندنا الأمثلة كثيرة على ذلك كتنصير البلغار أو اللازيين Lazes ، والتزانيي Tzani والأبسجيين Absgians والزيخيين Zichians وغيرهم . انظر،

Obolensky, D., " The Byzantine Frontier Zones and Cultural Exchanges ", *Actes du XIV^e Congres International des Études Byzantines, (Bucharest, 1971)*, vol. I, (Bucharest, 1974), pp. 310-311.

انظر أيضا : رأفت عبد الحميد ، *الدبلوماسية* ، ص ٧٤-٧٨ . كما أنها سعت منذ الهجوم الروسى الأول على القسطنطينية فى عام ٨٦٠م إلى التبشير بين الروس ، وذلك يعود إلى عهد البطريرك فوتيوس وإلى فترة حكم باسيل الأول (٨٦٧-٨٦٦م) أو على أدنى تقدير إلى عهد البطريرك اجناتيوس وفترة حكم ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) . عن الأصول الأولى للمسيحية بين الروس انظر،

Cedrenus, II, 173; *Zonaras*, III, p. 404; Constantine Porphyrognetus, *Vita Basilii*, in: *Theophanes Continuatus*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1838), p. 196; Photii, Constantinoplitani Patriarchae, *Opera Omnia*, ed. J.P. Migne, *PG*, tome 102 , (Turnholti), cols. 735-736; Grégoire, H., "Études sur le neuvième siècle: Le bapteme des russes. Photius n'a pas menti ", *B*, 8 (1933), pp. 515-550; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 57-59; Sorlin, *Les traités*, pp. 322-323; Fenelle, J., *A History of the Russian Church to 1448 A.D.*, (London, 1995), pp. 20-34; Shepard, J., " Some Remarks on the Sources for the Conversion of Rus' ", in*: S.W. Swierkosz-Lemart, ed., Le Origini e Lo sviloppo della cristianit à Slavo-Byzantina (Nuovi studi storici 17)*, (Rome, 1992), pp. 59-95; Honigmann, E.," Studies in Slavic Church History ", *B*, 17 (1945), pp. 128-182; Rambaud, *La Russie*, pp. 68-69.

(٥٣) Baumgarten, *Olaf Tryggwison*, pp. 33-34.

تريجويزون[٥٤] . وإذا كانت إشارة يعقوب الكاهن صحيحة فإن هذا يعنى أن أولاف قد أبلغ الإمبراطور البيزنطى بهذا الحدث، وتؤكد هذه الإشارة على أن مهمة الأسقف بولس كانت مهمة دبلوماسية فقط . أما إرسال الإمبراطور البيزنطى إلى فلاديمير ردا على طلبه يد الأميرة آنا باستحالة حدوث هذا الزواج بين مسيحية ووثنى إلا إذا تنصر فلاديمير، فهو نوع من المرواغة الدبلوماسية فقط ، وهو ما ستؤكد صحته الأحداث التالية عندما يزحف فلاديمير نحو خرسون ويستولى عليها فى عام ٩٨٩م، وهناك طالب الإمبراطور باسيل الثانى بالوفاء بتعهداته وإرسال الأميرة آنا إليه حسب الاتفاق المبرم بينهما فى عام ٩٨٨م . وتشير موافقة الإمبراطور باسيل الثانى على تزويج أخته من الأمير الروسى فلاديمير إلى أن الأخير قد قبل الشرط البيزنطى وهو التحول إلى المسيحية، وليس بالضرورة أن يكون قد تم على أيدى البيزنطيين . كما أن هذا يعنى أن فلاديمير قطع تعهدا على نفسه أمام أعضاء السفارة الدبلوماسية البيزنطية باعتناق المسيحية إذا لم يكن قد اعتنقها بالفعل مثل عام ٩٨٨م . وقد وردت رواية فى الحولية الروسية قد تؤكد إشارة يعقوب الكاهن، وهى الرواية التى لم يربط المؤرخون بينها وبين إشارة يعقوب الكاهن .

يذكر الراهب نسطور أن فلاديمير فى عام ٩٨٦م قرر اعتناق ديانة جديدة هو وشعبه، ولنفترض أن هذا التحول عن الوثنية كان بتأثير من صديقه المسيحى الأمير أولاف النرويجى ، إذا كان هناك حتمية تسجيل تأثير لأولاف على فلاديمير لاسيما وأن الإمبراطور البيزنطى اصطفاه هو بالذات للقيام بالمباحثات مع فلاديمير ومعه الأسقف البيزنطى بولس . ولنعد إلى رواية نسطور حيث يذكر أن فلاديمر واتته فى هذا العام عدة بعثات دينية من قبل بلغار الفولجا الذين عرضوا عليه الإسلام ؛ والخزر الذين عرضوا عليه اليهودية ؛ والبابوية التى تدثرت بعباءة ألمانية، عرضت عليه المسيحية الكاثوليكية . وقد رفض فلاديمير كل هذه البعثات الدينية وأبطل عروض أعضائها . ويمضى نسطور ويقول أن البيزنطيين أرسلوا له أحد رجال الدين وكان لبقا متفلسفا حسن المنطق استطاع إقناع فلاديمير أن المسيحية الأرثوذكسية هى خير الأديان قاطبة بعد أن استل أسلحته على أصحاب الديانات الأخرى. ويستمر نسطور ، بوازع بيزنطى واضح ، فى عرض مزايا الديانة الجديدة وكيف كان فلاديمير يستفسر ويحاج هذا الفيلسوف البيزنطى حتى تمكن الأخير من لب الأمير الروسى . وفى عام ٩٨٧م اجتمع فلاديمير بنبلائه واستشارهم فى الأمر فقرروا جميعا إرسال بعثة روسية لمعاينة كل

---

[٥٤] نقلا عن : Baumgarten, *Olaf Tryggwison*, p. 34.

ديانة من الديانات السابقة على أرض الواقع ، فخرجت البعثة إلى بلاد البلغار وعاينت على الطبيعة شعائرهم الإسلامية ثم عادت إلى كييف لتقص عليه ما رأت ، ثم أمر نفس البعثة بالذهاب إلى الألمان لاختبار المسيحية الكاثوليكية على الطبيعة ، ومنها يعرجون إلى القسطنطينية لعمل نفس الشيء مع البيزنطيين واختبار المسيحية الأرثوذكسية . وبالفعل خرج أعضاء البعثة فى طريقهم إلى ألمانيا ، وبعد مشاهدة مراسمهم الدينية يمموا وجوههم شطر القسطنطينية ، وعندما وصلوا إليها وعلم الإمبراطور باسيل الثانى وأخوه قسطنطين بخبرهم بعث إليهم لمقابلته، وعندما حضروا بين يديه سألهم الإمبراطور عن سبب زيارتهم للقسطنطينية فاخبروه أنهم قد جاءوا لمعاينة واختبار ديانتهم المسيحية ؛ وعلى الفور أرسل الإمبراطور البيزنطى إلى بطريرك القسطنطينية يخبره بأمر هذه البعثة وأن يستعد هو وهيئته من الاكليروس لإقامة صلوات فى آيا صوفيا يحضرها أعضاء البعثة الروسية(٥٥) . وبالفعل تزين البطريرك بأبهى ما عنده وارتدى أفخم ما يملك من الملابس هو واكليروسه، وقد حضر أعضاء البعثة الروسية هذه الصلوات التى خلبت ألبابهم ببهائها وموسيقاها وألحانها الكنسية إضافة إلى جمال آيا صوفيا الأخاذ . وهذا نستشفه من رد أعضاء البعثة على سيدهم فلاديمير عندما عادوا إليه يقصون عليه ما شاهدوه ، فقالوا له : " لم نكن ندرى أكنا على الأرض أم فى السماء " وفى عبارة أخرى لهم قالوا : " لقد شعرنا هناك فقط أن الله يوجد بين البشر ، وأن طقوسهم أجمل من مراسم الأمم الأخرى ، حتى أننا لا نستطيع نسيان جمالها ..."(٥٦) . والآن ماذا تعنى رواية نسطور هذه ؟ ألا تعنى أن الجمود فى العلاقات البيزنطية – الروسية قبل عام ٩٨٨م كان قد كسر على أثر مجئ العالم البيزنطى إلى كييف فى عام ٩٨٦م وعودة البعثة الروسية من القسطنطينية إلى كييف فى عام ٩٨٧م ؛ كما أنها تعنى أن رواية يعقوب الكاهن عن تنصير فلاديمير فى عام ٩٨٧م أصبحت الآن قريبة من الحقيقة ، إن لم تكن حقيقة بالفعل . أما مسألة تعميد فلاديمير بعد ذلك فى خرسون ، كما سنرى بعد قليل ، فى عام ٩٨٩م فما هى إلا مناورة سياسية بيزنطية . هكذا ، بناء على ما سبق يمكن القول أن رواية الساغا بأن هدف الأسقف بولس كان هدفا دينيا فقط ، أى تعميد فلاديمير رواية غير دقيقة، بل تؤكد كل الشواهد التاريخية أن هدف هذه السفارة كان هدفا

---

(٥٥) انظر، *R.P.C.*, pp. 96-110.

(٥٦) *P.R.C.*, p. 111; Fenelle, *Russian Church*, pp. 35-37; Poppe, A., " The Political Background to the Baptism of Rus', Byzantine Russian Relations between 986 - 89", *DOP*, 30 (1976), p. 207; Schlumberger, *L' épopée*, pp. 706-710.

سياسيا وأن فلاديمير عرف طريقه إلى المسيحية قبل مجيء السفارة البيزنطية إلى كييف ؛ وإن كان تعميده قد أعلن فى خرسون بعد ذلك فى عام ٩٨٩م فلذلك ملابسات أخرى(٥٧) .

والآن لنعد إلى الفرقة الفارانجية ذات الستة آلاف مقاتل التى ذهبت إلى القسطنطينية لتشد من أزر الإمبراطور باسيل الثانى . وصلت هذه الفرقة إلى العاصمة البيزنطية فى عام ٩٨٨م وكانت هذه الفرقة تتميز بالقوة وشدة البأس(٥٨) . ويضيف بعض المؤرخين المحدثين بطريق الخطأ ، أن فلاديمير كان على رأس هذه الفرقة ، بل إنه شارك فى القتال ضد برداس فوقاس إلى جانب الإمبراطور باسيل الثانى وأخوه قسطنطين(٥٩) . وفى الواقع، فإن هذا الرأى لا يستند إلى أى أساس من الصحة نظرا لخلو المصادر التاريخية من أية إشارة تاريخية لمثل هذا الحدث. كما أن الأحداث التالية، غزو فلاديمير لخرسون فى عام ٩٨٩م ، تثبت بالدليل القاطع أن فلاديمير لم يكن على رأس هذه القوات ولم تطأ قدماه القسطنطينية أبدا وإلا فإنه من باب أولى عندما حنث الإمبراطور باسيل الثانى بوعده له بتزويج أخته منه يقوم بمهاجمة القسطنطينية نفسها معتمدا على وجوده ببيزنطة على رأس فرقته الفارانجية الكبيرة العدد بدلا من أن يتجه بقواته نحو خرسون للاستيلاء عليها !

على أية حال ، تمكن الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى بفضل المساعدات الروسية من أن يدحر قوات برداس فوقاس فى معركتين حاسمتين أولهما معركة خريسوبوليس فى مارس من عام ٩٨٩م ، وثانيهما معركة أبيدوس فى الثالث عشر من شهر أبريل من عام ٩٨٩م عند فم الهللسبونيت(٦٠) ؛ وفى هذه المعركة سقط برداس فوقاس عن صهوة جواده ولم تقم له قائمة بعد ذلك بينما ولت جنوده الأدبار، وهكذا أسدل الستار على واحدة من أعنف الثورات الداخلية فى الإمبراطورية البيزنطية بعد أن استمرت ما يقرب من سنة وثمانية اشهر(٦١) . وبعد انتصار الإمبراطور باسيل

---

(٥٧) يعتقد بعض المؤرخين المحدثين أن فلاديمير عمد فى بداية عام ٩٨٨م وبالتحديد فى الأول من يناير انظر، Poppe, *The political background*, pp. 240-241; Fenelle, *Russian Chruch*, p. 37;Vasiliev, *Old Russia*, p. 351.

(٥٨) أبو شجاع ، *ذيل تجارب الأمم* ، ص ١١٦ .

(٥٩) العرينى ، *الدولة البيزنطية* ، ص ٥٣٥ Baumgarten, *Saint Vladimir*, p.76;

(٦٠) عن النهاية المأساوية لبرداس فوقاس انظر، أبو شجاع ، *ذيل تجارب الأمم* ، ص ١١٦ – ١١٧؛ Angold, *Byz. Empire*, p. 2; Obolensky, *Byzantine Sources*, p. 162; Benedikz, *Varangian*, p. 23; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 76-78; Whittow, *Byzantium*, p. 373.

(٦١) العرينى ، *الدولة البيزنطية* ، ص ٥٣٧ .

الثانى ظلت الفرقة الفارانجية تعمل فى خدمة بيزنطة[٦٢] ، وتنعكس الأهمية البالغة التى احتلها الفارانجيون فى جيش باسيل الثانى فى حصولهم على جزء كبير من الغنيمة البلغارية فى عام ١٠١٦م[٦٣] .

والآن لنتعرف على الأحداث التى وقعت فى شبه جزيرة القرم وبالتحديد فى مدينة خرسون البيزنطية. ففى سنة ٩٨٨م حسب تأريخ الحولية الروسية، وهى المصدر الوحيد عن هذه الأحداث، قام الأمير الروسى فلاديمير بقيادة جيشه متوجها لحصار هذه المدينة فى محاولة منه للاستيلاء عليها، حيث قاومه سكان المدينة بشدة. وفى الوقت الذى كان يحاصر فيه فلاديمير المدينة من جهة المرفأ أطلق أحد رجالها ويدعى أنستازيوس *Anstasius* سهما إلى معسكر الروس وقد كتب عليه : " توجد ينابيع خلفك صوب الشرق ينساب منها الماء فى قنوات إلى المدينة، نقب عنها واقطعها " . وعلى الفور أعطى فلاديمير أوامره بسرعة التنقيب عن هذه القنوات. وقطعت إمدادات المياه عن المدينة ، حتى قهر العطش السكان فاستسلموا له[٦٤] .

جدير بالذكر أن هذا الجزء من الأحداث يشير إلى أن فلاديمير كان يصطحب قواته بالبحر من خلال نهر الدنيبر ومصباته ثم بحر بونتس حتى دخل إلى مرفأ خرسون. ويعزو كاتب الحولية الروسية دخول فلاديمير إلى خرسون عن طريق الخيانة ، وأن سكانها ظلوا يقاومون بشدة لكنهم اضطروا للتسليم فى نهاية الأمر عندما اشتد عليهم العطش . وبسقوط خرسون فى أيدى فلاديمير صار سيدا عليها وبدأ فى مراسلة البلاط البيزنطى بل وتهديده للوفاء بتعهداته معه وإرسال الأميرة آنا إليه .

فقد أوفد رسالة إلى الإمبراطور باسيل الثانى يطالبه فيها بالوفاء بوعده بتزويج الأميرة آنا *Anna* له وإلا فإنه سوف يفعل بالقسطنطينية مثلما فعل بخرسون. وقد رد عليه الإمبراطور "بأنه لا يجوز للمسيحيات أن يتزوجن من الوثنيين، فلو تعمدت فإنك سوف تتخذها زوجة لك ، وإذا لم تفعل هذا فلن نزوجك إياها " . وعندما علم فلاديمير بهذا الرد رد رسله مباشرة إليه ليخبروه بأنه يرغب فى تلقى التعميد وأنه يولى اهتماما لديانتهم وأن العقيدة اليونانية وطقوسها ، مثلما وصفت له بواسطة المبعوثين المرسلين لمعاينتها ، قد سرته أيضا . وعندما سمع الإمبراطور هذا تهللت أساريره هو وأخوه قسطنطين ، وحثا أختهما على أن ترضى به رفيقا . وقد طلب الإمبراطور من فلاديمير أن يتعمد قبل أن يرسلا إليه أختهما . لكن فلاديمير أبدى رغبته فى أن الأميرة

---

(٦٢) Ostrogorsky, *Byz. State*, p. 269.
(٦٣) Angold, *Byz. Empire*, p. 4.
(٦٤) *R.P.C.*, pp. 111-112.

نفسها عليها أن تحضر الكهنة للقيام بذلك ، وهو ما تم بالفعل. فقد رحلت الأميرة آنــا بورفيروجنيتا من القسطنطينية إلى خرسون يصحبها بعض أصحاب المقــام والكهنــة. وعندما وصلت إلى خرسون جاء المواطنون لتحيتها وليصحبوها إلى المدينـــة حيــث أنزلوها بالقصر(٦٥) .

وقد تعمد فلاديمير حينئذ على أيدى أسقف خرسون ومعـــه كهنـــة الأمـــيرة ، وبالمثل تعمد الكثير من اتباعه أيضا ، وبعد التعميد اتخذ فلاديمـــير الأمـــيرة زوجــة له(٦٦). وعقب هذا مباشرة أسس فلاديمير كنيسة فى وسط مدينة خرسون ، ثـــم أخــذ الأميرة وأنستازيوس وكهنة خرسون جميعا ومعهم رفات القديس كليمنـت *St.Clement* وفويبوس *Phoebus* تابعه وبعض الأوانى المقدسة وصورا للطقوس الدينية وتمثـــالين من البرونز وأربعة جياد برونزية أيضا وعاد إلى كييف بعـــد أن رد خرســـون إلـــى الإمبراطور البيزنطى ثانية كمهر للأميرة (٦٧) .

وهكذا تشير هذه الأحداث إلى السبب الذى من أجله غزا فلاديمير خرســـون، والتى نستشف منها أن الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى قد حنث بعهده مع فلاديمـــير بأن يزوجه الأميرة آنا بورفيروجنيتا مقابل قيام الأخير بتقديم الدعم العسكرى إليه علـــى وجه السرعة حتى يتمكن من قمع ثورة برداس فوقاس، وهذه هى شروط المعاهدة التى تم الاتفاق عليها بين الطرفين بواسطة السفارة البيزنطية التى ذهبت إلى كييف فى بداية عام ٩٨٨م . وقد رأينا أن الأمير الروسى فلاديمير قد وفـــى بوعـــده وأرســـل فرقـــة فارانجية قوامها ستة آلاف مقاتل إلى القسطنطينية تمكن بها باسيل الثانى من قمع ثورة برداس فوقاس ، وكانت المعركة الحاسمة بينهما فى آبيدوس فى ١٣ ابريل مـــن عـــام ٩٨٩م . وجاء الدور على باسيل الثانى ليفى بتعهده مع فلاديمير بعد أن انقضت المحنة البيزنطية ويبعث إليه بالأميرة آنا للزواج منه، إلا أن ما حدث كان عكس ذلك ! فقـــد تراجع باسيل الثانى عن إتمام باقى شروط اتفاقه مع فلاديمير ولم يرسل له الأميرة آنــا ليتزوج منها، وكان لذلك ثلاثة أسباب، الأول : أن المحنة العصيبة التى كانت تمر بـــها بيزنطة قد انقضت وتم التخلص من برداس فوقاس ، الذى كان قاب قوسين أو أدنى من الدخول إلى القسطنطينية ، وبالتالى لم تعد هناك حاجة للتضحية بالأميرة آنا المولـــودة فى الأرجوان على مذبح كييف ؛ ثانيا : من الواضح تماما أن الأميرة آنا كانت ترفـض

---

(٦٥) *R.P.C.*, pp. 112-113.
(٦٦) *R.P.C* ., p. 113.
(٦٧) *R.P.C.*, p. 116.

مثل هذا الزواج الذى يجمع بين أميرة بيزنطية ولدت فى الأرجوان الإمبراطورى وبين رجل وثنى يتسم بالبربرية ، من وجهة النظر البيزنطية ، حتى ولو كان أميرا على الروس . وتعكس رواية نسطور هذا الرفض [٦٨] حيث قام أخويها باسيل الثانى وقسطنطين بمحاولة لإقناعها بالزواج منه لدرء الخطر الروسى عن القسطنطينية ، الذى كان يعضده وجود ستة آلاف فارانجى فى بيزنطة ، ولنيل شرف تعميد الروس وإدخالهم إلى فلك الكنيسة البيزنطية؛ ثالثا : وصية الإمبراطور قسطنطين السابع التى تركها لخلفائه فى كتابه عن الإدارة الإمبراطورية ، والتى تشير إلى عدم زواج الأميرات البيزنطيات من الوثنيين أو العكس وأن من يخالف ناموس الإمبراطورية من الأباطرة يعتبر خارجا على المسيحية ، وتحل عليه اللعنة ، لأنه خالف ناموس الأجداد وتشريعات الإمبراطورية، ومما يؤكد أن باسيل الثانى وضع وصية قسطنطين السابع نصب عينيه هو الرد الذى بعث به إلى فلاديمير فى خرسون ردا على طلب الزواج من آنا بورفيروجنيتا حيث قال له : "بأنه لا يجوز للمسيحيات أن يتزوجن من الوثنيين. فلو تعمدت فإنها ستصبح زوجة لك .." [٦٩] . وهذا الرد يكاد يتطابق مع ما قاله قسطنطين السابع فى الرد على أمراء القبائل المجاورة عندما يخطبون ود القصر البيزنطى ويطلبون الزواج من إحدى أميراته ، حيث قال: "... مثل هذا الطلب يمكنك الاعتراض عليه بهذه الكلمات قائلا : " بأن هذا الأمر له أيضا عهد ووصية موثوق بها للإمبراطور المقدس قسطنطين . وهذا العهد محفور على المنضدة المقدسة فى كنيسة المسيحيين ، أى كنيسة آيا صوفيا ، وقد ورد فيها أنه يحرم على أى إمبراطور رومانى أن يعقد تحالفا عن طريق الزواج مع أمة تختلف تقاليدها عما جبل عليه الرومان وتتعارض معها لاسيما إذا كانت هذه الأمة وثنية ولم تعمد " [٧٠] .

وهكذا استنادا إلى الأسباب التى تم عرضها رفض الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى زواج آنا بورفيروجنيتا من الأمير الروسى فلاديمير وحنث بوعده له . ويبدو أن فلاديمير انتظر بضعة أشهر عقب القضاء على ثورة برداس فوقاس منتظرا وصول الأميرة آنا، إلا أن انتظاره طال فأدرك أن الأمر ما هو إلا مناورة دبلوماسية

---

(٦٨) لقد رحلت آنا وهى فى تردد من أمرها وأرثت نفسها بالقول " إذا ما بدا لى أنى سأرزح فى العبودية فالموت فى الوطن أفضل لى " . لكن احتج أخواها قائلين :" من خلالك سيحول الله أرض الروس نحو التوبة وسوف تريحين بلاد اليونان (أى بيزنطة) من خطر حرب شنيعة ، ألم ترين إلى أى مدى ألحق الروس الأذى باليونانيين ؟ إذا لم تبدأ رحلتك ربما جلبوا إلينا نفس الحظ العثر " .على هذا النحو تغلبوا على ترددها بصعوبة بالغة.انظر، *R.P.C.*, pp.112-113.

(٦٩) *R.P.C.*, p. 112.

(٧٠) *DAI*, I, pp. 70-73; Whittow, *Byzantium*, p. 372.

من البلاط البيزنطى ، فكان هذا دافعا شديدا له للقيام بغزو مدينة خرسون البيزنطية وهو ما كشفت عنه رواية نسطور(٧١) . ولكن هل كان رفض الإمبراطور باسيل الثانى زواج أخته الأميرة آنا بورفيروجنيتا من الأمير الروسى فلاديمير هو الدافع الوحيد لقيام الأخير بغزو خرسون ؟ .

للإجابة على هذا السؤال لابد أن نعرض لوجهة نظر المؤرخ البولندى آندريه بوب *A. Poppe* الذى يقترح، بتوكيد منه ، أن فلاديمير قام بغزو مدينة خرسون البيزنطية حسب اتفاق مسبق مع الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى، نظرا لأن هذه المدينة أعلنت ولاءها للثائر برداس فوقاس، أو بقول آخر تمكن برداس فوقاس من فرض سيادته على خرسون وكسبها إلى صفه؛ ولما كانت هذه المدينة ذات أهمية سياسية واقتصادية بالنسبة لبيزنطة فكان لابد من إعادتها إلى فلك السيادة البيزنطية مرة ثانية وإن اضطر الأمر للجوء إلى الروس الذين كان يمقتهم البيزنطيون(٧٢) . ويدعم بوب نظريته بثلاثة براهين أساسية :

أولا : برهانه الكرونولوجى ، فقد تمكن باسيل الثانى بفضل الفرقة الفارانجية من دحو برداس فوقاس فى معركتى خريسوبوليس وآبيدوس، وتاريخ المعركة الأولى غير محدد، بينما المعركة الثانية دارت فى ١٣ ابريل من عام ٩٨٩م. وفى ذلك الوقت استولى فلاديمير على خرسون تقريبا . ويصل بوب إلى هذا التاريخ من خلال اجتماع بعض الأدلة التاريخية على ظاهرة سماوية وهى مذنب هاللى ، مثبتة عند ليو الشماس ويحيى الأنطاكى والمؤرخ الأرمنى آتين أسوليك الطارونى *A. Asoghik de Tarone* . وعلى هذا يشهد بوب بأنه "من الصعب أن نقبل الوضع الذى كان فيه جنود فلاديمير يحاربون من أجل باسيل الثانى فى نفس الوقت الذى كان فيه فلاديمير ينظم حملته ضد هذا الإمبراطور ويحاصر خرسون ، لكى يضمن حقه فى الزواج من أخت الإمبراطور".

ثانيا : برهانه الاقتصادى ، حيث يعتمد على الروابط الاقتصادية التى تربط خرسون وساحل آسيا الصغرى الشمالى فى القرن العاشر الميلادى ، والموصوفة جيدا فى الفصل الثالث والخمسين من كتاب الإدارة الإمبراطورية ، الذى يرد فيه بأنه لو لم يستطع سكان خرسون أن يستوردوا القمح من الولايات الواقعة على هذا الساحل فانهم

(٧١) *R.P.C.*, p. 112; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 78-79; Court, *La Russie*, pp. 116-118; Obolensky, *Cherson*, p. 245.

(٧٢) Poppe, *The political background*, pp. 211-224, 228-229, 239; Obolensky, *Cherson*, pp. 246-247.

" لن يستطيعوا العيش "[٧٣] . ومن هنا كان الدافع لبوب كى يقول أن "أيا كان من امتلك السيادة على الولايات الواقعة على ساحل البحر الأسود فقد امتلك المفتاح لخرسون " . ومنذ ذلك الحين فى عام ٩٨٧ ، ٩٨٨م ، كان مغتصب العرش بـرداس فوقـاس قـد امتلك" الأسباب الاقتصادية" . ويقول بوب ثانية أنها كانت كافية مـن أجـل اعـتراف خرسون بسيادة الحاكم الفعلى لآسيا الصغرى عليها" .

ثالثا : برهانه الثالث الذى ساقه لنا ويعتمد على النص الـوارد فـى معـاهدة ٩٤٥م المبرمة بين القسطنطينية وكييف، وبالتحديد إلى الفقرة التى تخص خرسون والتى يرد فيها : " فيما يتعلق بإقليم خرسون وكل المدن الواقعة فى نطاقه فليس من حـق أمـير الروس أن يغير على هذه المواضع ، ولن يكون هذا الإقليم خاضعا لكم . وإذا طلـب أمير الروس منا جنودا ليشن حربا ، فنحن موافقون على تزويده بأى عدد يطلبـه "[٧٤] وقد سبق القول فى موضع آخر من البحث انه تم تصحيح عبارة "ولن يكون هذا الإقليم خاضعا لكم" من قبل المؤرخين المحدثين لتصبح " وإذا كان هذا الإقليم غير خاضع لنـا "[٧٥]. وهذا البرهان يعنى أنه إذا ثارت خرسون وأقاليمها ضد السلطة الإمبراطوريـة العليا فباستطاعة أمير الروس التدخل عسكريا بتعضيد بيزنطى لإعادة الأمـور إلـى نصابها ثانية فى خرسون لصالح الإمبراطور البيزنطى[٧٦] .

وعلى الرغم من هذه الأسانيد الثلاثة التى اعتمد عليها بـوب فـى نظريتـه الخاصة بغزو فلاديمير لمدينة خرسون البيزنطية ، إلا أن المؤرخ الإنجليزي المشـهور ديمترى أوبولنسكى تصدى مؤخرا فى عام ١٩٨٩م لهذه النظرية وأثبت عـدم صحـة نظريتة فى كثير من مواضعها[٧٧] . وقد خلص أوبولنسكى ، من خلال رده على بوب، إلى أن خرسون قد سقطت فى أيدى فلاديمير بعد ٢٥ أكتوبر من عام ٩٨٩م[٧٨]وليـس كما يعتقد بومجارتن بعد شهر أبريل وقبل منتصف يوليو من نفس العـام[٧٩]، أو كمـا

---

(٧٣) انظر، *DAI*, I, pp. 286-287.

(٧٤) *R.P.C.*, p. 76.

(٧٥) انظر الفصل الأول من البحث ص ٣٤-٣٥ .

(٧٦) Poppe, *The political background*, pp. 201-244; Obolensky, *Cherson*, pp. 246 - 247.

(٧٧) اعتقد أنه من العبث أن نعيد عرض الدلائل التى استخدمها أوبولنسكى هنا مرة ثانيـة، وسـأكتفى بعـرض النتائج التى توصل إليها Obolensky, *Cherson*, pp. 244-256 .

(٧٨) Obolensky, *Cherson*, p. 252 .

(٧٩) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 78.

يذهب بوب بين ٧ أبريل و ٢٧ يوليو من نفس العام أيضا[٨٠]. ومن المحتمل ، من وجهة نظر أوبولنسكى ، أن يكون حصار فلاديمير لخرسون كان قد بدأ فى صيف عام ٩٨٩م ، نظرا لأن فلاديمير ينتقل بقواته عبر نهر الدنيبر ، الذى يتجمد فى الشتاء ويبدأ فى الذوبان مع بداية الربيع ، ومن مصبات الدنيبر إلى شبه جزيرة القرم . ويحدد أوبولنسكى أكثر من ذى قبل تاريخ حصار فلاديمير لخرسون ويقول انه امتد من صيف ٩٨٩م وحتى أواخر شتاء أو بداية ربيع عام ٩٩٠م، وبهذا التاريخ يكون من الصعب أن نأخذ برواية بوب أن قوات فلاديمير حاربت فى القسطنطينية وفى خرسون فى آن واحد لصالح الإمبراطور باسيل الثانى، نظرا لوجود فترة عامين تقريبا بين تاريخ إرسال الستة آلاف فارانجى إلى القسطنطينية وبين غزو فلاديمير لخرسون . ومن هذا المنطلق يؤيد أوبولنسكى فكرة غزو فلاديمير لخرسون ردا على حنث الإمبراطور باسيل الثانى بوعده له بتزويج الأميرة آنا بورفيروجنيتا منه[٨١] . وعلى الرغم من الأدلة والتفسيرات التى يسوقها أوبولنسكى لتفنيد البرهان الثانى الدال على نظرية بوب وهو الخاص بالعلاقات الاقتصادية بين خرسون ومدن ساحل آسيا الصغرى الشمالى ، إلا أنه لم ينتبه إلى دليل هام ورد فى كتاب الإدارة الإمبراطورية كفيل بمفرده أن يفند البرهان الثانى لبوب؛ لكن قبل أن نعرض لنص قسطنطين بورفيروجنيتوس دعونا نعرض لرد أوبولنسكى على هذه الجزئية باختصار شديد . فهو يرى أن لو كان بوب على حق فى هذه النقطة لوجب علينا أن نصدق أن ثورة بوداس فوقاس قد انتشرت عبر آسيا الصغرى فى غضون بضعة أسابيع من صيف عام ٩٨٧م ، وأن سكان مدينة خرسون كانوا مقتنعين أن ينضموا إلى جانبه . وقد علمت الإدارة البيزنطية فى القسطنطينية بهذه الحقيقة قبل إرسال سفارتها إلى كييف فى أواخر ذلك العام أو على أدنى تقدير ، كما يشير البعض ، فى بداية عام ٩٨٨م . وعلينا أن نتخيل تحركا عسكريا سريعا وقرارات فورية فى القسطنطينية .... ولكن كل هذا غير جائز[٨٢] . وبعد أن عرضنا لرأى أوبولنسكى علينا أن نضيف إليه نص قسطنطين

---

(٨٠) Poppe, *The political background*, p. 212.
(٨١) Obolensky, *Cherson*, pp. 252-253.
(٨٢) Obolensky, *Cherson*, p. 25 .

بورفيروجنيتوس المتعلق بالإجراءات التى ينبغى أن تتخذ فى حالة خروج خرسون عن طوع القسطنطينية حيث يقول : ".. إذا حدث وثار مواطنو مدينة خرسون أو شقوا عصا الطاعة على الإمبراطورية، فإن كل سفنهم الراسية فى القسطنطينية تصادر بحمولتها ويتم اعتقال البحارة والمسافرين وإيداعهم فى السجن، ويرسل الإمبراطور ثلاثة مندوبين ، أحدهما إلى ثيم الأرمنياق وثانيهما إلى ثيم بافلاجونيا وثالثهما إلى ثيم البقلار للاستيلاء على سفن الخرسونيين الراسية هناك ومصادرتها بحمولتها واعتقال من عليها وايداعهم فى السجن وإرسال تقرير بذلك إلى الإمبراطور . وفوق هذا ، على هؤلاء المندوبين منع السفن التابعة لثيمى بافلاجونيا والبقلار وبنطس من التوجه نحو مدينة خرسون وهى محملة بالقمح أو النبيذ أو أى سلع أو بضائع أخرى ، كما ترسل الأوامر إلى استراتيجوس خرسون لحجب العشرة جنيهات الذهبية التى تمنحها الخزانة العامة لمدينة خرسون وجنيهين من الضرائب . وعلى الاستراتيجوس أن ينسحب من المدينة ويتخذ له مقاما فى إحدى المدن الأخرى(٨٣) . هذه الإجراءات التى نص عليها قسطنطين بورفيروجنيتوس والتى يعيها البلاط البيزنطى تماما ، لم نقرأ فى المصادر البيزنطية المعاصرة، لاسيما ليو الشماس، عن حدوثها مع الخرسونيين فى الفترة من عام ٩٨٨-٩٨٩م . الأمر الذى يدل على عدم وقوع عصيان أو تمرد ضد الإمبراطور البيزنطى بها، كما أنه ينفى انضمامها إلى الثائر برداس فوقاس كما يدعى بوب . وبما أن التجارة تمثل عصب الحياة بالنسبة لخرسون، كما يتضح من نص قسطنطين بورفيروجنيتوس(٨٤)، فليس من السهل أن يضحى الخرسونيون بسفنهم التجارية وشحناتها فى سبيل مناصرة برداس فوقاس، وليس من السهل عليهم أن يتعرضوا لمثل هذه الإجراءات العنيفة التى تتخذ معهم ، والتى كانت بطبيعة الحال معلومة لهم. أخيرا ، فيما يتعلق ببرهان بوب الثالث ، المتعلق بالفقرة الواردة فى اتفاقية ٩٤٥م الخاصة بخرسون يذكر أوبولنسكى أن سفياتوسلاف قد قطع على نفسه عهدا فى اتفاقية ٩٧١م المبرمة بينه وبين يوحنا تزيمسكس بألا يهاجم مدينة خرسون أو الممتلكات البيزنطية

---

(٨٣) *DAI*, I, pp. 286-287.

(٨٤) انظر أيضا : Court, *La Russie*, p. 116 .

الأخرى فى منطقة القرم . وأنه من غير المعقول أن بيزنطة التى تعلق بالغ اهتمامها بخرسون ومنطقة القرم تسمح بكل سهولة لأمير الروس أن يدخلها ، وبعد أن كافحت وصدت الكثير من الشعوب بعيدا عنها(٨٥) . على أية حال استنادا إلى كل ما سبق ، يؤكد أوبولنسكى على أن غزو فلاديمير إنما نبع من حنث الإمبراطور باسيل الثانى بوعده بتزويج الأميرة آنا منه ، الذى لم يكن سهلا عليه أن يضحى بأميرة بورفيروجنيتا(٨٦) . وبالرغم من براعة أوبولنسكى فى الرد على بوب إلا أنه يوجد دليل ثان على أن أضيفه إلى جملة ما ساقه أوبولنسكى ، مستقى من الحولية الروسية الأولى نفسها . فتحت أحداث عام ٩٨٩م يذكر نسطور أن فلاديمير عزم على بناء كنيسة يهبها إلى العذراء المقدسة فى كييف واستقدام كهنة من بيزنطة إليها وأنه قد عهد بأمر هذه الكنيسة إلى أنستازيوس الخرسونى(٨٧) . وهنا يرد ذكر لأنستازيوس المقاتل الخائن الذى أرشد فلاديمير إلى كيفية إسقاط خرسون . وهذا يعنى أن فلاديمير اصطحب أنستازيوس معه إلى كييف بعد أن أعاد خرسون إلى بيزنطة ثانية . وهنا يبرز لنا تساؤل إذا كان انستازيوس خائنا لبرداس فوقاس ، فلماذا يذهب إلى كييف على الرغم من زوال خطر برداس فوقاس ؟ والعكس قد يبدو صحيحا، أى أنه ما دام أصبح خائنا لبيزنطة، بمساعدته فلاديمير، كان عليه أن يبحث عمن يسبغ عليه حمايته من الوقوع تحت طائلة القانون العسكرى البيزنطى . ومن هنا انطلق إلى كييف مع سيده الجديد الأمير الروسى فلاديمير ليتمتع بحمايته ونعمته . وهذا الدليل الأخير جاء ليؤكد أن غزو فلاديمير لخرسون لم يكن برضى من الإمبراطورية البيزنطية، أو حسب اتفاق مسبق بين الإمبراطور باسيل الثانى والأمير الروسى فلاديمير كما يعتقد بوب، بل وقع نتيجة أسباب بعينها أو لنقل بسبب عدم وفاء الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى بوعده للأمير الروسى فلاديمير بتزويج الأميرة آنا بورفيروجنيتا منه . ويعتقد أحد المؤرخين المحدثين أن فلاديمير كان يريد فتح طريق جديد إلى بيزنطة بعيدا عن سيطرة البشناق

---

(٨٥) Obolensky, *Cherson*, pp. 254 - 255.

(٨٦) Obolensky, *Cherson*, pp. 255 -256.

(٨٧) *R.P.C.*, p. 119.

على طريق الدنيبر، لذلك اتجه إلى خرسون[٨٨]، ومما يدعم هذا أن فلاديمير زار بعد ذلك الجزء الشرقي من القرم وإمارة تموتوراكان أيضا[٨٩] .

على أية حال ، علينا العودة ثانية إلى رواية الراهب الروسى نسطور عن غزو فلاديمير لمدينة خرسون ، والإشارة إلى نقطة أخرى هامة وهى أن فلاديمير جاء إلى خرسون من جهة المرفأ . وإذا كانت الدبلوماسية البيزنطية قد أثارت مسألة تعميد فلاديمير مرة ثانية حتى تحول دون إتمام الزواج ، إلا أن فلاديمير انتبه لهذه الحيلة ولم يمانع فى إعلان تعميده فى خرسون على أيدى كهنة بيزنطيين وحسب الطقس البيزنطى . وبهذا لم يعد لدى البلاط البيزنطى أية حيلة يتخذها سبيلا لعرقلة زواج الأميرة آنا من فلاديمير، وكان على الإمبراطور باسيل الثانى وأخوه قسطنطين أن يبعثا بالأميرة آنا إلى خرسون لإتمام زواجها من فلاديمير حتى وإن أبت، وبالفعل ذهبت الأميرة آنا فى نهاية المطاف يصحبها كهنتها وحاشيتها إلى خرسون للقاء فلاديمير وإتمام زواجها منه. وفى مقابل وفاء الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى بتعهده بتزويج الأميرة آنا من فلاديمير قام الأخير برد خرسون ثانية إلى الإمبراطورية البيزنطية كمهر لزوجته. وقد رحلوا جميعا إلى كييف بعد أن تمت مراسم الزواج فى خرسون[٩٠] .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن لماذا وافق باسيل الثانى على طلب فلاديمير الزواج من آنا بورفيروجنيتا ، بالرغم من معارضة الأخيرة ؟ وعلى الرغم أيضا من أن باسيل الثانى كان قد سحق ثورة برداس فوقاس ولم يعد هناك تهديد داخلى يهدد عرشه، هل كان للتهديد الذى أطلقه فلاديمير بغزو القسطنطينية أيضا فى حالة الامتناع عن الاستجابة لطلبه هذا التأثير الذى دفع باسيل الثانى للاستجابة لمطلب فلاديمير ؟

---

(٨٨) Frances, E.," Les relations russo- byzantines au XII^{e} siècle et la domination de Galicie au Bas-Danube", *BsL*, 20 (1959), p. 50.

(٨٩) Vernadsky, *Crimea*, p. 252.

(٩٠) Baumgarten, *Chronologie*, pp. 27-28; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 88; Udal'cova, Z., " Kiev and Constantinople: Cultural Relations before the Thirteenth Century ", *The 17th. International Byzantine Congress, Washington 3-8 August 1986*, (New York, 1986), p. 403; Le Clerc, *Histoire*, p. 161.

اعتقد أنه بدراسة الظروف التاريخية التى مرت بها الإمبراطورية عقب قمع ثورة برداس فوقاس تتضح لنا الأسباب التى دفعت باسيل الثانى وأخاه قسطنطين إلى إرسال أختهما آنا بورفيروجنيتا إلى فلاديمير فى خرسون رغم معارضتها .

لقد تعرضت الإمبراطورية لموجة جديدة من العواصف السياسية التى آتت عليها من الداخل والخارج فى آن واحد . فقد أطلقت زوجة برداس فوقاس سراح برداس سكليروس ، الذى كان زوجها قد أودعه قلعتها تحت الحراسة ، ليستكمل مسيرة الثورة ضد باسيل الثانى(٩١)، وقد تجمع حوله كل الحاقدين على الأسرة المقدونية وبقايا جيش برداس فوقاس وأصدقائه. وبهذا شق برداس سكليروس عصا الطاعة على الإمبراطور باسيل الثاني، ودارت مناوشات عسكرية بينهما، إلا أن سكليروس تجنب الدخول فى معركة حاسمة مع باسيل الثانى. وقد ركز سكليروس على قطع إمدادات التموين عن القسطنطينية حتى تسقط فى يده . وهنا أدرك باسيل الثانى ضرورة التفاهم مع برداس سكليروس حتى يتجنب خطره القادم نحو العاصمة(٩٢) . أما الخطر الخارجى الذى كان يهدد بيزنطة فقد جاء من البلقان على أيدى البلغار ففى عام ٩٨٩م استولى البلغار بقيادة صمويل البلغارى على مدينة بيرويا *Berrhoea* ، الواقعة بين التلال السفحية لمقدونيا، وواحدة من أمنع الحصون التى تحرس الطريق إلى تسالونيك، وصار واضحا أن ميناء تسالونيك الكبير كان هدفا لطموحات صمويل الحالية، وبعد سقوط بيرويا قام البلغار بقيادة ديمتريوس بوليمارخيوس *Demetrius Polemarchius* نائب صمويل بعمل خدعة عسكرية للبيزنطيين للاستيلاء على حصن صربيا (سلفدجى *Selfidji*)(٩٣) . وقد وقعت هذه الأحداث فى نفس الوقت الذى

---

(٩١) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 82.

(٩٢) انظر، *Cedrenus*, II, p. 446; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 82-83.

(٩٣) Runciman, *Bulgarian Empire*, pp. 226-227.

عن نشاط صمويل ضد بيزنطة ، انظر، Rumciman, *Bulgarian Empire*, pp. 217-252.

غزا فيه فلاديمير مدينة خرسون البيزنطية، بشهادة ليو الشماس نفسه[٩٤] .

هذه هى الأخطار التى أحدقت بالإمبراطورية البيزنطية فى عام ٩٨٩م والتى كانت تستوجب قتال البيزنطيين فى كل جبهة من هذه الجبهات، لكن نظراً لأن الدبلوماسية البيزنطية كانت حريصة على عقد سلام فى جبهة لحين الانتهاء من القتال فى الجبهة الأخرى[٩٥] ، هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى فإن الأسباب التى دفعت فلاديمير إلى غزو خرسون كانت معلومة للبلاط البيزنطى جيداً ، وكانت الاستجابة إلى مطالبه أقل خسارة لبيزنطة مما يحدث فى البلقان . ولا غرو ، فقد استجاب باسيل الثانى وأخوه قسطنطين لمطالب فلاديمير وأرسلا إليه أختهما آنا بورفيروجنيتا للزواج من، وبهذا يمكن لبيزنطة أن تتفرغ لجبهة البلقان بعد استمالة برداس سكليروس . على أية حال ، يمكن القول أن غزو فلاديمير لخرسون لم يكن خسارة لبيزنطة بقدر ما كان مكسباً بعيد المدى لها، فقد سارت الكنيسة الروسية الابنة الأثيرة لدى كنيسة القسطنطينية ، التى كانت ترسل لها أساقفتها وكهنتها من القسطنطينية؛ كما أن أواصر النسب بين القسطنطينية وكييف قد ضمنت لبيزنطة درء الخطر الروسى بصورة نهائية لا عن شبه جزيرة القرم فحسب بل عن القسطنطينية أيضاً ؛ وضمنت من ناحية ثانية عدم قيام تحالف بين الروس والبلغار ضد بيزنطة .

والآن يمكننا القول أن العلاقات الروسية – البيزنطية فى عهد فلاديمير قد انتهت عند هذا الحد من الناحية السياسية . أما عن الناحية الدينية فظلت العلاقات بينهما مستمرة طوال عهده وحتى انفراد ابنه ياروسلاف *Yaroslav* بالحكم من بعده، وقد بدأ فلاديمير بعد ذلك يولى وجهه شطر الممالك الأوربية المجاورة له بصفة خاصة ، لاسيما بولندا ، اسكندنافيا، الكروات وغيرهم .

لقد شن فلاديمير حملة على ملك بولندا ، المسمى ميسزيسلاف *Mieczyslav* فى عام ٩٩٢م، ونجح فلاديمير فى دخول بولندا واحتلال بعض مدنها مثل بيرميشل *Permychl* ، وتشيرفين *Tcherven* ومدن أخرى[٩٦] . وتتحدث إحدى المدونات

---

(٩٤) *Leo Diaconus*, pp. 175-176 .

(٩٥) رأفت عبد الحميد ، *الدبلوماسية* ، ص ٧٠ .

(٩٦) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 50 .

التاريخية عن أن فلاديمير بعد أن هزم ملك بولندا أجبره على عقد اتفاقية سلام معـــه، وفيها تنازل لفلاديمير عن خمس مدن وتعهد بأن يدفع جزية ســـنوية لـــه[٩٧]. ومـــن المعروف أن بلاد الروس كانت تجاور مملكة بولندا فى ذلك الوقـــت[٩٨]. ولا نعـــرف الأسباب الحقيقية التى دفعت فلاديمير للقيام بهذه الحملة على ملك بولندا، إلا أنـــه مـــن المحتمل أنه كان يهدف إلى مساعدة التشيك ضده[٩٩] ، مدفوعاً بأواصر النســـب التـــى تربط بينه وبين التشيك وملك بوهيميا . فقد كان فلاديمير متزوجاً من امرأة تشيكية من البيت الحاكم[١٠٠]، كما كان ملك بوهيميا نفسه ، المدعو بوليلاس الثالث *Boleslas III*، ابن بوليسلاس الثانى ، متزوجاً من ابنة فلاديمير المدعوة بريدسلافا *Predeslava*؛ وقد عادت هذه الحملة ظافرة إلى كييف محملة بالغنائم والأسرى[١٠١] . وفى العـــام التـــالى على حد ذكر بومجارتن ، أو فى نفس العام على حد ذكر الحولية الروسية الأولى ، قام فلاديمير بغزو الكروات[١٠٢]، ولا تقدم لنا المصادر أسباباً لهذا الغـــزو . وقـــد كـــان الكروات إحدى العناصر السلافية التى تعيش فى بوكوفينا *Bukovina* وشرق غاليســـيا *Galicia* بعد أن تحرك الجزء الرئيسى منهم صوب أقصى الجنوب ؛ وهم ليسوا مـــن العناصر الروسية مطلقاً[١٠٣] .

وبعد غزو فلاديمير لبولندا بخمس سنوات ، أى فـــى عـــام ٩٩٧م، تخبرنـــا الحولية الروسية الأولى أن السلام خيم على الجميع . وقد عاش فلاديمير فى سلام مـــع بوليسلاف *Boleslav*[١٠٤]ملك بولندا آنـــذاك ؛ وســـتفن *Stephen*[١٠٥]ملـــك المجـــر ؛ وأودالريتش *Udalerich*[١٠٦]ملك بوهيميا[١٠٧]؛ ويبدو من رواية نسطور أن ملك بولندا

---

(٩٧) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 50.

(٩٨) الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩٠٣.

(٩٩) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 115.

(١٠٠) Baumgarten, N.,“ Généologies et mariages occidenteaux des Rurikides Russes du X^e au XIII^e siècles”, *OC*, IX, 35 (1972), p. 68.

(١٠١) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 115.

(١٠٢) *R.P.C.*, p. 119; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 113, 116; Karamsin , *Histoire*, p. 275.

(١٠٣) *R.P.C.*, p. 231, n. 3.

(١٠٤) حكم فى الفترة من ٩٩٢-١٠٢٥م ، انظر ، *R.P.C.*, p. 251, n. 112.

(١٠٥) حكم فى الفترة من ٩٩٧-١٠٣٨م ، انظر ، *R.P.C.*, p. 251, n. 112.

(١٠٦) حكم فى الفترة من ١٠١٢-١٠٣٤م ، انظر ، *R.P.C.*, p. 251, n. 112.

الجديد بوليسلاف خليفة ميتسزيسلاف ، آثر العيش فى سلام مع فلاديمير، بل إن سفياتوبولك *Svyatopolk* الأول ابن فلاديمير أمير كييف، تزوج فى عام ١٠١٣م من ابنة بوليسلاف ملك بولندا(١٠٨) .

أما عن العلاقات بين فلاديمير والبابوية فى روما ، فالمعلومات التاريخية ضئيلة للغاية بحيث لا تسمح بتكوين صورة شاملة عنها يمكن من خلالها التعرف على دوافع هذه العلاقات . ويذكر بومجارتن ، نقلا عن أحد المصادر الروسية المتأخرة من القرن السادس عشر ، أن البابا يوحنا الخامس عشر (٩٨٥-٩٩٦م) أرسل سفارة إلى فلاديمير فى خرسون فى عام ٩٨٩م وكانت تحمل معها رفات بعض القديسين(١٠٩)، وعلى الرغم من صمت المصادر الغربية حيال هذه السفارة إلا أنها ذات أهمية بالغة حيث كانت الفاتحة لعلاقات متبادلة بين الطرفين(١١٠) . فنقرأ عن وصول سفارة من البابا يوحنا الخامس عشر إلى كييف ، قوبلت بالحب والترحاب فى عام ٩٩١م ؛ وهو العام الذى أرسل فيه فلاديمير أيضا سفيرا إلى البابا، وقد عاد هذا السفير إلى كييف ثانية فى عام ٩٩٤م(١١١) . وفى عام ١٠٠٠م وصل إلى كييف مبعوثون من قبل البابا، وفى العام التالى ١٠٠١م أرسل فلاديمير رسلا إلى البابا فى روما(١١٢)، وكما سبق القول أن الشواهد التاريخية لا تدفعنا إلى معرفة الدوافع وراء هذه العلاقات . لكن ينبغى ألا نفهم هذه العلاقات على أنها نوع من الصراع الروحى بين روما والقسطنطينية على كنيسة كييف . فالروس لم يقحموا أنفسهم حتى ذلك الوقت فى الصراع بين هاتين الكنيستين على السيادة الروحية ، بل إن فلاديمير كان ميالا نحو الكنيسة البيزنطية . وليس أدل على ذلك من أن الكنائس التى بناها فى بلاده حملت معظمها أسماء قديسين بيزنطيين واسم آيا صوفيا ؛ كما أن مجموعة قوانينه الدينية

---

(١٠٧) *R.P.C.*, p. 122.

(١٠٨) Baumgarten, *Généologie*, p. 71.

(١٠٩) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 87; Baumgarten, *Chronologie*, p. 28.

(١١٠) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 87.

(١١١) Baumgarten, *Chronologie*, pp. 29 -31 .

(١١٢) Baumgarten, *Chronologie*, p. 32 .

استقاها من القوانين الكنسية البيزنطية(١١٣). ومن المحتمل أن أول مطران لبلاد الروس كان بيزنطياً ويدعى ليو، تولى منصبه فى عام ٩٩١م(١١٤)، على الرغم من أن أول ظهور رسمى فى المصادر الروسية لمطرانية روسية كان فى عام ١٠٣٩م ، عندما رُسم المطران ثيوبمبتوس *Theopemptos* مطراناً فى كنيسة العذراء الرحيمة بكييف والتى أسسها فلاديمير قبل ذلك الوقت(١١٥) .

على أية حال ، لم تقف علاقات فلاديمير بالغرب الأوروبى عند هذا الحد بل نقرأ عن علاقات بينه وبين ألمانيا أيضاً، فقد تزوج أحد الأمراء الألمان ويدعى برنارد ماركجراف النوردماركى *Bernard Markgrave of Nordmark* من إحدى بنات فلاديمير . كما أن أحد أبناء فلاديمير تزوج من فتاة من أوينجن *Oeningen* ابنة للكونت كونو *Cuno*(١١٦) . وقد امتد الزواج من ألمانيات إلى فلاديمير نفسه، فبعد وفاة الأميرة آنا بورفيروجنيتا فى عام ١٠١١م(١١٧) تزوج فلاديمير آخر زوجاته وكانت ابنة للإمبراطور الألمانى أوتو العظيم، وهى التى أنجب منها بنتاً فيما بين عامى ١٠١٢م و ١٠١٥م وكانت تدعى دوبرونيجا *Dobronega*(١١٨) . ولم تقتصر العلاقة بألمانيا عند حد المصاهرات فقط ، بل امتدت إلى العمل التبشيرى . فقد وصلت بعثة دينية إلى كييف برئاسة الراهب برون *Brun* من كويرفورت *Querfurt* فى عام ١٠٠٧م، وقد أقام هذا الراهب فى قصر فلاديمير لمدة شهر، وانتقل بعد ذلك برون إلى التبشير بين البشناق ، أعداء فلاديمير الألداء، وقضى بينهم ما يقرب من خمسة أشهر، وقد ذكر برون أنه تفاوض معهم بالنيابة عن فلاديمير لعقد معاهدة بينهم وبين فلاديمير(١١٩) .

---

(١١٣) *R.P.C.*, p. 119; Baumgarten, *Chronologie*, pp. 27-32; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 94-99; Pares, *Russia*, p. 30; Le Clerc, *La Russie*, pp. 169-171; Tyszkiewicz, S., " Moralistes de Russie ", *OCP*, 15 (1949), p. 349.

(١١٤) Vasiliev, *Old Russia*, p. 352.

(١١٥) *R.P.C.*, p. 138.

(١١٦) Baumgarten, *Généologie*, p. 67.

(١١٧) *R.P.C.*, p. 124; Karamsin, *Histoire*, p. 283 .

(١١٨) Baumgarten, *La dernier mariage*, p. 166 .
ينبغى أن نلاحظ أن هذا الزواج لم يتم فى عهد أوتو العظيم نفسه ، الذى توفى فى عام ٩٧٣م، ومن ثم فلا يمكن اعتباره زواجاً سياسياً بين بيتين حاكمين، ومع هذا فهو يدعم العلاقة بين البلدين .

(١١٩) Cross, S., " Medieval Russian Contacts with the West ", *SP*, 10 (1935), p.140.

أما محور ارتكاز سياسة فلاديمير مع أوربا فكان سياسته مـــع اسـكندنافيا . وليس أدل على ذلك من أن غالبية زوجاته كن من هناك ؛ وتنوعن مــا بيـن نسـاء عاديات وأميرات . فتذكر بعض المدونات التاريخية أن فلاديمير بعد توليه عرش مدينة نوفجورود تزوج من أميرة اسكندنافية تدعى أولافا Olawa(١٢٠)، ومـن المحتمـل أن دوبرانيا خال فلاديمير كان وراء هذا الزواج ، سعياً منه لتأمين عرش ابن أخته؛ لـهذا عمل على ربطه بموطن رأس أمه مالوشا الاسكندنافية الأصـل(١٢١) . كمـا تـزوج فلاديمير أيضاً من أميرة اسكندنافية أخرى تدعى أدلاجـو Adlague ، ومـن سـيدة اسكندنافية أخرى تدعى مالفريد Malfrede(١٢٢) .

وفى الواقع ، فإن سفياتوسلاف عندما ولى فلاديمير على عرش نوفجورود لـم يدر بخلده أنه قد سعى لربط ابنه بموطن رأس أمه ، ونظراً لأن مدينة نوفجورود كانت تحوى خليطاً من الفارانجيين والروس على حد سواء وأنها أولى المحطـات الشـمالية الواقعة على الطريق الكبير المؤدى إلى الشرق، فقد كانت مطروقة للفـارانجيين بـلاد قيود؛ وعلى الرغم من أنها تقع فى الأراضى الروسية، إلا أن بتولى فلاديمير حكمـها صار قلبها بين ضلوع فارانجية . كل هذه الظروف التاريخية والزيجات الاسـكندنافية لفلاديمير أعطته عوناً ودعماً عسكرياً تمكن به من الاستيلاء على كييف نفسـها بـل ويصبح أميراً عظيماً للروس . أما عن علاقة فلاديمير بمملكة النرويج فـهى ترجمـة لعلاقته وصداقته الحميمة لأولاف تريجويزون الذى صار ملكاً على النرويج فى عـام ٩٩٥م، وتعود أواصر الصداقة بين الاثنين إلى الفترة التى كان فيها فلاديمير حاكمـاً على نوفجورود ، وهى الفترة التى جاء فيها أولاف إلى بلاد الروس وكـان لا يـزال صبياً. وقد بدأت الصداقة بينهما على أثر احتماء أولاف بفلاديمير ، بعد قتلـه لأحـد القراصنة ويدعى كليركون Clircon، فقام فلاديمير بدفع فدية لأهـل القتيـل بينمـا انضوى أولاف فى خدمة فلاديمير ، فشارك معه فى نشاطاته العسكرية؛ وبلغت إقامـة

(١٢٠) Baumgarten, *Généologie*, p. 68; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 38.
(١٢١) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 38.
(١٢٢) Baumgarten, *Généologie*, p. 68.

أولاف فى بلاد الروس ما يزيد على العشر سنوات قضاها على مرتين[١٢٣]. ونظـــراً لأن أولاف نال الحظوة عند فلاديمير فإنه من المحتمل أن فلاديمير ساعده فى الحصول على عرش النرويج ، وهو ما تم بالفعل فى عام ٩٩٥، ومعنى هـــذا أن الاســـتعدادات الحربية لأولاف للاستيلاء على عرش النرويج قد تمت فى بلاد الروس[١٢٤] . وفى عام ٩٩٧م نقرأ عن إغارة قام بها الأمير النرويجى إيريك *Eric* على الســواحل الروســية الواقعة على البحر البلطى مخرباً مدينة لادوجا Ladoga، ويعزو أحد المؤرخين هـــذا الهجوم إلى روابط الصداقة التى تربط بين فلاديمير وأولاف ، والتى بفضلـــها تمكــن أولاف من الاستيلاء على عرش النرويج[١٢٥] . وجدير بالذكر أن الأمير إيريك وأخـــاه قد ناصبا أولاف تريجويزون العداء بعد اغتيال أبيهما الجارك هاقون *Hacon* فى عـــام ٩٩٥م، وقد ظل الصراع بينهم مشتعلاً على العرش حتى مصرع أولاف فى معركـــة سفولدير *Svolder* فى فاندلاند *Vandland* عام ١٠٠٠م[١٢٦] . على أية حال ، بعد قيام ايريك بهجومه على لادوجا انصرف بقواته عن بلاد الروس بعد أن هب له فلاديمـــير وتصدى له ، وعاد إلى بلاده لاستكمال صراعه مع غريمه أولاف تريجويزون[١٢٧].

على هذا النحو كانت سياسة فلاديمير مع القوى الأوربية المجـــاورة ، والتـــى يتضح منها أنه كان ميالاً إلى الغرب كميل أبيه سفياتوسلاف إلى الشرق ، كما أنه لـــم يكن تواقاً لقتال البيزنطيين كنهج أبيه ، أو توسيع رقعة بلاده علـــى حســـاب القـــوى المجاورة، وهى السياسة التى انتهجها الأمراء الروس الأوائل أمثال أوليـــج وايجـــور وسفياتوسلاف، فقد جمعت هؤلاء الأمراء الثلاثة الرغبة فى الاستيلاء على ما بـــأيدى جيرانهم ، بغض النظر عن مدى تناسب هذه السياسة مع الأوضاع السائدة حولهم؛ لكن فلاديمير جاء بسياسة مغايرة لهم ، فتمادى فى علاقاته مع البيوت الحاكمة حوله كبولندا

---

(١٢٣) Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 16-17, 40-41; Baumgarten, *Olaf Tryggwison*, pp. 17-25.

(١٢٤) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 117; Baumgarten, *Olaf Tryggwison*, p. 9 .

(١٢٥) Baumgarten, *Olaf Tryggwison*, pp. 17-18; Karamsin, *Histoire*, p. 284.

(١٢٦) Baumgarten, *Olaf Tryggwison*, p. 9.

(١٢٧) Karamsin, *Histoire*, p. 284.

واسكندنافيا وألمانيا وبوهيميا والمجر بل ومع الكروات أنفسهم والتشيك، أما بيزنطة فلم يرغب في القتال معها ، والمرة الوحيدة التي غزا فيها أراضي بيزنطية كانت بسبب عدم وفاء الإمبراطور باسيل الثاني بوعده له بتزويج الأميرة آنا بورفيروجنيتا منه، وما أن نال غرضه أعاد خرسون مرة ثانية إلى الإمبراطورية البيزنطية .

أيا كان الأمر ، تخبرنا الحولية الروسية الأولى أن فلاديمير قد مرض ومات في عام ١٠١٥م، بعد أن كتب عليه أن يشهد ثورة ابنه ياروسلاف عليه قبل مماته[١٢٨]، ومما ينبغي الإشارة إليه أن فلاديمير كان قد قسم حكم الإمارات الروسية بين أبنائه في أثناء حياته ، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى صراع دام بينهم عقب موت أبيهم[١٢٩] .

والآن وقد رقد جثمان فلاديمير في مثواه الأخير واشتعل الصراع بين الأبناء على العرش . فقد اغتال سفياتوبولك *Svyatopolk* ، ابن فلاديمير وأمير إمارة توروف *Tourov*[١٣٠] ، أخويه الشقيقين بوريس وجلب واغتصب عرش كييف . وعلى الفور أرسلت بريدسلافا *Predeslava* أخت ياروسلاف أمير نوفجورود رسالة تخبره فيها بما حدث، فقالت له : "رحل أبوك وقتل أخواتك" . وما أن وصلت الرسالة إلى ياروسلاف حتى فض نزاعا كان قد نشب بين النوفجوروديين وجنوده الفارانجيين[١٣١]وتوجه بقواته نحو كييف لمقابلة سفياتوبولك في ميدان الوغى في جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من نوفجورود وألف مقاتل فارانجي[١٣٢] . وعندما علم سفياتوبولك أن ياروسلاف في الطريق إليه، أعد جيشا كبيرا من الروس والبشناق[١٣٣]وسار صوب مدينة لوبيتش Lyubech الواقعة على?حدى ضفتي نهر الدنيبر وعسكر عندها؛ وقد وصل ياروسلاف الآن إلى ضفة نهر الدنيبر المقابلة لمدينة لوبيتش وعسكر في مواجهة سفياتوبولك، المرابض على الضفة الأخرى للنهر، ولم يجرؤ أي من الطرفين

---

(١٢٨) *R.P.C.* , p. 124; Baumgarten, *Chronolegie*, p. 33; Karamsin, *Histoire*, pp. 285-286 .

(١٢٩) انظر، *R.P.C.*, pp. 124-131; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 93-94; Le Clerc, *La Russie*, p. 168.

(١٣٠) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 93.

(١٣١) *The Chronicle of Novgorod 1016 - 1471*, Eng. Trans. R. Michell and N. Forbs, (London, 1914), pp. 1-2 .

(١٣٢) *Chron. Novgorod*, p. 1 .

(١٣٣) *R.P.C.*, p. 131.

على بدء الهجوم لمدة ثلاثة أشهر(١٣٤). ثم بدأ أحد قادة سفياتوبولك ويدعى ذيل الذئـــب *Walf's tail* يتحرش بالنوفجوروديين من قوات ياروسلاف موجـــهاً الإهانـــات لـــهم، وانتهى الأمر بأن عبر ياروسلاف وقواته إلى الضفة الأخرى للنهر ودفعوا القـــوارب بعيداً عن الشاطئ وتأهبا للمعركة الحاسمة ليلاً؛ ودارت رحى القتـــال بيـــن الطرفيـــن وكانت اليد العليا لياروسلاف والنصر حليفاً له، بينما فر سفياتوبولك إلى اللياخيين، بعد أن خذله البشناق في المعركة(١٣٥) . وفي الوقت الذي تذكر فيه حولية نوفجـــورود أن سفياتوبولك هرب إلى البشناق(١٣٦) تذكر الحولية الروسية الأولى أنه هرب إلى الليخيين (أي إلى الأراضي البولندية)(١٣٧) . إلا أن ما تذكره الحولية الروسية هـــو الصحيـــح ، لأنه لا يعقل أن يلجأ سفياتوبولك في ذلك الوقت إلى من خذلوه فـــي المعركـــة. ومـــن ناحية أخرى ، فإن الأحداث التالية ، والتي يستعين فيها سفياتوبولك بملك بولندا ، تثبت أنه هرب إليه وليس إلى البشناق . على كل حال ، نجح ياروسلاف في دخول كييـــف وتنصيب نفسه أميراً عليها وعلى بلاد الروس جميعاً . وبدأ في توزيع المكافآت علـــى جنوده بمقدار عشر جريفنات للضابط ، وجريفنا واحدة للجنـــدي مـــن بيـــن صفـــوف الفارانجيين، أما النوفجوروديين فقد وزع عليهم المكافآت بمقدار عشر جريفنات لكـــل فرد منهم، ثم سمح لهم بالعودة إلى نوفجورود(١٣٨) . على هذا النحـــو انتـــهت هـــذه المرحلة من الصراع الداخلي بين أبناء فلاديمير وانتهت بلجوء سفياتوبولك إلى صـــهره بوليسلاف ملك بولندا، يطلب منه العـــون العســـكري لاســـترداد كييـــف مـــن أيـــدي ياروسلاف، بينما أصبح ياروسلاف أميراً على البلاد في مارس من عام ١٠١٧م(١٣٩) .

ويبدو أن ياروسلاف قد أغار على الأراضي البولندية في ذلك العـــام ، لأننـــا نقرأ عن ذهابه إلى إحدى المدن البولندية وتسمى بيريستي *Beresti*(١٤٠) . وفـــي عـــام ١٠١٨م تهب رياح الانتقام من بولندا على كييف ، وتأتي الأنبـــاء إلـــى ياروســـلاف بتحرك ملك بولندا بوليسلاف ومعه رعاياه من الليخيين وبصحبة زوج ابنته سفياتوبولك صوب كييف لقتاله، فقام ياروسلاف بحشد قواته من الروس والفـــارانجيين والســـلاف

---

(١٣٤) *R.P.C.*, p. 131; *Chron. Novgorod*, p. 1.
(١٣٥) *R.P.C.*, p. 131-132; *Chron. Novgorod*, pp. 1-2.
(١٣٦) *Chron. Novgorod*, p. 2 .
(١٣٧) *R.P.C.*, p. 132 .
(١٣٨) *Chron. Novorod*, p. 2.
(١٣٩) *R.P.C.*, p. 253, n. 131.
(١٤٠) *Chron. Novgorod*, p. 2.

وخرج للقائهم . لكن كانت الغلبة لملك بولندا وسفياتوبولك ، فهرب ياروسلاف إلى إمارة نوفجورود ليتحصن بها لحين إعادة تجهيز الجيش لقتال سفياتوبولك[١٤١] .

وهنا دخل ملك بولندا بوليسلاف إلى كييف ، وأسر أفراد عائلة ياروسلاف وزوجته وأخواته وأرملة أبيه فلاديمير[١٤٢] . ويبدو أن بوليسلاف قد عاد إلى بلاده بعد أن أعاد تنصيب سفياتوبولك على عرش كييف . لكن الملاحظ هنا أن بوليسلاف قد استغل الفرصة جيدا التى واتته لفرض هيمنته على عرش كييف عن طريق زوج ابنته سفياتوبولك . ولا يمكننا الجزم ، هل كانت لاتصالات بوليسلاف مع الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى لإقامة أواصر الصداقة بين البلدين دور فى هذا أم لا ؟[١٤٣] .

وفى عام ١٠١٩م تقدم ياروسلاف بجيش كبير من نوفجورود صوب مدينة كييف وتمركز عند نهر ألتا، أحد فروع التروبيش ، لحين وصول سفياتوبولك الذى جاءه ومعه قوة كبيرة من البشناق . والتقى الجيشان عند سهل نهر ألتا ثلاث مرات حتى طفت الدماء فى الوادى . وقرب المساء انهزمت قوات سفياتوبولك الذى فر من الميدان إلى أرض الليخيين حيث مات فى المنطقة المقفرة الواقعة بين بولندا وبوهيميا[١٤٤] . وهكذا انتهى الصراع بين الأخوين وأصبح ياروسلاف أميرا لا على كييف فحسب بل على كل بلاد الروس[١٤٥] . كما أن ملك بولندا فقد حصانه الرابح الذى كان يقامر عليه فى كييف ولم يعد يملك سبيلا للرد على ياروسلاف ثانية وحتى وفاته .

وفى عام ١٠٣١م قام الأمير الروسى العظيم ياروسلاف بالاشتراك مع أخيه مستسلاف *Mstislav* بغزو بولندا ، على أثر ثورة نشبت هناك فى عام ١٠٣٠م . فقد ثار البولنديون وقتلوا الكثير من نبلائهم وكهنتهم وأساقفتهم[١٤٦]فى عهد ميسزكو الثانى *Mieszko II* ١٠٣٤م[١٤٧] . ودخلت القوات الروسية بولندا واستولت على مدينة

---

(١٤١) *R.P.C.*, p. 132.

(١٤٢) *Thietmari Merseburgensis Episcopi Chronicon*, ed. F. Kurze, Lib. IX, (Hannoverae, 1889), p. 258; Baumgarten, *La dernier mariage*, p. 166; Halecki, O., " La pologne et l'empire byzantine ", *B*, 7 (1932), p. 44 .

(١٤٣) Halecki , *La pologne*, p. 44.

(١٤٤) *R.P.C.*, p. 133; Pares, *Russia*, p. 30 .

(١٤٥) *R.P.C.*, p. 135 .

(١٤٦) *R.P.C.*, p. 136 .

(١٤٧) *R.P.C.*, p. 257, n. 158 .

تشيرفن *Cherven* مخربة الريف البولندى، وقد أسروا كثيراً من البولنيين *Poles* الذين وزعهم ياروسلاف على ولاياته المختلفة[١٤٨] . ولا تقدم لنا المصادر التاريخية شواهد تاريخية تسمح باستنتاج الأسباب التى دعت ياروسلاف إلى أن يغزو بقواته بولندا ومع هذا يمكننا أن نفترض إما أنه غزا بولندا كرد فعل لغزو ملكها بوليسلاف لكييف وعزله لياروسلاف من قبل، أو أن ميسزكو الثانى ملك بولندا ربما استعان به لإخماد ثورة البلاد خاصة ما سنراه من تقارب بعد ذلك بين كازيمير *Casimir* ابن ميسزكو الثانى وياروسلاف نفسه . فقد تزوج كازيمير نحو عام ١٠٣٨م من الأميرة مارى دوبرونيجا *Marie-Dobroniega* أخت ياروسلاف وابنة فلاديمير من زوجته الألمانية، ابنة أوتو العظيم[١٤٩] . وكهدية للزواج قام كازيمير بتسليم الأسرى الروس الذين كان بوليسلاف قد أسرهم عند دخوله كييف بصحبة زوج ابنته سفياتوبولك، وكان عددهم ثمانمائة أسير[١٥٠] .

على كل حال، لم تقف العلاقات الروسية – البولندية عند حد زواج كازيمير الأول، ملك بولندا ١٠٤٠ – ١٠٥٨م، من الأميرة مارى دوبروينجا الروسية بل نقرأ عن زواج آخر تم فى عام ١٠٤٣م بين ازياسلاف *Izyaslav* بن ياروسلاف وبين الأميرة جيرترود البولندية *Gertrude* ابنة ميسزكو الثانى[١٥١]. ومن هذه الزيجات السياسية التى تمت بين البيتين الحاكمين فى كييف وبولندا يمكننا القول أن كلاً من الطرفين كان بحاجة إلى الآخر، لاسيما وأن هذا الزواج الأخير قد تم فى العام الذى شن فيه الروس حملة على القسطنطينية . ويذكر المؤرخون أن زواج كازيمير من أخت الأمير الروسى ياروسلاف كان يهدف إلى تقوية مركز الأمير البولندى فى بلاده على أثر الثورة الشعبية التى قامت فى البلاد فى عام ١٠٣٤م وأطاحت به[١٥٢] . وممـا

تذكر الحولية الروسية (*R.P.C.*, p. 136) خطأً أن الثورة قامت بعد وفاة بوليسلاف مباشرة فى عام ١٠٣٠م . لكن الصحيح أن بوليسلاف مات في عام ١٠٢٥م ، وأن هذه الثورة نشبت فى عهد ميسزكو الثانى ، فى عام ١٠٣٤م . انظر ، *R.P.C.*, p. 257, n. 158.

(١٤٨) *R.P.C.*, p. 136 .

(١٤٩) *R.P.C.*, p. 139; Baumgarten, *Généologie*, p. 71; Pares, *Russia*, p. 32; Rambaud, *La Russie*, p. 63 .

(١٥٠) *R.P.C.*, pp. 138-139 .

(١٥١) Baumgarten, *Généologie*, p. 71.

(١٥٢) *R.P.C.*, p. 261, n. 176.

تولى كازيمير الأول الحكم بعد وفاة أبيه ميسزكو الثانى ، وكان لا يزال قاصراً ، فتولت الوصاية عليه أمه رينشيزا *Richeza* ، ابنة أخ أوتو الثالث ، إمبراطور ألمانيا . وقد أطاحت به ثورة شعبية نشبت فى البلاد، فر على أثرها من البلاد ، وتمكن بمساعدة هنرى الثالث ، إمبراطور ألمانيا ، أن يسترد عرشه فى عام ١٠٤٠م ، وحكم بولندا حتى توفى فى عام ١٠٥٨م. انظر، *R.P.C.*, p. 257,n.158.

يؤكد حرص كازيمير الأول على حسن علاقاته بالأمير الروسى ياروسلاف أننا نقرأ عن هجوم قام به ياروسلاف على إحدى القبائل التى تدعى المازوفيان *Mazovians* ، والتى تخضع لسلطان كازيمير، فى عام ١٠٤٦م-١٠٤٧م . وقد تمكن ياروسلاف من اخضاع المازوفيين وقتل أميرهم المسمى مويسلاف *Moislav* وأخضعهم ثانية لسلطان كازيمير(١٥٣) . وهكذا لولا المصاهرة السياسية التى تمت بين بولندا وكييف ما كان لكازيمير أن يستعين بياروسلاف ضد أعدائه. وإذا كان ياروسلاف قد حرص على كسب بولندا إلى صفه فى عهد كل من ميسزكو الثانى وابنه كازيمير الأول، فإنه أيضاً كان حريصاً على تقوية علاقاته مع الدول الأوربية، أو بقول آخر أن ياروسلاف انتهج نهج أبيه فلاديمير فى سياسته الغربية، بل عمل على تقويتها عن طريق المصاهرات العائلية مع الأسر الحاكمة فى هذه الدول . ففى عام ١٠٤٣م تزوج فلاديمير أمير نوفجورود من إدا الالستوربية *Ida of Ehlstorpe* ، وفى عام ١٠٥٠م تزوج سفياتوسلاف الثانى بن ياروسلاف من ابنة الكونت إيثلير *Ethler* الألمانى(١٥٤) . وبطبيعة الحال فإن مثل هذه الزيجات ذات الطابع السياسى مع أسر ألمانية عريقة ، كانت تهدف إلى توطيد العلاقات السياسية بين كييف وبين ألمانيا، أو لإحداث توازن بين العلاقات الروسية - الألمانية والعلاقات البولندية - الألمانية .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نقرأ عن زيجات سياسية تمت بين آل أرباض المجريين *Arpades* وبين كييف . فقد تزوج لاديسلاس الأول *Ladislas I* ملك المجر من الأميرة بريميسلافا الكييفية، كما تزوج أندرو الأول *Andrew I* ملك المجر من الأميرة أناستازيا *Anastasia* الكييفية فى عام ١٠٤٦م(١٥٥) . ولا تمدنا المصادر التاريخية بالشواهد التى تساعدنا على معرفة الأسباب التى دفعت بكييف والمجر إلى إتمام مثل هذه الزيجات السياسية، لكن يمكننا القول أن مثل هذه الزيجات السياسية قد أقرت الأوضاع الأمنية على الحدود الروسية مع الممالك والدول المجاورة . وفى سلسلة المصاهرات السياسية بين كييف والدول الأوربية المجاورة قام ياروسلاف بالموافقة على زواج الأميرة آنا *Anna* الكييفية من الملك هنرى الأول (١٠٣١-١٠٦٠م) ملك فرنسا، وقد تم هذا الزواج فى التاسع عشر من شهر مايو من عام

---

(١٥٣) *R.P.C.*, p. 139.

(١٥٤) Baumgarten, *Généologie*, p. 67.

١٠٥١م[١٥٦] . وإذا كانت المصادر التاريخية لم تقدم لنا الشواهد التى تساعدنا أيضا على معرفة الدوافع الكامنة لمثل هذا الزواج فلابد لنا أن نقف عند التاريخ الذى تم فيه هذا الزواج ١٠٥١م، أى قبل وفاة ياروسلاف بثلاث سنوات .

يمكننا القول أن بلاد الروس قد بلغت ذروة حضارتها آنذاك فى عهد ياروسلاف الذى أحدث نهضة علمية ومعمارية فى البلاد، حيث قام بإنشاء الكنائس والكاتدرائيات، كما أنشأ المدارس واهتم بترجمة الكتب من اليونانية إلى السلافية ونسخها، كما أقام له القصور ذات البوابات الذهبية على الطراز البيزنطى، وكنيسة خاصة بأمير الروس أسماها آياصوفيا زينها بالزخارف والمناظر الطبيعية ومناظر الصيد وغيرها، كما اهتم بإنشاء الأديرة فى شتى المدن الروسية وكذلك القلاع الحربية[١٥٧]؛ والأهم من كل هذا أنه أنشأ مطرانية روسية تماما مستقلة عن بيزنطة، فيذكر التاريخ أنه فى عام ١٠٥١م عين الأسقف الروسى هيلاريون *Hilarion* مطرانا للروس فى كنيسة آيا صوفيا بكييف[١٥٨] . وبهذا استقلت الكنيسة الروسية عن الكنيسة البيزنطية رسميا ، ولا يعنى هذا انعدام التأثير البيزنطى عليها حتى وهى مستقلة عنها. والآن ألا يعنى هذا المستوى الحضارى الذى بلغته بلاد الروس، بزعامة كييف فى عهد ياروسلاف أنها أصبحت دولة جديرة بأن يخطب ودها الملوك المجاورون ! لعل افتراضنا هذا يحمل شيئا من الصحة لاسيما وأن ملوك الدول المجاورة كبولندا والمجر وفرنسا هم الذين سعوا للارتباط بالبيت الحاكم فى كييف .

أما عن علاقات ياروسلاف بالبابوية فلا توجد دلائل مباشرة عنها إلا أنها نتيجة عاملين هامين ، أولهما : توتر العلاقات الكنسية بين كييف والقسطنطينية[١٥٩]، والذى نجم عنه تعيين ياروسلاف لمطران روسى الأصل لكل بلاد الروس فى كنيسة آيا صوفيا بكييف فى عام ١٠٥١م ، وثانيهما: أن معظم زيجات أبناء وبنات ياروسلاف كانت من أمراء وملوك يدينون بالمسيحية على المذهب الكاثوليكى، ربما كانت هناك

---

(١٥٦) Baumgarten, *Généologies*, p. 71; Pares, *Russia*, p. 32; Rambaud, *La Russie*, p. 63; Cross, *Contacts*, p. 139 .

(١٥٧) انظر ، *R.P.C.*, pp. 136-139; Pares, *Russia*, p. 31; Baumgarten, *Chronologie*, pp. 33-41.

(١٥٨) *R.P.C.*, p. 139; Baumgarten, *Chronologie*, pp. 40-41.
جدير بالذكر أن ثيوبمبتوس كان مطرانا على الروس قبل هيلاريون . وقد تغير اسمه إلى ثيوبمبتوس الروس *Θεοπέμπτος 'Ρωσίας* بناء على المرسوم الصادر من سينودوس القسطنطينية الثانى عشر.
انظر، Soloviev, A.," Metropolitensiegel des Kiewer Russlands ", *BZ*, 55(1962), p. 293.

(١٥٩) Baumgarten, *Chronologie*, p. 40 .

محاولات بابوية للحصول على موضع قدم لها فى الكنيسة الروسي، ومما يساعدنا على توكيد هذا وجود البعثة البابوية التى أرسلت إلى القسطنطينية فى عام ١٠٥٤م ، والتى تسببت فى الشقاق الأعظم بين كنيستى روما والقسطنطينية آنذاك ، فى كييف بعد موت ياروسلاف فى عام ١٠٥٤م(١٦٠) .

أما عن علاقة ياروسلاف باسكندنافيا فقد سارت على نهج فلاديمير أيضا، فقد تزوج ياروسلاف بابنة ملك السويد أولاف ، والتى كانت تدعى انجيوجيورد *Inguiguerde* فى عام ١٠١٩م(١٦١)، ويبدو أن ياروسلاف قد تزوجها عندما كان فى نوفجورود فى عام ١٠١٩م يجمع قواته ليزحف بها صوب سفياتوبولك فى كييف. وفى عام ١٠٤٤/١٠٤٥م تزوج ملك النرويج هارولد هاردرادا *Harold Hardraada* من الأميرة اليزابيث الكييفية(١٦٢) . وتعود العلاقات بين ياروسلاف وهارولد هاردرادا إلى ما قبل عام ١٠٤٤م ، عندما عاش فى بلاط ياروسلاف فترة من الوقت علم ١٠٣١م ؛ ومن المحتمل انه اشترك مع ياروسلاف فى حملته على بولندا فى عام ١٠٣١م، ثم غادر البلاد متجها إلى القسطنطينية بصحبة رفاقه، والتى وصلها فى عام ١٠٣٤م فى عهد الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤-١٠٤١م) للعمل فى خدمته ضمن الحرس الفارانجى الموجود بالقسطنطينية (١٦٣) . وقد ظل يعمل فى خدمة بيزنطة إلى أن قرر العودة إلى بلاده، ويبدو أنه ورفاقه قضوا شتاء ١٠٤٤/١٠٤٥م مع ياروسلاف فى نوفجورود حيث تزوج الأميرة اليزابيث هناك أثناء ذلك الشتاء(١٦٤) . لقد نجح ياروسلاف فى جعل نفسه شخصية حاكمة أوربية الطابع ، مرغوبة بين الأسر الحاكمة فى الممالك والدول المحيطة به، أو على حد تعبير المؤرخ الأمريكى كروس *Cross* "

---

(١٦٠) Cross, *Contacts*, pp. 140-141.

(١٦١) Baumgarten, *Généologies*, p. 68; Cross, *Contacts*, p. 138 .

(١٦٢) Baumgarten, *Généologies* , p. 68 .

(١٦٣) انظر، Shepard, J., "A Note on Harold Hardraada: The Date of his Arrival at Byzantium ", *JOB*, 22 (1973), pp. 145-150; Ostrogorsky, *Byz. State*, p. 293; Hendy, M., " Michael IV and Harold Hardrada ", *Nusmatic Chronicle, Ser 7,* 10. (London, 1970), pp. 187-197; reprinted also in: *The Economy, Fiscal Administration and Coinage of Byzantium*, (Northampton, 1989).

يطلق كيكومينوس على هارولد هاردرادا اسم : *'Αράλατης βασιλέως μεν Βαραγγίας ῆν υἱός.* see, *Cecaumeni Strategicon*, ed. B. Wassiliewsky and V. Jernstelt, (Amesterdam, 1965), p. 97.

(١٦٤) Hendy, *Michael IV*, p. 144; Shepard, *Harold*, p. 149, n. 28 .

لقد استطاع ياروسلاف من خلال المصاهرات السياسية التى عقدها أن يجعل من نفسه شخصية أوربية ذات مكانة جديرة بالإقدام "[١٦٥] .

والآن ماذا عن علاقته بالإمبراطورية البيزنطية ؟ هل انتهج معها سياسة أبيه أم سياسة أجداده ؟

" كانت قلة الحذر والحرص هى السبب المباشر فى قتال البرابرة ، وهى الحرب التى أعقبت اخماد ثورة جورج مانياكس *G. Maniaces*"[١٦٦] ، بهذه الكلمات يبدأ ميخائيل بسللوس حديثة عن حملة الروس الأخيرة على القسطنطينية والتى وقعت فى عام ١٠٤٣م[١٦٧]، أما كدرينوس فيقول " فى نفس ذلك العام تمردت أمة الروس على الرومان، وكانت الأوضاع بين الطرفين سلمية وكانت هناك علاقات وتبادلات تجارية بينهما حتى ذلك الوقت "[١٦٨]. أما مؤلف حولية نوفجورود فيقول " سار فلاديمير بن ياروسلاف ضد اليونانيين"[١٦٩]. ويبدأ ميخائيل جليكاس حديثه بالقول "تحت حكم هذا الإمبراطور (قسطنطين مونوماخوس) هاجم السكيذيون، وهم الروس، المدينة الإمبراطورية بأسطول عظيم عندما سنحت لهم الفرصة لعمل ذلك "[١٧٠] . أما إفرايموس الراهب فلم يقل سوى أن "أسطول الروس زحف نحو بيزنطة وعلى متنه قوات كثيفة العدد وهى التى هلكت جميعا فى القتال البحرى"[١٧١] . ويبدأ الراهب نسطور حديثه عن هذه الحملة بقوله : "فى عام ١٠٤٣م أرسل ياروسلاف ابنه فلاديمير ليهاجم اليونان (أى بيزنطة) بقوة كبيرة.."[١٧٢] . وقد تحدث المؤرخ العربى ابن الأثير أيضا عن هذه الحملة[١٧٣] ، كما أشار إليها كل من المؤرخ السريانى ابن العبرى[١٧٤] ، والمؤرخ العربى العظيمى الحلبى[١٧٥] ، والمؤرخ البيزنطى ميخائيل أطالياتس[١٧٦] .

---

(١٦٥) Cross, *Contacts*, p. 139.

(١٦٦) عن ثورة مانياكس ، انظر ، Psellus, M., *Chronographia*, Eng. trans. E.R. Sewter, (Pengiun Books, 1966), pp. 192-198, 385-386; *Cedrenus*, II, pp. 545-549; Attaliotae, M., *Historia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1853), pp. 12-19.

(١٦٧) *Psellus*, p. 199.

(١٦٨) *Cedrenus*, II, p. 551.

(١٦٩) *Chron. Novgorod*, p. 3.

(١٧٠) *Michaelis Gylcae Annalium*, in: *Opera Omnia*, ed. J. P. Migne, *PG*, tome 158, (Turnholti, 1966), Col. 594.

(١٧١) *Ephraemus*, col. 125.

(١٧٢) *R.P.C.*, p. 138.

(١٧٣) ابن الاثير ، *الكامل* ، جـ٩ ، ص ٣٩ .

(١٧٤) ابن العبرى ، *تاريخ الزمان* ، ص ٩٤ .

(١٧٥) العظيمى ، *تاريخ العظيمى* ، نشرة / على سويم ، (انقرة ، ١٩٨٨) ، ص ٤ .

إن هذا الحشد من الروايات التاريخية عن هذا الهجوم ليشير إلى أهمية الحدث الذى وقع وذيوع أمره بين الأمم ، فاستحق أن يسجله المؤرخون الروس والبيزنطيون والعرب والسريان وغيرهم . فماذا عن هذا الهجوم ؟

يعتبر المؤرخان البيزنطيان بسللوس وكدرينوس هما المصدران الأساسيان للحديث عن هذه الحملة ، ومن دونهما من المؤرخين لم ترق كتاباته إليهما، ولهذا قد يكون من المفيد أن نستخدم روايتيهما أثناء حديثنا عن هذه الحملة مع إضافة ما يمكن إضافته من المصادر الأخرى .

يقول بسللوس "جاءت المراكب الروسية ، والتى كانت هائلة العدد لدرجة يصعب معها حصرها إلى البروبونتس واحتلت مداخله، فكانت هذه المراكب أشبه بالغمامة التى جاءت من البحر لتكسوا المدينة بالظلام"[١٧٧] . ويشير بعض المؤرخين إلى أن عدد المراكب الروسية كان سبعمائة مركب[١٧٨] ، بينما يذكر أطالياتس أنها كانت أربعمائة مركب[١٧٩] . وهذه المراكب كانت تحمل ما يقرب من مائة ألف مقاتل حسب تقدير كدرينوس[١٨٠]، لكن هذا التقدير مبالغ فيه بكل تأكيد . ومن الممكن استنتاج عدد القوات الروسية بالتقريب بناء على ما يلى : يذكر نسطور أن قوات فلاديمير التى نزلت إلى الشاطئ على أثر العاصفة التى هبت عليهم ودمرت مراكبهم ، فى المرحلة الثانية من القتال ، كانت ستة آلاف[١٨١] . بينما يذكر كدرينوس أن القوات الروسية التى هلكت فى المعارك بين الطرفين ، بدءا من المرحلة الأولى وحتى هبوب العاصفة على الروس كانت خمسة عشر ألفا[١٨٢] . فتكون جملة القوات حتى الآن واحد وعشرين ألفا، ولابد لنا أن نضيف?ليهم بضعة آلاف من الجند الذين نجوا من القتال وعادوا إلى بلادهم ، وهم ليسوا بالكثرة التى تجعل التقدير يقفز بعيدا . على هذا ، فمن المحتمل أن تعداد القوات الروسية كان يتراوح ما بين عشرين ألفا ، حسب تقدير المؤرخ الإنجليزي جوناثان شبرد[١٨٣]، وواحد أو اثنين وعشرين ألفا حسب تقديرنا،

---

(١٧٦) *Attaleiates*, **pp. 20-21.**

(١٧٧) *Psellus*, **p. 199.**

(١٧٨) *العظيمى* ، ص ٤ .

(١٧٩) *Attaleiates*, p. 20.

(١٨٠) *Cedrenus*, II, p. 551.

(١٨١) *R.P.C.*, p. 138.

(١٨٢) *Cedrenus*, II, p. 553.

(١٨٣) Shepard, J., " Why did the Russians attack Byzantium in 1043? ", *BNJbb*, 22 (1979), pp. 157-158.

ومع هذا يظل تقدير القوات الروسية فى حملة ١٠٤٣م محل افتراض وتخمين وتقديرنا محل نقد وتصحيح من الآخرين .

على كل حال، تحرك الأسطول الروسى[١٨٤] وظهر فجأة بصورة لم يتوقعها البيزنطيون فى البروبونتس، وهذا ما يؤكده ميخائيل أطالياتس حيث يشير إلى الهلع والرعب الشديد الذى أصاب البيزنطيين عندما فوجئوا بالمراكب الروسية وأنهم لم يكونوا على أهبة الاستعداد لمثل هذا الحدث[١٨٥] . ويشير بسللوس إلى أن الروس قد استعدوا لهذا الهجوم سرا[١٨٦] . وإزاء الظهور المفاجئ للروس فى البروبونتس ووصول الأنباء إلى الإمبراطور ، قام الأخير بإرسال رسله إلى فلاديمير للتفاوض معه طالبا منه أن يغمد سلاحه ولا يفسد العلاقات الحسنة بين البلدين كما أبدى استعداده لتعويضه عن الخسائر التى لحقت بالروس[١٨٧] . ويؤكد ابن الأثير على هذه المراسلات بين الطرفين إلا انه يذكر أن الروس هم الذين بدأوا بمراسلة الإمبراطور البيزنطى قسطنطين مونوماخوس[١٨٨]، إلا أن الأمير الروسى فلاديمير رفض عروض الإمبراطور البيزنطى ، بل وخاطب سفراء الإمبراطور بوقاحة؛ عندئذ أدرك الإمبراطور أنه لا جدوى من التفاوض مع فلاديمير وأخذ يعد العدة لقتاله[١٨٩] .

اتخذ الإمبراطور قسطنطين إجراءات عسكرية فورية للاستعداد لقتال الروس، فارتفعت رايات الحرب فى المدينة[١٩٠] ، وأخذ المبلغون يعلنون فى المدينة عن الحرب ضد الروس[١٩١]؛وقام الإمبراطور البيزنطى بالقبض على الروس الموجودين فى القسطنطينية ، خشية تواطؤهم مع ذويهم أثناء القتال[١٩٢]، وبعث بهم إلى الثيمات النائية وهم تحت الحراسة إلى أن تضع الحرب أوزارها[١٩٣]. وحشد الإمبراطور كل ما تيسر له من القوات ومن سكان القسطنطينية وجعلهم على سفن حربية ومراكب خفيفة ،

---

(١٨٤) يشير المؤرخون البيزنطيون إلى أن مراكب الروس كانت مصنوعة من جذوع الأشجار التى تم قطعها وتجويفها، وكانت متباينة فى الحجم منها الكبير ومنها الصغير . انظر ،
Psellus, p. 200; *Cedrenus*, II, p. 551.

(١٨٥) *Attaleiates*, p. 20.

(١٨٦) *Psellus*, p. 200.

(١٨٧) *Cedrenus*, II, p. 551.

(١٨٨) ابن الأثير ، *الكامل* ، جـ٩ ، ص ٣٩ .

(١٨٩) *Cedrenus*, II, p. 551; *Psellus*, p. 20.

(١٩٠) *Psellus*, p. 200.

(١٩١) *Psellus*, p. 201.

(١٩٢) *Cedrenus*, II, p. 551.

(١٩٣) Finlay, *Greece*, II, p. 435.

وانطلق بهم إلى الميناء[١٩٤] ؛ كما صحبه برا عدد لا بأس به من الفرسان[١٩٥]، وبعد تأمين السواحل انطلق الإمبراطور بقواته وسفنه ، وقد ركب سفينته الملكية لمقابلة العدو فى الميناء . ويذكر أطالياتس أنه زود سفنه بالنيران الإغريقية ، كما أمر قواته بإطلاق الصيحات المدوية والهتافات لإرهاب العدو[١٩٦] . وقد اصطفت سفن وقوات الإمبراطور عند أحد جانبى الميناء بينما مراكب فلاديمير عند الجانب الآخر دون اشتباك ، حتى بدأت الشمس فى الغروب[١٩٧] . وهنا قرر الإمبراطور مراسلة فلاديمير مرة ثانية ليعرض عليه عقد سلام بينهما، إلا أن فلاديمير أساء معاملة رسل الإمبراطور أيضا ووضع شروطا مجحفة للسلام ، كان على الإمبراطور بمقتضاها أن يدفع له تعويضا بواقع ثلاثة جنيهات ذهبية عن كل جندى من جنود أسطوله[١٩٨]؛ الأمر الذى قوبل بالرفض من قبل الإمبراطور والاستعداد لخوض المعركة . ويعلق بسللوس على شروط فلاديمير للسلام بقوله: " أنهم كانوا يتصورون أن هناك ينابيع ذهب تعم ممتلكاتنا .. وأنهم بتعمد منهم وضعوا شروطا مستحيلة التنفيذ، وذلك حتى يصير لديهم مبرر مقبول ظاهريا للاستمرار فى الحرب .. وقد اعتقدوا أن بأعدادهم الكثيفة سوف يجبرون المدينة وسكانها على الاستسلام"[١٩٩] .

على كل حال ، اصطفت السفن الإمبراطورية بقيادة الإمبراطور نفسه عند أحد جانبى الميناء بينما نظم الروس مراكبهم على شكل سلسلة بحرية متصلة الحلقات فى هيئة نصف دائرية ، وقد أصبحوا على أهبة الاستعداد للهجوم . وإزاء رفض فلاديمير عروض السلام أعطى الإمبراطور الإشارة لبدء القتال، فتحركت سفينتان كبيرتان[٢٠٠] من قطع الأسطول البيزنطى إلى الأمام صوب العدو ، فى تناسق بديع، بعد أن حملتا بحملة الرماح ورماة الأحجار وقاذفى النيران الإغريقية . وقد ابتلع الروس هذا الشوك البيزنطى، فما أن رأوا هاتين السفينتين بمفرديهما حتى انفرط عقد المراكب الروسية التى أسرعت بالتجمع حول السفينتين وانقسموا إلى مجموعتين تحاصر كل منهما واحدة من السفينتين، وأخذت القوات البيزنطية تمطرهم بالأحجار والنيران الإغريقية فى

---

(١٩٤) *Cedrenus*, II, p. 552; *Attaleiates*, p. 20.

(١٩٥) *Cedrenus*, II, p. 552.

(١٩٦) *Attaleiates*, pp. 20-21.

(١٩٧) *Psellus*, pp. 201-202.

(١٩٨) *Cedrenus*, II, p. 552; *Psellus*, p. 200; Court, *La Russie*, p.125.

(١٩٩) *Psellus*, pp. 200-201.

(٢٠٠) يذكر كدرينوس أن السفن التى تحركت كانت ثلاثا (*Cedrenus*, II, p. 552) ، إلا أن بسللوس كان شاهد عيان على الأحداث، على حد قوله، انظر، *Psellus*, pp. 201-202.

الوقت الذى كان يحاول فيه الروس ثقب السفينتين عن طريق وخزها بأعمدة طويلة . وقد اشتد الرماة البيزنطيون فى إمطار الروس بالأحجار حتى عجزوا عن الرؤية، فبدأوا فى الانسحاب إلى الداخل للعودة إلى رفاقهم بعد أن فقدوا الأمل فى أسر السفينتين[٢٠١] ، وبعد أن أفقدهم البيزنطيون سبعا من مراكبهم بفعل النيران الإغريقية وأسروا ثلاثا منها بالإضافة إلى عشرات القتلى الروس[٢٠٢] .

على هذا النحو تنتهى المرحلة الأولى من المعركة ، وكان النصر فيها للإمبراطور البيزنطى . ويشير كدرينوس إلى أن القوات البيزنطية البرية هاجمت الروس أيضا فى هذه المرحلة وأوقعت فيهم خسائر فادحة، لدرجة أن عدد القتلى بلغ خمسة عشر ألفا من الروس على طول الساحل؛ وقد قامت القوات البيزنطية بتجريد القتلى الروس من متاعهم وأسلحتهم وغنموا غنائم كثيرة[٢٠٣] .

وتبدأ المرحلة الثانية من القتال بإعطاء الإشارة لأربع وعشرين سفينة بيزنطية[٢٠٤] للتحرك صوب الروس ومطاردتهم . ونظرا للإرهاق الذى أصاب طاقم السفن من طول الملاحقة والمطاردة، واختباء الروس فى مواضع كثيرة فى الميناء، خرج الروس بكامل طاقتهم لتطويق السفن البيزنطية، وتمكن الروس من تطويق السفن البيزنطية، حتى فشل البيزنطيون فى إيجاد مخرج لهم من هذه الحلقة؛ عندئذ اشتبك البطريق كابللوروس *Caballurus*، قائد أسطول الكبيريوت بسفينته وبصحبته عشر سفن أخرى مع الروس فى قتال عنيف أسفر عن مصرعه واستيلاء الروس على أربع سفن بيزنطية بما فيهم سفينة القيادة ، وقتلوا جميع من كان عليها من البيزنطيين . وقد تحطمت بعض السفن البيزنطية على أثر اصطدامها ببعض الصخور ، بينما عاد البعض الآخر إلى القاعدة . وإزاء هذا الفوز المباغت قرر الروس العودة إلى بلادهم[٢٠٥]، لكن شاءت الأقدار ألا تنكس بيزنطة رأسها أمام الروس فهبت رياح عاصفة على الروس فى ذلك الوقت فانفرط عقدهم ، وتبعثرت مراكبهم محطمة على الشواطئ المنحدرة والصخور، وهنا تحولت الهزيمة البيزنطية إلى نصر غير موضوع فى الحسبان ، ودار القتال بين الطرفين ؛ وبلغ من كثرة القتلى أن اصطبغت مياه البحر باللون الأحمر، وقد استولى البيزنطيون على بعض المراكب الروسية بينما تحطم

(٢٠١) *Psellus*, p. 202; *Attaleiates*, pp. 20-21.

(٢٠٢) *Cedrenus*, II, p. 553; *Attaleiates*, p. 21.

(٢٠٣) *Cedrenus*, II, p. 553.

(٢٠٤) يذكر نسطور أنهم كانوا أربع عشرة سفينة . انظر ، *R.P.C.*, p. 138.

(٢٠٥) *Cedrenus*, II, p. 254.

الكثير منها على الشواطئ المنحدرة والصخور، كما سبق القول[٢٠٦]. وإزاء هذه العاصفة وتحطم كثير من المراكب الروسية، نزلت القوات الروسية التى كانت تحت قيادة فلاديمير وكان قوامها ستة آلاف إلى الشاطئ؛ بينما ركب هو أحد المراكب الروسية بعد تحطم مركبه رافضا النزول معهم إلى الشاطئ. وقد قاد قائده فيشاتا *Vÿshata* هذه القوات برا للعودة إلى بلاده[٢٠٧] . لكن القوات البيزنطية البرية هاجمتهم بقيادة كاتاكالون كيكومينوس *Catacalon Cecaumenos*، حاكم الإقليم المجاور لنهر الدانوب عند مدينة فارنا *Varna* وانتصر عليهم وأسر منهم ثمانمائة ، أرسلهم مكبلين إلى القسطنطينية[٢٠٨] . وقد كان فيشاتا من ضمن الأسرى الذين يقول نسطور أن الإمبراطور فقأ أعين الكثير منهم[٢٠٩]، بينما يذكر ابن العبرى أن أياديهم اليمنى قد بترت[٢١٠]. أيا كان الأمر، كان هذا هو مصير القوات الروسية التى اتخذت البر سبيلا للعودة إلى بلادها، بينما تمكن فلاديمير من الهرب بحرا والعودة إلى بلاده بسلام[٢١١].

على هذا النحو ينتهى الهجوم الروسى الأخير على القسطنطينية فى عام ١٠٤٣م. وعلينا الآن أن نبحث فى الأسباب والدوافع التى أدت إليه . ولنبدأ أولا بالأسباب التى يطرحها المؤرخون البيزنطيون، يذكر كدرينوس بوضوح تام أن مشادة وقعت فى القسطنطينية آنذاك قتل على أثرها أحد التجار الروس، كما يصف قائد الروس فلاديمير بأنه كان عصبى المزاج حاد الطبع فاندفع بسرعة للإنتقام[٢١٢]. أما ميخائيل بسللوس فيذكر سببا آخر غير ذلك، حيث يقول أن الروس كان يكنون كرها عميقا للبيزنطيين، وفى كل فرصة ممكنة يختلقون ذريعة ما لشن الحرب ضد بيزنطة[٢١٣]، وبهذا يجعل من كره الروس للبيزنطيين سببا مباشرا لهذه الحرب. هذه هى الأسباب التى يقدمها المؤرخون البيزنطيون لهذا الحدث، بينما صمتت المصادر الروسية عن هذا الأمر . وهناك إشارة عند ميخائيل جليكاس قد تؤكد السبب الذى أورده كدرينوس ، فهو يذكر " أن الروس شنوا هذا الهجوم عندما سنحت لهم فرصة

---

(٢٠٦) *Psellus*, pp. 202-203.
(٢٠٧) *R.P.C.*, p. 138.
(٢٠٨) *Cedrenus*, II, p. 554. ابن الاثير ، *الكامل* ، جـ٩ ، ص ٣٩
(٢٠٩) *R.P.C.*, p. 138; Rambaud, *La Russie*, p. 62.
(٢١٠) Court, *La Russie*, p. 126 . ابن العبرى ، *تاريخ الزمان* ، ص ٩٤ ؛
(٢١١). *R.P.C.*, p. 138.
(٢١٢) *Cedrenus*, II, p. 551; Finlay, *Greece*, II, p. 435.
(٢١٣) *Psellus*, p. 199.

ضئيلة"[٢١٤]. ولا بد أن ميخائيل جليكاس كان يعنى بهذه الفرصة، مقتل التاجر الروسى فى القسطنطينية، والذى كان خير ذريعة لكييف لشن الحرب على القسطنطينية. أما السبب المباشر الذى أورده ميخائيل بسللوس فهو غير منطقى، لأن كدرينوس يؤكد فى بداية كلامه على أن العلاقات كانت تسير بصورة طيبة بين الطرفين، وحركة التجارة بينهما كانت قائمة[٢١٥]؛ ومع ذلك فقد أورد عبارة "...وفى كل فرصة ممكنة " والتى تتطابق مع عبارة جليكاس "...عندما سنحت لهم فرصة ضئيلة " ليؤكدا معا السبب الذى أورده كدرينوس . وطبقا لرواية كدرينوس فإن الحرب نشبت بسبب مقتل التاجر الروسى . ولكن لنعد إلى الوراء قليلا إلى عام ١٠٢٤م حيث يخبرنا كدرينوس نفسه أن أحد الأمراء الروس ويدعى خريسوخير *Chrysochir* ومعه ثمانمائة جندى ركبوا على متن سفنهم، جاء إلى القسطنطينية[٢١٦]بحجة أنه متكفل بالدفاع عن مصالح الإمبراطورية[٢١٧]، لكنه تلقى إنذارا رسميا من الإمبراطور بمغادرة الدردنيل بعد إلقاء أسلحته هو ومن معه، إلا أن خريسوخير رفض وأبحر فى الأرخبيل حتى وصل إلى جزيرة ليمنوس *Lemnos* . وهنا خرج أسطول الكبيريوت ومعه داوود الأخريدى *Davido Achridensi* استراتيجوس ساموس *Samos* ومعه حاكم تسالونيك نقفور كاباسيلى *Nicephorius Cabasila* ، الذين قتلوا خريسوخير ومن معه[٢١٨].

هذه الحادثة التى راح ضحيتها نبيل روسي ومعه مئات من الروس، ألا يجب أن تكون ذريعة مناسبة لكييف لشن الحرب على القسطنطينية فى عام ١٠٢٤م ؟! لكن بالرغم من وقوع هذه الحادثة لم تحرك كييف ساكنا ، ولم يهب ياروسلاف للدفاع عن مصالح الروس، ولم تبعث القسطنطينية ولو برسول إلى ياروسلاف للاعتذار عما وقع وتعويضه حسب معاهدة ٩٤٥م المبرمة بين البلدين، ألا يدفعنا هذا لضرورة البحث عسى أن نجد أسبابا أخرى تكون أكثر إقناعا لهذه الحرب . لقد تعددت أراء المؤرخين حول أسباب هذه الحملة، فمنهم فريق يرى أن هذه الحملة قام بها الروس لمساعدة جورج مانياكس فى ثورته داخل بيزنطة وبوساطة هارولد هاردرادا ، الذى أطلع ياروسلاف على الأوضاع الداخلية لبيزنطة[٢١٩]. إلا أن المؤرخ الإنجليزي شبرد أثبت

(٢١٤) *Glycas*, col. 594.
(٢١٥) *Cedrenus*, II, p. 551.
(٢١٦) *Cedrenus*, II, p. 478.
(٢١٧) Court, *La Russie*, p. 122.
(٢١٨) *Cedrenus*, II, pp. 478-479.
(٢١٩) Poppe, A., " La dernière expédition russe contre Constantinople ", *BsL*, 32 (1971), pp. 1-29, 233-268.

بطلان هذه النظرية[220] . وفريق آخر يرى أن هذه الحملة كانت محاولة من جانب الروس لتوكيد استقلالهم التام عن بيزنطة وكنيستها[221] .

لكن بالرغم من السبب الوجيه الذى يورده كدرينوس، والذى يمكن اعتباره الشرارة المباشرة لاشتعال الحرب بين البلدين، إلا أن شبرد يورد بعض الأسباب الأخرى التى قد تبدو مقبولة أيضا . فهو يود أن يؤكد على عامل الهيبة حيث يرى أن هيبة الأمير الروسى سفياتوسلاف كانت قد انحط مقامها على الجبهة البيزنطية؛ فى الوقت الذى كان يسعى فيه جاهدا لإعلاء شأنه على الجبهة الأوربية، وعلى الرغم من نجاحه فى عقد عدة مصاهرات سياسية مع ملوك وأمراء من أوربا، بل إنه سعى بنفسه لمصاهرة البيت الحاكم فى ألمانيا، لا نقرأ عن مصاهرات مع البيت الحاكم فى القسطنطينية . وعندما وقعت حادثة خريسوخير فى عام ١٠٢٤م ثم مقتل التاجر الروسى فى عام ١٠٤٣م لم تقدم القسطنطينية أية اعتذارات لياروسلاف أو تعويضات له استنادا إلى بنود معاهدة ٩٤٥م . الأمر الذى فسره على?نه انهيار فى هيبة ياروسلاف بين مواطنيه على الجانب البيزنطى، لاسيما أمام التجار الروس. كما يضيف عاملا آخر، وهو العلاقات الطيبة بين بيزنطة والأمير الروسى مستسلاف أمير تموتوراكان، والذى نشبه صراع بينه وبين أخيه ياورسلاف على الحكم فى عام ١٠٢٣م[222]، ويشير إلى استعانة مستسلاف بالبيزنطيين لإقامة نهضة عمرانية فى تموتوراكان وتشرينجوف وإلى الصلات الحضارية بين الطرفين . هذه العلاقة بين بيزنطة ومستسلاف ، منافس ياروسلاف على العرش ، لابد وأنها أغضبت ياروسلاف وجعلته يضمر العداء لبيزنطة ويتحين الفرصة لقتالها؛ وقد واتته هذه الفرصة تدريجيا، أى بوفاة منافسه على العرش فجأة أثناء رحلة صيد فى عام ١٠٣٦م ، ثم انتصاره الساحق على البشناق فى نفس العام، وبهذا أزاحهم من طريقه نحو القسطنطينية، ولم تعد لكلمات قسطنطين بورفيروجنيتوس عن الدور الذى يلعبه البشناق فى منع الروس عن القسطنطينية أى وجود فى منطقة السهوب. وأخيرا جاء السبب المباشر والذى كان خير ذريعة لياروسلاف لشن هذه الحملة على القسطنطينية[223]. على هذا النحو يمكننا أن نجمل أسباب هذا الهجوم فيما يلى :

---

(٢٢٠) نظرا لأن هذه الأسباب دار حولها جدلا كبيرا بين المؤرخين المحدثين ، فسأكتفى هنا بذكر النتائج التى توصلوا إليها ، انظر ، Shepard, *Russians attack*, pp. 147-211.

(٢٢١) Angold, *Byz. Empire*, p. 13 .

(٢٢٢) عن هذا الصراع انظر ، *R.P.C.*, pp. 134-135 .

(٢٢٣) Shepard, *Russians attack*, pp. 171-211.

أولا : العلاقات بين بيزنطة ومستسلاف، منافس ياروسلاف على العرش ، وحتى وفاته فى عام ١٠٣٦ ، والتى أوغرت صدر ياروسلاف ضد بيزنطة .
ثانيا : عامل الهيبة الدولية لياروسلاف على الجبهة البيزنطية والذى ساقه شبرد. **ثالثا** : مصرع التاجر الروسى فى القسطنطينية فى عام ١٠٤٣م .

وبالرغم من هذه الحملة التى شنها الروس على القسطنطينية فى عام ١٠٤٣م، وجدت الحضارة البيزنطية لها طريقا لتغزو بلاد الروس . حتى أننا نجد ياروسلاف وقد بنى له قصرا ذو بوابة ذهبية كتلك التى فى القسطنطينية ، هذا على سبيل المثال لا الحصر .

ويبدو أن محادثات للسلام قد دارت بين القسطنطينية وكييف عقب انتهاء هذه الحملة وزوال خطرها عن بيزنطة، وتم عقد معاهدة سلام بين الطرفين فى عام ١٠٤٦م لا نعرف شيئا عن بنودها ؛ لكننا نعرف أن الأمير فسيفولود *Vsevolod* بن ياروسلاف تزوج فى ذلك العام من الأميرة البيزنطية مارى ابنة الإمبراطور البيزنطى قسطنطين مونوماخوس [٢٢٤] . وهكذا ، انتهى التهديد الروسى للقسطنطينية إلى الأبد ، ولم نعد نقرأ عن هجمات قام بها الروس ضد بيزنطة، ولكن كما سبق وقلنا أقدم ياروسلاف فى عام ١٠٥١م على خطوة تتسم بالجرأة والشجاعة وهى فصل الكنيسة الروسية عن كنيسة القسطنطينية بتعيينه هيلاريون مطرانا على الروس فى كنيسة آيا صوفيا . ولم تشر المصادر البيزنطية إلى أية ردود فعل لكنيسة القسطنطينية حيال هذا الحدث . ولعل ياروسلاف أراد بهذا العمل أن يؤكد استقلاله التام عن بيزنطة، وأن يجعل من الكنيسة الروسية كنيسة جديرة بأن تخطب ودها الكنائس العالمية الأخرى. وعلى الرغم من هذه الخطوة ظلت العلاقات بين بيزنطة وكييف تحكمها دوافع المصلحة الخاصة بهما والتى جعلت كلا منهما يحرص على إقامة علاقات طيبة مع الآخر [٢٢٥] .

على هذا النحو مضت العلاقات بين الروس والعالم الخارجى طوال عهدى فلاديمير وابنه ياروسلاف . ويمكننا أن نخلص من خلال الأحداث الماضية إلى أن بيزنطة لم تعد هى حجر الزاوية فى علاقات الروس مع العالم الخارجى، واكتشف

---

(٢٢٤) Soloviev, A., " Marie fille de Constantine IX Monomaque ", *B*, 33 (1963), p. 244; Obolensky, D., *Six Byzantine Portraits*, (Oxford, 1988), pp. 83-85; Baumgarten, *Généologies*, p. 69.

(٢٢٥) Obolensky, D., "The Relations between Byzantium and Russia (eleventh to fifteenth century) ", *XIII*th. *International Congress of Historical Sciences*, (Moscow, 1970), p. 2.

الروس دعما سياسيا لهم فى المنطقة بتحالفهم مع القوى الأوربية، وهو الأمـــر الـــذى نجحوا فيه بكل تأكيد بدءا من فلاديمير ووصولا إلى الذروة فى عهد ياروسلاف الـــذى في عهده بلغت هيبة أمير الروس العظيم ذروتها بين الدول والممالك الأوربية . ومـــع هذا لم يغفل الروس الجبهة البيزنطية ، والتى كانت تميل إلى صالح الـــروس ، حيـــث نجحوا فى الزواج من أميرتين بيزنطيتين إحداهما وليدة الأرجوان ، وهى الأميرة آنـــا بورفيروجنيتا ، والأخرى الأميرة مارى ابنة الإمبراطور قسطنطين مونومـــاخوس. ولا يمكن إغفال أن هاتين الزيجتين ساعدتا على انتشار الحضارة البيزنطية بين الـــروس ، ولا ذلك السيل من رجال الدين الذين كانوا يفدون إليهم بصورة متصلة . وعلى الرغـــم من الخطوة التى اتخذها ياروسلاف لفصل كنيســـة روســـيا عـــن أحضـــان الأم فـــى القسطنطينية سنجد أنها سرعان ما ستعود إليها ثانية فى أعقاب الحرب الأهليـــة التـــى نشبت بعد وفاة ياروسلاف .

والآن ، يرقد ياروسلاف على فراش الموت وقد جمع حوله أبناءه ليملى عليهم وصيته التالية : "أى أبنائى ، إنى على وشك الرحيل عن هذا العالم . فليحب كل منكـــم الآخر ، لأنكم أخوات من أب وأم واحدة، فإذا ما عشتم بالحب فالله سوف يكون معكـــم وسيهلك أعداءكم وستعيشون فى سلام . أما إذا عشتم فى شجار ونزاع وبغض فأنتم لن تهلكوا فقط بل إن الأرض التى حافظ عليها آباؤكم وأجدادكم بجهد شديد سوف تتبـــدد معكم، فلتعيشوا فى سلام ولينصت الأخ لأخيه . وإنى لأعهد بعرشى فى كييـــف إلـــى ابنى الأكبر ازياسلاف ليحل محلى فلتصغوا إليه كما تصغون لى، لأنه ســـوف يـــأخذ مكانى بينكم، واعطى تشرنيجوف إلى سفياتوسلاف، وبيرياسلاف إلى فسيفولود ، وإلـــى ايجور فلاديمير، وإلى فياتشسلاف *Vyacheslav* سمولنسك"[٢٢٦] . ورحل ياروســـلاف فى عام ١٠٥٤م[٢٢٧] تاركا أبناءه لينفذوا وصيته. ولكن كان الواقع أقوى مـــن وصيـــة ياروسلاف الحكيم، ومزقت الحرب الأهلية أوصال الروس والإمارات الروســـية معـــا لعشرات من السنين تلت[٢٢٨] .

---

(٢٢٦) *R.P.C.*, P. 142; Dimnik, M., *The Dynasty of Chernigov 1054-1146*, (Toronto, 1994), p. 19.

(٢٢٧) *R.P.C.*, p. 142; *Chron. Novgorod*, p. 4 .

(٢٢٨) انظر، Dimnik, *Chernigov*, pp. 18-33.

الباب الثانى

الروس والقوى الشرقية

الفصل الرابع: الروس ومسلمو القوقاز

الفصل الخامس: الروس بين البشناق وقوى الفولجا

الفصل الرابع

الروس ومسلمو القوقاز

عندما خرج الروس من شبه جزيرة اسكنديناوه واتجهوا نحو شرق وجنوب شرق بحيرة لادوجا *Ladoga* فى أواسط القرن التاسع الميلادى فصاعداً، حيث وصلوا إلى منطقة السهوب، أدركوا أن بقاءهم بين قوى السهوب فى ذلك الوقت ارتبط ارتباطا وثيقا بحجم قوتهم العسكرية . فقد كانت هناك قوى سياسية تسيطر على منطقة السهوب، لاسيما الواقعة شمال البحر الأسود، ومنها الخزر الذين بسطوا نفوذهم على كييف نفسها. وفى شمال نهر الفولجا كان البلغار يسيطرون على هذه المنطقة، ويتحكمون فى التجارة العابرة من شرق الفولجا حيث الإمارات الإسلامية الواقعة فى منطقة القوقاز، إلى غربى الفولجا حيث الإمارات الإسلامية الواقعة فى منطقة القوقاز، إلى غربى الفولجا حيث التجار الروس والصقالبة كانوا يفدون للتجارة . أما الإمبراطورية البيزنطية فقد كان لها موضع قدم لايتزلزل فى شبه جزيرة القرم متمثلا فى مستعمرة خرسون والمدن التابعة لها، حيث اتخذت منها بيزنطة موضعا لمراقبة الخريطة السياسية وتحولاتها فى منطقة السهوب.

وبالرغم من أن التجار الروس، الذين كانوا يتوافدون باستمرار إلى حوض نهر الفولجا، كانوا يدركون حجم قوتهم مقارنة بقوى المنطقة السياسية، إلا أن طبيعتهم الإقليمية والعرقية دفعتهم للاصطدام ببعض هذه القوى أو مسالمة البعض الآخر منها . فقد أدى نهمهم التجارى إلى شن هجومهم الأول على القسطنطينية فى عام ٨٦٠م، كما عرفنا من قبل، وهو الهجوم الذى منى بالفشل، ولم يسفر عن أية نتائج إيجابية بالنسبة لهم. ولا غرو، فقد حرصوا على ألا يعادوا القوى الشرقية عند الفولجا، كالخزر والبلغار فى هذه المرحلة من تكوينهم السياسى فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى، وكما سنرى فى الصفحات القادمة أنهم سالموا الخزر، على الرغم من انتزاعهم لمدينة كييف منهم، فلقد فطن الروس إلى أن الخزر والبلغار هم الذين يتحكمون فى التجارة القادمة من الشرق حيث إمارات القوقاز الإسلامية، والتى تنتقل إلى شبه جزيرة اسكنديناوة بواسطتهم؛ وأنهم إذا خسروا الروابط السلمية مع هاتين القوتين، فإنهم بهذا يحكمون على أنفسهم بالإفلاس الاقتصادى، والانحطاط الاجتماعى بين ذويهم . ومتى أدرك الروس أن هذه القوى تسعى إلى الثراء مثلهم تماما، فلماذا لا يقدمون على مشروعات حربية تغل عليهم جميعا الخير الوفير؛ وبما إن الخزر والبلغار

لا يمكنهم معاداة بلاد القوقاز الإسلامية، لصلاتها السياسية ببغداد، ولتحكمها في التجارة الشرقية، فلماذا لا يحملون على عاتقهم هذه المهمة! ولأجل كسب الخزر، على سبيل المثال، والذين بحكم موقعهم الجغرافي كانوا يتحكمون في الطرق التي تصل بين بلاد القوقاز الإسلامية وبلاد الروس، عقدوا معهم اتفاقيات عدة تسمح لهم بالمرور العسكري عبر أراضيهم لشن هجمات على بلاد القوقاز الإسلامية .

لقد يمم الروس أنظارهم شطر هذه المنطقة بالذات من العالم الإسلامي، وهي المنطقة التي تحدث المؤرخون والجغرافيون المسلمون عن أهميتها الاقتصادية . لقد أغاروا عليها عدة مرات في مدة قد تزيد على نصف القرن قليلا. إن هذا الضغط الروسي على بلاد القوقاز، وبالشكل الذي سيمر علينا، يجبر الباحث على الوقوف قليلا والتأمل في التركيبة العرقية لهم، والحياة البيئية التي خرجوا منها، بل وجغرافية المكان؛ فكل هذا كان دافعاً للروس للخروج إلى ما وراء السهوب خاصة نحو الشرق من عاصمتهم كييف . ولعل ما يدفعنا إلي ذلك أيضاً تقارب العادات والتقاليد بين الروس وشعوب السهوب، ومن ناحية أخرى صمتت المصادر عن ذكر أسباب مباشرة لهجمات الروس على مسلمي القوقاز.

لقد كانت العقيدة الدينية والمناخ القاسي[1] الذي تحيا في ظله الإمارات والمدن الروسية، والذي ألفه الروس منذ مهدهم عاملاً هاماً في تكوينهم العرقي وفكرهم السياسي الذي طغى عليه الطابع القبلي في هذه الفترة من تاريخهم، فقد جعلهم هذا المناخ يرون المعاش والكسب في السيف على حد قول المروزي[2]؛ ويضيف المؤرخ الفارسي الكرديزي عبارته التالية " ...وليس عندهم زرع ولا بذر، أما زراعتهم فهي الغارة على الصقالبة ..."[3] ويشير الكرديزي بهذا إلى أن الروس لا يعملون بالزراعة، والتي يتبعها بطبيعة الحال استقرار اجتماعي وسياسي، ومن ثم فقد كانوا يقتاتون من

---

[1] يذكر المؤرخون أن "النهار عند الروس يبلغ قصره في الشتاء أن يكون ثلاث ساعات ونصفا ..." انظر، الادريسي، *نزهة المشتاق*، ص ٩١٨. وبلادهم "فيها صحار وجبال لا يفارقها الثلج والبرد ..." انظر، القلقشندي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*، جـ٤، (القاهرة، د.ت)، ص ٤٦٦ . وقد أكد المسعودي على هذا بقولة أن "بلدهم بعيد عن الشمس" انظر، المسعودي، *أخبار الزمان*، تحقيق / عبد الله الصاوي، (بيروت، ١٩٧٨)، ص ٩٣؛ الدمشقي، *نخبة الدهر* ، ص ٢٧٥؛ وأخيراً نرى صورة كاملة للمناخ القاسي الذي كان يعيش في ظله الروس عند القزويني حيث نجد "البرد عظيم والهواء غليظ والثلج دائم" . انظر، القزويني، *آثار البلاد وأخبار العباد*، (بيروت، ١٩٦٠)، ص ٦١٧؛ أبو الفدا، *تقويم البلدان*، نشرة / رينو وماك كوكين دوسلان، (باريس، ١٨٤٠)، ص ٣٥ .

[2] المروزي، *أبواب في الصين والترك والهند، منتخبة من كتاب طبائع الحيوان*، نشره/ ف. مينورسكي V.Minorsky، (لندن، ١٩٤٢)، ص ٢٣ .

[3] الكرديزي، *زين الأخبار*، ترجمة / عفاف السيد زيدان، (القاهرة، ١٩٨٢)، ص ٤٧٤ .

وراء غاراتهم على القبائل السلافية القاطنة شمالى وجنوبى عاصمتهم كييف، وهو الأمر الذى تفيض فى ذكره الحولية الروسية الأولى، أو كما رأينا من قبل كيف قتل ايجور على أيدى الدريفليين .

هكذا دفعهم سوء المناخ إلى سوء أخلاقهم واتخاذهم الغزو والسلب والنهب حرفة لهم، حتى غدوا مولعين بالقتال[٤]، وصار السيف أنيس أبنائهم منذ ميلادهم، فعندما " يولد لهم ابن فإنهم يمتشقون الحسام ويضعونه أمامه ويقول الوالد : ليس عندى ذهب ولا فضة ولا مال فأتركه ميراثاً لك، هذا ميراثك فامتشقه وجرده لنفسك ..."[٥] وقد لعبت طبائع الروس دوراً كبيراً فى دفعهم إلى الخروج بقوتهم العسكرية إلى ما وراء السهوب وما وراء الفولجا، وهى المناطق التى بدت فى أعينهم مصدراً للثراء السهل، ومركزا للتجارة القادمة من الشرق .

جدير بالذكر أن الأراضى التى كان يعيش عليها الروس مترامية الأطراف[٦] والمدن التى يقطنوها متباعدة فيما بينها، وليس هناك أدق مما قاله الادريسى فى هذا المقام "وأما أرض الروسية فهى أرض كبيرة، وبلاد قليلة، وعمارات منقطعة، وبين البلد والبلد مسافات متباعدة"[٧] .

ويذكر مؤلف كتاب حدود العالم أن الروس "بدائيو الطابع، يتسمون بالعند والغطرسة وهم مشاكسون ومولعون بالقتال ..."[٨]؛ كما أنهم أهل غدر على حد قول ابن بطوطة[٩]، ويتسمون بسوء الأخلاق وقسوة القلوب وتغلب عليهم الحيوانية وحدة النفس والغضب[١٠] .

وهكذا، بناء على ما ذكره المؤرخون المسلمون يمكننا القول أن الروس كانوا سادة لأنفسهم، وكان من الصعوبة بمكان أن ينقادوا لأحد، أو لشريعة من الشرائع فى هذه الفترة من تاريخهم[١١]. وإذا كانوا يتقاتلون فى بعض الأحيان فيما بينهم البعض[١٢]

---

(٤) *Hudud al-'Alam*, Eng. trans. V. Minorsky, (Oxford, 1937), p. 159 .

(٥) الكرديزى، *زين الأخبار*، ص ٤٧٤ .

(٦) *Hudud al-'Alam*, p. 159.

(٧) الادريسى، *نزهة المشتاق*، ص ٩٠٤؛ ابن الوردى، *خريدة العجائب*، ص ٩٣ .

(٨) *Hudud al-'Alam*, p. 159.

(٩) ابن بطوطة، *رحلة بن بطوطة*، (بيروت، ١٩٦٠)، ص ٣٤٤ .

(١٠) الدمشقى، *نخبة الدهر*، ص ٢٧٥. يضيف ابن فضلان أضعاف أضعاف ما ذكره المؤرخون والجغرافيون المسلمون عن الروس وطبائعهم، انظر، *الرسالة*، ص ١٧٥ – ١٨٨ .

(١١) ابن الوردى، *خريدة العجائب*، ص ٩٣ .

(١٢) الادريسى، *نزهة المشتاق*، ص ٩٠٤ .

إلا أن السمة العامة التى طغت عليهم هى اتجاههم للغـــزو الخــارجى ســواء نحــو الإمبراطورية البيزنطية، كما رأينا فى الفصول الماضيـــة، أو نحــو بــلاد القوقــاز الإسلامية وقوى الفولجا كما سنرى[١٣]. وإذا كان الروس قد نجحوا فى غزو بيزنطـــة مراراً، إلا أن الهزائم العسكرية كانت دوماً من نصيبهم، بل نجحت القسطنطينية فـــى دق قلب كييف بنواقيس آيا صوفيا، واستخدمتهم كمرتزقة فى جيوشـــها للــزود عــن أراضيها . وقد اختلف الوضع فى منطقة الفولجا والقوقاز، وتنوعت سياســة الــروس تجاه كل قوة من قوى هذه المنطقة، إلا أنها اتسمت بالعداء السافر لمسلمى القوقاز. لقـد أصبح الروس بعد أن كانوا تجارا مسالمين يدفعون العشور[١٤] يفضلون الذهب الـبراق الملطخ بالدم على الربح التجارى الثابت[١٥]. ولنا أن نضيف شيئاً إلى كل مـــا ذكــره المؤرخون عنهم فيما سبق، أن الروس حتى أواسط القرن العاشـــر الميــلادى كــانوا وثنيين. وعلينا أن نضيف هذه النقطة الأخيرة إلى جغرافية وطبوغرافية بلاد الـــروس وكذا عاداتهم وصفاتهم الاجتماعية للقول بأن هذه العوامل جميعاً لعبت دوراً فعالاً فـــى تشكيل الفكر السياسى الروسى المتصف بالقبلية تجاه القوى السياسية الدوليـــة . ولــنر على الصفحات التالية كيف تحول الروس بقوتهم العســـكرية صــوب بــلاد القوقــاز الإسلامية .

يشير المؤرخ الفارسى ابن سفنديار[١٦] إلى أن أقدم إغارة شنها الروس على بلاد القوقاز الإسلامية تلك التى حدثت فى عهد سيد حسن ابن زيد[١٧] فى الفترة مـــن ٢٥٠ إلى ٢٧١هـــ / ٨٦٤ إلى ٨٨٤م، وكانت وجهتها الأساسية بلدة آبسكون[١٨]، الواقعـــة جنوب شرقى بحر الخزر[١٩].

---

[١٣] يقول مؤلف حدود العالم "... وهم يتقاتلون مع كل الكفرة الذين يعيشون حولهم، ويخرجـــون منتصريـــن ..." انظر، *Hudud al- 'Alam*, p. 159 ويؤكد هذا الادريسى بقوله "ولهم مع جنسهم ومن قاربهم من بلادهـــم حروب ومهارشة"، انظر، *نزهة المشتاق*، ص ٩٠٤.

[١٤] انظر الفصل الثانى من هذا الباب، والفصل الثانى من الباب الثالث .

[١٥] Mcevedy, C., *The Penguin Atlas of Medieval History*, (New York, 1978) , p.58.

[١٦] Ibn Sfandiyar, *Tarikhe Tabaristan*, trans. E. G. Brown, (London, 1905), p. 198; Chadwik, W., *The Beginning of Russian History*, (Cambridge, 1966), pp. 60,61.

[١٧] الحسن بن زيد العلوى، كان حاكما لطبرستان آنذاك . انظر، القزوينى، *آثار البلاد*، ص٤٠٤.

[١٨] آبسكون، بفتح الهمزة وسكون الألف، وفتح الباء الموحدة والسين المهملة ســاكنة، وقــاف مضمومـــة، وواو ساكنة ونون، ورواه بعضهم بهمزة بعدها باء ليس بينها ألف . وهى بليدة على ساحل بحر الخزر، بينها وبين جرجان ثلاثة أيام، وأليها ينسب بحر آبسكون . ويقول البعض أن أحد ملوك الفرس هو الذى شيدها . لمزيـد من التفاصيل عنها انظر، ابن حوقل، *صورة الأرض*، (ليدن، ١٩٦٧)، ص ٣٢٩؛ الدمشقى، *نخبة الدهـــر*، ص ٢٢٦؛ ياقوت الحموى، *معجم البلدان*، جـــ١، ص ٥٢ .

[١٩] بحر الخزر، يطلق عليه عدة مسميات هى بحر جرجان، بحر طبرستان، البحر الخراسانى، لاتصالـــه ببــلاد خوارزم من أرض خراسان، وبحر قزوين . يقول عنه أحد المؤرخين أنه "بحر منفرد قريب من الإســتدارة"،

وقد لحق الفشل الذريع بهذه الإغارة الروسية، حيث هزمتهم قوات حسن بن زيد وذبحت الكثيرين منهم[٢٠]. وعلى هذا النحو تمت أولى الغارات الروسية على بلاد القوقاز الإسلامية، التى لم يعهد أهلها عدوا يأتى إليهم من قبل، لاسيما عبر بحر الخزر، كما يذكر المسعودى[٢١]. ولابد أن نلاحظ أن هذه الإغارة وقعت فى الفترة التى أعقبت هجومهم الأول على القسطنطينية فى عام ٨٦٠م، والذى منى بالفشل الذريع، هذا من ناحية . ومن الناحية الأخرى، لابد وأن هذه الإغارة قد تمت بموافقة خاقان الخزر، الذى كان ولابد أن يأخذوا الإذن منه بالمرور عبر أراضيه، مقابل جزء من الغنيمة؛ ومما يرجح هذا أن الروس لو كانوا قد مروا عبر أراضيه دون رضاه، لأنزل بهم جام غضبه عند عودتهم وهم مكسورو الجناح على أيدى قوات حسن بن زيد، وهو الأمر الذى كان ولابد لابن اسفنديار من إبرازه .

على أية حال، يبدو أن هذه الإغارة المبكرة كان هدفها استطلاعيا للتعرف على طبيعة هذه البلاد الاقتصادية عن قرب، واختبار مدى قدراتها وقدراتهم العسكرية على حد سواء . وللمرة الثانية يندفع الروس بقواتهم العسكرية نحو بلاد القوقاز ليغيروا ثانية على مدينة آبسكون وبعض البلاد المجاورة لها[٢٢]. والمؤرخ الوحيد الذى يمدنا بتفاصيل هذه الإغارة هو ابن اسفنديار[٢٣]. وعلى حد قوله جاء الروس فى عام ٢٩٨هـ/٩١٠م فى حوالى ست عشرة سفينة إلى آبسكون فخربوها ونهبوها هى والشواطئ المتصلة بها، وقتلوا وأسروا كثيرا من المسلمين، ثم عادوا إلى بلادهم .

انظر، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٣٥ . ويقول المسعودى أن عرض هذا البحر ستمائة ميل، وطوله ثمانمائة ميل، انظر، *التنبيه والإشراف*، ص ٦٩؛ الادريسى، *نزهةالمشتاق*، ص ٨٣١ . وهذا البحر مستقل بذاته ولايتصل بغيره من البحور، ويصب فيه نهر آتل . وهو بحر مالح ليس له مد ولا جزر . ونظراً لأن قعره من طين فقد غدا لونه قاتما، وبدا وكأنه مظلما . ويحده من الشرق صحراء متصلة بالغز وخوارزم، وحده الشمالى يتاخم الغز وبعض من الخزر،أما حده الغربى فيتاخم مدن الخزر وأذربيجان، وأخيرا يجاور حده الجنوبى مدن جيلان والديلم وطبرستان وجورجان . لمزيد من التفاصيل عن بحر الخزر، انظر، *Hudud al-'Alam*, p. 53; Minorsky, V., *Commentary on Hudud al-'Alam*, pt. III, (Oxford, 1937), p. 180.

[٢٠] Ibn Sfandiyar, *Tabaristan*, p. 198; Chadwik, *Russian History*, p. 57. انظر أيضاً، كويستلر، *الخزر*، ص ١٤١؛ دنلوب، *تاريخ يهود الخزر*، ترجمة / سهيل زكار، (دمشق، ١٩٩٠)، ص ٣١٦ - ٣١٧ .

[٢١] *مروج الذهب*، جـ١، ص ٧٦ .

[٢٢] تخلط شادويك بين هذه الغارة وبين التالية لها فى عام ٩١٢/٣٠٠هـ وتجعلهما إغارة واحدة . لكن تفاصيل الإغارة الثالثة ٩١٢م/٣٠٠هـ تختلف تماما عن رواية ابن اسفنديار، وقد أتت على كثير من بلاد القوقاز الإسلامية . انظر، Chadwik, *Russian History*, p. 61.

[٢٣] Ibn Sfndiyar, *Tabaristan*, p. 198.

وفى العام التالى عاودوا الهجوم ثانية فى قوة أكبر، حيث هاجموا بلدة السراى *Sari*(٢٤) وبنجاة - هزار *Panjah- Hazar*(٢٥) وأسروا الكثير من المسلمين وعندئذ أبحروا إلى كشمه رود *Chashma-Rud*، من بلاد الديلم(٢٦). وقد أنس الروس من أنفسهم القوة وامتلاك زمام الأمر، فنزلت كوكبة منهم إلى شاطئ بحر الخزر قبالة جيلان(٢٧)، فقام رهط من أهلها بالانقضاض على سفنهم وحرقوها، وقتلوا أولئك الذين على الساحل وعلى أثر هذه المقاومة الإسلامية فر الروس بما أمكنهم من مراكب عبر بحر الخزر .

ويبدو أن خاقان الخزر(٢٨) لم يكن راضياً عن هذا الهجوم الروسى، أو أنهم شنوا هذا الهجوم البحرى على المسلمين فى القوقاز دون استئذانه عند المرور عبر أراضيه، كما سيحدث فى الإغارة التالية لهم على بلاد القوقاز أيضا . ومما يدعم ما نذهب إليه هنا، أنه ما أن سمع خاقان الخزر بهزيمة الروس حتى انقض عليهم مدمرا مراكبهم، قاضيا عليهم(٢٩). ويعتقد كويستلر *A.Koestler* أن هجوم الروس هذا قد خلق موقفا خطيرا بالنسبة للخزر بسبب علاقات الصداقة التى تربطهم بالخلافة العباسية هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى بسبب الفرقة الخاصة من الجند المسلمين العاملين فى جيش الخزر أيضا(٣٠). وربما يكون هذا قد حدث فى البداية، الأمر الذى دفع خاقان الخزر للانقضاض على فلول الروس الهاربة بحراً ليحافظ على علاقته مع الخلافة، وليؤمن

---

(٢٤) السراى، بلدة تقع على الطريق الممتد بين مدينة مرند ومدينة نشوى فأردبيل . انظر، ابن خرداذبه، *المسالك والممالك*، (القاهرة، د.ت)، ص ٢١٣ .

(٢٥) لم أتمكن من الحصول على معلومات عنها .

(٢٦) بلاد الديلم، يحدها من الجنوب [بلدة] قزوين والطرم وشئ من أذربيجان وبعض الرى، ويتصل بها من جهة الشرق بقية الرى وطبرستان، ويتصل بها من جهة الشمال بحر الخزر، ومن جهة المغرب شئ من أذربيجان وبلدان الران ..." ويحكمها آل جستان، ومقر ملكهم يسمى بلغتهم روزبار . وقد أسلمت الغالبية منهم فى عهد الحسن بن زيد العلوى . انظر، الإصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ٣٥٣ .

(٢٧) جيلان، "تسمى كيلان وبالعربية الجيل وجيلان أيضا . ويحيط بها من الغرب شئ من أذربيجان وبعض بلاد الرى، ويحيط بها من جهة الجنوب قزوين وشئ من أذربيجان وبعض الرى، ويحيط بها من جهة الشرق بقية الرى وطبرستان، ويحيط بها من الشمال بحر الخزر، وكيلان غربى طبرستان ..." وهى صقع واسع مجاور لبلاد الديلم . لمزيد من التفاصيل، انظر، أبو الفدا، *تقويم البلدان*، ص ٤٢٦ - ٤٢٧؛ القلقشندى، *صبح الاعشى*، جـ٤، ص ٣٨٠؛ الدمشقى، *نخبة الدهر*، ص ٢٢٦ .

(٢٨) يطلق عليه ابن اسفنديار اسم شروان شاه، وتعنى ملك شروان . انظر، Ibn Sfandiyar, *Tabaristan*, p. 198، الاصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١١٢. وهذا يعنى إما أن شروان كانت تحت السيادة الخزرية، أو أنه خطأ من إبن اسفنديار نفسه .

(٢٩) Ibn Sfandiyar, *Tabaristan*, p. 198; Chadwik, *Russian History*, p. 57.
يشير ابن اسفنديار هنا إلى أن حملات السلب والنهب التى كان يقوم بها الروس قد توقفت . لكن ستثبت الأحداث التالية عكس ما زعم .

(٣٠) كويستلر، *الخزر*، ص ١٤١ .

نفسه من شر انقلاب الفرقة المسلمة العاملة فى جيشه عليه . وبهذا يمكن تفسير موقف خاقان الخزر من الروس بناء على الافتراضات السابق طرحها .

جدير بالذكر أن الروس كانوا قد شنوا هجوماً ثانياً على القسطنطينية فى عام٢٩٥هـ/ ٩٠٧ م بقيادة أميرهم أولج، وهو الهجوم الذى انتهى بعقد معاهدة بين الطرفين فى عام٢٩٩هـ/ ٩١١م [٣١]. وهكذا فى الوقت الذى شن فيه الروس ثلاث حملات على بلاد القوقاز حتى الآن، شنوا فى المقابل حملتين على القسطنطينية . وفى الوقت الذى توقفوا فيه عن القيام بحملات على القسطنطينية لمدة أربعة وثلاثين عاماً، وحتى عام ٣٣٠هـ/ ٩٤١م، قاموا بشن حملة أخرى على بلاد القوقاز خلال هذه الفترة. وهذا التركيز العسكرى الروسى على بلاد القوقاز قد يدفعنا للقول بأن الروس كانوا يولون اهتماما بها لا يقل عن اهتمامهم بالجبهة البيزنطية؛ وهو الأمر الذى له دلالاته التاريخية، والتى نرجئها قليلا لحين الانتهاء من استعراض سياسة الروس تجاه بلاد القوقاز الإسلامية .

لقد فشلت الحملة الروسية على بلاد القوقاز عام٢٩٨هـ/ ٩١٠م، وبالرغم من هذا أقدم الروس على شن غارة كبرى عليها "فيما بعد عام ٣٠٠هـ/٩١٢- ٩١٣م[٣٢]. وقد أمدنا المسعودى، ونقل عنه الحميرى، بتفاصيل هذا الهجوم، ورد الفعل الإسلامى تجاهه[٣٣].

يقول المسعودى بعد عام ٣٠٠هـ/٩١٢- ٩١٣م جاءت خمسمائة سفينة روسية تحمل كل منها مائة مقاتل إلى خليج بحر نيطش[٣٤]، وتوقفوا عند فم هذا الخليج، لأنه لم يكن بمقدورهم المضى قدماً فى أراضى الخزر إلا بإذن من الخاقان. وهذا إن دل على شئ فإنه يدل على أن قوة الخزر العسكرية كانت تفوق قوة الروس بل وقوة الأمم المجاورة لهم، وأنهم كانوا أصحاب السيادة فى منطقة جنوبى الفولجا[٣٥]. بالإضافة إلى ذلك فإن العلاقات الخزرية – البيزنطية، وإن كان قد أصابها بعض التوتر فى ذلك الوقت، كانت دعماً سياسيا إعلامياً للخزر فى المنطقة. فقد كانت العلاقات الخزرية –

---

[٣١] انظر ما سبق عرضه فى التمهيد للبحث .

[٣٢] هذا هو التعبير المصدرى الوارد عند المسعودى . ومن ثم لا ندرى بالتحديد السنة التى حدثت فيها هذه الأحداث .

[٣٣] المسعودى، *مروج الذهب*، جـ١، ص١١٤ – ١١٦؛ الحميرى، *الروض المعطار*، ص ٣٤٠ – ٣٤١ .

[٣٤] المقصود بخليج نيطش بحر آزوف المتفرع من بحر بونتس (البحر الأسود) .

[٣٥] كانت أراضى الخزر تمتد فيما بين مجرى الفولجا الأدنى والسفوح الشمالية للقوقاز، وامتدت الى الأراضى القائمة حول بحر آزوف . انظر، دنلوب، *الخزر*، ص ١١ . ولمزيد من التفاصيل عن قوة الخزر العسكرية وحجمها السياسى فى المنطقة انظر، الفصل التالي من البحث ص ٢٢ وما بعدها .

البيزنطية تمتد إلى قرون خلت قبل هذا الوقت . أليس المهندسون البيزنطيون هم الذين شيدوا قلعة ساركل الخزرية[٣٦]! وإذا كان الروس قد منوا بالهزيمة مرتين أمام البيزنطيين، فلا ينبغى أن تتكشف عورتهم العسكرية أمام قوى الفولجا، وهى الأدنى مكانة من بيزنطة .

نضيف إلى كل ما سبق أن تعداد الجيش الروسى المهاجم لبلاد القوقاز هو رقم مبالغ فيه إلى حد كبير . فالروس فى قمة مجدهم الحربى فى عهد الأمير سفياتوسلاف عندما توجه إلى البلقان كان يقود ستين ألفا منهم[٣٧]. ويخبرنا الإصطخرى أن قوام جيش خاقان الخزر كان اثنا عشر ألف مقاتل[٣٨]، غالبيتهم من المسلمين[٣٩]. وإذا كان الروس قد قدموا لقتال المسلمين فى بلاد القوقاز فى خمسين ألف مقاتل (مائة مقاتل × خمسمائة سفينة)، على حد ذكر المسعودى، فإن هذا يعنى أن قوتهم العسكرية كانت تساوى أربعة أضعاف قوة الجيش الخزرى؛ ومن ثم لماذا إذن يحتاجون إذن خاقان الخزر للمرور عبر أراضيه؟! فقد كان بإمكانهم أن يجتاحوا بلاده بهذا الجيش الجوار، الذى ذكره المسعودى . كما أن الروس لم يكن عندهم سفناً حربية بالمعنى المفهوم، كما كان الحال عند البيزنطيين، بحيث تستوعب هذا العدد الضخم من المحاربين بل كانوا يبحرون فى قوارب نهرية تسمى المونوكسيلا[٤٠]. وهكذا، بناءً على الأدلة التاريخية التى ساقها المؤرخون لنا تبدو رواية المسعودى عن تعداد الجيش الروسى فى هذه الحملة على القوقاز مبالغ فيها إلى حد كبير، وأن التعداد الحقيقى له لابد وأن يكون أقل بكثير من تعداد جيش خاقان الخزر؛ وهذا يفسر الدافع الذى حدا بالروس لأخذ الإذن منه للمرور عبر أراضيه .

أرسل الروس رسلهم إلى خاقان الخزر يستأذنونه فى المرور عبر أراضيه من خلال نهر أتل[٤١]، حتى يتمكنوا من الوصول إلى بحر الخزر، أداة الوصول إلى بلاد

---

[٣٦] قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ١٤٧-١٤٨؛ دنلوب، *الخزر*، ص٢٥١- ٢٥٣ .

[٣٧] انظر الفصل الثانى من البحث .

[٣٨] *المسالك والممالك*، ص ١٢٩ .

[٣٩] المسعودى، مروج *الذهب*، جـ١، ص ١١٢ .

[٤٠] قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة*، ص ٦٠ .

[٤١] نهر أتل، هو الأن نهر الفولجا، وهو من أعظم أنهار تلك البلاد وأشهرها . ينبع من أقصى الشمال والشرق من حيث لاعمارة هناك، ويمر بالقرب من مدينة بلغار ويستدير عليها من شماليها وغربيها . ويمر النهر بعدد من الأمم الواقعة عليه مثل بلغار الفولجا، والخزر، والروس . ويصب هذا النهر فى بحر الخزر، حيث يتشعب هناك الى نيف وسبعين فرعا . "ويصل من هذا النهر فرع يمر فى جهة الغرب حتى يصب فى بحر بونتس (البحر الاسود)" . وهو نهر كبير، سريع الجريان، يتجمد ماؤه فى الشتاء . عن هذا النهر انظر، أبو الفدا، *تقويم البلدان*، ص ٦٤؛ الادريسى، *نزهة المشتاق*، ص ٨٣٤ - ٨٣٥، ٩١٩ - ٩٢٩؛ الدمشقى، *نخبة الدهر*، ص ١٠٦؛ الاصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١٣٠؛ ابن حوقل، صورة *الأرض*، ص ٣٩٣؛ ابن

القوقاز الإسلامية . وقد عرضوا عليه النصف مما سيغنمونه هناك، ومن ثم فقد أعطاهم الإذن بالمرور عبر أراضيه . وعلى الفور ركب الروس سفنهم صاعدين، عبر نهر الدون، ثم نازلين عبر نهر أتل، إلى أن وصلوا إلى مدينة أتل الخزرية[٤٢]. وما أن وصلت المراكب الروسية إلى مدينة أتل عند مصبات نهر أتل فى بحر الخزر، حتى أخذت فى الانتشار بحرا؛ فانتشرت سرايا الروس على سواحل الجيل والديلم وبلاد طبرستان[٤٣] وآبسكون، وهى بلاد ساحل جرجان، وبلاد النفاطة[٤٤] ونحو بلاد أذربيجان[٤٥]. وقاموا بأعمال السلب والنهب، والقتل والذبح على مدى ثلاثة أيام متوالية. وليس هناك أدق مما قاله المسعودى فى هذا المقام "فسفكت الروس الدماء، واستباحت النسوان والولدان، وغنمت الأموال، وشنت الغارات وأضربت وأحرقت" . وقد اشتبكوا فى حروب كثيرة مع الجيل والديلم وساحل جرجان[٤٦] ونفر من أهل

الوردى، *خريدة العجائب*، ص ١٤٧؛ القلقشندى، *صبح الاعشى*، جـ٤، ص ٤٦٧ - ٤٦٨؛ ياقوت الحموى، *معجم البلدان*، جـ١، ص ١٠٣؛ الحميرى، *الروض المعطار*، ص ١١؛
Hudud al-'Alam, pp. 75, 216.

[٤٢] يطلق المسعودى عليها اسم آمل، انظر، *مروج الذهب*، جـ١، ص ١١٥ . والصحيح مدينة أتل الخزرية، كما يذكر الحميرى، لأن أمل تقع فى إقليم طبرستان . عن آمل انظر، الإصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١٢٤؛ المقدسى، *أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم*، (القاهرة، ١٩٩٢)، ص ٣٥٩ .

[٤٣] طبرستان، هى مدن كثيرة وأعمال واسعة وبها غياض لا تحصى وأنهار ومياه واسعة، وبها عدة معادن أجلها الذهب، وبها مزروعات كثيرة . انظر، أبو دلف، *الرسالة الثانية*، تحقيق/ بطرس بولفاكوف وأنس خالدوف، ترجمة / محمد منير مرسى، (القاهرة، ١٩٧٠)، ص ٨٢ - ٨٤ . ويحدها شمالا بحر الخزر، على مسيرة أقل من يوم منه، وشرقها جرجان . وطولها من الشرق إلى الغرب أربعون فرسخا، وعرضها من الشمال إلى الجنوب عشرون فرسخا . وعاصمة الإقليم مدينة آمل، انظر، الاصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١٢٤؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٢٣ - ٣٢٤؛ الدمشقى، نخبة الدهر، ص ٢٢٦؛ ابن العبرى، *تاريخ الزمان*، ترجمة / الأب اسحق رملة، (بيروت، ١٩٩١)، ص ٨؛ أبو الفدا، *تقويم البلدان*، ص ٤٣٢ - ٤٣٣؛ القلقشندى، *صبح الاعشى*، جـ٤، ص ٣٨٤ - ٣٨٦ .

[٤٤] بلاد النفاطة، تسمى باكو أو باكوه أو باكويه، وهى "مدينة بنواحى دربند بقرب شروان، بها عين نفط عظيمة تبلغ قبالتها فى كل يوم ألف درهم، وإلى جانبها عين أخرى تسيل بنفط أبيض كدهن الذنبق، لاتنقطع نهارا ولا ليلا، تبلغ قبالتها مثل الأولى"، وهذه المدينة كانت من أهم مصادر النفط فى هذه المنطقة . عنها انظر، الإصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١١٢؛ المسعودى، *التنبيه والإشراف*، ص ٦٩؛ القزوينى، *آثار البلاد*، ص ٥٧٨؛ ياقوت الحموى، *معجم البلدان*، جـ٢، ص ٤٥؛
Hudud al-'Alam, p. 145.
انظر أيضاً، فايز اسكندر، *الحياة الاقتصادية فى أرمينية*، (الإسكندرية، ١٩٨٨)، ص ٣٧ .

[٤٥] أذربيجان، ناحية واسعة بين قهستان وأران . تحدها برذعة من الشرق، وأرزنجان من الغرب، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم والجيل والطرم، وكانت حاضرتها قديما المراغة ثم أصبحت تبريز . وبها مدن كثيرة وقرى وجبال وأنهار كثيرة . انظر، ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص ٢٨٧ - ٢٩٠، ٢٩٩؛ القزوينى، *آثار البلاد*، ص ٢٨٤ - ٢٨٥؛ الدمشقى، *نخبة الدهر*، ص ١٨٧؛ ياقوت الحموى، *معجم البلدان*، جـ١، ص١٥٩ - ١٦١ .

[٤٦] جرجان، يقول عنها الإصطخرى "وأما جرجان فاكبر مدنها جرجان، وهى أكبر من آمل، وبناؤها من طين، وهى أيبس تربة من آمل؛ وأقل مطراً وأنداء من طبرستان، وأهلها أحسن وقارا ومروة ويسارا فى كبرائهم، وهى قطعتان إحداهما المدينة والأخرى بكراباز، بينهما نهر كبير يحتمل أن تجرى فيه السفن ..." انظر،

مودعة وأران[٤٧] والسفلان وأذربيجان مع قائد لابن أبى الساج[٤٨]، وقد انتهوا فى هذه المرحلة من الهجوم إلى ساحل بلاد النفاطة، حيث كانت الروس تأوى عند رجوعها إلى جزائر تقع بالقرب منها،ثم تعاود الهجوم ثانية.

وعلى أثر هذه الكارثة خرج المسلمون وركبوا القوارب ومراكب التجار وساروا فى بحر الخزر نحو تلك الجزائر ليهاجموا الروس، إلا أن الأخيرين تغلبوا عليهم وقتلوا جمعاً غفيراً منهم، كما غرق ما يقرب من الألف من المسلمين . ومن المحتمل أن رد الفعل الإسلامي هذا كان نتيجة استنفار حاكم شروان[٤٩] المسمى على بن الهيثم . وقد استوطن الروس فى هذه الجزائر شهوراً كثيرة حتى سئموا طول البقاء فيها، فحملوا ما أمكنهم من الغنائم وساروا نحو فم نهر أتل ومصبه ثم راسلوا خاقان الخزر وحملوا إليه الأموال والغنائم المتفق عليها . ولما علمت الأريسية والمسلمون المقيمون ببلاد الخزر بهذه الأحداث استاءوا وقالوا لخاقان الخزر : "... خلنا وهؤلاء القوم، فقد أغاروا على بلاد المسلمين، وسفكوا الدماء، وسبوا النساء والذرارى ..." . ولم يستطع خاقان الخزر منعهم، فبعث إلى الروس يخبرهم بما عزم عليه المسلمون من حربهم . ونزل المسلمون ومعهم خلق من النصارى مع نهر أتل؛ وكان عددهم عندئذ خمسة عشر ألفا، يطلبون الروس للقتال . وما أن وقعت العين على العين حتى دارت رحى القتال بين الطرفين براً، على مدى ثلاثة أيام . وقد انتهى الأمر بانتصار المسلمين عليهم وأخذوهم بالسيف بين قتيل وغريق، ونجا منهم خمسة آلاف فقط، ركبوا مراكبهم وهربوا عبر نهر أتل شمالاً . وعند بلاد البرطاس ترجلوا عن مراكبهم، فانقض البرطاس عليهم، كما أكمل عليهم بلغار الفولجا حتى بلغ عدد القتلى الروس على شواطئ النهر نحواً من ثلاثين ألفاً[٥٠].

المسالك والممالك، ص ١٢٥؛ أبو دلف، *الرسالة الثانية*، ص٨٧؛ القزوينى، *آثار البلاد*، ص ٣٤٨ – ٣٤٩؛ المقدسى، *أحسن التقاسيم*، ص٣٥٤؛ أبو الفدا، *تقويم البلدان*، ص ٣٦ .

[٤٧] الران، كورة من كور إقليم الرحاب، وقصبتها مدينة برذعة، انظر، المقدسى، *أحسن التقاسيم*، ص ٣٧٤؛ أبو الفدا، *تقويم البلدان*، ص ٣٨٦ .

[٤٨] هو أبو القاسم يوسف ابن أبى الساج، توفى ٣١٥هـ / ٩٢٨م، انظر، دنلوب، *الخزر*، ص٢٨٢، هـ٣.

[٤٩] شروان، مدينة من نواحى باب الأبواب، الذى تسميه الفرس الدربند . بناها أنوشروان فسميت بإسمه، وهى مدينة عامرة كبيرة، بناؤها من الحجر وبها مسجدا . انظر، أبو الفدا، *تقويم البلدان*، ص ٣٩٦ – ٣٩٧؛ ياقوت الحموى، معجم *البلدان*، جـ٥، ص ٢٥٨؛ المقدسى، *أحسن التقاسيم*، ص٣٧٦؛ القزوينى، *آثار البلاد*، ص ٦٠٠ – ٦٠١ .

[٥٠] المسعودى، مروج الذهب، جـ١، ص ١١٤ – ١١٦؛ الحميرى، *الروض المعطار*، ص ٣٤٠ – ٣٤١؛ دنلوب، *الخزر*، ص ٢٨٠ – ٢٨٢؛ كويستلر، *الخزر*، ص ١٤٤ – ١٤٢؛
Franklin & Shepard, *Rus*,' p. 69.
ينبغى أن نشير إلى أن هذا الرقم لا يتناسب مع النتائج السابقة التى افترضناها حول تعداد الجيش

وعلى هذا النحو فشلت هذه الحملة الروسية على بلاد القوقاز الإسلامية، وتم تدمير القوات الروسية بعتادها الحربى . وإذا كان الروس قد نجحوا فى احتلال بعض مناطق القوقاز الإسلامية بضعة أشهر وغنموا ما غنموا إلا أن نهايتهم على أيدى القوات الإسلامية كان لها أثر كبير عليهم فيما بعد . فقد أحجموا عن التوسع الخارجى سواء صوب الفولجا، أم نحو بيزنطة لمدة تقرب من الثلاثين عاماً تقريبا . ففى هذه الأثناء كان ايجور قد تولى الحكم بعد موت أولج، وكان لزاماً عليه أن يبسط سيادته أولاً على القبائل السلافية التى تقطن أيضاً بلاد الروس . فقد هاجم الدريفليون الأراضى الروسية فى عام ٩١٣م، فاضطر ايجور لقتالهم فى عام ٩١٤م؛ كذلك هاجم البشناق الأراضى الروسية للمرة الأولى فى عام ٩١٥م، فاضطر لشن الحرب عليهم أيضاً فيما بين عامى ٩١٦ - ٩٢٠م[٥١]. ولا تمدنا الحولية الروسية الأولى بأية معلومات أخرى عن الحالة التى كان عليها الروس آنذاك، حتى قاموا بشن هجومهم على القسطنطينية فى عام ٩١٤م[٥٢]، وعلى بلاد القوقاز فى عام ٩٤٣-٩٤٤م[٥٣].

ومن المعروف أن الهجوم الروسى على القسطنطينية فى عام ٩٤١م قد انتهى بعقد معاهدة بين الطرفين فى عام ٩٤٥م، مع ملاحظة أن الروس كانوا يتأهبون لشن حملة تالية على القسطنطينية فى عام ٩٤٤م، لكن نجاح الدبلوماسية البيزنطية حال دون إتمامها . وأياً كان الأمر، فقد كانت معاهدة ٩٤٥م كسباً عظيماً للروس والبيزنطيين على حد سواء . وفى نفس الآونة تقريباً كان الروس يدفعون أبواب القوقاز فى عام٣٣٢هـ/ ٩٤٣ - ٩٤٤م [٥٤].

وقبل أن ننتقل للحديث عن الهجوم الروسى على بلاد القوقاز الإسلامية فى عام٣٣٢هـ/ ٩٤٣ - ٩٤٤م ينبغى علينا أن نتناول بالتحليل موقف المسلمين من خاقان الخزر وتحالفه مع الروس فى عام٣٠٠هـ/ ٩١٣م .

الروسى.وكعادة المؤرخين فى ذلك الوقت لجأ المسعودى إلى المبالغة لإبراز حجم المقاومة الإسلامية للروس. ولسنا نستبعد أن يكون عدد القتلى الروس ثلاثة آلاف وليس ثلاثين ألفاً، ومع ذلك لا نستطيع توكيد ذلك لافتقارنا إلى الأدلة التاريخية ليبقى هذا الأمر محل افتراض.

(٥١) *R.P.C.*, p.71.

(٥٢) *R.P.C.*, p.72.

(٥٣) Chadwik, *Russian History*, p. 61.

(٥٤) يعتبر ابن مسكويه هى الراوى الرئيسى لهذه الحملة، ونقل عنه باقى المؤرخون المسلمون، وقد دون روايته عن تلك الأحداث نقلا عن شهود عيان ذكرهم بالإسم أثناء سرده للأحداث؛ لذلك سيكون ابن مسكويه مصدرنا الأول الأمين عن هذه الحملة .

لقد ورد فى سياق نص المسعودى عن هذه الحملة أن الأريسية والمسلمين المقيمين فى بلاد الخزر اعترضوا على خاقان الخزر وأنهم هم الذين تولوا عبء المقاومة ضد الروس والانتقام منهم . وهذا يدفعنا بطبيعة الحال إلى إثارة تساؤل هام: هل كان المسلمون يشكلون جبهة قوية فى خزاريا تقف فى وجه الخاقان ؟ ولماذا لم يمنعوا الروس من البداية ويحولوا دون الهجوم على ذويهم فى القوقاز ؟ ولماذا اشترك البرطاس وبلغار الفولجا فى الهجوم على الروس والنيل منهم ؟

يقول الإصطخرى، وهو من أقدم الجغرافيين المسلمين، عن سكان خزاريا "... والخزر مسلمون ونصارى ويهود وفيهم عبدة أوثان، وأقل الفرق اليهود، وأكثرهم المسلمون والنصارى، إلا أن الملك وخاصته يهود ... وللملك سبعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان ..."[٥٥]. ويؤكد ابن حوقل نفس كلمات الإصطخرى بقوله "... وفيهم خلق من المسلمين يزيدون على عشرة آلاف مسلم، وبها نحو ثلاثين مسجداً ... والملك يهودى ... وبهاتين الناحيتين مسلمون ونصارى وعبدة الأوثان، وأقل الفرق منهم اليهود وأكثرهم المسلمون، إلا أن الملك وخاصته يهود[٥٦] .... أما المسعودى فينفرد برواية أكثر دقة وتفصيلاً من هذين الجغرافيين عن وضع المسلمين فى بلاد الخزر آنذاك .

يقول المسعودى[٥٧] "... والغالب فى هذا البلد المسلمون، لأنهم جند الملك، وهم يعرفون فى هذا البلد باللارشية، وهم ناقلة من نحو بلاد خوارزم، وكان فى قديم الزمان بعد ظهور الإسلام وقع فى بلادهم جدب ووباء فانتقلوا إلى ملك الخزر وهم ذوو بأس وشدة، وعليهم يعول ملك الخزر فى حروبه . وأقاموا فى بلده على شروط من بينها أحدها إظهار والمساجد والآذان وثانيها أن تكون وزارة الملك فيهم. والوزير فى وقتنا هذا منهم هو أحمد بن كوبه وثالثها أنه متى كان لملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا فى عسكره منفردين عن غيرهم، لا يحاربون أهل ملتهم، ويحاربون معه سائر الناس من الكفار ... ولهم قضاة مسلمون . ورسم دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة، إثنان منهم للمسلمين واثنان للخزر يحكمون بحكم التوراة، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمون بحكم النصرانية، وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية ... وكل مسلم من تلك الديار يعرف بأسماء

---

[٥٥] *المسالك والممالك*، ص ١٢٩ .

[٥٦] *صورة الأرض*، ص ٣٩٠ .

[٥٧] *مروج الذهب*، جـ١، ص ١١٤ – ١١٦؛ دنلوب، *الخزر*، ص ٢٨٠ – ٢٨٢؛ كويستلر، *الخزر*، ص ١٤٢ – ١٤٤ .

هؤلاء القوم اللارشية ... وفى بلاده خلق من المسلمين تجار وصناع غير اللارشية ... ولهم مسجد جامع، والمنارة تشرف على قصر الملك، ولهم مساجد أخرى فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن، فإذا اتفق المسلمون ومن بها من النصارى لم يكن للملك بهم طاقة ..." . وعلى هذا النحو يمكننا إجمال كلمات المؤرخين والجغرافيين المسلمين عن وضع المسلمين فى بلاد الخزر :

أولاً، كان السكان المسلمون فى خزاريا هم الأغلبية الساحقة بتعدادهم الذى كان يبلغ عشرة آلاف مسلم، وبما لهم من مساجد بلغت ثلاثين مسجداً غير المسجد الجامع . **ثانياً**، كانت الأقلية من اليهود، الذين كان منهم الخاقان نفسه، وتعدادهم أربعة آلاف يهودى(٥٨). **ثالثاً**، كان الخاقان يعتمد على المسلمين فى حروبه، حيث كانت غالبية الجيش الخزرى، الذى كان قوامه اثني عشر ألف مقاتل من المسلمين . **رابعاً**، كان خاقان الخزر يضع فى حسبانه العواقب الوخيمة التى تعود عليه من اتحاد المسلمين مع النصارى، حيث قال المسعودى "... لم يكن للملك بهم طاقة ..."، وهو ما حدث بالفعل إزاء رد الفعل الإسلامى تجاه تحالف الخاقان مع الروس ضد المسلمين، فقد تحالف المسلمون مع النصارى ضد خاقان الخزر والروس . ومن ثم أسرع الخاقان بإبلاغ الروس بما سيحدث لهم من جراء هذا التحالف الإسلامى – المسيحى .

لقد أخل خاقان الخزر بالشروط التى أملاها عليه المسلمون مقابل الإقامة والخدمة العسكرية فى الجيش الخزرى؛ ويبدو أنه تحالف مع الروس سراً وسمح لهم بالمرور عبر أراضيه لمهاجمة بلاد القوقاز الإسلامية مقابل الحصول على نصف الغنائم . وعندما اكتشف المسلمون المقيمون فى خزاريا هذا التحالف، بعد هجوم الروس على بلاد القوقاز، ثاروا على خاقان الخزر وتحالفوا مع النصارى وقرروا جميعا قتال الروس . وهكذا خرج المسلمون والنصارى لقتال الروس وأنزلوا بهم هزيمة فادحة ولوا على أثرها الأدبار عبر نهر أتل . أما الشيء الذى يثير الحيرة هو إجهاز البرطاس والبلغار على فلول الروس الهاربة عبر نهر أتل !!

يشير معظم الجغرافيين المسلمين إلى أن البرطاس أمة كانت تعيش بين خزاريا جنوباً وبلغار شمالاً ويخضعون لخاقان الخزر، ولهم لسان مختلف عن لسان من جاورهم من الأمم وأنهم كانوا مسلمين(٥٩). أما البلغار فكانوا يعيشون شمالاً على

---

(٥٨) الإصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١٢٩؛ ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص ٣٩٠ .

(٥٩) القزوينى، *آثار البلاد*، ص ٥٧٩؛ ياقوت الحموى، *معجم البلدان*، جـ٢، ص١٢٧؛ *Hudud al-'Alam*, p. 162.
ولمزيد من التفاصيل انظر الفصل التالى من البحث

ضفاف نهر الفولجا وعاصمتهم مدينة بلغار، وكانوا يدينون بالإسلام أيضاً، ولهم مسجد جامع[٦٠]. وقد كانوا يقفون دائماً فى وجه الروس لمنعهم من التوسع صوب مصبات الفولجا[٦١]. وبالرغم من الحروب والمنازعات التى كانت تقع بين البرطاس والبلغار[٦٢] إلا أنهم كانوا يتحدون عند ظهور عدو لهم[٦٣]. وعلى هذا يمكن تفسير هجوم البرطاس والبلغار على الروس عند فرارهم أمام المسلمين عبر نهر أتل . فوحدة المصير على ضفاف الفولجا بين هذه الأمم كانت دافعا لهم للوقوف لا أمام الروس فحسب بل أمام خاقان الخزر أيضاً .

والآن يحدثنا ابن مسكويه[٦٤] عن هجوم الروس على بلاد القوقاز الإسلامية فى عام٣٣٢هـ/ ٩٤٣ - ٩٤٤م . فيروى "أن الروس قد ركبوا البحر الذى يلى بلادهم[٦٥] وقطعوه إلى نهر يعرف بالكر[٦٦]؛ ولما وصلوا إليه توجه إليهم صاحب المرزبان [هو المرزبان بن محمد أى ابن محمد بن مسافر] وخليفته على برذعة[٦٧]، وكان فى ثلاثمائة رجل من الديلم ونحو من عددهم صعاليق[٦٨] وأكراد؛ واستنفر العامة

---

[٦٠] الاصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١٣١ - ١٣٢؛ ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص ٣٩٦؛ المروزى، *طبائع الحيوان*، ص ٤٤ .

[٦١] بارتولد، و.، *تاريخ الترك فى آسيا الوسطى*، ترجمة / أحمد السعيد سليمان، (القاهرة، ١٩٥٨)، ص ٦٨

[٦٢] الكرديزى، *زين الأخبار*، ص ٤٦٥؛ المروزى، *طبائع الحيوان*، ص ٢١؛ الحميرى، *الروض المعطار*، ص ٨٨ .

[٦٣] *Hudud al-'Alam*, p. 162.

[٦٤] *تجارب الأمم*، جـ٦، ص ٦٢ - ٦٥ . انظر أيضاً، Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 147 .

[٦٥] يبدو أن الطريق الذى سلكه الروس فى هذه الحملة كان مختلفا تماما عن سابقه فى حملة ٩١٣م . فالبحر الذى يلى بلادهم هو بحر بونتس وليس بحر الخزر، الذى اتجهوا منه إلى نهر الكر . والدليل على ذلك أولا: عدم وجود ذكر للخزر أو خاقانهم، مما يدل على أن الروس اتبعوا طريقا مختلفا عن سابقه، برغم وجود الخزر كقوة سياسية فى حوض الفولجا الأدنى . ثانياً : أن ابن مسكويه يذكر أنهم قطعوا هذا البحر إلى نهر عظيم يعرف بالكر، أى أن المرحلة الثانية فى سيرهم كانت إلى نهر الكر مباشرة . ويبقى التساؤل، كيف وصلوا بمراكبهم من بحر بونتس إلى نهر الكر، برغم عدم اتصالهما ببعضهما البعض؟ وربما يكونون قد حملوا مراكبهم فى المسافة الواقعة فيما بين بحر بونتس ونهر الكر، مثلما كانوا يفعلون عند عبورهم شلالات الدنيبر، حسب وصف قسطنطين بورفيروجنيتوس.

[٦٦] نهر الكر، يقع فى أرمينية ويمر من المغرب إلى المشرق، ويخرج من جبال أذربيجان وأرمينية، ويصب فى بحر الخزر . وهو نهر كبير تجرى فيه السفن، وتقع عليه مدينة تفليس وبرذعه وغيرها، انظر، الادريسى، *نزهة المشتاق*، ص ٨٣٠؛ ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جـ٦، ص ٦٢ .

[٦٧] برذعة، مدينة كبيرة للغاية، مساحتها أكبر من فرسخ فى فرسخ، وهى قصبة إقليم آران، ومقر ملك هذا الإقليم؛ وهى ذات أهمية اقتصادية وتجارية قل أن نجد لها مثيلاً بين مدن المنطقة . لمزيد من التفاصيل عنها، انظر، الإصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١٠٨؛ ابن خرداذبه، *المسالك والممالك*، ص ١٢٢؛ أبو الفدا، *تقويم البلدان*، ص ٤٠٣؛ الدمشقى، *نخبة الدهر*، ص ١٨٩؛ المقدسى، *أحسن التقاسيم*، ص ٣٧٥؛ القلقشندى، *صبح الاعشى*، جـ٤، ص٣٦١؛ الحميرى، *الروض المعطار*، ص ٨٧؛ ياقوت الحموى، *معجم البلدان*، جـ٢، ص ١٢٠ - ١٢١؛ *Hudud al- 'Alam*, p. 143.

[٦٨] صعاليق صحتها صعاليك وهى جمع صعلوك . والصعلوك هو الفقير، انظر، *المعجم الوجيز*، (القاهرة، ١٩٩٠)، ص ٣٦٥ .

فخرج معه من المطوعة نحو خمسة آلاف رجل لجهاد هؤلاء، وكانوا مغتربين، لا يعرفون شدتهم، وحسبوا أنهم يجرون مجرى الأرمن والروم . فلما صافوهم الحرب لم تكن إلا ساعة حتى حملت الروسية حملة منكرة فهزموا العسكر وولت المطوعة جميعا وسائر العسكر إلا الديلم، فإنهم ثبتوا ساعة فقتلوا كلهم، إلا من كان بينهم فارس، واتبعوا الفل إلى البلد، فهرب كل من كان له مركوب بجملة من الجند والرعية، وتركوا البلد فنزلته الروسية وملكوه"[٦٩]. وهكذا استولى الروس على مدينة برذعة، وعندما دخلوها نادوا فى أهلها أنه "لا منازعة بيننا وبينكم فى الدين وإنما نطلب الملك، وعلينا أن نحسن السيرة وعليكم حسن الطاعة" . ولم ينصت المسلمون إليهم بل جاءت الجند من كل صوب وحدب، فكانوا "يخرجون إليهم ويهزمونهم. وكان أهل برذعة يخرجون معهم، فإذا حمل عليهم المسلمون كبروا ورجموهم بالحجارة، فكانت الروسية تتقدم إليهم بأن يضبطوا أنفسهم ولا يدخلون بين السلطان وبينهم فيقبل أهل السلامة خاصة، أما العامة ومعظم الرعاع فكانوا لا يضبطون أنفسهم ويظهرون ما فى نفوسهم ويتعرضون لهم ... فلما طال عليهم ذلك نادى مناديهم ألا يقيم فى البلد أحد من أهله، وأجلوهم ثلاثة أيام من يوم ندائهم . فخرج كل من كان له ظهر يحمله، ويحمل حرمه وولده، وهم نفر يسير وجاء اليوم الرابع والأكثر مقيمون، فوضعت الروسية فيهم سيوفهم، فقتلوا خلقا عظيما لا يحصى عددهم وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف رجل وغلام مع حرمهم ونسائهم وبناتهم . وجعلوا النساء والصبيان فى حصن داخل المدينة، وهى شهرستان ... وكانوا قد نزلوه وعسكروا به وتحصنوا فيه؛ ثم جمعوا الرجال إلى المسجد الجامع ووكلوا بأبوابه وقالوا لهم اشتروا أنفسكم"[٧٠]. وإذا كان ابن مسكويه لم يذكر عدد قتلى المسلمين صراحة فإن ابن العبرى ذكر أن الروس قتلوا زهاء عشرين ألف نسمة من المسلمين[٧١]. وقد أشار مؤلف حدود العالم إلى أن الروس أقاموا معسكرهم فى قرية كبيرة عند باب برذعه تسمى مباراكى[٧٢].

وقد كان بالبلدة كاتب نصرانى له رأى سديد يعرف بابن سمعون[٧٣]، وكان يسعى فى السفارة بينهم، ووافق الروسية أن يبتاع كل رجل منهم بعشرين درهما .

(٦٩) ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جـ٦، ص ٩٢ - ٦٣؛ ابن الأثير، *الكامل*، جـ٦، ص ٢٩٧ .

(٧٠) ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جـ٦، ص ٦٣ .

(٧١) ابن العبرى، *تاريخ الزمان*، ص ٥٨ .

(٧٢) *Hudud al-'Alam*, p. 144.

(٧٣) قد يشير هذا الإسم لأن يكون الكاتب يهوديا، لأن أسمه من الأسماء اليهودية؛ ومع هذا لا يمكننا أن نجزم بهذا لأن ابن مسكويه ينقل عن شهود عيان من ضمنهم المرزبان نفسه، كما أن سمعون هو تعريب للمسمى الأجنبى Symeon وهو من المسميات المسيحية أيضا .

فوافقه على ذلك عقلاء المسلمين وخالف الباقون وقالوا : إنما يريد ابـــن ســمعون أن يلحق المسلمين بالنصارى فى أداء الجزية . فأمسك ابن سمعون وتوقف الروسية عـــن قتل الرجال طمعا فى هذا القدر اليسير، أن يحصل لهم من جهتهم . فلما لم يحصل لـهم شئ وضعوا فيهم السيوف، فقتلوهم عن أخرهم إلا عددا يسيرا أخرجوا فى قناة ضيقـــة كانت تحمل الماء إلى المسجد الجامع، وإلا من اقتنى نفسه بذخيرة كانت لـــه . فربمـــا وافق الواحد من المسلمين الروسى على مال يقتنى به نفسه فحضر معه إلى منزلـــه أو حانوته، فإذا استخرج ذخيرته وكانت زائدة على مال وموافقته، لا يمكن صاحبها منـــها وإن كانت أضعافاً مضاعفة عليه، وعطف بالمطالبة حتى يجتاحه . فإذا علم أنه لم يبق له عين ولا ورق ولا جوهر ولا فرش ولا كسوة أفرج عنه وأعطاه طيناً مختوماً يـأمن به من غيره، فاجتمع لهم من البلد [برذعة] شئ عظيم يجل قدره، ويعظم حظره؛ وكانوا قد حازوا النساء والصبيان ففجروا بهن وبهم واستعبدوهم"[٧٤]. على هذا النحـــو كـــان سلوك الروس مع أهل برذعة، ولا تساعدنا الروايات التاريخية سواء عند ابن مســكويه أو من نقلوا عنه، على معرفة السبب الحقيقى الذى دفع بكاتب برذعة النصرانى للقيـــام بالوساطة بين الروس والمسلمين، فلا يقدم ابن مسكويه سببا سوى أن هذا الرجل عرف عنه السداد فى الرأى !

"ولما عظمت المصيبة التى حلت بالمسلمين فى برذعة وانتشر خبرها بين البلدان الإسلامية المجاورة تنادوا بالنفير؛ وجمع المرزبان ابن محمد عسكره واستنفر النـــاس وأتاه المطوعة من كل ناحية فسار فى ثلاثين ألف رجل فلم يقاوم الروسية مع إجمـــاع هذه العدة، ولا أمكنه أن يؤثر فيهم أثراً . فكان يغاديهم القتال ويراوحه، وينقلب عنـــهم مفلولاً؛ واتصلت الحرب بينهما على هذه الصورة أياما كثيرة، فكانت الدبرة أبداً علـــى المسلمين". وعندما وجد المرزبان ابن محمد أن الدائرة تدور على المسلمين على هـــذا النحو فكر فى عمل حيلة حربية، خاصة وأن الأنباء وصلته بأن الروس عندما وصلـــوا المراغة[٧٥] تبسطوا فى أكل الفاكهة، وكانت متعددة الأنواع هناك، فمرضوا وحل بينهم الوباء، لأن بلادهم لا تنبت فيها هذه الأنواع من الفاكهة، وكانت حيلة المرزبان علـــى النحو التالى : "... فكر المرزبان فى الحيلة، ووقع له أن يكمن لهم ليلاً . وواطـــأ[٧٦] عسكره أن يبادروا الحرب، فإذا حمل عليهم القوم انهزم هو وانهزموا معه وأطمعـــهم

---

[٧٤] ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جـ٦، ص ٦٣ – ٦٤ .

[٧٥] المراغة، إحدى مدن اذربيجان وتلى أردبيل فى الكبر، وكانت فى قديم الأيام المعسكر ودار الإمارة؛ وكـــان عليها سور خربه ابن أبى الساج . انظر، الاصطخرى، *المسالك والممالك*، ص١٠٨ .

[٧٦] (واطأ) فلانا على الأمر أى وافقه، انظر، *المعجم الوجيز*، ص ٦٧٣ .

بذلك في العسكر والمسلمين . فإذا تجاوزوا موضع الكمين عطف المرزبان ورجاله عليهم، وصاحوا بالكمين بشعار وافقوا عليه، فإذا حصر الروسية في الوسط تمكنوا منهم. فلما أصبحوا على هذه المكيدة تمكنوا منهم تقدم المرزبان وأصحابه، وبرز الروسية وأميرهم [المقصود هنا قائدهم] راكباً حماراً . وخرج رجاله واصطفوا للحرب فجروا على عادتهم وانهزم المرزبان والمسلمون واتبعهم الروسية حتى تجاوزوا موضع الكمين واستمر الناس على هزيمتهم"[٧٧].

وعندما رأى المرزبان ابن محمد هذه الحالة التى عليها المسلمون "صاح بهم واجتهد بهم أن يراجعوا الحرب فلم يفعلوا، لم تمكن فى قلوبهم من هيبتهم، وهنا علم إن استمر الناس على هزيمتهم عاد القوم فلم يخف عليهم موضع الكمين فيكون ذلك هلاكهم" . ويقول المرزبان أنه عاد بمفرده مع خاصته وغلمانه وبعض من تبعهم إلى ميدان القتال . وعندئذ نادى المرزبان على الكمين فخرجوا من مكمنهم وتمكنوا من الروس حتى قتلوا سبعمائة منهم كان من بينهم قائدهم، بينما فر الباقون إلى حصن المدينة ليتحصنوا به؛ وكانوا قد شحنوه بغلال كثيرة وميرا عظيمة، وحشدوا فيه السبايا والأموال التى غنموها، وقد اشتد المرزبان فى قتالهم، إلا أنه لم يستطع أن يظفر بهم، فلم تكن له حيلة حينئذ سوى الصبر عليهم[٧٨]. وفى هذه الأثناء وقعت بعض القلاقل السياسية فى بغداد، كان من آثارها محاولة خلع المرزبان ابن محمد بن مسافر، فاضطر إلى ترك بضعة آلاف من رجاله ومن المتطوعين لقتال الروس، ومضى بقواته لقتال ابن عبد الله الحسين بن سعيد الذى جاء للاستيلاء على أذربيجان[٧٩].

ولم يزل أصحاب المرزبان وجنودهم يقاتلون الروس ويحاصروهم فى الحصن، إلى أن ضجر الروس من طول الحصار لاسيما بعد انتشار المرض بينهم. وكان الرجل إذا مات منهم دفنوا معه سلاحه وثيابه وآلته وزوجته أو غيرها من النساء[٨٠] وغلامه إن كان يحبه على سنة لهم[٨١]. وعندما رأى المسلمون هذا نبشوا قبورهم واستخرجوا

---

[٧٧] حتى هذا الجزء من الأحداث كان ابن مسكويه ينقل عن أحد شهود العيان ويدعى أبو العباس ابن ندار، انظر، *تجارب الأمم*، جـ٦؛ ص ٦٣ . أما الأحداث التالية فينقلها عن لسان المرزبان نفسه، انظر، *تجارب الأمم*، جـ٦، ص ٦٥ .

[٧٨] ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جـ٦، ص ٦٥ .

[٧٩] عن هذه الأحداث انظر، ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جـ٦، ص ٦٥ - ٦٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، جـ٦، ص ٢٩٨ .

[٨٠] يشير هذا الى أن الروس اصطحبوا معهم نساءهم وزوجاتهم فى الحروب، وهو الأمر الذى رأيناه فيما بعد عند قتالهم للبيزنطيين أمام دريسترا سنة ٩٧١م بقيادة أميرهم سفياتوسلاف .

[٨١] عن طقوس دفن الموتى عند الروس، انظر، ابن فضلان، الرسالة، ص ١٨٠ - ١٨٧؛ الكرديزى، *زين الأخبار*، ص ٤٧٥ .

منها سيوفا يتنافس فيها إلى اليوم لمضائها وجودتها[٨٢]. ونظرا لتناقص عدد الروس رويدا رويدا خرجوا من حصنهم ليلا، وحملوا على ظهورهم كل ما أمكنهم من المال والجواهر والثياب الفاخرة، وأحرقوا الباقى، واصطحبوا معهم من استحسنوه من النساء والفتيات والصبيان، ومضوا إلى نهر الكر وهناك كانت السفن فى انتظارهم مع ملاحيها وثلاثمائة رجل من الروس ... وعلى هذا النحو رحلوا عن البلاد[٨٣]. ويضيف ابن الأثير أن أصحاب المرزبان عجزوا عن اتباعهم وأخذ ما معهم فتركوهم، وطهر الله البلاد منهم[٨٤]. وقد استمر احتلال الروس لمدينة برذعة والمناطق المجاورة لها عاما كاملا[٨٥].

وبعد انتهاء ابن مسكويه من روايته عن الهجوم الروسى على القوقاز ٣٣٢هـ/ ٩٤٣ - ٩٤٤م، تقابلنا عدة ملاحظات تاريخية، لزاما علينا عرضها وتحليلها قدر المستطاع .

أولاً : لا تبدو لنا أسباب واضحة حتى الآن لهجوم الروس على برذعة غير الأسباب السياسية، والتى أشار إليها ابن مسكويه فى سياق حديثه عنه؛ فقد ذكر أن

---

(٨٢) سيوفهم صفائح مشطبة أفرنجية . انظر، ابن فضلان، الرسالة، ص ١٧٥ . أما البيرونى فقد أسهب فى الحديث عن سيوف الروس وكيفية صناعتها، انظر، *كتاب الجماهير فى معرفة الجواهر*، (حيدر آباد، ١٣٥٥هـ)، ص ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٤ .

(٨٣) ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جـ٦، ص ٦٢ - ٦٥؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، جـ١١، (القاهرة، د.ت)، ص٢٠٨؛ المروزى، *طبائع الحيوان*، ص٢٣؛ ابن العبرى، *تاريخ الزمان*، ص٥٨؛ ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص٣٣٩؛ ياقوت الحموى، معجم *البلدان*، جـ٥، ص٣٠١؛ كويستلر، *الخزر*، ص١٤٥؛ دنلوب، *الخزر*، ص ٣١٨ - ٣١٩؛
Chadwik, *Russian History*, pp. 52 - 58; Vernadsky, *Crimea*, p. 256.

(٨٤) ابن الأثير، *الكامل*، جـ٦، ص٢٩٧ . هناك رواية للمؤرخ الأرمنى موسى الكالانكاتوكى *Moses of Kalankatuk*، نقلتها لنا شادويك تختلف بعض الشئ عن تلك التى رواها ابن مسكويه . ومواضع الخلاف بينهما هى فى قوله "... وفى نفس الوقت انتشر هناك شعب، أجنبى الشكل، جاء من بلاد الشمال، وكان له ظهورا غريبا، وهو ما يطلق عليه اسم *Ruzik* . وقد وصل الى بحر قزوين فجأة فى غضون ثلاثة أيام، واستولى على برذعه [يسميها بارتاف *Partav*]، وأخضعوها للسيف . وهذه المدينة لم تكن لديها أية وسائل دفاعية، وتصرفوا بحرية مع كل فئات الشعب . وقد حاصرهم السلار نفسه، إلا أنه لم يستطع تدميرهم بسبب تداعى قوته العسكرية . لكن نسوة المدينة، اللاتى عرفن الطريق لذلك، صنعن شرابا روسيا أسموه كوب الموت . ولما علم الروس بالخديعة قاموا بتقطيع النساء وابنائهم دون رحمة . وبعد أن استمروا فى هذا ستة أشهر تركوا المدينة خاوية مقفرة . أما البقية الباقية فقد عادت الى أراضيها، بطريقة مجهولة لنا، ومعهم غنائم من كل نوع" . وقد أظهر المؤلف الأرمنى هنا أن الروس مكثوا ستة أشهر وليس عاما كما ذكرت المصادر الإسلامية، وأن الحملة وقعت فى عهد السلار محمد بن مسافر وليس فى عهد ابنه المرزبان ابن محمد بن مسافر . ويفسر شدويك هذا بأن المرزبان ابن محمد بن مسافر كان قد أسر أبيه، وأنه كان على قيد الحياة عند وقوع الهجوم الروسى على برذعة، ومن ثم فقد اختلط الأمر على موسى الكالانكاتوكى . ويميل الباحث إلى رواية ابن مسكويه تماما لأنه نقلها بدقة شديدة عن شهود عيان كان منهم المرزبان نفسه . عن رواية موسى الكالانكاتوكى ومناقشتها، انظر، Chadwik, *Russian History*, pp. 55 - 56.

(٨٥) ياقوت الحموى، معجم *البلدان*، جـ٥، ص٣٠١؛ كويستلر، *الخزر*، ص١٤٥ .

الروس عندما دخلوا برذعة قالوا لأهلها "... لا منازعة بيننا وبينكم فى الدين، وإنما نطلب الملك وعلينا أن نحسن السيرة وعليكم حسن الطاعة[٨٦] ...". ومن هذه العبارة يمكن استنتاج أن الروس كانوا يسعون إلى التوسع الخارجى فيما وراء نهر الفولجا، الذى كان تحت سيادة الخزر والبلغار بالدرجة الأولى، ولم يكن هدفهم هدفاً دينياً، فحتى ذلك الوقت كان الروس من عبدة الأوثان؛ وقد أشاروا إلى ذلك صراحة فى حديثهم لأهل برذعة . أما الدافع الاقتصادى فلا يمكننا الجزم به الآن، إلا بعد عرض الأهمية الاقتصادية لبلاد القوقاز الإسلامية، وهو ما نرجئه قليلا لحين الانتهاء من استعراض باقى الحملات الروسية عليها .

ثانياً : انعدام رد فعل الخلافة العباسية فى بغداد تجاه هذه الأحداث التى وقعت على بعد عدة أميال منها، وليس من المستبعد بطبيعة الحال أن تكون أخبارها قد وصلت إلى بغداد نفسها[٨٧]. واقتصرت المقاومة الإسلامية للروس على المجاهدين المحليين والبلاد المجاورة. ومن المعلوم أن الخلافة العباسية فى هذه الفترة من عمرها، العصر العباسى الثانى، كانت تمر بأحلك فترات عمرها، حيث الوزراء العجم والترك الذين سيطروا عليها وكان جل اهتمامهم هو الإبقاء على الخليفة العباسى بين جدران قصره والهيمنة على شئون الخلافة فى كل أرجائها. وليس أدل على ذلك من القتال الذى دار بين ناصر الدولة ومعز الدولة عقب وفاة توزون فى بغداد، وإرسال أبو عبد الله الحسين بن سعيد للاستيلاء على أذربيجان فى نفس الوقت الذى كان المرزبان ابن محمد بن مسافر يجاهد فيه ضد الروس[٨٨].

ثالثاً : عدم لجوء الروس إلى خاقان الخزر، الذى لم يرد له ذكر فى الأحداث، على الرغم من أن الخزر كانوا قوة سياسية فى منطقة الفولجا الأدنى . وقد ثبت لنا أن الروس اتخذوا طريقاً مغايراً عند هجومهم على برذعة، غير الذى سلكوه فى حملتهم السابقة فى عام ٣٠٠هـ / ٩١٣م على بلاد القوقاز الإسلامية . ومن خط سير حملة الروس فى عام ٣٣٢هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤م على برذعة يمكننا استنتاج أن الروس تجنبوا الاصطدام بالخزر، فقد رحلوا عبر بحر بونتس ومنه مباشرة إلى نهر الكر، الذى يقع خلف جبال القوقاز . فلماذا إذن تجنب الروس الخزر، ولم يتحالفوا معهم

---

[٨٦] ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جـ٦، ص٦٣ .

[٨٧] حدث فى حملة الروس على آبسكون فى عام ٩١٠م أن كتب أبى درغام أحمد بن القاسم إلى أبى العباس يخبره بما حدث، ومع هذا انعدم رد فعل الخلافة العباسية. انظر،
Ibn Sfandiyar, *Tabaristan*, p. 198.

[٨٨] ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جـ٦، ص ٦٥ - ٦٦ .

كالمرة السابقة؟ ليس هناك ثمة شك فى أن الضغط الداخلى الذى مارسته الأغلبية المسلمة على خاقان الخزر جعلته يفكر بدلاً من المرة ألف مرة قبل أن يقدم على محالفة الروس، ومن ثم لم يكن بمقدوره التحالف معهم فى هذه المرة. وقد يكون من المحتمل أن الروس بعثوا إليه يطلبون مثل هذا الطلب، إلا أنه لم يكن فى استطاعته الموافقة، ومن ثم تحتم على الروس تغيير خط سيرهم نحو برذعة .

جدير بالذكر أن العلاقات بين الخزر والروس قد أصابها بعض التوتر عقب حملة الروس الفاشلة على القوقاز فى عام ٣٠٠هـ / ٩١٣م . فبعد أن نفذ الروس اتفاقهم مع خاقان الخزر وبعثوا له بنصف الغنيمة تخاذل فى حمايتهم، وهم يعبرون عبر أراضية فى نهر أتل، بدليل هجوم البرطاس عليهم وهم من أتباعه، ثم هجوم البلغار عليهم أيضا. ومما قد يؤكد زعمنا هذا تلك العبارة الهامة التى وردت عند خاقان الخزر يوسف فى خطابه إلى حسداى بن شبروط بالأندلس[٨٩]. يقول الخاقان يوسف "... وأنا أحرس بعون الله، مصب النهر [الفولجا]، ولا أسمح للروس القادمين فى سفنهم أن يغزوا بلاد العرب ...، وأنا أخوض ضدهم [الروس] حروباً ضارية؛ لأننى إذا أذنت لهم بذلك فسوف يكتسحون بلاد المسلمين ربما حتى بغداد"[٩٠]. ولسنا بصدد تحليل هذه العبارة بل ما يهمنا منها هو ما تعكسه من حرص الخاقان على عدم السماح للروس بمهاجمة الأراضى الإسلامية، وليس هذا بطبيعة الحال حباً فى المسلمين، فما أكثر الحروب التى دارت بين الجيوش الإسلامية وبين الخزر بدءاً من عصر الخلفاء الراشدين وحتى عصر الدولة الأموية[٩١]، ولكن نتيجة لضغط الأغلبية المسلمة التى تعيش فى خزاريا فى القرن العاشر الميلادى، والتى كان يعتمد عليها خاقان الخزر فى حروبه فى المنطقة؛ بالإضافة إلى مدى الخطر الذى يشكلونه فى خزاريا إذا اتحدوا مع النصارى هناك أيضا ضد الخاقان . لأجل هذا كان محتما على خاقان الخزر أن يحجم عن التعاون العسكرى مع الروس فى حملتهم على برذعة سنة ٣٠٠هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤م . ومما زاد التوتر بين الطرفين ذلك الهجوم الذى قام به الروس ضد الخزر بإيحاء من بيزنطة فى الفترة من عام ٩٣٢ - ٩٤١م؛ والذى على أثره لم يظهر دور

---

[٨٩] ولد حسداى بن شبروط سنة ٩١٠م فى قرطبة لأسرة يهودية، اشتغل بالطب والوزارة فى عهد عبد الرحمن الثالث . وعندما علم بوجود مملكة لليهود تسمى خزاريا أرسل إلى ملكها يستفسر منه عن ماهيتها وطبيعتها وعنه هو نفسه . وقد رد عليه خاقان الخزر المسمى يوسف آنذاك بخطاب وصل الينا، غاية فى الأهمية . وتعرف هذه المراسلات باسم المراسلات الخزرية، وتنسب إلى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى . انظر، كويستلر، *الخزر*، ص ٧٩ - ٩٥؛ دنلوب، *الخزر*، ص ١٧٦ - ٢١٢ .

[٩٠] نقلا عن : كويستلر، *الخزر*، ص ٩٣ .

[٩١] انظر، دنلوب، *الخزر*، ص ٧١ - ١٣٤ .

للخزر فى حملة الروس هذه على بلاد القوقاز الإسلامية . وعلى هذا ينبغى أن نـدرك أن هذا الإحجام الخزرى قد خلق توتراً فى العلاقات بين الخزر والروس مما سـيترتب عليه عواقب وخيمة فيما بعد[٩٢]

رابعاً : الملاحظة الأخيرة التى تلفت النظر هنا هى تباين مدة احتـلال الـروس لبلاد القوقاز الإسلامية . ففى عام ٣٠٠هـ / ٩١٢ - ٩١٣م احتل الـروس الجزائـر الواقعة بالقرب من آبسكون وبلاد النفاطة بضعة شهور . وفى عام ٣٣٢هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤م احتلوا برذعة سنة كاملة . وإن دل هذا فإنه يدل علـى ازديـاد مؤشـر القـوة الروسية فى المنطقة فى خلال ثلاثين عاماً على الأقل، وليس أدل على ذلـك مـن أن الروس قاموا بشن حملتين على القسطنطينية فى غضون أربعة أعوام . ففى عام ٩٤١م شن إيجور حملته الفاشلة على القسطنطينية وانسحب إلى بلاده ثم أعاد الكرة نفسها فـى عام ٩٤٤م، إلا أن الدبلوماسية البيزنطية المحنكة أثنته عن استكمالها؛ وفيما بين هذيـن التاريخين شن الروس حملة على برذعة . إذن قام الروس بثلاث حملات خارجية فـى الفترة من ٩٤١م - ٩٤٤م، كانت جميعها تهدف إلى التوسع الخارجى؛ مما يدل علـى ازدياد قوتهم العسكرية آنذاك، وهو ما سينجلى تماماً فى غضون العقدين التاليين فـى عهد الأمير الروسى سفياتوسلاف .

وبعد .. هل توقف الروس عن حملاتهم على بلاد القوقاز الإسلامية عقب حملتهم على برذعة فى عام ٣٣٢هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤م ؟ لقد توقف الروس لمدة قد تزيد علـى الأربعين عاماً عن شن حملات على بلاد القوقاز الإسلامية ويذكر المؤرخون أن هناك حملتين وقعتا فى أعوام ٣٧٧هـ / ٩٨٧م، ٣٧٩هـ / ٩٨٩م علـى بـلاد القوقـاز الإسلامية، دون أن نعرف وجهتيهما على وجه التحديد . والمصدر الإسلامى الوحيـد الذى يتحدث عن هاتين الحملتين هو كتاب جامع الدول، لأحمد بـن لطـف الله منجـم باشى، الذى لم تنشر أجزاء كبيرة منه تتحدث عن نشاط الروس العسكرى فـى بـلاد القوقاز الإسلامية فى هذه الفترة[٩٣]. وهنا سوف نلاحظ أن المدة التـى توقـف فيـها النشاط العسكرى للروس فى بلاد القوقاز الإسلامية كانت طويلة إلى حد ما مما يدفعنـا إلى أن نقلب ببصرنا فى سماء الروس فى هذه الفترة عسى أن نجد تفسيراً لهذا.

لقد قتل الأمير الروسى العظيم ايجور فى عام ٩٤٥م كمـا عرفنـا، وانشـغلت أرملته أولجا، الوصية على العرش، بالانتقام من قتلة زوجـها؛ ثـم قيامـها بزيـارة

---

(٩٢) لمزيد من التفاصيل انظر، الفصل التالى من البحث، ص ٣٣ وما بعدها .

(٩٣) Minorsky, V., *Studies in the Caucasian History*, (London, 1953), p. 76.

القسطنطينية فى عام ٩٥٧م وكذلك اهتمامها بشئون البلاد . وما أن شب ابنها سفياتوسلاف عن الطوق حتى بدأ فى تأديب القبائل السلافية والخزر، الأمر الذى أزعج بيزنطة . لأنها لم تكن تستطيع أن تنام قريرة العين، وهناك من يعبث بسيادتها على شعوب السهوب . وعلى الفور فكر الإمبراطور نقفور فوقاس فى ضرب الروس ببلغار الدانوب . ومن ثم طلب من سفياتوسلاف المجيء إلى بلغاريا لتأديب البلغار، ونحن نعرف جيدا ما نجم عن ذلك من أحداث دامية فى البلقان حتى مصرع الأمير الروسى سفياتوسلاف على أيدى البشناق فى عام ٩٧٢م . وبمصرع سفياتوسلاف يدخل الروس فى دوامة الحرب الأهلية بين ياروبولك *Yaropolk* وأخويه، والتى انتهت بانفراد فلاديمير *Vladimir* بالحكم بعد انتصاره على أخيه ياروبولك فى عام ٩٨٠م[٩٤]. وسوف نلاحظ هنا أن حملات الروس على بلاد القوقاز، فى عهد فلاديمير، تكاد تتزامن مع حملته على مدينة خرسون البيزنطية . فهل بعث فلاديمير بجزء من قواته من هذا الموقع المكتسب إلى بلاد القوقاز ؟ فى الواقع لا يمكننا الإجابة على هذا التساؤل، لعدم وجود الأدلة التاريخية التى تساعدنا على وضع تصور معين لمثل هذه الأحداث . على كل، ربما أرسل فلاديمير حملته الأولى ٣٧٧هـ/٩٨٧م قبل ذهابه إلى خرسون، وحملته الثانية ٣٧٩هـ/٩٨٩م عقب عودته إلى كييف برغم أننا لا نملك أدلة تاريخية على ذلك .

على كل حال، يخبرنا منجم باشى أن الروس قاموا بشن غارة على شروان الواقعة ببلاد القوقاز فى عام ٤٢١هـ/١٠٣٠م[٩٥]. ونظراً لما فى النص من إشكاليات لغوية ينبغى علينا ذكر نص منجم باشى عن هذا الهجوم "وفى عام ٤٢١هـ أرسل الفضل[٩٦] ابنه وولى عهده موسى بن الفضل[٩٧] فى جمع إلي قتال ابنه الآخر عسكويه ببيلقان، وكان قد عصى على أبيه وأخيه، وجمع جمعا وأراد الخروج على أبيه، فسار موسى واستعان بالروسية على أخيه، لأن طائفة منهم كانت قد خرجت بنحو ثمان وثلاثين سفينة إلي بلاد شروان، فحاربهم صاحب شروان منوجهر . (فعقد منوجهر) الرس لمنعهم من الصعود، فغرقوا جماعة من المسلمين؛ فأخرجهم موسى بن الفضل وأعطاهم أموالا جمة، وحملهم إلي بيلقان فأخذها بهم، وقبض على أخيه عسكويه،

---

(٩٤) *R.P.C.*, pp. 91 - 94 .

(٩٥) كانت أسرة الشدادية تحكم اقليم آران، ومؤسسها هو محمد بن شداد ين قرطق . انظر، منجم باشى، *باب فى الشدادية من كتاب جامع الدول*، ملحق مع كتاب :

Minorsky, V., *Studies in the caucasian History*, (London, 1953), pp. 1 - 3.

(٩٦) هو الفضل بن محمد بن شداد، تولى الحكم عام ٣٧٥هـ/٩٨٥م . انظر، منجم باشى، *الشدادية*، ص١١

(٩٧) كان موسى بن الفضل وليا للعهد فى إقليم آران عند وقوع هذه الأحداث، على حد ذكر منجم باشى، وليس حاكما له كما ذكرت الدكتورة ليلى عبد الجواد، انظر، *الروس*، ص ٣٩ .

فقتله. ثم أن الروسية خرجوا من آران إلي الروم وامتدوا إلي الروس"[٩٨]. لقد دخل الروس إلي مناطق كانت واقعة فى نطاق نزاع أسرة الشدادية، وعلى الرغم من أن منوجهر صدهم ووقف أمامهم، إلا أن الفضل أرسل ابنه وولى عهده موسى بن الفضل إلي الروس يطلب معونتهم العسكرية ضد أخيه . ولم يكن الروس معنيين بطبيعة الحال بماهية هذا النزاع، متى كان هناك مقابل سيدفع لهم . وبالفعل أغدق عليهم موسى بن الفضل الأموال ليسيروا معه ضد أخيه، وبمعنى آخر يمكن القول أن الروس عملوا كمرتزقة لصالح الفضل بن محمد بن شداد وولى عهده موسى بن الفضل، وهذا شئ غير مستغرب عليهم . وبعد قضاء حاجة الفضل وابنه موسى رحل الروس إلي بلادهم، وكان من الطبيعى أن يمروا بأراضى البيزنطيين، والمقصود هنا الممتلكات البيزنطية فى منطقة القرم . وترد عبارة فى النص قد يستعصى فهمها على المرء، يقول فيها منجم باشى "... فعقد منوجهر الرس لمنعهم من الصعود، فغرقوا جماعة من المسلمين..." والفعل عقد هنا يقف حائلا دون فهم العبارة ! يقول علماء اللغة أن هذا الفعل من معانيه ربط أو جعل الشيء غليظا أو جامدا بفعل البرودة أو الحرارة[٩٩]. وبرغم عدم تطابق معانى الفعل مع الأحداث، إلا أنه ينبغى اعتبار أن الكاتب يريد القول أن منوجهر وقف فى وجه الروس، لمنعهم من الانتشار فى المنطقة والصعود شمال شروان نحو مدن القوقاز الإسلامية كبرذعة وبلاد النفاطة وأردبيل وغيرهم . لكن تكمن المشكلة الرئيسية فى كلمة "الرس" التى أوردها المؤلف، فهل كان يقصد نهر الرس أم أنه تصحيف لأسم الروس ؟

يحدثنا مؤلف حدود العالم عن نهرين أحدهما يسمى نهر الرس، وهو نهر يجرى فى شمال إقليم الغز، وهو نهر كبير مياهه ذات لون أسود ومذاق سيئ، وينبع من الجبل الذى يقع على الحدود بين الكيماك والخرخيز، ويعبر إقليم الغز ويصب فى بحر الخزر[١٠٠] . ويذكر مينورسكى أن هذا النهر متصل بنهر إرتش وأنه يقع فى منطقة الأورال، ومن ثم فهو أبعد ما يكون عن الروس وعن نهر الفولجا[١٠١]. أما النهر الثانى فيسميه نهر الروس، وهو نهر ينبع من إقليم الصقالبة الداخلى ويجرى فى اتجاه شرقى حتى يصل إلي حدود الروس؛ وهناك يلتف حول بعض مدنهم مثل كييف، ليتجه بعد ذلك صوب الجنوب نحو حدود البشناق حيث يصب فى نهر أتل[١٠٢]. ويقول

---

(٩٨) منجم باشى، *الشدادية*، ص ١١ - ١٢ .

(٩٩) *المعجم الوجيز*، ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(١٠٠) *Hudud al-'Alam*, p. 75.

(١٠١) Minorsky, *Commentary*, p. 215.

(١٠٢) *Hudud al-'Alam*, p. 75، انظر أيضاً، الدمشقى، *نخبة الدهر*، ص ١٠٦.

مينورسكى أن هذا النهر إما المجرى العلوى لنهر الفولجا الواقع أعلى نقطة اتحاده مع نهر كاما، أو نهر الدون[١٠٣]. وبناء على وصف مؤلف حدود العالم لهذين النهرين لا ينطبق أى منهما على كلمة "الرس" والواردة عند منجم باشى . ولكى نجزم بأن هذه الكلمة ما هى إلا تصحيف لكلمة الروس، لابد أن نشير إلي أن المسلمين أطلقوا عليهم اسم الروس أو الروسية، أما البيزنطيون فقد أطلقوا عليهم اسم الروس Rus / Pως أو السكيذيون Θκυζοι.

وعلى هذا فقد نتج التصحيف عن ناشر النص مينورسكى، وليس مؤلفه منجم باشى . وبهذا يستقيم معنى العبارة، لتعنى أن منوجهر وقف فى وجه الروس لمنعهم من الصعود شمالا نحو مدن القوقاز الأخرى، وقد أغرقوا [وليس فغرقوا كما فى النص] جماعة من المسلمين . وأيا كان الأمر فقد عاد الروس إلى بلادهم كما مر بنا. ويعتقد مينورسكى أن هدف الروس من هذه الإغارة كان الدوران حول بحر بونتس، والاستيلاء على إمارة تموتوراكان[١٠٤]، الواقعة عند مدخل بحر أزوف والتى يملكها مستسلاف *Mstislav*، شقيق ياروسلاف *Yaroslav*، أمير كييف . فقد كانت تقف فى وجه توسعات ملك ياروسلاف فى تلك المنطقة[١٠٥].

وفى عام ٤٢٢هـ / ١٠٣١م توفى الفضل بن محمد بن شداد، حاكم آران، وكانت مدة حكمه سبعة وأربعين عاما، ليتولى الإمارة بعده ابنه موسى بن الفضل بن محمد بن شداد فى ذى الحجة عام ٤٢٢هـ / نوفمبر ١٠٣١م . وفى عهده هاجم الروس بلاده، فالتقى بهم عند بلاد النفاطة، ودارت رحى القتال بينهما، وقتل منهم موسى بن محمد خلقا كثيرا، وأخرجهم من البلاد منتصرا عليهم[١٠٦]. وفى طريق عودتهم إلي بلادهم أوقع بهم غازى حاكم الباب والأبواب[١٠٧] فى ممر، واستولى على ما كان معهم من غنيمة بعد أن أبادهم[١٠٨].

---

(١٠٣) Minorsky, *Commentary*, pp. 216 - 217.

(١٠٤) Minorsky, *Studies*, p. 77.

(١٠٥) Vernadsky, *Kievan Russia*, p. 68.

(١٠٦) منجم باشى، *الشدادية*، ص ١٢ .

(١٠٧) الباب والأبواب، مدينة محصنة تقع على بحر الخزر. يعتقد أن الذى بناها كسرى أنوشروان ليدفع بها أذى الأمم المجاورة له، لاسيما الخزر . ويطلق عليها أيضا أسم دربند خزران . عنها انظر، الاصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١٠٩ - ١١٠؛ المسعودى، *مروج الذهب*، جـ١، ص١٠٩؛ المقدسى، *أحسن التقاسيم*، ص ٣٧٦؛ الدمشقى، *نخبة الدهر*، ص ١٨٩؛ القلقشندى، *صبح الأعشى*، جـ٤، ص ٣٦٤ .

(١٠٨) Minorsky, *Studies*, p. 77.

وأخيراً من المحتمل أن الإغارة التى شنها الآلان والسريريون على بلاد شـروان فى عام ٤٢٣هـ/١٠٣٢م كانت بالاشتراك مع الروس، على حد قول مينورسكى[١٠٩].

والآن وبعد الانتهاء من الحديث عن الهجمات التى شنها الروس على بـــلاد القوقـــاز الإسلامية فى أعوام ٢٥٠هـ / ٨٦٤م، ٢٩٨هـ / ٩١٠م، ٣٠٠هـ/ ٩١٢ - ٩١٣م، ٣٣٢هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤م، ٣٧٧هـ / ٩٨٧م، ٣٧٩هـ / ٩٨٩م، ٤٢١هـ / ١٠٣٠م، ٤٢٢هـ / ١٠٣١م، علينا حصر المدن والبلاد الإسلامية الواقعة فـــى بـــلاد القوقاز، والتى هاجمها الروس فى تلك الأعوام . سوف نجـــد أن هجمـــات الـــروس تركزت على آبسكون، الجيل، طبرستان، آران، بلاد النفاطة، جرجـــان، أذربيجـــان، برذعة، شروان، الديلم . وهذا سوف يدفعنا بطبيعة الحال للقول، لمـــاذا كـــانت بـــلاد القوقاز الإسلامية بالذات هدفا للروس فى الجبهة الشرقية لهم، والتى كانت بها مجموعة كبيرة من القوى السياسية، كالخزر والبلغار، والبرطاس، والغز، والـــلان، والســـرير وغيرهم ؟! هل كانت هذه الحملات التوسعية بهدف السيادة، كما قال الـــروس لأهـــل برذعة فى عام ٣٣٢هـ/ ٩٤٣ - ٩٤٤م ؟ وللإجابة على مثل هذا التساؤل لا يمكننـــا البحث فى مقياس القوة لكل هذه القوى الشرقية لمقارنتها بالقوة الروسية، ولكن يمكننـــا البحث فى طبيعة مدن القوقاز الإسلامية، والذى قد يسفر عن سبب يصير أقوى من كل الأسباب التى دفعت بالروس إلي بلاد القوقاز الإسلامية .

يقول المؤرخون والجغرافيون المسلمون عن هذه المدن ما يلى : فأما الجيـــل أو جيلان فهى "... شديدة الأمطار، كثيرة الأنهار، كثيرة الفواكـــه ... وجميـــع مبانيـــها بالآجر مفروشة أيضا كما فى بغداد ... وبها حمامات يجرى إليها الماء من الأنـــهار، والبقر والغنم عندهم بكثرة، وأسعارهم متوسطة إلي الرخص؛ ... بها الرمان والبلـــوط والفواكه .. وخيلهم براذين، وفى سروجهم المحلى بالفضة وغيره ..."[١١٠]. أما الديلـــم فيصفها المقدسى على النحو التالى[١١١] "هذا إقليم القز والصوف، به ضيـــاع حـــذاق، وفواكه تحمل إلي الآفاق، ... كثير الأمطار، مستقيم الأسعار، مصر طريف، ... بحره عميق، به مدن تطيف، به أسماك سريه، وضياع جليلة وفواكـــه لذيـــذة ... بـــه تيـــن وزيتون واترنج وخرنوب، كثير العناب، حسن الأعناب، رساتيق رحاب، ومدن طيـــب ... وخيش عجاب، واسم كبير، وماء غزير، ودخل كثير، وبـــز خطـــير ..." . أمـــا طبرستان فقد اشتهرت بأنها كثيرة الأسماك والثوم وطير الماء، وبها مـــزارع الكتـــان

---

(١٠٩) Minorsky, *Studies*, p. 77.

(١١٠) القلقشندى، *صبح الأعشى*، جـ٤، ص٣٨٠؛ أبو الفدا، *تقويم البلدان*، ص ٤٢٦ - ٤٢،٧

(١١١) المقدسى، *أحسن التقاسيم*، ص ٣٥٣ .

والقنب[112]، وخشب كثير من أصلب أنواع الأخشاب[113]. أما بلاد النفاطة (باكو)، فإنها اشتهرت بآبار النفط، الذى وصل من غزارته أنه كان يتدفق إلي سطح الأرض من تلقاء نفسه[114]. وجرجان "مدينة عظيمة مشهورة بقرب طبرستان ... بها فواكه الصرود والجروم ... بها البلح والنخل والزيتون والجوز والرومان والأترج وقصب السكر، وبها من الثمار والحبوب السهلية والجبلية المباحة، ... ويوجد فى صيفها جنى الصيف والشتاء من الباذنجان والفجل والجزر، وفى الشتاء الجدى والحملان والألبان والرياحين... وهى مجمع طير البر والبحر ..."[115]. أما أذربيجان فقد اشتهرت بأنها صقع جليل ومملكة عظيمة، الغالب عليها الجبال، وخيراتها واسعة، وفواكه جمة، بساتينها كثيرة، ومياهها غزيرة، بها الكثير من المدن العامرة[116]. ومدينة برذعة هى "مدينة كبيرة للغاية ... وهى نزهة خصبة، كثيرة الزرع والثمار جدا، وليس فيما بين العراق وخراسان بعد الرى وأصبهان مدينة أكبر ولا أخصب ولا أحسن موضعا ومرافق من برذعة ... مشتبكة البساتين والباغات كلها فواكه، وفيها البندق الجيد ... وبها شاهبلوط أجود من شاهبلوط الشام[117]... وببرذعة تين يحمل اليها من لصوب". كذلك كان يوجد بها العديد من أنواع الأسماك الجيدة المشهورة فى المنطقة، كما كان بها سوق مشهور يسمى سوق الكركى يعقد كل يوم أحد من كل أسبوع[118]. كما أن هذه المدينة تشتهر بالحرير والأخشاب الجيدة والبغال الجيدة وكثافة أشجار التوت بها، حتى صار مشاعاً للخلق[119]. أخيرا فإن شروان كانت مدينة كبيرة، كثيرة البلاد، حكمتها أسرة من أقوى الأسر وهى أسرة الشدادية؛ وكانت تعقد بها الأسواق، ويخترقها النهر[120].

على هذا النحو كانت تتمتع بلاد القوقاز الإسلامية بالرخاء الاقتصادى سواء الزراعى أو التجارى[121]، حتى أن الأسعار وصلت بها من الرخص أنك تبلغ فى بعض المواضع الشاة بدرهمين، وربما بلغ العسل فى بعض الأقاليم المنوين[122]

---

(112) المقدسى، *أحسن التقاسيم*، ص ٣٥٤ .

(113) الاصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١٢٤ .

(114) انظر، هـ ٤٤ من هذا الفصل .

(115) القزوينى، *آثار البلاد*، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(116) ياقوت الحموى، *معجم البلدان*، جـ١، ص ١٦٠ .

(117) نوع من الثمار يجمع فى طعمه ما بين البندق والرطب .

(118) الاصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١٠٨ - ١٠٩؛ فايز اسكندر، *أرمينيه*، ص١٤-١٥ .

(119) *Hudud al-'Alam*, p. 143.

(120) المقدسى، *أحسن التقاسيم*، ص ٣٧٦ .

(121) انظر الباب التالى من البحث .

(122) المناء وحدة مكيال كانت تسمى أيضاً فى بعض المناطق آنذاك الرطل .

والثلاثة بدرهم[١٢٣]. وهذه الحالة الاقتصادية التى كانت عليها هذه البلاد تجعلنا نضعها فى موضع مقارنة مع البيئة القاسية التى كان يعيش فى ظلها الروس، والتى أفردنا لها بضع صفحات فى بداية الحديث فى هذا الفصل، وكيف أن هذه البيئة كانت على النقيض تماما من بلاد القوقاز الإسلامية، حتى أنها دفعتهم لاحتراف السيف والكسب من ورائه . لقد كانت بلادهم لايصح فيها زرع ولا ضرع، وكان عملهم الرئيسى هو التجارة سواء مع القوى الشرقية أو مع بيزنطة أو مع شبه جزيرة اسكنديناوة؛ أما السيف فقد كان مقدمهم عندما يتاجرون أو يحاربون .

ومن المحتمل أن الثراء الاقتصادى الذى كانت تعيش فيه بلاد القوقاز الإسلامية، لاسيما وأنها كانت من البلاد المنتجة للحرير وهو من أهم السلع فى التجارة العالمية آنذاك، أغرى الروس على غزوها بل واحتلالها فى بعض الأحيان لمدة عام كامل؛ ولولا تضافر جهود المسلمين لطردهم من هذه البلاد لما انتهى احتلالهم لها بهذه السرعةِ فى كل مرة[١٢٤]. لقد كان الروس يسعون للسيطرةِ على مراكز التجارة الهامة الإستراتيجية فى منطقة القوقاز[١٢٥] والتى كان ينبغى أن يؤمنها سيادة سياسية على هذه البلاد وهو ما كشف عنه الروس عندما دخلوا مدينة برذعة فى عام ٣٣٢هـ/ ٩٤٣ – ٩٤٤م .

---

[١٢٣] الاصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١١٢ .

[١٢٤] لقد أيدنى أ.د. جوناثان شبرد J. Shepard، الأستاذ بكلية التاريخ، جامعة كامبردج، فى إحدى المراسلات بيننا بتاريخ ٣ يونيو ١٩٩٧م، أن العامل الاقتصادى كان الأساس فى هجمات الروس على المناطق الواقعة حول بحر الخزر (قزوين).

[١٢٥] Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 147.

الفصل الخامس

الروس بين البشناق وقوى الفولجا

إذا كان الروس قد أفلحوا فى النفاذ إلى بلاد القوقاز الإسلامية عدة مرات ، سواء برضى من خاقان الخزر أو بدون رضاه ، فلا يمكننا تحديد الحد الشرقى لبلاد الروس آنذاك . ولكن يمكننا القول أن الروس وصلوا بحدودهم الشرقية إلى ما قبل نهر الفولجا بقليل ، ولم يستطيعوا أن يجعلوا من هذا النهر حداً شرقيا روسياً ؛ فقد كانت تسيطر عليه مجموعة من القوى السياسية فى تلك الفترة ، بدءاً من الخزر الذين كانت تتركز ممتلكاتهم فى الجزء الجنوبى من النهر ، مروراً بالبرطاس ، حيث كانوا يعيشون على ضفاف النهر الوسطى ، وانتهاءً ببلغار الفولجا الذين كانوا يسيطرون على معظم الجزء الشمالى من النهر .

وإذا كان الأمير الروسى سفياتوسلاف قد شن هجوماً على قوى الفولجا ، وتبعه ابنه الأمير فلاديمير فى هذه السياسة ، إلاّ أن جهودهما الحربية فى هذا الجانب لم تكن بنفس المستوى الحربى الروسى مع قوى آخرى كالإمبراطورية البيزنطية على سبيل المثال . ومن ثم لم تسفر سياستيهما تجاه قوى الفولجا كما سنرى ، لا عن إخضاع هذه القوى لسلطان الروس ولا عن جعل نهر الفولجا حداً شرقياً روسياً . ومما ساهم فى هذا وجود البشناق فى المنطقة سواء شمال بحر الخزر أو شمال بحر بونتس. فقد أدى نشاطهم الحربى المحموم فى المنطقة سواء ضد بيزنطة أو الروس أو حتى القبائل الرعوية فى منطقة السهوب إلى تغيير كبير فى الخريطة السياسية لمنطقة السهوب وفى ميزان القوى السياسية . وقد دفع هذا الروس إلى الدخول فى حروب مستمرة معهم، كما دفعتهم للإغارة المستمرة على بلاد الروس كلما سنحت لهم أفلحت فى ترويض البشناق وتسخيرهم لقضاء حوائجها السياسية للسيادة على منطقة السهوب، كانت الإمبراطورية البيزنطية . وكان الفضل بطبيعة الحال يعود إلى جهازها الدبلوماسى الخطير لا إلى جيشها العتيد الفرصة . ويمكن القول أن القوة السياسية الوحيدة التى ، الذى لم يكن له وجود بين قوى السهوب .

لقد كان البشناق يشكلون تهديداً خطيراً لا على العاصمة الروسية كييف فحسب بل على بلاد الروس جميعاً . ويمكن القول أنهم حالوا بين الروس وبين سيطرتهم التامة على سواحل بحر بونتس ، وبهذا كفلوا لبيزنطة سواء بطريق مباشر أو غير

مباشر حق السيطرة والهيمنة على بحر بونتس . ونظراً لأهمية الدور الذى لعبه البشناق تجاه الروس فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، والذى تفوق به البشناق على غيرهم من القوى الشرقية ، سواء الخزر أو بلغار الفولجا ، فإنه قد يكون من المناسب أن نجعل البشناق فى مقدمة القوى السياسية الشرقية التى احتكت بالروس آنذاك ؛ ومن ثم قد يكون مناسباً أن نبدأ الحديث بهم . ولكن قبل أن نخوض فى تفاصيل العلاقات الروسية – البشناقية ، ينبغى علينا أن نلقى بعض الضوء على موطن البشناق وتطوره التاريخى .

الروس والبشناق:

يكاد يتفق المؤرخون المسلمون على أن البشناق عنصر من العناصر التركية[١]، بينما يعتبرهم البعض فرعاً من فروع الغز[٢] . أما مؤلف حدود العالم فيصنف البشناق على أساس فرعين أحدهما يطلق عليه اسم بشناق الترك[٣] ، والآخر بشناق الخزر[٤] . وقد أسفرت الدراسات التاريخية الحديثة عن معرفة أصل البشناق ، حيث اعتبرتهم شعباً من الشعوب التركية المنتمية إلى الغز ، وأن عملية انفصالهم عن الغز قد تمت فى فترة باكرة من تاريخهم منذ أن كانوا بتركستان[٥] . وقد وقع صراع بين الغز والبشناق فى أواسط القرن الثامن الميلادى ، ربما من أجل السيطرة على مواطن الكلأ الواقعة فى نطاق بحر آرال جنوب نهر سيحون[٦] ؛ الأمر الذى أسفر عن هزيمة البشناق فى هذه المنطقة وهجرتهم إلى المنطقة الواقعة شمال بحر الخزر[٧] . وقد أشار مؤلف حدود العالم إلى الموطن الذى استقر فيه البشناق فى المنطقة الواقعة حول أنهار الأمبا والأورال وأتل . وها هو يرسم لنا خريطة إثنية لهذه المنطقة ".. شرق هذا الإقليم تقع حدود الغز ، وجنوبه تلك التى لبرطاس وبارادس ؛ وغربه تقع حدود المجيار والروس ؛ وشماله نهر روتا *Rutha*[٨] .. وهو فى حرب مع كل

---

(١) ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك* ، ص ٣١ ؛ القزوينى ، *آثار البلاد* ، ص ٥٨٠ ؛ الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٥١٨ ؛ انظر أيضاً، كويستلر ، *الخزر* ، ص ١٢٦ .

(٢) بارتولد ، *الترك* ، ص ١٠١ ؛ المتولى السيد تميم ، *البشناق والبيزنطيون ، دراسة فى سياسة بيزنطة الشمالية (٨٥٠-١١٢٢م)* ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، (كلية آداب المنصورة ، ١٩٩٦) ، ص ٤٢.

(٣) *Hudud al-'Alam*, p. 101.

(٤) *Hudud al-'Alam*, p. 160.

(٥) المتولى تميم ، *البشناق* ، ص ٤٤ .

(٦) المتولى تميم ، *البشناق* ، ص ٥٠ .

(٧) Pritsak, O., " The Pecenegs, a Case of Social and Economic Transformation ", *AEM*, 1 (1975), p. 215 .

(٨) عن نهر روتا انظر، Minorsky, *Commentary*., P. 217.

جيرانه.."[٩] . ويؤكد هذا الموطن قسطنطين بورفيروجنيتوس حيث ذكر أن البشناق كانوا يقيمون على نهرى أتل وجيش *Geich*[١٠] ولهم حدود مشتركة مع الخزر والغز[١١] . وقد تعرض البشناق فى تلك المنطقة لغارات دورية من جانب جيرانهم وبخاصة الخزر ، الذين كانوا يسترقونهم ويفرضون عليهم فى كثير من الأحيان جزية سنوية[١٢] .

ويذكر قسطنطين بورفيروجنيتوس أنه منذ خمسين عاماً أو خمسة وخمسين عاماً سبقت تأليف كتابه" عن الإدارة الإمبراطورية" حدث أن اتفق الغز والخزر على قتال البشناق وطردهم من أراضيهم . وقد نجح التحالف الغزى – الخزرى فى هزيمة البشناق وطردهم من أراضيهم الواقعة شمال بحر الخزر[١٣] . وعلى أثر هذا حاول البشناق أن يستقروا فى خزاريا ، ولكن الخزر طردوهم ، وواصل البشناق هجرتهم صوب الغرب ، وعبروا نهر الدون ؛ وغزوا أرض المجيار ، فاضطر المجيار بدورهم إلى مزيد من التراجع نحو الغرب حتى المنطقة الواقعة بين نهرى الدنيبر وسيريت[١٤].

وأياً كانت الأسباب التى أدت إلى نشوب القتال بين البشناق من ناحية ، والغز والخزر من ناحية أخرى ، إلاّ أن الحقيقة الثابتة هى أن البشناق أصبحوا يقيمون الآن شمالى بحر بونتس (البحر الأسود) فى منطقة السهوب الواقعة جنوب بلاد الروس ، وبالتحديد فى منطقة ليبيديا ، التى هجروها بعد ثلاث سنوات من الإقامة فيها والاستقرار نهائياً فى المنطقة الواقعة بين نهرى الدنيبر وسيريت ، والتى تعرف باسم أتل كوزو *Atel-kouzu* ، أى أرض ما بين النهرين[١٥] .

---

(٩) المروزى ، *طبائع الحيوان* ، ص ٢٠-٢١ ؛ *Hudud al-'Alam*, p. 101.

(١٠) جيش هو الأسم التركى لنهر الأورال ، ويسمى باليونانية *Γεη* انظر، Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio, vol. II, Commentary, ed. R. Jenkins,* (London, 1962), P. 143; Minorsky, *Commentary.*, p. 213.

(١١) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٣٦ *DAI*, I, p. 167.

(١٢) المتولى تميم ، *البشناق* ، ص ٥٣ ، هـ١ ؛ كويستلر ، *الخزر* ، ص ١٢٥ .

(١٣) *DAI*, I, p. 167; Minorsky, *Commentary.*, p. 213; قسطنيطن بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٣٦ ؛ كويستلر، *الخزر* ، ص ١٢٥ .

(١٤) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٣٦ ؛ *DAI*, I, p. 167. انظر أيضاً، كويستلر ، *الخزر* ، ص ١٢٦ .

(١٥) كويستلر ، *الخزر* ، ص ١٢٦ . ولمزيد من التفاصيل الدقيقة حول أسباب هجرة البشناق إلى شمالى البحر الأسود ومراحل هذه الهجرة انظر، *DAI*, I, pp. 167, 171; *DAI*, II, p. 149; Pritsak, *Pecenegs*, pp. 216-217. قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٣٦-١٣٨ ؛ المتولى تميم ، *البشناق* ، ص ٥٣-٦٠ .

وإذا كانت الخريطة السياسية قد أعيد تشكيلها مع بداية القرن العاشر الميلادى على هذا النحو فى منطقة السهوب الواقعة شمالى البحر الأسود ، فما الأثر المباشر الذى عاد على الروس من جراء هذا ؟! .

فى واقع الأمر لا يمكننا معرفة هذا الأثر إلاّ من خلال معرفتنا لموقع البشناق الجديد من الأمم المجاورة لهم . فيخبرنا قسطنطين بورفيروجنيتوس أن البشناق صاروا يجاورون البلغار والمجيار والروس والصقالبة . وأصبحت المسافة بين البشناق والغز والخزر تستغرق رحلة خمسة أيام[١٦] ، وستة أيام إلى آلانيا ، وعشرة أيام إلى موورديا[١٧] ، ورحلة يوم واحد إلى بلاد الروس ، وأربعة أيام إلى بلاد المجيار ، ونصف يوم إلى بلغار الدانوب[١٨] . وهكذا ، من خلال المعلومات التى قدمها قسطنطين بورفيروجنيتوس يتبين لنا أن البشناق صاروا على مقربة شديدة من بلغار الدانوب ، حيث يبعدون عنهم مسيرة نصف يوم ، ومن الروس الذين يبعدون عنهم مسيرة يوم فقط، وإزاء هذا التقارب الحدودى بين الروس والبشناق من ناحية ، والتوسع الناجح للبشناق فى شمالى البحر الأسود حيث صار حدهم الشرقى نهر الدون، الذى تقع عليه قلعة ساركل الخزرية[١٩] ، وحدهم الغربى حتى دولة بلغار الدانوب ، أما جنوباً فقد أشرفوا على جزء من ساحل بحر بونتس ، وصاروا على مقربة من مدينة خرسون البيزنطية وكذلك مدينة بسبور[٢٠]، كان لزاماً على كل منهما أن يتكيف مع الآخر حتى يتمكنا من العيش فى المنطقة تحت مظلة السلام . لكن يبدو أن الطبيعة العرقية التى فُطر عليها كلاً منهما كانت أقوى مما يفترضه المرء . فالروس حتى ذلك الوقت لم يمض على وجودهم فى كييف سوى بضعة عقود ، تمكنوا خلالها من السيطرة على القبائل السلافية وجمع الجزية منها ، وتقليص النفوذ الخزرى عليها ، كما قاموا بالإغارة مرتين على القسطنطينية. وبالرغم من هذا النشاط الروسى ، إلاّ أن الدولة الروسية ، إذا جاز التعبير ، كانت لا تزال فى رحم إمارة كييف ، التى كانت

---

(١٦) كانت المسافات بين المدن والبلاد الإسلامية يطلق عليها اسم "مرحلة" أو "مسيرة يوم". والمرحلة هى المسافة التى يقطعها المسافر فى نحو يوم واحد ، وتقدر بثلاثين كيلو متراً تقريباً . ومسيرة يوم هى : المسافة التى يقطعها المسافر فى يوم واحد ، وهى تساوى نفس المسافة التى يقطعها المسافر فى المرحلة الواحدة . انظر، عبد الرحمن محمد العبد الغنى ، موقف البيزنطيين والفاطميين من ظهور الأتراك السلاجقة بمنطقة الشرق الأدنى الاسلامى ، حوليات كلية الآداب ، ١٥ (الكويت ، ١٩٩٥) ، ص ١٥-١٦ ، هـ ١٠ .

(١٧) من المحتمل أنها تشير إلى إقليم الـ Mordvinians . انظر،المتولى تميم، *البشناق*،ص ٦٣ ، هـ ١.

(١٨) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٣٨ ؛ *DAI*, I, p. 169

(١٩) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٤٧ ؛ *DAI*, I, pp. 182– 183

(٢٠) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٣٨ ؛ *DAI*, I, p. 169

مقراً لأمير الروس العظيم . ولا يمكننا بأى حال من الأحوال أن نعين الحدود الأربعة لبلاد الروس فى هذه الفترة . وعلى النقيض يمكننا القول أن البشناق تمكنوا فى خلال عدة سنوات ، منذ أواخر القرن التاسع الميلادى وحتى بدايات القرن العاشر الميلادى ، أن يستقروا فى منطقة معلومة المعالم ، على النحو الذى ذكرناه . ولم يكن البشناق من الناحية الاجتماعية يختلفون كثيراً عن الروس ، فكلاهما كان لا يزال فى طور القبلية وما يتبعها من نظم عصبية . ولكن الشئ الذى تميز به الروس عنهم أنهم كانوا تجاراً فى المقام الأول ، بينما كان البشناق رعاة يسيرون بقطعانهم بحثاً عن الكلأ[٢١] ، ومن ثم كانت إمكانية احتكاك الروس بالأمم الأخرى سلمياً أكبر بكثير من البشناق ، مما دفع بعجلة الحضارة الروسية إلى الأمام فى القرن العاشر الميلادى لتبلغ ذروتها فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى .

لقد فرضت المصالح المحلية الخاصة بكل من الروس والبشناق عليهما واقعاً لم يكن هناك مناص منه . فتخبرنا الحولية الروسية الأولى أن أول هجوم قام به البشناق على بلاد الروس كان فى عهد الأمير الروسى العظيم ايجور ، فى عام ٩١٥م، وقد انتهى بعقد اتفاقية سلام بين الطرفين ، عاد البشناق على أثرها إلى حيث خرجوا[٢٢] . وليس هناك سبب ظاهر فى المصادر التاريخية لهذا الهجوم ، لكن يبدو أنها كانت مجرد إغارة على المناطق الروسية الحدودية المشتركة مع البشناق . ولم يقف الأمير الروسى ساكناً إزاء هذا الهجوم ، فقد أغار عليهم فى العام التالى[٢٣] . ولا تقدم لنا المصادر التاريخية أيضاً أية معلومات عن الهجوم الروسى على البشناق . وهكذا بدأت أول نتائج الجوار بين البشناق والروس تأخذ طريقها إلى الظهور ، وهو الأمر الذى سجله بذكاء الجغرافى العربى ابن حوقل من أنهم صاروا شوكة للروسية[٢٤] ، أو بمعنى آخر صاروا يحاربون الروسية[٢٥] .

وقبل أن نمضى بالحديث عن الاحتكاكات الحربية التى قامت بين البشناق والروس فى القرن العاشر الميلادى ، عقب استقرار البشناق فى موطنهم الجديد ، فيما بين نهرى الدون شرقاً وسيريت ، أحد فروع الدانوب غرباً ، شمال بحر بونتس، ينبغى علينا ألا ننظر إلى ميزان القوى فى هذه المنطقة بعين الروس فقط ، بل النظر إليه

---

(٢١) الكرديزى، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٢ ؛ المروزى ، *طبائع الحيوان* ، ص ٢٠-٢١ .

(٢٢) R.P.C.,p.71.

(٢٣) R.P.C., p.71.

(٢٤) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ١٥ .

(٢٥) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٣٨ *DAI*, I, p. 169 .

بعين بيزنطة أيضاً ، لأن البشناق صاروا مجاورين للروم أيضاً على حد قول المؤرخين والجغرافيين المسلمين[٢٦] ؛ كما أنهم صاروا على مقربة شديدة من إقليم خرسون وكذلك مدينة بسبور[٢٧]. وإزاء هؤلاء المهاجرين الجدد الذين وصلوا إلى شمال بحر بونتس، مع مستهل القرن العاشر الميلادى ، كان على بيزنطة ، التى وصلتها الأنباء بالفعل عن طريق مدينة خرسون ، بما كان يحدث فى المنطقة ، أن تتخذ من سياستها التقليدية مع مثل هذه الشعوب سبيلاً للوصول إلى البشناق ، محاولة ترويضهم لحسابها . لقد تمثلت هذه السياسة فى تقديم الرشاوى المالية والثياب الحريرية الموشاة بالذهب والأقمشة الأرجوانية والهدايا الأخرى للبشناق كل عام[٢٨] ، وعقد اتفاقيات ومعاهدات الصداقة معهم[٢٩] . ومما حدا ببيزنطة لانتهاج مثل هذه السياسة مع البشناق هو أنها أدركت أهمية وجود مثل هذا العنصر الجديد فى المنطقة ، لإحداث توازن بين قوى السهوب ، وجعل ميزان السيادة السياسية يميل لصالحها . لقد كان الروس يشكلون تهديداً خطيراً لبيزنطة ، كما أن الأخيرة دخلت فى صراع مع بلغار الدانوب فى عهد قيصرهم سيمون *Symeon* البلغارى ، أضف إلى ذلك التهديد المجيارى الذى كان يلوح فى الأفق لبيزنطة . ومن نفس هذه الأسس السياسية البيزنطية ، نبعت سياسة البلغار تجاه البشناق أيضاً . فالصراع العسكرى بين البلغار وبيزنطة فى ذلك الوقت دفع كلاً من الطرفين للسعى لكسب البشناق لصالحه ، وكان البلغار هم الأسبق فى التعامل مع البشناق . ففى خلال المرحلة الأولى من هذا الصراع العسكرى ، الذى بدأ فى سنة ٨٩٣م ، شارك البشناق إلى جانب سيمون البلغارى ضد المجيار ، الذين ربما وجهتهم بيزنطة ضد البلغار ، ونتج عن هذا هزيمة المجيار وتوسيع البشناق لحدودهم حتى نهر سيريت ، أحد فروع نهر الدانوب[٣٠] .

وفى خلال المرحلة الثانية من هذا الصراع العسكرى بين بيزنطة والبلغار ، والذى بدأ فى عام ٩١٤م ، شارك البشناق فى هذا الصراع ، وللمرة الأولى فى تاريخهم ، إلى جانب بيزنطة ، وكان ذلك فى عهد وصاية الإمبراطورة زوى *Zoe* على ابنها الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس[٣١] . وكما يذكر المؤرخ ماكارتينى *Macarteny* أن كلاً من البلغار والبيزنطيين سعوا لكسب البشناق إلى صفوفهم . فقد

---

(٢٦) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ١٥ ؛ الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩٦٠ .

(٢٧) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٣٨ ; *DAI*, I, p. 169;

(٢٨) Jenkins, *Byzantium*, p.260.

(٢٩) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٥٤ ; *DAI*,I,pp.48-49;

(٣٠) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٤٣ ; *DAI*,I, p. 140 ;

(٣١) المتولى تميم ، *البشناق* ، ص ٧٤ .

قدم البلغار مشروع زواج سياسى بين خان البشناق وابنة قيصر البلغـــار[٣٢] . بينمـــا أرسل البيزنطيون يوحنا بوجاس *John Bogas* حاكم خرسون إلى البشناق الأقويـــاء ليبحث معهم إذا ما كان فى مقدورهم الانقضاض على مؤخرة سيمون البلغـــارى[٣٣] ، وبطبيعة الحال كان يوحنا بوجاس يحمل معه الهدايا والرشاوى لهم[٣٤] .

ويذكر المؤرخ الإنجليزى جنكينز *Jenkins* أن رسل البشـــناق جـــاءوا إلـــى القسطنطينية فى عام ٩١٥م وقد توصلوا إلى اتفاق مع البيزنطيين[٣٥] . وهكذا اســتجاب البشناق لطلب البيزنطيين وخرجوا لمساعدتهم ضد البلغار[٣٦] . لكن وقع خلاف بيـــن قادة الجيش البيزنطى ، وعلى مرآى من البشناق ، الذين انسحبوا بلا قتال عائدين إلـــى بلادهم تاركين البيزنطيين يواجهون مصيرهم مع البلغار[٣٧] ، حيث هزمـــت القـــوات البيزنطية هزيمة فادحة من سيمون البلغارى فى عام ٩١٧م[٣٨] . وهكذا ، من خـــلال الأحداث الماضية ، تظهر لنا الأهمية الاستراتيجية التى كان يحتلها البشـــناق آنـــذاك ، وكيف أنهم أصبحوا عنصر توازن فى المنطقة . والأهم من هذا كله أن البشناق كـــانوا يدركون أهميتهم فى المنطقة ، على حد تعبير جنكينز[٣٩] .

لقد كان البيزنطيون يدركون الفائدة العظيمة التى ستعود عليـــهم مـــن وراء تحالفهم مع البشناق ، ولهذا حرصوا كل الحرص ، كما سبق وأوضحنا ، على إرســـال الهدايا والرشاوى لهم كل عام مع مبعوث إمبراطورى[٤٠] . كما أن البيزنطيين كـــانوا يدركون تماماً أن جزءاً كبيراً من شبه جزيرة القرم كان فى أيدى البشناق[٤١] ، وأنـــهم صاروا على مقربة شديدة من خرسون ومدينة بسبور[٤٢] ، وهو الأمر الـــذى يشـــكل

---

(٣٢) Macarteny, C. "The Petchenegs", *SIEERev*, 8 (1928), p. 345.

(٣٣) Jenkins, *Byzantium*, p. 234.

(٣٤) Macarteny, *Petchenegs*, p. 345.

(٣٥) Jenkins, *Byzantium*, p. 234.

(٣٦) *R.P.C.*, p. 71.

(٣٧) *R.P.C.*, p. 71; Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 55.

(٣٨) انظر ، Theophanes Continuatus, *Chronographia, ed. I. Bekker, CSHB,* (Bonnae, 1838), pp. 388-390 ; Symeon Magister ac Logothetae, *Chronographia,* ed. I. Bekker, *CSHB,* (Bonnae, 1838), pp. 724-725; *Zonaras,* III, pp. 464-465; Leo Grammaticus, *Chronographia, ed. I. Bekker, CSHB,* (Bonnae, 1842), pp. 295-296.

(٣٩) Jenkins, *Byzantium,* p. 260 .

(٤٠) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، ، ص ٥٣-٥٤ *DAI*, I, pp. 48 - 49 ; Obolensky, *Crimea,* p. 129.

(٤١) Obolensky, *Crimea,* p. 129.

(٤٢) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٣٨ *DAI,* I, p. 169; انظر أيضاً ، Obolensky, *Crimea,* p. 129.

تهديداً خطيراً للوجود البيزنطى فى القرم ، وللنفوذ البيزنطى فى منطقة السهوب . وهذا بطبيعة الحال ما جعل قسطنطين بورفيروجنيتوس يقول "إذا لم يكن البشناق فى وفاق مع الإمبراطورية ، فإنهم قد يقومون بغارات نهب وسلب ضد إقليم خرسون"(٤٣) . ونلاحظ من كتاب "الإدراة الإمبراطورية" أن عشائر البشناق التى كانت تعيش فى هذه المناطق كانت على قدر كاف من العلاقات السلمية مع خرسون ، حيث كانوا يتبادلون التجارة مع هذا الإقليم(٤٤) .

لقد أدرك البيزنطيون جيداً أن نمط الحياة فى منطقة السهوب قد أصبح مختلفاً الآن عن ذى قبل ، وعن مثيله فى مناطق الغابات الشمالية(٤٥) . فقد سبق لهم واحتكوا بالروس ، الذين وفدوا من المناطق الشمالية ، وها هم الآن يروضون شعباً جديداً جاء إلى منطقة السهوب من آسيا الوسطى ، ويتخذون منه حليفاً لهم ضد قوى السهوب . لقد أعطى التحالف البيزنطى مع البشناق بعض الحماية للبيزنطيين ضد الروس ، نظراً لأن البشناق تحكموا فى الطرق الواقعة فى الجزء الجنوبى لنهرى الدون والدنيبر ، وهى الطرق التى كان يسلكها الروس إذا أرادوا الوصول إلى ساحل بحر بونتس للإغارة على بيزنطة(٤٦) .

لقد أصبح البشناق فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى مصدر تهديد فى المنطقة وإزعاج لا ينقطع لا للروس فحسب بل للمجيار والبلغار أيضاً(٤٧)، نظراً لأن البشناق كانت لديهم القدرة على شن الحرب ضد هؤلاء جميعاً ، مما جعل هذه القوى تنظر للبشناق نظرة ملؤها الخوف والرعب ، على حد تعبير قسطنطين بورفيروجنيتوس(٤٨) . ونظراً لأن كل هذه القوى تقف موقف عداء من الإمبراطورية البيزنطية فقد كان بديهياً أن تسعى بيزنطة لكسب البشناق إلى جانبها ، حتى يصبحوا الأداة المنفذة لمشيئتها وسط هذه الشعوب . ولهذا حرصت بيزنطة على إرسال رسلها كل عام إلى البشناق لعقد الاتفاقيات معهم وتقوية روابط الصداقة بينهما ، وكانوا

---

(٤٣) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، الإدارة ، ص ٥٤ — *DAI*, I, pp. 48 – 49;

(٤٤) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٥٧ — *DAI*, I, pp. 52-53;
انظر أيضاً ، Obolensky, *Crimea*, p. 129.

(٤٥) Angold, M., *The Byzantine Empire 1025-1204*, (London, 1984), p. 12.

(٤٦) انظر ، الفصل الأول من البحث ، ص ١٢-١٣ — Angold, *Byz. Empire*, p. 13.

(٤٧) انظر ، قسطنطين بورفيروجنيتوس ، الإدارة ، ص ٥٤ – ٥٧ — *DAI*, I, pp. 48 – 53;

(٤٨) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، الإدارة ، ص ٥٩ — *DAI*,I, pp. 56 – 57;

يحملون بالهدايا والثياب الحريرية وغيرها لكسب ودهم . وفى المقابل كان على البشناق الإسراع بتلبية نداء بيزنطة وقت الحاجة[٤٩] .

وإذا كان الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس قد أكد على ضرورة التحالف السياسى مع البشناق لردع الروس والمجيار والبلغار[٥٠] ، فإنه قد بين أيضاً سياسة البلغار تجاههم ، كما ألقى بعض الضوء على سياسة الروس تجاههم أيضاً .

يقول قسطنطين بورفيروجنيتوس ".. إذا رغب البشناق فى شن الحرب على البلغار ، سواء كانت هذه الحرب لصالحهم أم لصالح الإمبراطور البيزنطى ، فإنهم بقوتهم وكثرة عددهم يتفوقون عليهم ويهزمونهم . ولهذا يسعى البلغار باستمرار للمحافظة على السلام والوئام مع البشناق ، لأنهم سبق وأن هزموهم ونهبوهم أكثر من مرة ، وأدرك البلغار قيمة وفائدة العيش فى سلام مع البشناق"[٥١] . وعلى هذا النحو أجمل لنا قسطنطين بورفيروجنيتوس طبيعة العلاقات بين البشناق والبلغار . أما الروس فقد سبق الحديث عن موقفهم من البشناق ، وموقف الأخيرين منهم بعد أن استقروا شمالى البحر الأسود ، وصاروا على بعد مسيرة يوم من بلاد الروس .

ويؤكد قسطنطين بورفيروجنيتوس فى كتابه "عن الإدارة الإمبراطورية" أن الروس مهتمون أيضاً بالمحافظة على العلاقات السلمية مع البشناق .. لأنه إذا لم يكن الإثنان على وفاق ، فإن البشناق يغيرون على بلاد الروس ، ويلحقون بها الخراب والدمار[٥٢] . وقد رأينا مثالاً على هذا فى الإغارة التى قاموا بها على بلاد الروس فى عام ٩١٥م[٥٣] . بالاضافة إلى ذلك لا يمكن للروس الدخول فى حرب فيما وراء حدود بلادهم إلا إذا كانوا فى سلام مع البشناق[٥٤] . ونظراً لأن الروس كانوا يدركون هذا الواقع ، فقد سعى أميرهم العظيم ايجور فى عام ٩٤٤م لكسبهم إلى جانبه ، حتى يتمكن من القيام بحملته الثانية على القسطنطينية ، وهو مؤمن الظهر[٥٥] . ولهذا فقد أغدق عليهم الهدايا والرشاوى حتى صاروا حلفاءً له[٥٦] . لقد كان الروس يدركون خطورة البشناق فى المنطقة عامة ، وبالنسبة لهم خاصة . فقد كان البشناق يتسمون بقوة

---

(٤٩) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٥٣-٥٤ ، ٥٩ — *DAI*, I, pp. 48 - 49, 56 – 57;
(٥٠) Diaconu, *Petchénègus*, p. 40.
(٥١) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٥٦-٥٧ — *DAI*, I, pp. 52 – 53;
(٥٢) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٥٤ — *DAI*, I, pp. 48 – 49;
(٥٣) انظر أيضاً، نفس الفصل ، ص١٦٤ — *R.P.C.*, p. 71.
(٥٤) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، الإدارة ، ص ٥٤ — *DAI*, I, pp. 50 – 51;
(٥٥) *R.P.C.*, pp. 72--73; Court, *La Russie*, p. 96.
(٥٦) Court, *La Russie*, p. 96.

عناصرهم البشرية ، وكانت لديهم القدرة على ضرب الروس فى ظهورهم وتدمير وتخريب ممتلكاتهم ، فى أثناء غياب أميرهم العظيم بقواته خارج كييف . كما أن البشناق كانوا يقفون حائلاً بين الروس ، سواء المقاتلين أو التجار ، وبين القسطنطينية لأن البشناق ، كما سبق الذكر[٥٧] ، كانوا يسيطرون على مناطق الشلالات المائية فى نهر الدنيبر ، وهى التى لا يستطيع الروس عبورها بمراكبهم إلا إذا حملوها على أكتافهم ؛ وعندئذ يهجم عليهم البشناق . وعلى هذا اهتم الروس بمسالمة البشناق والتحالف معهم حتى يجنوا من وراء هذا أكبر فائدة ممكنة[٥٨] .

وبالرغم من هذه السياسة الروسية تجاه البشناق ، سنجد أنهم كانوا يميلون نحو القوة الأكثر هيمنة على المنطقة ، والأقدر على تقديم الهدايا والثياب الحريرية والأموال بصورة تفوق غيرها من القوى السياسية آنذاك . وبطبيعة الحال كانت بيزنطة هى الأقدر على تقديم كل ما يشتهيه البشناق من نعم الحياة ، كما أنها الأرفع شأناً والأكثر قوة من كل القوى الهائمة فى منطقة السهوب . ويتجلى التعاون البيزنطى - البشناقى ضد الروس فى أعقاب الغزو الروسى الذى قام به الأمير الروسى العظيم سفياتوسلاف، لبلغاريا . فإزاء الضغط الروسى على البلقان اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى أن يطلب من حلفائه البشناق تخفيف الضغط العسكرى الروسى عن البلقان ، والتخلص من شبح الروس الذى يهدد القسطنطينية نفسها . فقام البشناق فى عام ٩٦٨م بمهاجمة مدينة كييف للمرة الأولى وشددوا الحصار حولها ، مستغلين فرصة غياب سفياتوسلاف عنها، وقد حالوا بين شقى المدينة الواقعة على نهر الدنيبر . وتحصنت الأميرة أولجا مع أحفادها فى مدينة كييف ، التى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من السقوط فى أيدى البشناق[٥٩] .

وقد تمكن القائد الروسى المدعو بريتش *Pretich* من التخلص من هذا الحصار البشناقى الشديد لمدينة كييف بالحيلة . فذات صباح ركب ورفاقه القوارب وابحروا فى النهر قبل الفجر ، وفى نفس الوقت أطلق سكان كييف صيحة عالية ، تزامنت مع صوت أبواق بريتش . فظن البشناق أن الأمير الروسى سفياتوسلاف هو القادم ، مما جعلهم يولون الأدبار ، وعندئذ لم يكن هناك مفر أمام زعيمهم سوى التفاهم

---

(٥٧) انظر ، الفصل الأول من الباب الأول ، ص ٢ .

(٥٨) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٥٤-٥٥ ؛ *DAI*, I, pp. 48 – 51;

(٥٩) *R.P.C.*, p. 85; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 202; Karamsin, *Histoire*, pp. 216-218; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 34-35; Le Clerc, *La Russie*, pp. 136-137.
انظر أيضاً ، الفصل الثانى من الباب الأول ، ص ٥٢ وما بعدها .

مع بريتش ، الذى أوهم زعيم البشناق أنه يقود طليعة جيش سفياتوسلاف ، القادم فـي الطريق خلفه بجيوش جرارة . لذلك دعى زعيم البشناق بريتش ليصبح صديقـاً لـه ، فوافقه على طلبه. وتصافح الإثنان ، وقدم زعيم البشناق إلى بريتـش رمحـه وسـيفه وسهامه كهدية ، بينما قدم له الأخير صديريته المدرعة ، ودرعه ، وسيفه . وهكذا رفع البشناق الحصار عن مدينة كييف[٦٠] . وبالرغم من هذا أرسل سكان كييف إلى أميرهم سفياتوسلاف ، الذى كان يحارب فى البلقان ، يطلبون منه العودة سريعاً للـزود عـن بلاده ، خشية أن يعاود البشناق الهجوم مرة ثانيـة علـى كييـف . وقـد اسـتجاب سفياتوسلاف لنداء الوطن وعاد على الفور إلى كييف ، حيث اطمئن على أسرته ، ثـم جيش جيوشه ضد البشناق ، فهاجمهم ودفع بهم بعيداً إلى منطقة السهوب . وهكذا خيـم السلام ثانية على أرجاء بلاده[٦١] .

ويبدو أن البشناق تغلبت عليهم طبيعتهم العرقية ولـم ينسـوا عـودة الأمـير الروسى سفياتوسلاف لمهاجمتهم وتشتيتهم فى عام ٩٦٠، حيث رفضوا فى صيف عـام ٩٧١م ، مطلب الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزيمسـكس السـماح للأمـير الروسـى المهزوم وقواته المرور بسلام عبر أراضيهم للوصول إلى كييف[٦٢] . وقد انتهى الأمر كما سبق وأوضحنا[٦٣] باغتيال الأمير الروسى سفياتوسلاف ، وصنع قوريـا زعيـم البشناق من جمجمته قدحاً يحتسى فيه الشراب .

وفى أثناء الحرب الأهلية التى دارت عقب وفاة سفياتوسـلاف بيـن ولديـه ياروبولك أمير كييف (٩٧٣-٩٧٨م) وفلاديمير أمـير نوفجـورود (٩٧٠-٩٧٨م) ، كانت النصيحة التى وجهها فارايازكو *Varayazhko* ، مستشار ياروبولك ، إليه أن يفر إلى البشناق عقب هزيمته على أيدى أخيه فلاديمير ، لكنه فضل أن يسلم نفسه لأخيـه ، حيث فتك به الفارانجيون حلفاء فلاديمير . وقد فر فارايازكو إلى البشناق ، واستمر فى مناوأة فلاديمير إلى أن استطاع فلاديمير كسب ولائه[٦٤] . وتعكس لنا هـذه الأحـداث كيف أن الروس بدأوا يتجهون إلى البشناق لمناصرتهم وترجيح كفة أمير على آخر .

---

(٦٠) *R.P.C.*, pp. 85-86.

(٦١) *R.P.C.*, p. 86.

لمزيد من التفاصيل حول هذه الأحداث انظر،

Baumgarten, *Saint Vladimir,pp.* 34-35; Karmsin, *Histoire*, pp. 216-218; Le Clerc, *La Russie*, pp. 136 - 137.

(٦٢) *Cedrenus*, II, p. 412; *Zonaras, III*, p. 535.

(٦٣) عن تفاصيل هذه الأحداث انظر ، الفصل الثانى من الباب الأول ، ص ٥٣-٥٦ .

(٦٤) *R.P.C.*, p. 93. انظر أيضاً ، المتولى تميم ، *البشناق* ، ص ٩٣-٩٤ .

وفى عهد الأمير الروسى فلاديمير (٩٧٨-١٠١٥م) إزدادت هجمات البشناق على الأراضى الروسية بصورة ملحوظة ، مما دفع فلاديمير إلى بناء مجموعة من القلاع الحربية الحدودية على أنهار دسنا *Desna* وتروبيش *Trubezh* وسولا *Sula* وستوجنا *Stugna* ، حيث جمع خيرة رجاله من القبائل السلافية ووضعهم كحاميات فى هذه القلاع . ليس هذا فحسب ، بل أن فلاديمير تحالف مع الغز لمواجهة خطر البشناق، حيث يذكر المؤرخون المحدثون أن الحملة الروسية - الغزية ضد بلغار الفولجا ، حلفاء البشناق ، فى عام ٩٨٥م كان الهدف منها هو ضرب البشناق اقتصادياً بالسيطرة على الطرق التجارية[٦٥] .

وفى عام ٩٩٢م هاجم البشناق بلاد الروس ، مستغلين فرصة انشغال الأمير الروسى فلاديمير فى حربه مع الكرواتيين . وما أن فرغ فلاديمير من هذه الحرب حتى استدار بقواته لقتال البشناق عند نهر تروبيش ، ودار القتال بين الطرفين . وتروى الحولية الروسية الأولى أن زعيم البشناق اقترح على فلاديمير أن يجعل المعركة بين مقاتلين أحدهما بشناقى والآخر روسى ، وذلك حقناً للدماء ، وقال "إذا قتل الروس البشناقى ، فسوف نتعهد بأن نترك بلادكم فى سلام لمدة ثلاث سنوات ، وإذا قتل البشناقى الروسى ، فسوف ندحر بلادكم لمدة ثلاث سنوات أيضاً". وقد وافق فلاديمير على الاقتراح وقدم كل طرف مرشحة ، ليبدأ بينهما القتال ، الذى أسفر عن مقتل البشناقى . وعلى هذا هرب البشناق أمام الروس ، الذين دفعوهم بعيداً إلى منطقة السهوب . وتخليداً لذكرى هذا الانتصار أقام فلاديمير مدينة فى الموضع الذى دارت فيه المعركة ، أطلق عليها اسم البطل الروسى الذى فتك بغريمة البشناقى ، فصارت تعرف باسم مدينة بيرياسلاف *Pereyaslavl'* [٦٦] .

وتحت أحداث عام ٩٩٤-٩٩٦م تذكر الحولية الروسية الأولى أن البشناق أغاروا على مدينة فازيليفو *Vasilevo* الروسية[٦٧] . فسار الأمير الروسى فلاديمير ويصحبته جيش صغير لملاقاتهم . وعندما التقى الطرفان لم يستطع فلاديمير التغلب

---

(٦٥) Pritsak, *Pecenegs*, p. 233; Macarteny, *Petchenegs*, p. 345; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p 115; Shepard, J., " The Russian Steppe-Frontier and the Black Sea Zone ", *Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies : " The Byzantine Black Sea, " 18-20 March, ed. A. Bryer*, *'Αρχ. Πόν.*, 35(1978), p. 223.

(٦٦) *R.P.C*, pp. 119-120; Baumgarten, *Saint Vladimir* , pp. 113-114; Le Clerc, *La Russie*, pp. 164 - 165 .

(٦٧) تقع مدينة فازيليفو على نهر ستوجنا ، وهى على بعد ٣٥كم جنوب غرب كييف . انظر، *R.P.C.*, p. 248, n. 96.



على البشناق، الذين ألحقوا به هزيمة ثقيلة، ووصل الأمر إلى أنه فر واختبأ أسفل أحـد الجسور ، حيث أخفى نفسه بالكاد عن عيون العدو . وقد عزم فلاديمير حينئذ على بناء كنيسة فى هذه المدينة ، إذا نجى من الموت . وبالفعل بعد أن وضعت الحرب أوزارها أسس فلاديمير الكنيسة ، وأقام احتفالاً كبيراً دعى إليه النبلاء والشيوخ من شتى المـدن وأناس آخرين ، ووزع على الفقراء الروس مبلغ ثلاثمائة جريفنا ، وقد استمر الاحتفال ثمانية أيام عاد بعدها فلاديمير إلى كييف ليقيم احتفالاً مماثلاً فيها(٦٨) .

وكما يذكر نسطور فى حوليته أن البشناق انتهزوا فرصة غياب فلاديمير عـن كييف ، حيث كان فـى مدينـة نوفجـورود آنـذاك ، وهـاجموا مدينـة بيلجـورود *Belgorod*(٦٩) الروسية . ونصبوا الحصار حولها لفترة طويلة ، مما أدى إلى انتشـار المجاعة بين السكان ، وفى النهاية اضطر البشناق إلى رفع الحصـار عـن المدينـة والعودة إلى أوطانهم بعد أن تغلب الروس عليهم باستخدام الحيلة(٧٠) .

وفى عام ١٠١٥م هاجم البشناق بلاد الروس ، فأرسل فلاديمير ، الذى كـان أسير المرض ، ابنه بوريس *Boris* لقتالهم . لكن ما أن خرج لقتالهم حتى وافته الأنباء بموت أبيه فلاديمير فعاد إلى كييف دون ملاقاة البشناق(٧١) .

ومن الملاحظ أن هجمات البشناق على الأراضى الروسية قد زادت فى عـهد الأمير الروسى فلاديمير . وللأسف الشديد لا تقدم لنا المصادر التاريخية سبباً واضحـاً يفسر ذلك ، الأمر الذى يدفعنا إلى افتراض أن هناك ارتباط بين تلك الهجمات المتوالية من جانب البشناق على الأراضى الروسية ، وبين الصراع الدائر فى البلقان بين باسيل الثانى والبلغار . وعلى الرغم من أن العلاقات البيزنطية - الروسية كانت ودية آنذاك، حيث شاركت الفرقة الفارانجية التى كان قد بعث بها فلاديمير فى القتال إلـى جـانب البيزنطيين ، كما أنه كانت هناك مصاهرة عائلية بين فلاديمير والبيـت الحـاكم فـى القسطنطينية ، حيث تزوج فلاديمير الأميرة آنّا بورفيروجنيتا ، أخت الإمبراطور باسيل الثانى ، فإن ذلك لم يمنع الأخير من الاحتياط من الروس خشـية أن يقـوم فلاديمـير بمهاجمة الأراضى البيزنطية أثناء انشغاله بحروبه البلغارية ، أو ينجح البلغـار فـى كسب الروس إلى جانبهم . وبناء على هذا ربما طلب الإمبراطور باسيل الثـانى مـن

---

(٦٨) *R.P.C.*, pp. 120-121.

(٦٩) تقع مدينة بيلجورود على نهر اربن *Irpen* ، على بعد ٢٥كم جنوب غرب كييف . انظر، *R.P.C.*, p. 243, n. 83.

(٧٠) *R.P.C.*, pp. 122-123; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 114-115.

(٧١) *R.P.C.*, p. 124.

البشناق مناوشة الروس بالهجمات المتوالية على أراضيهم ، فلا يلتفتون إلى ما يـــدور فى البلقان، وينهمكون فى أمر الزود عن أراضيهم ضد البشناق[٧٢] .

ومرة ثانية يظهر لنا البشناق كعنصر من العناصر المدعمة للأمراء الـــروس فى الحروب الأهلية التى كانت تنشب بينهم ، والتى كان سببها فى الغالب الجلوس على عرش إمارة كييف ، عاصمة الروس . فبعد وفاة الأمير الروسي فلاديمـــير فـــى ١٥ يوليو من عام ١٠١٥م ، ترك وراءه ابنه ســفياتوبولك حاكمـــاً علـــى إمـــارة كييـــف (١٠١٥-١٠١٩م) ، وياروسلاف حاكماً على إمارة نوفجـــورود (١٠١٠-١٠١٩م) ، وقد دب الخلاف بينهما على العرش . فحشد ياروسلاف جيشاً من اتباعه فى نوفجورود وسار نحو كييف لقتال أخيه سفياتوبولك ، الذى تمكن من كسب البشناق ?لى صفه، وقد خرج إليه أيضاً عند مدينة لوبيتش *Lyubech* الواقعـــة علـــى إحـــدى ضفتـــى نـــهر الدنيبر[٧٣].

ورابط الأخوان بقواتهما على ضفتى النهر ، كل منهما على الضفة المواجهـــة للأخرى ، ولم يجرؤ أحدهما على مهاجمة الآخر لمدة ثلاثة شهور علـــى حـــد قـــول نسطور . وأخيراً لم يكن هناك مناص من القتال بين الطرفين . فدخل الجيشـــان فـــى معركة انتهت بهزيمة سفياتوبولك .وقد عجز البشناق عن تقديم العون له ، لتأخرهم فى الوصول إليه وبسبب البحيرات التى كان يرابط عندها عند القتال. لكن فى عام ١٠١٨م تمكن سفياتوبولك من استرداد عرش كييف ثانية ، بفضل تحالفه مع ملك بولندا . ولـــم يهنأ سفياتوبولك طويلاً بعرش كييف ، فقد آتاه ياروسلاف بقوات ضخمة وانتزع كييف منه ، بينما فر سفياتوبولك إلى البشناق طلباً للمساعدة . وبالفعل اســـتطاع فـــى عـــام ١٠١٩م أن يحشد جيشاً كبيراً من البشناق واتجـــه بـــه شـــمالاً لملاقـــاة ياروســـلاف واسترجاع كييف . ودارت المعركة بينهما عند نهر ألتا *Al'ta*[٧٤] ، وانتهت بهزيمـــة سفياتوبولك وفراره ، حيث قتل فى منطقة بين بوهيميا وبولنده ، ودخـــل ياروســـلاف كييف ، عاصمة الروس ، وصار أميراً عليها (١٠١٩-١٠٥٤م)[٧٥] .

---

(٧٢) المتولى تميم ، *البشناق* ، ص ٩٦ .

(٧٣) بينما تتحدث الرواية هنا عن لوبيتش الواقعة على الضفة الغربية لنهر الدنيبر شمال موضع التقاؤه مع البرييت Pripet ، فإن هذه المدينة تنتمى إلى منطقة تشرينجوف ، ولم تكن تابعة لإمارة كييف . وعلاوة على ذلك، يعتبر أحد المؤرخين أنها مدينة تحمل نفس الاسم ، وكانت تقع على الضفة الشرقية لنهر الدنيبر على بعد نحو خمسة أميال شمال شرق كييف . انظر، *R.P.C.*, p. 253, n. 128.

(٧٤) نهر ألتا هو أحد فروع نهر تروبيش ، وهو رافد شرقى للدنيبر أسفل كييف ، انظر، *R.P.C.*, p. 252, n.120.

(٧٥) عن هذه الأحداث انظر، *R.P.C.*, pp. 131-134.

وعلى هذا النحو ، رأينا من خلال الأحداث السابقة كيف أن البشناق ظلت علاقاتهم مع الروس ، وبالتحديد مع الأمراء الروس ، علاقة حربية فى المقام الأول والأخير . ولعل قرب الحدود بين الشعبين ، حيث كانت المسافة بينهما تبلغ مسيرة يوم كامل ، كان من العوامل التى أدت إلى سرعة الاحتكاكات الحربية بينهما . وعلينا أن نضيف إلى ذلك الأطماع المتوارية للإمبراطورية البيزنطية فى منطقة السهوب ، الأمر الذى جعلها تحرك بأصابعها الخفية تلك القوى بعضها ضد بعض ، اتباعاً للمبدأ الرومانى " فرق تسد " . ولما كان البشناق يفتقرون إلى الفكر السياسى الأمثل[٧٦] ، فقد كان من السهل على بيزنطة أن تروضهم لصالحها ولأجل بقاء نفوذها شامخاً فى منطقة السهوب . أما الروس فكانوا قد تخلصوا من نظامهم القبلى إلى حد ما ، وصار لهم نظام سياسى واضح الشكل إلى حد كبير ، فالحكم أصبح وراثياً عندهم ، يتولى أميرهم الأعظم أمرهم ومقره إمارة كييف ، وباقى الأمراء يتولون حكم الإمارات الروسية الأخرى باسمه ، فهو الذى يتولى توزيع الحكم فى الإمارات عليهم . وبعد وفاة الأمير الروسى العظيم يتولى ابنه الحكم من بعده ، وإن كان قاصراً تتولى أمه الوصاية عليه ، كما فى حالة الأمير سفياتوسلاف ، الذى تولت الأميرة أولجا الوصاية عليه . وقد تنشب الحروب الأهلية بين الأمراء ، كتلك التى أعقبت وفاة سفياتوسلاف فى عام ٩٧٢م أو وفاة فلاديمير فى عام ١٠١٥م ، وذلك لاختلاف الأبناء على أنصبتهم من الحكم . ولهذا لم تفلح بيزنطة فى استقطاب الروس إليها وإدخالهم فى فلكها إلا باستخدام الدين ، وصارت الكنيسة الروسية الابنة الكبرى لكنيسة القسطنطينية. وأصبح رجال الدين البيزنطيون يتولون مناصبهم فى روسيا برضى من الأمير الروسى العظيم.

وإذا تتبعنا علاقات البشناق منذ قدومهم إلى شمال بحر بونتس ، فى أوائل القرن العاشر الميلادى ، مع الروس سنجد أن المرحلة الأولى منها كانت عبارة عن إغارات من البشناق على الأراضى الروسية ورد من الروس عليها ؛ وقد ازدادت هذه الإغارات فى عهد الأمير الروسى فلاديمير . وتأتى المرحلة الثانية منها وهى عبارة عن توقف الإغارات البشناقية على الأراضى الروسية ، وتدخلهم فى الحروب الأهلية التى نشبت بين الأمراء الروس ، وكان من أبرزها تلك التى نشبت عقب موت فلاديمير سنة ١٠١٥م . وفى هذه الحرب نجد أن الأمير الروسى سفياتوبولك قد استعان بالبشناق فى معظم حروبه ضد أخيه ياروسلاف ، أمير نوفجورود ، وأصبح

---

[٧٦] عن نظام الحكم عند البشناق ، انظر، المتولى تميم ، *البشناق* ، ص ١٣٢-١٣٤ .

البشناق عنصراً لا يمكن لسفياتوبولك الاستغناء عنه فى صراعه مع ياروسلاف . لذلك لا غضاضة فى أن ترى سفياتوبولك يهرب إليهم ويعود بهم إلى كييف أكثر من مرة ، وبهذا لم تكن هناك حاجة للبشناق للإغارة على الروس ، فقد صاروا بينهم وعلى أرضهم يقفون محاربين مناصرين للأمراء الروس فى نزاعاتهم الداخلية . ولكن يبدو أن رياح الحرب الأهلية الروسية بين سفياتوبولك وياروسلاف قد أتت على التحالف الروسى – البشناقى ، الذى ظهر فى الحروب الأهلية الروسية . فقد تولى الحكم فى نهاية المطاف الأمير الروسى ياروسلاف ، بعد أن تمكن من هزيمة أخيه سفياتوبولك واغتياله فى عام ١٠١٩م . وقد قبض ياروسلاف على ذمام الأمور فى بلاده بقبضة قوية وأعاد النظام إليها ، وبدأ نهضة علمية وتعليمية ودينية فى بلاده على شاكلة تلك التى قام بها شارلمان فى مملكته، حتى استحق أن يطلق عليه المؤرخين اسم ياروسلاف الحكيم (١٠١٩م-١٠٥٤م) . ويبدو أن هذا قد أزعج البشناق ، فقد صاروا الآن خارج دائرة الضوء ، ولم تظهر حاجة الروس اليهم على مدى ما يقرب من سبعة عشر عاماً تلت . وفى عام ١٠٣٦م يروى لنا نسطور تفاصيل الهجوم الذى قام به البشناق ضد الروس(٧٧) ، ولم يقدم لنا سبباً مباشراً لهذا الهجوم . ولكى نخرج بسبب يمكن قبوله لهذا الهجوم علينا أن نقوم بمسح جغرافى – تاريخى للخريطة السياسية لمنطقة السهوب فى الربع الأول من القرن الحادى عشر .

لقد تعرضت منطقة السهوب الشرقية لموجة من الجفاف نتج عنها هجرة أعداد كبيرة من القبائل الرعوية المقيمة هناك ، نتيجة لتقلص المراعى ، فاتجهت نحو الغرب. وقد أثرت تلك الهجرات القبلية على الغز والكومان ، حيث استقر الأخيران فى المناطق الساحلية الشمالية لبحر الخزر ، بينما استقر الغز فى الشمال الغربى للمنطقة التى يقطنها الكومان . ودفعت تلك الهجرات الكومان إلى الضغط على الغز ، الذين اضطروا بدورهم إلى الاتجاه غرباً وعبور نهر الدون . وهناك اضطر البشناق ، تحت ضغط الغز ، إلى الهجرة فاندفعت مجموعات منهم إلى الأراضى الروسية والمجيارية، بنيما اندفعت المجموعة الرئيسية إلى الأراضى البيزنطية ، عبر نهر الدانوب ، لتبدأ سلسلة من الصراعات المتوالية مع بيزنطة إبتداء من عام ١٠٢٦م(٧٨) .

ويخبرنا زوناراس أنه فى عهد الإمبراطور قسطنطين الثامن *Constantine VIII* (١٠٢٥-١٠٢٨م) أغار البشناق على بلغاريا ، وكانوا كثيراً ما يعبرون نهر

---

(٧٧) *R.P.C.*, pp. 136-137.

(٧٨) المتولى تميم ، *البشناق* ، ص ١٠١ .

الدانوب فيعيثون فى الولايات فساداً ، ينهبون البلاد ، ويقتلون الأسـرى عـن بكـرة أبيهم[٧٩] . ويذكر أحد المؤرخين المحدثين أن هذه هى المرة الأولى التى يعـبر فيـها البشناق نهر الدانوب إلى الأراضى البيزنطية ، نتيجة الضغط الاقتصادى النـاتج عـن فقدان الأراضى الرعوية القديمة[٨٠] . وقد اضطرت بيزنطة نتيجـة لذلـك أن تقـوى دفاعات إقليم باريستريون *Paristrion* . واستمرت اغارات البشناق على بلغاريا خلال فترة حكم الامبراطور ميخائيل الرابع *Michael IV* (١٠٣٤-١٠٤١م) . وفـى عـام ١٠٣٦م ، وهو العام الذى وقع فيه الهجوم البشناق على الـروس ، انتـهت اغـارات البشناق على بلغاريا بعقد اتفاقية مع بيزنطة ظلت سارية المفعول لمدة إثنى عشر عاماً، إلى أن نقضها البيزنطيون أنفسهم فى عام ١٠٤٨م ، فى عهد الإمبراطور قسـطنطين التاسع مونوماخوس *Constantine IX Monomachus* (١٠٤٨-١٠٥٣م)[٨١] . ومنـذ ذلك الوقت اتخذت هجرات البشناق إلى داخل الأراضى البيزنطية شكلاً واسع النطـاق بهدف الاستقرار[٨٢] .

على هذا النحو رأينا كيف أن الطبيعة لعبت دوراً فعالاً فى تغيـير الخريطـة الإثنية لمنطقة السهوب ، وكيف تبدلت مواضع الأمم فيها . فالكومان ضغطـوا علـى الغز، الذين بدورهم ضغطوا على البشناق ، الذين لم يكن بإمكانهم إثنـاء شـعب مـن الشعوب التى تتقدمهم فى المكان ، فلم يكن هناك محيص أمامهم سوى العبور عبر نهر الدانوب إلى الأراضى البيزنطية . ولم يكن بوسعهم فى هذه الآونة ، وهم تحت التـهديد الغزى لهم ، أن يتدفقوا جميعاً إلى الأراضى الروسية ، التى كانت تحت حكم الأمـير الروسى ياروسلاف الحكيم . فقد دخلت جماعات محدودة منهم إلى الأراضى الروسـية والمجيارية ، أما السواد الأعظم منهم فقد عبر الدانوب إلى الأراضى البيزنطية . ومنـذ أن دخل البشناق إلى الأراضى البيزنطية ، وتولى ياروسلاف الحكيم الحكم فى كييف ، لم يكن بمقدور البشناق العودة إلى هجماتهم على الأراضى الروسـية ، نظـراً لأنـهم انشغلوا بصراعاتهم الحربية مع الإمبراطورية البيزنطية، من أجل البقـاء . وإذا كـان البيزنطيون قد أفلحوا فى إيقاف المد البشناقى فى البلقان فى نهاية المطاف بعقد معـاهدة معهم فى عام ١٠٣٦م ، استمرت لمدة إثنى عشر عاماً ، إلا أن البشناق لم يكفوا عـن

---

(٧٩) *Zonaras*, III, pp. 579-590.

(٨٠) Macarteny, *Petchenegs*, p. 346.

(٨١) Macarteny, *Petchenegs*, p. 346; انظر أيضاً، العرينى ، *الدولة البيزنطية* ، ص ٧٦٦ .

(٨٢) المتولى تميم ، *البشناق* ، ص ١٠١ .

قتال الروس متى اتيحت لهم الفرصة . ونعتقد انه قد يكون من المحتمل أن البشناق لم يتوجهوا لقتال الروس فى عام ١٠٣٦م إلاّ بعد المعاهدة التى أبرمت بينهم وبين البيزنطيين ، فلم يكن من البديهى أن يقاتلوا فى جبهتين فى آن واحد فى صراع حتمى من أجل البقاء . ومن المحتمل أيضاً أنه كرد فعل لنجاح البيزنطيين فى كبح جماح البشناق وترويضهم كان من السهل عليهم أن يتجهوا نحو بلاد الروس التى اعتادوا الدخول إليها ، وذلك لفتح جبهة جديدة أمامهم عسى أن يغنموا من ورائها بعض الأراضى التى يمكنها أن تستوعب أعداداً منهم ، أو تستخدم كظهير لهم فى حالة تجدد الصراع الحربى مع بيزنطة . ولاغرو، فقد كانت أعداد البشناق المحاصرين لكييف فى عام ١٠٣٦م لا تعد ولا تحصى على حد تعبير نسطور نفسه(٨٣) .

ففى عام ١٠٣٦م استغل البشناق فرصة وجود الأمير الروسى ياروسلاف فى مدينة نوفجورود ، حيث كان ينصب ابنه أميراً عليها ، ودخلوا بلاد الروس فى أعداد غفيرة وضربوا الحصار على العاصمة الروسية كييف . ووصلت أنباء هذا الهجوم إلى ياروسلاف ، فقام فى التو بحشد جيشه من الفارانجيين والسلاف وعاد إلى كييف ، التى دخلها بقواته . ومن هناك بدأ الاستعداد لقتال البشناق ، فنظم قواته على النحو التالى : القوات الفارانجية فى الوسط ، ورجال كييف فى الميمنة ، أما رجال نوفجورود فقد وضعهم فى الميسرة ، وعلى هذا النحو كان جيشه يتبع تنظيماً عسكرياً قوامه قلب وجناحين . وتقابل الجيشان ، الروسى والبشناقى ، خارج مدينة كييف ، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس . وكان القتال ضارياً بين الطرفين ، على حد تعبير نسطور ، لكن بحلول المساء استطاع ياروسلاف أن تكون له اليد العليا فى المعركة ، وبصعوبة شديدة . وحلت الهزيمة بالبشناق ، الأمر الذى دفعهم للهرب أمام القوات الروسية بلا تنظيم وإلى مواضع شتى . ونظراً لجهلهم بالجهات التى يولون الأدبار نحوها فقد غرق بعضهم فى نهر ستومل *Stoml*(٨٤) ، والبعض الآخر فى الأنهار الأخرى . ولتخليد ذكرى هذا الانتصار أقام الأمير الروسى ياروسلاف كنيسة سانت صوفيا *St. Sophia* فى الموضع الذى دارت فيه المعركة بين الروس والبشناق(٨٥) .

ويعتبر هذا الهجوم البشناقى على الروس فى عام ١٠٣٦م هو آخر الهجمات التى قاموا بها ضد بلاد الروس ، ولم نعد نسمع عنهم فى الحوليات الروسية بعد ذلك ،

---

(٨٣) *R.P.C.*, p. 136.

(٨٤) ستومل ، كان نهراً ينساب فيما مضى إلى نهر بوتشاينا عبر الجزء الشمالى للبودول Podol أو عبر قطاع من ضفة أسفل كييف . انظر، *R.P.C.*, p. 257, n. 164.

(٨٥) *R.P.C.*, pp. 136-137; Minorsky, *Commentarg,* p. 316.

اللهم إلا فى عام ١١٠٣م فقط[٨٦] . فقد وضع ياروسلاف نهاية للوجود البشناقى فى المنطقة ، وأصبحوا أقلية تعمل فى خدمة الروس وشعوب المنطقة ، كما أكسب هذا الانتصار ياروسلاف شهرة كبيرة باعتباره منقذاً لبلاده من البشناق . بل إن بعض المؤرخين المحدثين يشبهون انتصاره على البشناق بانتصار شارلمان على الآفار فى عام ٨٠٠م ، وانتصار أوتو الأول *Otto I* على المجيار فى عام ٩٥٥م[٨٧] . وإذا كان الأمير الروسى ياروسلاف قد نجح فى طرد البشناق من بلاده، بعد كسر شوكتهم ، فإن هذا قد دفع بالبشناق إلى تركيز مجهوداتهم الحربية فى جبهة واحدة ، هى جبهة البلقان. وقد تكون هزيمة الروس للبشناق فى عام ١٠٣٦م ، واحدة من العوامل التى حدت بالبشناق إلى القيام بحركة الهجرة الواسعة إلى أراضى الإمبراطورية البيزنطية فى عام ١٠٤٨م بغرض الاستقرار وإقامة موطناً لهم . وفى الحقيقة كانت هناك عوامل أخرى، ربما أكثر أهمية مما نذهب إليه ، حدت بالبشناق إلى القيام بهذه الهجرات بدءاً من علم ١٠٤٨م ، لعل أهمها هو الصراع الذى نشب بين قطبى البشناق ، والمدعو أحدهما تيراخ *Tyrach* والآخر كيجن *Kegen* على الزعامة بينهم ، لكن مع ذلك لا يمكن أن نغفل الأثر البعيد لهزيمة الروس لهم فى عام ١٠٣٦م[٨٨] .

وبعد أن انتهينا من الحديث عن العلاقات بين الروس والبشناق ، وما أحدثه مجئ الأخيرين إلى منطقة السهوب الواقعة شمالى بحر بونتس فى مستهل القرن العاشر الميلادى من تغييرات فى الخريطة السياسية للمنطقة ، على النحو الذى بيناه ، لزاماً علينا الآن أن نبحر فى نهر أتل (الفولجا) بدءاً من مصباته فى بحر الخزر جنوباً صعوداً حتى منابعه فى الشمال ؛ وذلك للتعرف على القوى السياسية القائمة على ضفافه وحجم العلاقات بينها وبين الروس فى الحقبة محل الدراسة .

الروس والخزر:

وإذا بدأنا الإبحار فى نهر أتل بدءاً من الجنوب فإننا بلا شك سوف نصطدم بمملكة الخزر وما كان لها من سلطان فى المنطقة التى كانت تمتد يوماً ما فيما بين

---

(٨٦) *R.P.C.*, p. 202.

(٨٧) Pritsak, *Pecenegs*, p. 233; Macarteny, *Petchenegs*, p. 346.

(٨٨) عن هجرة البشناق إلى أراضى الدولة البيزنطية فى عام ١٠٤٨ وما نجم عنها انظر،
Zonaras, III, pp. 641-642; *Cedrenus*, II, p. 585; Kazhdan, A., "Once more about the "Alleged" Russo-Byzantino Treaty (ca.1047) and the Pecheneg Crossing of the Danube", *JOB*, 26 (1977), pp. 65-77; Shepard, J., "John Mauropus, Leo Tornicius and an Alleged Russian Army: The Chronology of the Pecheneg Crisis of 1048-1049, *JOB*, 24 (1975), pp. 61-89; Diaconu, *Petchεnεgus*, pp. 56-66.

نهرى الأورال شرقاً والدنيبر غرباً ، وكان يحميها بحر الخزر من الشـرق ، وجبـال القوقاز من الجنوب ، وبحر بونتس من الغرب . وليس أدل على امتداد سلطان الخـزر فى المنطقة من أن بحر قزوين صار يعـرف آنـذاك باسـمهم ، وأن نـهر الفولجـا وعاصمتهم صارا يحملان اسماً واحداً وهو أتل . وحتى ندرك حجم قوة الخـزر فـى المنطقة وكيف تعامل الروس معهم لابد لنا أولاً أن نعرف من هم الخزر ؟ وما حجمهم فى الخريطة السياسية لمنطقة السهوب بل وفى الخريطة السياسية الدولية ؟ وذلك حتـى يتسنى لنا تفسير العلاقة بينهم وبين الروس على نحو صحيح .

تكاد تكون رواية الجغرافى العربى الاصطخرى ، الـذى توفـى فـى عـام ٣٤٠هـ/٩٥١م ، من أقدم الروايات التاريخية عن مملكة الخزر ولا يضارعها سـوى رواية الوزير العباسى أحمد بن فضلان ، الذى قام برحلته إلى بلغار الفولجا فى عـام ٣٠٩هـ/٩٢١م ، فكان خير شاهد عيان على ما رآه بنفسه ووصل إلينـا . وبصفـة عامة فإن المصادر العربية تكاد تكون المصدر الأول من بين المصادر التاريخية قاطبة التى تحدثت عن تاريخ مملكة الخزر ، والتى يعود أغلبها إلى القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى .

يقول الاصطخرى أن اسم الخزر هو اسم للإقليم وعاصمته تسمى إتل ، وإتـل اسم النهر الذى يجرى إليه من الروس وبلغار[٨٩] ويفيض فى بحر الخزر[٩٠] . وكـان يطلق على ملكهم لقب خاقان[٩١] وعلى نائبه خاقان به[٩٢] . وكان لخاقان الخزر حاشية قوامها أربعة آلاف رجل[٩٣] ، وهو الذى يقود الجيوش ويسوسها ويدبر أمر المملكـة ويقوم بها ، ويظهر ويغزو ، وله تذعن الملوك الذين يضاقبونـه[٩٤] .وتذكـر بعـض المصادر العربية أنه كان هناك ملك للخزر[٩٥] إلاّ أن الخاقان كان يعلوه مكانـة بيـن الرعية ، أو كما يقول الاصطخرى "هو أجل من ملك الخزر" ، برغم أن الأخير هـو

---

[٨٩] *المسالك والممالك* ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٨٩ .

[٩٠] ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٨٩ .

[٩١] ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٩١ .

[٩٢] ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٩١ ؛ يطلق الاصطخرى هذا اللقب على الخاقان نفسه وليس نائبه حيث يقـول "ويسمى الملك بلسانهم بك ، ويسمى أيضاً باك" . انظر ، *المسالك والممالك* ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٨٩ .

[٩٣] الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٠ .

[٩٤] ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٩١ .

[٩٥] الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣١ ؛ ابن حوقل ، *صـورة الأرض* ، ص ٣٨٩ - ٣٩٠ ؛ ابـن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٩١ ؛ المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ٢ ، ص ١١٢-١١٣؛ الكرديزى، *زيـن الأخبار* ، ص ٤٦٣ ؛ القزوينى ، *آثار البلاد* ، ص ٥٨٤-٥٨٥ ؛ الدمشقى ، *نخبة الدهر* ، ص ٢٦٣ .

الذى يقيمه[٩٦] . ويمكننا أن نعتبر خاقان الخزر نائب المملكة فهو الذى كان بيده الحل والربط فى البلاد ، أما منصب الملك فكان منصباً شرفياً فى المقام الأول . وليس أدل على مكانة الخاقان سوى كلمات المسعودى الذى قال عنه : ".. ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلاّ بخاقان يكون عنده فى دار مملكته، ومعه فى حيزه ، فإذا أجدبت أرض الخزر أو نابت بلادهم نائبة أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم ، أو فاجأهم أمر من الأمور .. قالت العامة لملكهم قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه ، وقد تشاءمنا به ، فأقتله أو سلمه لنا نقتله ، فربما سلمه إليهم فقتلوه وربما تول هو قتله وربما رق له فدافع عنه .."[٩٧] . هكذا بين لنا المسعودى مكانة الخاقان بين رعيته وكيفية توليه الحكم وعلاقته بالملك . وقد كانت الخاقانية حكراً على بيت من البيوت الخزرية المعروفة[٩٨].

أما عن جيش خاقان الخزر فيقول البعض أن تعداده كان إثنى عشر ألفاً من الرجال[٩٩] ، والبعض الآخر يقول أنه كان عشرة آلاف رجل فقط[١٠٠] . وأياً كان الأمر فإن قوام جيشه كان كبيراً بالدرجة التى دفعت الروس لطلب الإذن من الخاقان بالمرور عبر أراضيه وهم فى طريقهم لغزو بعض المدن الإسلامية الواقعة فى منطقة القوقاز فى عام ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م[١٠١] . وكانت غالبية هذا الجيش من المسلمين القاطنين فى خزاريا ، والذين كانوا يشكلون جبهة قوية فى الداخل قادرة على الوقوف فى وجه ملكهم فى بعض الأحيان[١٠٢] ، خاصة وأن تعدادهم يزيد على العشرة آلاف مسلم[١٠٣] ، وقد بلغ من قوتهم أنهم إذا تحالفوا مع المسيحيين من الخزر صاروا قوة واحدة لا يستطيع خاقان الخزر مجابهتها[١٠٤] .

جدير بالذكر أن مملكة الخزر ، خزاريا Χαζαρια كما كان يطلق عليها البيزنطيون ، كانت عبارة عن اتحاد كونفدرالى لقبائل بدوية ، واتباع يؤدون الجزية فى

---

(٩٦) *المسالك والممالك* ، ص ١٣١ .
(٩٧) *مروج الذهب* ، جـ٢ ، ص ١١٣ .
(٩٨) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣١ ؛ الدمشقى ، *نخبة الدهر* ، ص ٢٦٣ .
(٩٩) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٢٩ .
(١٠٠) المروزى ، *طبائع الحيوان* ، ص ٢١ .
(١٠١) انظر، الفصل الرابع من البحث ، وقد سبق وناقشت هذه الإشكالية التاريخية فى الفصل السابق .
(١٠٢) انظر، الفصل الرابع من البحث .
(١٠٣) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٠ ؛ الحميرى ؛ *الروض المعطار* ، ص ٢١٩ .
(١٠٤) المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١٢ .

ظل سيادة خاقان الخزر عليهم[١٠٥] . فقد كانت مملكة الخزر تحوى بين جنباتها مسلمين ومسيحيين ويهوداً ووثنيين[١٠٦] بالاضافة إلى سيادتها على القبائل السلافية والفنلندية فى منطقة السهوب وشمالها ، ولهذا استحقت أن يطلق عليها المؤرخ والأثرى الإنجليزى ويتو *Whittow* عبارة اتحاد كونفدرالى . وتنبغى الإشارة إلى أن اليهود كانوا أقل الفئات السكانية فى خزاريا ، أما الأغلبية فكانت للمسلمين والمسيحيين ؛ وبالرغم من هذا كان ملكهم وخاصته من اليهود[١٠٧] . وقد سبقت الإشارة إلى النظام القضائى فى خزاريا ، وكيف أن كل فئة من فئات السكان الخزر كان لها حكامها أوقضاتها[١٠٨] .

أما عن الموارد المالية التى كان يعتمد عليها ملك الخزر وخاقانه فكانت تعتمد على الضرائب التى كان يفرضها على التجارة المارة عبر أراضيه أو التى تقوم عليها. وفى هذا الشأن يقول الاصطخرى "... وأبواب مال هذا الملك من الأرصاد وعشور التجارات ، وعلى رسوم لهم من كل طريق وبحر ونهر ، ولهم وظائف على أهل المحال والنواحى من كل صنف ، مما يحتاج من طعام وشراب وغير ذلك .."[١٠٩] . وتضيف الحولية الروسية الأولى إليها دخلاً آخراً غير ضريبة العشور تتمثل فى الجزية التى كان يفرضها الخزر على القبائل السلافية ، التى كانت تعيش فى منطقة السهوب ، وكان مقدارها قطعة فضية عن كل نصل محراث[١١٠] ؛ ونعرف جيداً أنه منذ حوالى منتصف القرن السابع الميلادى وحتى نهاية القرن التاسع الميلادى كان المجيار يجبون الجزية لحساب الخزر ، من الشعوب السلافية والفنلندية التى كانت تقطن المنطقة الواقعة شمال موطن المجيار فى منطقة السهوب وفى منطقة الغابات الواقعة إلى الشمال من ذلك[١١١] . لكن يبدو أن مجئ الروس إلى منطقة السهوب والغابات الشمالية أثر تأثيراً بالغاً على هذه الدخول . فتذكر الحولية الروسية الأولى أنه فى عام ٨٥٩م صار الفارانجيون يقاسمون الخزر فى الجزية المفروضة على القبائل السلافية والفنلندية . فكان الفارانجيون يفرضون الجزية على قبائل التشود *Chuds*

---

(١٠٥) Whittow, M., *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025*, (London, 1996), p. 223.

(١٠٦) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٢٩؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٠ ؛ المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١٢ ؛ ابن القلانسى ، *دمشق* ، ص ٢٠٣ .

(١٠٧) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٠ .

(١٠٨) انظر، الفصل السابق ، ص ١٤ .

(١٠٩) *المسالك والممالك* ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٠ ، ٣٩٢ .

(١١٠) *R.P.C.*, 84; Franklin and Shepard, *Rus'*, p. 77.

(١١١) كويستلر ، *الخزر* ، ص ١٢٠ ، عن موطن المجيار وعلاقتهم بالخزر ، انظر الصفحات التالية .

والسلاف *Slavs* والميريين *Merians* والفيز *Ves'* والكريفتشيين *Krivichians* ؛ بينما فرض الخزر الجزية على الرادميتشيين *Radimichians*(١١٢) وعلى البوليين *Polyanians* والسيفيريين *Severians* والفياتشيين *Vyatichians*(١١٣) . ويبدو أن هذه المشاطرة الروسية للخزر فى الجزية المفروضة على تلك القبائل حدثت بعد استيلاء الروس على مدينة كييف وانتزاعها من أيدى الخزر ، فى أواسط القرن التاسع الميلادى .

الجدير بالذكر أن عاصمة الخزر كانت مدينة أتل أو إتل كما يسميها البعض(١١٤) ، وكان يشطرها نهر أتل إلى شطرين أحدهما شرقى والآخر غربى . ويقيم ملك الخزر وحاشيته فى الشطر الغربى منها ، وهو الشطر الأكبر حجماً(١١٥)، وكان يطلق عليه اسم خزران(١١٦) ؛ أما باقى الرعية من المسلمين وغيرهم فكانوا يقيمون فى الجانب الشرقى منها(١١٧) ، وكان يطلق عليه اسم أتل(١١٨) . والشئ الحضارى الهام الذى ينبغى ملاحظته على العاصمة الخزرية أتل ، فى القرن العاشر الميلادى ، أن ملك الخزر كان يتخذ له قصراً من الآجر وليس لأحد بناء من آجر غيره ، ولا يسمح الملك لأحد أن يبنى بالآجر ، كما كان يحيط به سور ذو أبواب أربعة ، بالجانب الغربى من المدينة، الذى يقطنه الملك وحاشيته(١١٩) . ويذكر الادريسى أن مدينة أتل كانت تبلغ من الطول ثلاثة أميال ويحيط بها سور منيع(١٢٠) ، وكان أغلب أبنيتها عبارة عن خيم وأكواخ خشبية ولبود وخركاهات والقليل منها بنى من التراب والطين ، كما كانت

---

(١١٢) *R.P.C.*, p. 61.

(١١٣) *R.P.C.*, pp. 58, 59; Franklin and Shepard, *Rus'*, p. 77.

(١١٤) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٨٩ ؛ ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٩٤ ؛ الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ٨٣٤ ؛ المقدسى ، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦٠ ؛ *Hudud al-'Alam*, p. 161.

(١١٥) الاصطخرى، *المسالك والممالك* ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص ٣٨٩؛ ابن فضلان، *الرسالة* ، ص ١٩٤ ؛ الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ١١ ؛ *Hudud al-'Alam*, p.161.

(١١٦) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٨٩ .

(١١٧) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٩٤ ؛ الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٨٣٤ ؛ *Hudud al-'Alam*, p. 161.

(١١٨) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٨٩-٣٩٠ .

(١١٩) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٢٩ ؛ المقدسى ، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦١ ؛ الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ١١ .

(١٢٠) *نزهة المشتاق*، ٨٣٤ ؛ المقدسى، *أحسن التقاسيم*، ص ٣٦١؛ الحميرى، *الروض المعطار*، ص ١١ .

زاخرة بالأسواق والحمامات العامة والمساجد وبعض الكنائس[١٢١] . وبالاضافة إلى مدينة أتل كانت توجد مدن هامة أخرى يأتى على رأسها مدينة سمندر ، التى تقع على ساحل بحر الخزر ، خارج الباب والأبواب[١٢٢]، وأبنيتها من الخشب ، وسطوحهم مسنمة[١٢٣] . وهذه المدينة بها خلق من المسلمين[١٢٤] ، وإن كان يغلب عليها المسيحيون[١٢٥] ؛ وكانت تتسم بالثراء والرخاء الاقتصادى . والمسافة بين مدينة سمندر والعاصمة الخزرية أتل كانت مسيرة ثمانية أيام[١٢٦] أو سبعة أيام[١٢٧] . كما كانت هناك مدن أخرى منها مدينة خمليج وبلنجر البيضاء ، التى قال فيها البحترى :

شرف تزيد بالعراق إلى الذى عهدوه فى خمليج أو بلنجر[١٢٨]

وجميع هذه المدن كانت تحيط بها الأسوار المنيعة[١٢٩] .

والآن علينا أن نتعرف على مواقع الأمم الأخرى من الخزر ، من واقع المسافات التى تفصل بينها وبين العاصمة الخزرية أتل ؛ فمن أتل إلى أول حد من برطاس عشرون يوماً ؛ ومن أتل إلى مملكة السرير[١٣٠] ، مروراً بسمندر وباب الأبواب ، خمسة عشر يوماً ؛ ومن أتل إلى موطن البشناق مسيرة شهر ؛ ومن أتل إلى بلغار الفولجا على طريق المفازة نحو شهر ، وفى الماء نحو شهرين فى الصعود والحدود فى النهر نحو عشرين يوماً[١٣١] . ولا يوجد ذكر لحدود مشتركة للخزر مع الروس فى بدايات القرن العاشر الميلادى ، على عكس بلغار الفولجا ، الذين كانوا

---

(١٢١) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٢٩ ؛ الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٨٣٤ ؛ المقدسى ؛ *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦١ ؛ ابن الوردى ، *خريدة العجائب* ، ص ٩٤ ؛ ابن القلانسى ، *دمشق* ، ص ٢٠٣ ؛ الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ١١ ، ٢١٩ .

(١٢٢) ابن خرداذبة ، *المسالك والممالك* ، ص ٦٣ ، ١٢٤ ؛ الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٠؛ المقدسى ، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦١ ؛ *Hudud al-'Alam*, p. 161.

(١٢٣) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٠ ؛ المقدسى ، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦١ .

(١٢٤) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٠ .

(١٢٥) المقدسى ، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦١ .

(١٢٦) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٢ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٨ .

(١٢٧) الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٨٣٤ .

(١٢٨) ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك* ، ص ١٢٤ ؛ الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩١٨ .

(١٢٩) *Hudud al-'Alam*, p. 161.

توجد العديد من المدن الخزرية الأخرى ، لكننا اكتفينا بذكر أهمها ، للمزيد من التفاصيل ، انظر ،المقدسى، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٥٥ ؛ المروزى ، *طبائع الحيوان* ، ص ٢١ الكرديزى ، *زين الأخبار* ،ص٤٦٤؛ القلقشندى ، *صبح الأعشى* ، جـ٤ ، ص ٤٥٩ .

(١٣٠) عن مملكة السرير انظر، الاصطخرى ؛ *المسالك والممالك* ، ص ١٣٠ .

(١٣١) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٢ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٨ ؛ الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩١٩ .

يبعدون عن حدود الروس مسيرة عشر مراحل ، وعن مدينة كويابه (كييف) نحواً من عشرين مرحلة[١٣٢] . ويشير بارتولد إلى وجود منطقة غير آهلة بالسكان ، ليست ملكاً لأحد *No man's land* ، بين حدود الخزر الشرقية وبين حدود البلاد الإسلامية ، ولم تكن هذه المنطقة خاضعة لا للخزر ولا للمسلمين[١٣٣] .

وقبل أن نمضى إلى الحديث عن العلاقات الخزرية – الروسية ينبغى أن نبرز الدور الذى كان يلعبه الخزر فى الخريطة السياسية لمنطقتى الفولجا والسهوب . يشير ابن الوردى إلى نقطة غاية فى الأهمية وهى أنه لم يكن هناك جيوش للأمم المحيطة بالخزر ، والوحيد الذى كانت له هذه الميزة هو خاقان الخزر ؛ وفى هذا الصدد يقول".. وليس من الملوك التى فى تلك النواحى من عنده جند مرتزقة غير ملك الخزر"[١٣٤]. أما ابن فضلان فيشير إلى سيادة خاقان الخزر على من جاوره من الأمم والقبائل ، لدرجة أنه كان يتزوج من ابنة كل ملك من الملوك الذين يجاورونه ، سواء طوعاً أو كرهاً ، حتى بلغن خمس وعشرين امرأة[١٣٥] . وعلى هذا لم يكن من المستغرب أن تذعن له الأمم المجاورة وملوكها[١٣٦] . وقد كان ملك الخزر يتمتع بهيبة فى المنطقة أضافت إليه سلطاناً فوق سلطانه ، فعلى سبيل المثال إذا خرج للقتال يكون بينه وبين المواكب ميلاً ، فلا يراه أحد من رعيته إلا خر لوجهه ساجداً ، لا يرفع رأسه حتى يجوزه[١٣٧] ، ومن المحتمل أن هذه الهيبة انتقل خبرها إلى الأمم المجاورة، فكانت عاملاً على بسط سلطانه عليهم . ولعل مما دعم سلطانه أيضاً فى المنطقة تلك السلسلة القوية من التحصينات العسكرية التى كفلت الحماية لحدود مملكته . فقد شكلت هذه الحصون قوساً صلداً شبه دائرى يمتد من القرم – التى حكمها الخزر لفترة من الزمن– إلى نهر أتل ، عبر الروافد الجنوبية لنهر الدونتز والدون ، بينما كانت المملكة محمية جنوباً بواسطة سلسلة جبال القوقاز ، ومن الغرب ببحر بونتس ، ومن الشرق ببحر الخزر . بيد أن التحصينات الشمالية كانت تمثل مجرد حلقة داخلية تحمى قلب الخزر ، أما الحدود الحقيقية لسيطرتهم على قبائل الشمال فكانت تتغير وفقاً لمصائر حروبهم[١٣٨]. ومن أشهر القلاع الخزرية التى حفظها التاريخ لنا ، قلعة الساركل ،

---

[١٣٢] الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩١٩ ؛ الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٢ .
[١٣٣] بارتولد ، *الترك* ، ص ٦٠ .
[١٣٤] *خريدة العجائب* ، ص ٩٥ .
[١٣٥] *الرسالة* ، ص ١٩٢ ؛ كويستلر ، *الخزر* ، ص ٩١ .
[١٣٦] ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٩١ .
[١٣٧] ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٩٣ .
[١٣٨] كويستلر ، *الخزر* ، ص ٢٤ .

وهى القلعة التى بناها البيزنطيين لهم تحت اشراف القائد البيزنطى بتروناس *Petronas* ، وكانت تقع على الشاطئ الأيسر لنهر الدون[١٣٩] . وقد كان الهدف من بناء هذه القلعة هو صد الهجمات الآتية من صوب الغرب ؛ فالأعداء الذين يهددون الخزر من هذه الناحية ، وكذلك يهددون شبه جزيرة القرم البيزنطية فى نفس الوقت ، كانوا يتمثلون بالدرجة الأولى فى الروس[١٤٠] ويضيف إليهم المؤرخ الإنجليزى المشهور أوبلنسكى المجيار أيضاً[١٤١] . وربما لنفس السبب قامت بيزنطة بإنشاء ثيم خرسون فيما بعد[١٤٢].

وقد وردت عبارة فى رسالة الملك يوسف إلى الوزير الأندلسى حسداى بن شبروط غاية فى الأهمية تكشف لنا عن قوة خاقان الخزر فى المنطقة فهو يقول : "وأنا أحرس – بعون اللّه – مصب النهر (أتل) ، ولا أسمح للروس القادمين فى سفنهم أن يغزوا بلاد العرب .. وأنا أخوض ضدهم حروباً ضارية ، لأنى إذا أذنت لهم بذلك فسوف يكتسحون بلاد المسلمين ، ربما حتى بغداد"[١٤٣] . ومما يؤكد حسن علاقاته مع المسلمين ، والهدوء الذى كان يسود حدوده معهم عبارة المسعودى التى يذكر فيها أن المسلمين فى القوقاز لم يعهدوا عدواً يأتى إليهم قبل الروس[١٤٤] . فقد كانت العلاقات طيبة بينه وبين مملكة السرير وبين الأخيرة والمسلمين فى القوقاز ، حيث كانت تجمعهم جميعاً هدنة[١٤٥] . والمرة الوحيدة التى تحالف فيها خاقان الخزر مع عدو للمسلمين ، أعنى الروس سنة ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م ، وسمح لهم بالمرور عبر أراضيه لقتالهم ، انقلب المسلمون الخزر عليه ونهروه على عمله هذا وتولوا بأنفسهم الثأر من الروس ، الذين لم يجد تحذير الخاقان لهم نفعاً[١٤٦] . وربما من أجل هذا

---

(١٣٩) Obolensky, *Crimea*, p. 128; Whittow, *Byzantium*, p. 233.

(١٤٠) كويستلر ، *الخزر* ، ص ١٠٦ Obolensky, *Crimea*, p. 128;

(١٤١) دنلوب ، *الخزر* ، ص ٢٥ Obolensky, *Crimea*, p. 128;

لمزيد من التفاصيل عن قلعة الساركل ، انظر، *DAI*, I, chap.42, pp.182-185;
Mcgovern, M., " Sarkel-a Reflection of Byzantine Power or Weakness ? ", *BsL*, 50 (1989), pp. 177-180;
دنلوب *الخزر* ، ص ٢٥١-٢٥

(١٤٢) Mcgovern, *Sarkel*, p. 178.

(١٤٣) كويستلر ، *الخزر* ، ص ٩٣ ؛ دنلوب ، *الخزر* ، ص ٣١٩ .

(١٤٤) *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ٧٦ .

(١٤٥) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٠ .

(١٤٦) انظر، المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١٥-١١٦ ؛ الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ٣٤١؛ وانظر أيضاً الفصل السابق ، ص ١٤-١٦ .

أحجم الخاقان عن الإذن لهم فى إغارتهم الثانية على القوقاز فى عام ٣٣٢هـ/٩٤٣-٩٤٤م ، مما اضطرهم إلى تغيير خط سيرهم(١٤٧) .

ويذكر الكرديزى أن الخزر كانوا يشنون الحرب على البشناق سنوياً ، ويجلبون من هناك المال والسبايا(١٤٨) ؛ وقد سبق وعرضنا للتحالف الغزى - الخزرى ضد البشناق وما نجم عنه من هجرة البشناق إلى منطقة السهوب الواقعة شمال بحر بونتس ، فى مستهل القرن العاشر الميلادى(١٤٩) . ولهذا ليس من المستغرب أن يقول قسطنطين بورفيروجنيتوس فى كتابه عن "الإدارة الإمبراطورية" : "يستطيع الغز مهاجمة الخزر ، لأنهم مجاورون لهم .."(١٥٠) . وذلك لأن الغز أصبحوا الجيران المباشرين للخزر شرقاً . أما البشناق فقد قاموا بطرد المجيار ، الذين كانوا يعيشون فى كنف خاقان الخزر فى المنطقة الواقعة فيما بين نهرى الدون والدنيبر شمال بحر بونتس، نحو الغرب حتى المنطقة الواقعة بين نهرى الدنيبر وسيريت ؛ ولكن البشناق هاجموهم ثانية بالتحالف مع بلغار الدانوب ومن ثم انسحب المجيار إلى الموضع الذى يعيشون فيه حتى الآن(١٥١) .

الجدير بالذكر أن الخزر خسروا من وراء هذا ، نظراً لأن المجيار كانوا يؤدون لهم خدمات جليلة كجباية الجزية من القبائل السلافية والفنلندية لصالحهم ، كما أنهم كانوا يتحالفون مع خاقان الخزر فى كل حروبه ، مما دفع خاقان الخزر لتزويج نبيلة خزرية من أمير المجيار ، المدعو ليبيدياس *Lebedias*(١٥٢) . ويمكن استنتاج أن إقامة المجيار شمال بحر بونتس ، والتى كانت برضى من خاقان الخزر ، كانت لخدمة الأغراض الخزرية الدفاعية . فقد استطاع المجيار أن يساعدوا الخزر فى مراقبة تقدم الروس صوب الاتجاهين الجنوبى الشرقى والجنوبى(١٥٣) ، لا سيما بعد أن انتزع الروس كييف من أيدى الخزر وشاركوهم فى الجزية المفروضة على القبائل السلافية والفنلندية .

---

(١٤٧) عن هذه الاحداث انظر، الفصل السابق ، ص ١٧-٢٣ .

(١٤٨) *زين الأخبار* ، ص ٤٦٤ .

(١٤٩) انظر، ص ٣ ، من هذا الفصل .

(١٥٠) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٦٤ ; *DAI*, I, pp.62-63;

(١٥١) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٤٠-١٤١ ؛ كويستلر ، الخزر ، ص ١٢٥-١٢٦ .

(١٥٢) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٤٠ ; *DAI*, I, pp.170-171;
Shepard, J., " The Khazars' Formal Adoption of Judaism and Byzantium's Northern Policy ", *OSP*, 31 (1998), p. 25.

(١٥٣) كويستلر ، *الخزر* ، ص ١٢١ .

ويمكننا القول أن الخزر ظلوا سادة الفولجا (أتل) وما حوله حتى أواخر القرون التاسع الميلادى ، وينسب إليهم أنهم هم الذين أوقفوا الفاتحين المسلمين عن المضى قدماً فى فتوحاتهم شمال القوقاز[١٥٤] ، أو كما يقول كويستلر نقلاً عن أوبلنسكى "إن ما أضافه الخزر بشكل أساسى إلى تاريخ العالم هو نجاحهم فى أن يقيموا من سلسلة جبال القوقاز عقبة تصد انقضاض العرب الزاحف من الجنوب"[١٥٥] . لكن بدءاً من القرن العاشر الميلادى ، كان بساط السيادة يسحب من تحت أقدام الخزر ، وكان على الخزر أن يواجهوا عدواً شديداً تمثل فى الروس ، كما كان عليهم أن يواجهوا أعداء أكثر ضراوة منهم تمثلوا فى الغز والبشناق[١٥٦] . ولعل التغير الذى حدث فى الخريطة السياسية لمنطقة الفولجا والسهوب ، فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، من ظهور قوى جديدة فى منطقة السهوب ، أكثر قدرة وتأثيراً فيها من الخزر ، كان دافعاً لبيزنطة للبحث عن حلفاء جدد فى هذه المنطقة غير الخزر ، حلفائهم القدامى ، وبكلمات المؤرخ الإنجليزى ويتو "كان القرن التالى لعام ٨٥٠م عصر اضمحلال الخزر والبحث البيزنطى عن حليف جديد فى الأرضى الواقعة شمال البحر الأسود ، وهو العصر الذى شهد أيضاً قيام دولة للروس"[١٥٧] .

لقد كانت بيزنطة بذكائها الدبلوماسى المعهود تعتمد على الخزر لسنوات طويلة، تعود إلى عصر الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) ، فى تنفيذ أغراضها بين شعوب القوقاز - الفولجا - السهوب . فالتعاون العسكرى المباشر بينهما وضح جلياً فى الدور الذى قاموا به فى الصراع البيزنطى - الفارسى فى عهد الإمبراطور هرقل *Heraclius* ، والزيجات السياسية بين البلاط البيزنطى والبلاط الخزرى سجلها المؤرخون بجلاء .

ويجمل لنا المؤرخ موشين *Mošin* طبيعة العلاقات البيزنطية - الخزرية فى أبسط كلمات بقوله "لعبت العلاقات مع الخزر ، منذ القرن السابع وحتى القرن التاسع الميلادى ، دوراً كبيراً فى الحياة السياسية للإمبراطورية البيزنطية . فقد جذبت الدبلوماسية البيزنطية الخزر فى تحالف مبدئى ضد الفرس ثم ضد العرب ؛ وأمس الأباطرة الذين كانوا ضحايا ثورات القصر يبحثون عن طوق النجاة فى خزاريا ، كما

---

(١٥٤) عن الحروب الخزرية - العربية ، انظر، دنلوب ، *الخزر* ، ص ٧١-١٣٤ ؛ كويستلر ، *الخزر* ، ص ٣٤-٣٩ ، ١٠٣-١٠٥ .

(١٥٥) كويستلر، *الخزر*، ص ٣٩ .

(١٥٦) Whittow, *Byzantium*, p. 229.

(١٥٧) Whittow, *Byzantium*, p. 241-242.

تزوج الأباطرة البيزنطيون من أميرات خزريات ؛ وحاولت القسطنطينية إدخال المسيحية إلى أراضى الخزر ، حيث وجدت سلسلة من الأسقفيات ، وأرسلت عدداً من علماء الدين البارزين إلى هناك ؛ كما شيد المهندسون البيزنطيون قلاعاً لخاقانات هذا الشعب التركى"(١٥٨) . وبالرغم من هذا لا نستطيع تتبع مراحل تطور العلاقات بين الطرفين حتى بداية القرن العاشر الميلادى ، نظراً لقلة المعلومات الواردة عنها فى المصادر البيزنطية ؛ وسنجد لزاماً علينا أن نقلب بين ثنايا المصادر الأخرى سواء العربية أو الروسية أو ما بقى من المصادر الخزرية للخروج برؤية عامة توضح لنا الوضع الذى صار عليه الخزر فى المنطقة بعد التحولات التى رأيناها فى الخريطة السياسية للسهوب . وفى الحقيقة فإن حجم التغير فى النظرة البيزنطية للخزر كحليف مطلق فى منطقة الفولجا وما حولها ، صار مرتبطاً بحجم العلاقات البيزنطية النامية مع الأمم الأخرى ، خاصة الروس والبشناق ، الذين يمكن القول أنهم سحبوا البساط من تحت أقدام الخزر ، والذين تحولوا من مرحلة التبعية إلى مرحلة السيادة . والدليل على ذلك عدد المعاهدات التي عقدت بين البيزنطين والروس ، والتى بلغت أربع معاهدات فى أقل من سبعين عاماً ، وكانت جميعها تعكس المصالح المتبادلة بين الطرفين سواء سياسية أو عسكرية أو اقتصادية ؛ وهى تعكس لنا أيضاً حجم الثقل الذى أحرزه الروس، منذ هجومهم الأول على القسطنطينية فى عام ٨٦٠م وحتى هزيمة سفياتوسلاف فى عام ٩٧١م ، فى منطقة السهوب ، الأمر الذى حدا بالبيزنطيين للإفادة منهم بقدر الإمكان على النحو الذى رأيناه فى الباب الأول من البحث . لقد أدرك البيزنطيون حجم القوى الجديدة فى منطقة السهوب ، فى القرن العاشر الميلادى ، وأن نجم الخزر قد أفل فى سماء تلك المنطقة ، وأن المد والتوسع الروسى شرقاً وجنوباً كان يقابله انحسار سياسى خزرى ؛ كما أن الوجود البشناقى شمال بحر بونتس وتأثيرهم المباشر فى الأوضاع السياسية للأمم المجاورة لهم ، جلعهم يتخذون منهم حلفاء وأعواناً لهم فى تحقيق أغراضهم فى المنطقة والحفاظ على استمرارية الوجود البيزنطى فيها . لقد زادت علاقات بيزنطة بالروس والبشناق وكذلك بالآلان فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى(١٥٩) ، لدرجة جعلت البطريرك نيقولا مستيكوس يلوح لسيمون البلغارى مهدداً بإمكانية حدوث هجوم عليه من شعوب السهوب ، السالف ذكرها ، دونما أدنى إشارة للخزر(١٦٠) .

(١٥٨) Mošin, V., "Les Khazares et les Byzantins", *B*, 6 (1931), p. 309.
(١٥٩) Shepard, *Khazars*, p. 29 .
(١٦٠) انظر، *Nicholas I*, pp. 159 – 161; Shepard, *Khazars*, p. 29 .

والدارس للخريطة السياسية لمنطقة السهوب فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، بصفة خاصة ، سيلقى نفسه فى مفترق طرق ، أحدها يشكل التوسع الروسى فى المنطقة ، على حساب القوى السابقة ، والآخر يشكل السعى البيزنطى الدائم للحفاظ على الوجود البيزنطى فيها ، الرامى إلى الزود عن الحد الشمالى لبيزنطة وكبح جماح قوى السهوب ؛ وبينهما يقف البشناق يتحينون الفرص للاستفادة من هذا الوضع ، فتارة يتحالفون مع بلغار الدانوب ضد المجيار ، وأخرى يتحالفون مع بيزنطة ضد بلغار الدانوب أنفسهم ، أو يغيرون على أراضى الروس ، أو يتحالفون مع بيزنطة ضد الروس ، أو يعملون فى الجيش الروسى لقتال البيزنطيين . ومن هذا المنطلق لا يمكن لنا أن ننفرد بالحديث عن العلاقات بين الروس والخزر دون النظر بعين الاعتبار إلى الوجود البيزنطى فى المنطقة ، وما كان له من تأثير عليهما .

إن أول المصادر التاريخية التى تلقى الضوء على العلاقات الخزرية – البيزنطية – الروسية ، فى النصف الأول من القرن العاشر بصفة خاصة ، هى تلك الوثيقة الخزرية الهامة والتى تعرف باسم وثيقة كامبردج *The Document* of *Cambridge*[١٦١] ، وهى مجهولة المؤلف . وهذه الوثيقة تلقى الضوء ، بصورة لم نجد لها مثيلا فى المصادر المعاصرة لها ، عن الخزر بين الروس والبيزنطيين ، ونظرا لقيمتها التاريخية الثمينة يكون من المستحسن أن ننقلها إلى العربية ، نقلا عن ترجمة المؤرخ موشين ، ثم نتبعها بالتحليل التاريخى :

{... وفى عصر الملك يوسف ...[١٦٢] ، فإن سيدى ... (مساعدة) ، وفى عصر اضطهاد رومانوس الشرير ؛ (فى نفس الوقت) فإن سيدى ، المشهور بعمل ذلك ، داس

---

[١٦١] عرفت باسم وثيقة كامبردج لأنها محفوظة فى مكتبة جامعة كامبردج بإنجلترا ، وهى عبارة عن شذرة من مخطوطة خطاب باللغة العبرية القديمة ، ليس لها نهاية أو بداية أو تاريخ ، واستنادا إلى علم الخطوط وجد أنها تعود إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، ونسخت عن أصل يعود إلى القرن العاشر الميلادى . انظر ، Mošin, *Khazares,* p. 310.

[١٦٢] هذه النقاط تدل على فجوات بنص الوثيقة ، أما الملك يوسف فقد حكم فى الفترة من ٩٢٠–٩٦٠م . انظر Noonan, T., "Byzantium and the Khazars: a special relationship" ? In: *Byzantine Diplomacy, Papers from the Twenty-four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March, 1990, ed. J. Shepard and S. Franklin,* (Hampshir, 1992), p. 115.

بأقدامه حشد من غير المختونين . وقد أرسل رومانوس (الشرير) هدايا عظيمة إلى هيلجو *Helgou* ، ملك الروس ، محرضاً إياه على القيام بأعمال من شأنها جلب الشقاء على نظيره . فجاء أثناء الليل نحو مدينة *S-mk-rai*(١٦٣) ، وفتحها بغتة ، إذ لم يكن هناك وإليها راف حاشموناى *rav-Hashmonai* ؛ واستكمل هذا العمل فى بولشتزى *Bolchitzi* . وقد حُكى هذا للحارس بساح *Peisah* ، الذى شق طريقه ضد مدن رومانوس ، فأسر الرجال والنساء ، واستولى على ثلاث مدن تكتظ بالسكان . وسار منها نحو شورشون *Chourchoun* فقاتلها ... وخرجوا من البلاد على طريقة الدود... من اسرائيل ، ومات تسعون منهم ... وأجبرهم على أداء الجزية ، وأنقذ ... من أيدى الروس ، وانتصر على هؤلاء الذين كانوا هناك (وذبحهم بالسيف) . وسار من هناك نحو هيلجو ، حيث تقاتل معه مدة ... شهر ، وكسر الرب شوكته أمام بساح . وقد وجد ... الغنيمة ، التى استولى عليها نظيره من مدينة *S-mk-rai* . وقال : "لقد دفعنى رومانوس إلى فعل هذا" ، فرد عليه بساح قائلاً : "لو كان هذا حقيقة سر نحو رومانوس، وشن عليه الحرب ، مثلما فعلت معى ، وعن نفسى سوف أنسحب من عندك ، وإلا سأموت هنا ، أو سأحيا حتى اللحظة التى سآخذ فيها بثأرى . ولم يكن أمام المذكور إلا الرحيل وشن الحرب على قسطنطينة *Counstantina* (أى القسطنطينية) الواقعة على البحر ، مدة أربعة شهور . وقد هلك هؤلاء الأبطال هنالك ، حيث انتصر عليهم المقدونيون (أى البيزنطيون) بواسطة النار الاغريقية . وهرب وعاد إلى بلاده يجر أذيال الخيبة ، ومر عبر البحر بفارس *Perse* ، وهلك هو نفسه وشعبه . ومنذ ذلك خضع الروس لسلطان الخزر . وأنا أعيد هنا لسيدى اسم بلادنا ، مثلما وجدناها فى الكتب – أرقانوس *Arcanus* ، واسم عاصمة المملكة – خزر

---

(١٦٣) المقصود هنا مدينة تموتورا كان (مطرخه) ، وكانت تحت السيادة الخزرية آنذاك . انظر،
Noonan, *Byzantium,* p. 115; Soloviev, *L'etat Russe,* p. 262.
ويقول عنها الادريسى ، "ومدينة مطرخا مدينة أزلية ، قديمة العهد ، لا يعرف بانيها ، ولها كروم ومزارع . وهى مدينة كثيرة البشر ، عامرة الأقطار ، وبها أسواق واجتماعات مواعد يأتونها من أقاصى البلاد المتجاورة والأقطار المعاقبة" . انظر، *نزهة المشتاق* ، ص ٩٠٨ .

Khazar ، وهـو اسـم النهر الذى نعبره – اتل *Itil* . وهى تقع إلى الشرق من البحر الذى يمتد من بلادكم حتى قسطنطينة . والذى تعبره رسلك ؛ وهى تمتد حسبما أعتقـد ، من البحر العظيم . ومدينتنا ليست قريبة من هذا البحر ، فهى على بعد ألفيـن ومائـة وستين فرسخاً ، والمسافة بين بلادنا وقسطنطينة تستغرق رحلة تسـعة أيـام بـالبحر وثمانية وعشرين يوماً بالبر . والشعوب التى نتقاتل معها هى : آسـيا *Asia* ، وبـاب الأبواب ، وزيبوس *Zibus*، ولوزنين *Luznin* (...)[١٦٤] ، وعلى هـذا النحـو انتـهت الوثيقة . ومن خلال إعادة قراءة هذه الوثيقة التى هى جزء من مخطوطـة خطـاب، سنجد أنها كتبت فى عهد الملك يوسف (٩٢٠-٩٦٠م) أو بعده بقليل وأن هـذا الملـك كان معاصراً للإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكـابينوس (٩٢٠-٩٤٤م) . ويـروى كاتب الوثيقة أن الإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس بعث بهدايا ثمينة إلى أمير الروس العظيم ، طالباً منه القيام بشن هجوم على بلاد الخزر . وقد اسـتجاب الأمـير الروسى لطلب رومانوس ليكابينوس وقام بشن هجوك على الممتلكات الخزرية فى شبه جزيرة القرم . والسـؤال الذى يبدو لنا الآن مـا السـبب الـذى دفـع رومـانوس ليكابينوس لطلب مثل هذا من أمير الروس ؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال ينبغـى أن نعود قليلاً إلى الوراء ، إلى عهد بنيامين *Benjamin* ، ملك الخـزر (٨٨٠-٩٠٠م) ؛ الذى كان عليه أن يواجه تحالفاً بين بيزنطة من جهة ، والبرطاس والغز والبلغار السود والبشناق من جهة أخرى لمهاجمة الخزر[١٦٥] . والوحيد الذى ساعد الخزر حينذاك هو ملك الآلان[١٦٦] *Alans*، إذ أن جزءاً منهم كان يدين باليهودية[١٦٧] . وقد استطاع ملـك الآلان أنه يهزم قوات التحالف البيزنطى[١٦٨] . وفى عهد الملك الخزرى عارون *Aron* (٩٠٠-٩٢٠م) اتبعت بيزنطة سياسة مختلفة لهزيمة الخزر ؛ فقد رشى الإمـبراطور البيزنطى ملك الآلان ليشن هجوماً على الخزر ، وهو ما قام به بالفعل . لكن عـارون استعان بالغز ، سواء فى شكل مرتزقة ، كما يقـول المـؤرخ تومـاس نونـان *T. Noonan*[١٦٩] ، أو فى شكل الاستعانة المباشرة بملك الغز الذى كان صديقاً لعـارون ،

---

(١٦٤) Mošin, *Khazares*, pp. 313-314; Noonan, *Byzantium*, pp. 115-116; Chadwik, *Russian History*, pp. 44-45.

(١٦٥) Noonan, *Byzantium*, p. 115.

(١٦٦) كانت آلانيا تقع فيما وراء جبال القوقاز ، انظر، *DAI*, I, pp. 186 – 18.

(١٦٧) Mošin *Khazares*, p. 312.

(١٦٨) Mošin, *Khazares*, p. 312; Noonan, *Byzantium*, p. 115.

(١٦٩) Noonan, *Byzantim*, p. 115.

كما يقول المؤرخ موشين(١٧٠) . وقد هُزم الآلان وأسر ملكهم ، الذى تعاهد مع عاروون وقام بتزويج كريمته من يوسف ابن عارون(١٧١) . إلا أن ملك الخزر كبل حرية ملك الآلان ثانية وفرض نفوذه على مملكته أيضاً(١٧٢) . لقد كان الآلان يشكلون خطراً على مملكة الخزر ، نظراً لأن مملكتهم كان يجاورها تسعة أقاليم خزرية تتسم بالرخاء الإقتصادى(١٧٣) ، لهذا فرض عارون نفوذه عليها حتى لا تهاجم مملكته ثانية . وقد دفع هذا قسطنطين بورفيروجنيتوس لأن يقول عبارته التالية "... ويستطيع الآلان ، إذا رغبوا، نهب هذه المناطق (أى الأقاليم الخزرية التسعة) ويلحقون بالخزر الخراب والدمار ، لأن هذه المناطق التسع تعتبر مصدر أرزاق الخزر وفيها رخاؤهم"(١٧٤) .

بهذا نرى أن بيزنطة ، فى أواخر القرن التاسع الميلادى وبدايات القرن العاشر الميلادى ، كانت قد بدأت فى فك عرى التحالف مع الخزر والاستعانة بمجموعة من القبائل التركية وتشجيعهم للهجوم على الخزر والنيل منهم ؛ وينبغى أن نتوقع بطبيعة الحال أن بيزنطة قدمت الرشاوى والهدايا الثمينة لزعماء هذه القبائل ، الذين كانوا يتوقون إلى هدايا القسطنطينية الخلابة . وتعكس لنا الأحداث السابقة إلى أى مدى كانت قوة الخزر العسكرية والتى كان يقابلها تحالف بيزنطى - تركى قوامه مجموعة من القبائل التركية ، البرطاس والغز والبلغار السود ، والبشناق ؛ ومع هذا هزم هذا التحالف ، الذى خيب آمال بيزنطة فى القضاء على الخزر وأكد سيادة الخزر على هذه القبائل، التى لم تفكر فى إعادة الكرة ثانية عليهم. ومع هذا تمضى بيزنطة فى محاولاتها للقضاء على الخزر، ويفشل حلفاؤها من الآلان فى هزيمتهم، بل يتمكن الخزر من بسط سيادتهم عليهم . وهنا تتجه بيزنطة ببصرها نحو قوة أخرى من قوى السهوب لإزعاج الخزر وشن هجوم عليهم، فتوددت إلى الروس وأرسلت هدايا ثمينة لأميرهم ، ونجحت فى دفعهم للهجوم على الخزر .

لقد بدأ العداء البيزنطى للخزر، حلفاء الأمس، فى عهد الإمبراطور البيزنطى باسيل الأول المقدونى *Basil I* (٨٦٧-٨٨٦م) ، بسبب سياسة بطريرك القسطنطينية الذى عمد اليهود بالقوة(١٧٥) ، الأمر الذى أثار حفيظة ملك الخزر، الذى كان يدين

---

(١٧٠) Mošin, *Khazares*, p. 312.

(١٧١) Mošin, *Khazares*, p. 312; Noonan, *Byzantium*, p. 115; Shepard, *Khazars* p.29.

(١٧٢) Mošin, *Khazares*, p. 319.

(١٧٣) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٦٤ ؛ *DAI*,I, pp. 64 - 65 ;

(١٧٤) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٦٤ ، Vernadsky, *Crimea*, p. 253.

(١٧٥) Mošin, *Khazares*, p. 319.

باليهودية هو وخاصته[١٧٦] ؛ ومنذ هذا الوقت بدأ العداء يزداد رويداً رويداً بين الإمبراطورية البيزنطية ومملكة الخزر. وقد بلغ قمة العداء البيزنطى للخزر باضطهاد اليهود فى بيزنطة وإجبارهم على التحول إلى المسيحية فى عهد الإمبراطور رومانوس ليكابينوس؛ بل ذهب الأخير إلى أبعد من ذلك وقام بطردهم هم والأرمن الذين لم يعتنقوا المسيحية على المذهب الأرثوذكسى ، خارج البلاد[١٧٧]. ويذكر المؤرخون أن السبب فى إجبار رومانوس ليكابينوس لليهود على التحول إلى المسيحية، ذلك الخطاب الذى تلقاه من بطريرك القدس، يخبره فيه بأن أعداداً من اليهود فى القدس قد تحولوا إلى المسيحية ، ويطلب منه القيام بتحويل كل اليهود فى بيزنطة إلى المسيحية . وبطبيعة الحال كان لدى رومانوس بواعث عديدة للقيام بذلك، أولها: أنه كان مغتصباً للعرش ويرغب فى تدعيم ملكه، عن طريق الاستجابة لطلب بطريرك القدس ؛ ثانيها: أنه كان يرغب فى إقامة أسرة حاكمة ثابتة الأركان تحمل اسمه وتتولى حكم بيزنطة؛ ثالثها: فشل البعثات التبشيرية البيزنطية بين الآلان، حلفاء بيزنطة، وتزعزع الوجود البيزنطى فى القوقاز بسبب هزيمة الخزر للآلان فى عهد الملك عارون؛ رابعها: نهج الأسرة المقدونية المعادى لليهود منذ تأسيسها على أيدى باسيل المقدونى، والذى لم يكن لرومانوس أن يخالفه خاصة وأن حكمه غير شرعى[١٧٨] . وعلى أثر هذا قام ملك الخزر بالانتقام من المسيحيين الخزر الذين يعيشون فى بلاده[١٧٩] . لقد وقعت الاضطهادات البيزنطية لليهود فيما بين عامى ٩٣٢م ، ٩٤٣م ، أى فى خلال فترة حكم الإمبراطور رومانوس ليكابينوس[١٨٠] . وقد تفاقمت المشكلة بين الخزر وبيزنطة، خاصة بعد لجوء اليهود إلى ملك الخزر، فكان على السيف أن يقول كلمته.

---

(١٧٦) عن تحول الخزر إلى اليهودية انظر، المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١ ؛ الدمشقى ، *نخبة الدهر* ، ص ٢٦٣ ؛

Zuckerman, C., "On the date of the Khazars' Conversion to Juadism and the Chronology of the Kings of the Rus' Oleg and Igor ", *REB*, 53 (1995), pp. 238-270; Vernadsky, G., " Byzantium and Southern Russia ", *B*, 15 (1940-41), pp. 76-86; Franklin and Shepard, *Rus'*, pp. 95-96; Mošin, *Khazares*, pp. 311-312.

انظر أيضاً ، دنلوب ، *الخزر* ، ص ١٣٥-٢٧٢ ؛ كويستلر ، *الخزر* ، ص ٧٢-٧٩ ، بارتولد ، *الترك* ، ص ٦٣-٦٤.

(١٧٧) المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١١ ؛ Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 231.

(١٧٨) انظر، Shapard, *Khazars*, p.30 ; Sharf, A., *Byzanyine Jewry from Justinian to the Fourth Crusade*, (London, 1971), p.99.

(١٧٩) Noonan, *Byzantium*, p. 115; Shapard, *Khazars*, p.30.

(١٨٠) المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١١ ؛ Mošin, *Khazares*, p. 320 .

بيد أن المشكلة التى ظهرت لبيزنطة هنا هى أنه لم يسبق لها أن ألقت بجيوشها فى منطقة السهوب أو الفولجا ، بل تعتمد بالدرجة الأولى على جهازها الدبلوماسى النشط، الذى اكتسب خبرة طويلة فى التعامل مع مثل هذه الشعوب التى تعيش فى مناطق القوقاز - الفولجا - السهوب ؛ وقد نجح هذا الجهاز فى تسخير العديد من القبائل التركية للهجوم على الخزر مرتين، لكن هاتين المرتين أخفقتا، كما سبق القول. ولم يعد أمام بيزنطة إلا أن تلجأ للروس، الذين أغاروا عدة مرات على القسطنطينية، فى الفترة من ٨٦٠-٩٤٤م، وعقدوا عدة معاهدات أيضا مع البيزنطيين، كانت مثمرة للطرفين . لقد كان النشاط الروسى الحربى فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى، فى منطقة السهوب، تدركه بيزنطة جيدا عن طريق ثيم خرسون وعن طريق حلفائها فى المنطقة. ولاغضاضة فى أن تطلب بيزنطة من الروس مهاجمة الخزر، وبهذا تنال إحدى الحسنيين إما تقويض دعائم مملكة الخزر، وفى هذه الحالة تكسب الروس لصالحها كحلفاء جدد، أو التخلص من قوة الجيش الروسى، الذى كان يتغلغل فى منطقة السهوب مهددا الممتلكات البيزنطية فى شبه جزيرة القرم، فى حالة ما إذا هزم من الخزر .

أيا كان الأمر، قام الأمير الروسى بحشد قواته والهجوم ليلا على مدينة تموتوراكان، التى كانت تحت السيادة الخزرية، الواقعة فى شبه جزيرة القرم. وقد أدرك الخزر أن هذا الهجوم الذى قام به الروس كان وراءه البيزنطيون، بدليل أن الحاكم الخزرى العسكرى المدعو بساح شن هجوما على المدن البيزنطية الواقعة فى منطقة القرم؛ وقد استولى على ثلاث مدن وعدة قرى فى الوقت الذى حاصر فيه مدينة خرسون[١٨١] ، وهى التى تقابلها المؤرخة شادويك W.Chadwik بشورشون الواردة فى نص الوثيقة[١٨٢]. وكانت الخسائر البيزنطية البشرية فى هذه المرحلة من رد الفعل الخزرى تسعين من القتلى والعديد من الأسرى[١٨٣] . وجاءت المرحلة الثانية من رد الفعل الخزرى فى الانتقام من الروس أنفسهم، لتجرؤهم على مهاجمة بلاد الخزر ، فقرر بساح أن يقود قواته ويهاجم الأمير الروسى نفسه؛ وقد ألحق به الهزيمة بعد

---

(١٨١) Noonan, *Byzantium*, p. 115.
(١٨٢) Chadwik, *Russian History*, p. 45.
(١٨٣) Noonan, *Byzantium*, p. 115.

أربعة أشهر، واسترد منه الغنيمة التى أخذها من مدينـــة تموتوراكـــان[١٨٤]. وتـــروى الوثيقة أن الأمير الروسى بعد أن هزم من بساح اعترف أمام الأخير بأنه ما أقدم علـــى ما فعله إلا بتحريض من الإمبراطور رومانوس ليكابينوس ، عندئذ سأله بساح أن يقوم بشن هجوم على بيزنطة نفسها، فى مقابل الجلاء عن أراضيه، وإلا فالحرب مســـتمرة بينهما حتى النهاية. ولم يكن هناك مفر أمام الأمير الروسى إلا القبول . وبناء عليه قـام الأمير الروسى بحملة على القسطنطينية، انهزم فيها بفعل النار الإغريقية وهرب هـــو ورفاقه عبر البحر إلى فارس، حيث مات هناك[١٨٥] .

وحتى هذا الجزء من الأحداث تبدو الشهادات التاريخية التى تقدمـــها الوثيقـــة منطقية ولا يمكننا رفضها ، ولكن تكمن المشكلة الرئيسية فى اسم الأمير الروسى الذى ورد بها، فقد أطلقت عليه اسم هيلجو *Helgou* ، وهو اسم اسكندنافى بكل تأكيد. ولابـــد لنا معرفة من يكون الأمير هيلجو الوارد بالوثيقة، حتى نستطيع أن نحدد بالضبط متـــى وقع الهجوم الروسى هذا على بلاد الخزر، خاصة وأن المصادر الروسية لا تقدم أيـــة معلومات عن هذا الأمر. ونظرا لأن لقب هيلجو والذى كان يعنى بالســـويدية القديمـــة قديسا، كان يطلق على كل أمير من الأمراء الروس[١٨٦]، فقد أحدث هذا ارتباكا بيـــن المؤرخين المحدثين. فذهب فريق منهم، على رأســـه العـــالم الروســـى كوكوفـــتزوف *Kokovtzov*[١٨٧] والمؤرخ نونان[١٨٨] ، إلى مطابقة اسم هيلجو مع اولـــج *Oleg* أمـــير الروس العظيم، الذى ذكرته الحولية الروسية الأولى تحت أحـــداث عـــام ٨٧٠-٨٧٩م وحتى وفاته فى عام ٩١٢م[١٨٩] . لكن التناقضات الحتمية التى توصلوا إليها أجـــبرت مجموعة أخرى من العلماء على رفض مماثلة هيلجو ، الوارد فى وثيقة كامبردج، مـــع

---

(١٨٤) Noonan, *Byzantium*, p. 115.

(١٨٥) Mošin, *Khazares*, p. 313; Noonan, *Byzantium*, pp. 115-116.

(١٨٦) كان يطلق على اولج اسم هيلجى - ، وعلى ايجور اسم هيلجى - ايجور ، وعلى أولجـــا اســـم هيلجـــا - أولجا ، أما سفياتوسلاف ، فالمقطع الأول من اسمه سفيات يعنى قديس ، وأخيرا عندنا القديس فلاديمير . انظـــر Mošin, *Khazares*, p. 321, n. 1.

(١٨٧) Kokovtzov, P. K., *Evreisko-Khazarskaia Perepiska V.X. Veke*, (Leningrad, 1932)

(١٨٨) Noonan, *Byzantium*, pp. 115-116.

(١٨٩) *R.P.C.*, pp. 60, 65-71.

اولج المذكور فى الحولية الروسية الأولى؛ وفيما يلى الأسس التى استندوا إليها فى هذا الرفض :

١- هيلجو الوارد فى وثيقة كامبردج معاصر للإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس (٩٢٠-٩٤٥م) وملك الخزر يوسف بن عارون (٩٢٠-٩٦٠م) . أخيرا فإن حرب اولج مع بيزنطة توجت بمعاهدة بينهما فى عام ٩١١م[١٩٠] ، وقد توفى فى عام ٩١٢م على حد ذكر نسطور[١٩١] .

٢- تدل شروط معاهدة ٩١١م بين الروس وبيزنطة على نجاح اولج فى الحصول على أكبر فائدة ممكنة من البيزنطيين[١٩٢]، بينما هلك أسطول هيلجو، الوارد فى وثيقة كامبردج، بفعل النار الاغريقية .

٣- طبقا لرواية المجهول، فإن هيلجو بعد هزيمته تغلغل فى فارس حيث هلك هناك هو ورفاقه ؛ فى الوقت الذى أشارت فيه الحولية الروسية إلى أن اولج مات فى روسيا[١٩٣] .

٤- وينبغى أن نضيف نقطة رابعة وهى أن كاتب الوثيقة المجهول يعى تماما سبب الحرب، وهو اضطهاد الإمبراطور رومانوس ليكابينوس لليهود فى بيزنطة، ونحن نعرف أن هذه الاضطهادات وقعت فيما بين عامى ٩٣٢م و ٩٤٣م ، أى بعد عصر الأمير اولج بفترة طويلة . وبناء على ما سبق لا يمكن قبول مماثلة هيلجو باولج، لمجرد تشابه فى الأسماء[١٩٤] .

وينبغى علينا إزاء رفض مماثلة هيلجو باولج أن نبحث عن أمير روسى آخر حدثت فى عهده الأحداث الواردة بوثيقة كامبردج . وقد تدفعنا ملابسات الأحداث إلى محاولة مماثلة هيلجو بايجور، مثلما فعل بعض العلماء من قبل . فالمؤرخ بروتزكوس *Brutzkus* ترجم معطيات وثيقة كامبردج على النحو التالى :

---

(١٩٠) Mošin, *Khazares,* p. 320.

(١٩١) *R.P.C.*, p. 71.

(١٩٢) انظر، *R.P.C.*, pp. 64-69; Sorlin, *Les traites,* pp. 342-359.

(١٩٣) *R.P.C.,* pp. 70-71; Mošin, *Khazares,* p. 320.

(١٩٤) Mošin, *Khazares,* p. 320.

"وقع العداء بين الخزر واليونانيين بسبب اضطهاد اليهود في عام ٩٣٢م . وعندما اقتص يوسف من المسيحيين في خزاريا قام رومانوس الأول، لأجل الانتقام، بحث الأمير الروسي ايجور على اجتياح أراضي الخزر . واستولى ايجور على مدينة الخزر تموتوراكان (*S-mk-rai*)، وغزا اليونانيون بمساعدته الولايات الخزرية "كليماتا *Climata*" في شبه جزيرة القرم نحو عام ٩٣٥م . ورد عليهم الخزر باجتياح شبه جزيرة القرم . وفي ٩٣٩م فتحوا خرسون، وبعد أن ألحقوا الهزيمة بجيش الأمير ايجور، أجبروه على شن القتال ضد بيزنطة. وقد انتهت هذه الحرب بتدمير الأسطول الروسي في عام ٩٤١م وبحملة القوات الروسية على فارس في عام ٩٤٣م"[١٩٥] .

وعلى الرغم من عدم ذكر الأسس التي على أساسها فهم بروتزكوس وثيقة كامبردج على النحو السالف ذكره، وأيضا رفض موشين مماثلة هيلجو بايجور[١٩٦]، إلا أن الباحث يملك من المعطيات ما يدفعنا للقول بأن الهجوم الروسي على الخزر، الوارد في وثيقة كامبردج، وقع في عهد الأمير الروسي ايجور، وبالتحديد في الفترة الواقعة فيما بين عامي ٩٣٢م و ٩٤١م، وهي على النحو التالي :

أولا : وقع الهجوم الروسي على بلاد الخزر في عهد الملك يوسف بن عارون، والذي تتزامن مدة حكمه مع الإمبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس، الوارد صراحة في الوثيقة. وفي هذه الأثناء كان يحكم الروس أميرهم العظيم ايجور (٩١٣-٩٤٥م)[١٩٧].

ثانيا : قام الأمير الروسي العظيم ايجور بحملته الأولى على القسطنطينية في عام ٩٤١م، وهي حملة مشئومة انتهت بتحطيم الأسطول الروسي بفضل قاذفات النار الاغريقية البيزنطية[١٩٨]. وهو الأمر الذي يتفق مع الدلالات التاريخية الواردة في الوثيقة.

---

(١٩٥) نقلا عن، Mošin, *Khazares*, p. 321.

(١٩٦) Mošin, *Khazares*, p. 321.

(١٩٧) *R.P.C.*, pp. 71-78.

(١٩٨) *R.P.C.*, pp. 71-72.

ثالثا : تشير الوثيقة إلى وقوع اضطهادات بيزنطية لليهود فى بيزنطة فى عهد الإمبراطور رومانوس ليكابينوس، وهو اا لا مو لأى بدأ فى عـــام ٩٣٢م، كمـــا ســبق وذكرناه.

رابعا : ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن سبب الحرب الحقيقى لم يكـــن ســببا دينيا، حسبما يوحى كاتب الوثيقة، بل هو محاولة بيزنطية للتخلص من قوة الخزر فـــى المنطقة، لاسيما بعد هزيمتهم لحلفائها من القبائل التركية المجاورة لهم ولـــلآلان مــن بعدهم، بل والأدهى من ذلك فرض سيادتهم على ملك الآلان، وقد كان حليفـــا آنـــذاك لبيزنطة[١٩٩]. وكل هذا يعنى بالتأكيد أنه لم تكن هناك قوة تستطيع مواجهة الخزر فـــى المنطقة، ولهذا فإنهم سيشكلون تهديدا للمتلكات البيزنطية فى القرم، على أثـــر التوتـــر الذى انتاب العلاقات بين بيزنطة والخزر فـــى النصـــف الأول مـــن القـــرن العاشـــر الميلادى.

خامسا : ينبغى أن نضع فى الاعتبار أيضا رغبة بيزنطة فى صـــرف نظـــر الروس عن أملاكها وعن حدها الشمالى، فقامت بتسليط الروس على الخزر، عســى أن يقضى أيا منهما على الآخر. فإذا انتصر الروس، فإنه ســيصبحون حلفـــاء لـــها، وإذا هزمهم الخزر فإنها براء مما فعل الروس؛ لكنها لم تضع فى الحسبان أن القائد الروسى سيعترف أمام نظيره الخزرى بما وقع من اتفاق بينه وبيـــن الإمـــبراطور رومـــانوس ليكابينوس .

سادسا : صمت المصادر البيزنطية عن ذكر أية حملة روسية وقعـــت علـــى القسطنطينية فى عهد الأمير الروسى اولج، على الرغم من ذكر الحولية الروسية لمثـــل هذا الحدث؛ على عكس حملة إيجور على القسطنطينية فى عام ٩٤١م التـــى ذكرتـــها المصادر البيزنطية والروسية[٢٠٠] .

سابعا : إذا لم يكن هيلجو، الوارد بوثيقة كامبردج، هو الأمير ايجور نفســـه، فلابد فى هذه الحالة أن يكون أحد قواده، والذى يتشابه إسمه مع أمـــيره، لاســـيما وأن

---

(١٩٩) Mošin, *Khazares,* pp. 312, 319; Noonan, *Byzantium,* p. 115.

(٢٠٠) Chadwik, *Russian History,* p. 44.

مسألة تشابه الأسماء الاسكندنافية أمر وارد عند الروس، كما رأينا فى مقدمة معاهدة ٩٤٥م المعقودة بينهم وبين البيزنطيين . فقد كان هناك أحد النبلاء يحمل اسم أوليف *Olief* وينوب عن الأمير فلاديسلاف، وآخر من التجار وبنيل آخر يحمل اسم فريستين *Freystein* وينوب عن الأمير ثورث، وثان ينوب عن الأمير هاقون وثالث ينوب عن الأمير بيورن، كما كان هناك أحد التجار يحمل نفس الإسم، واثنين من الأمراء يحملان اسم ثورث *Thorth* [٢٠١] . وعلى هذا ربما كان القائد الروسى الذى قاد الهجوم على الخزر فى وثيقة كامبردج، يتشابه فى اسمه مع اسم الأمير الروسى ايجور الذى كان ينعت بهيلجى أيضا، وهو لقب اسكندنافى شائع .

ثامنا : من المحتمل أن الروس الذين قاموا بهذا الهجوم ليسوا من كييف، بل ممن يعيشون على شواطئ بحر بونتس[٢٠٢] . فالكاتب العربى محمد بن ابراهيم الوراق يقول : "(الروس) لهم جزر فى بحر مايطس حيث يعيشون ويحاربون الخزر فى قوارب حربية ، ويبعدونهم عن الخليج الذى يفصل هذا البحر عن نهر أتل .. وعندئذ يشنون هجوما عليهم (على الخزر)"[٢٠٣] . ويؤكد أبو الفدا قول الوراق حيث يقول : ".. ولهم على بحر بنطس عمائر كثيرة .."[٢٠٤] .

تاسعا : إذا كان هيلجو الوارد فى وثيقة كامبردج هو اولج فلماذا صمتت الحولية الروسية الأولى عن ذكر هجومه على الخزر ؟! على الرغم من أنها أبرزت نشاطه الحربى ضد القبائل السلافية التى كانت خاضعة لخاقان الخزر وتدفع له الجزية. وهذا النشاط لابد وأنه أسفر عن عداء من جانب الخزر للروس، لأن اولج بهذا حرم خاقان الخزر من مورد أساسى من موارده الاقتصادية؛ حيث تروى الحولية الروسية الأولى أنه أخضع تلك القبائل له وفرض عليهم جزية خفيفة[٢٠٥] .

---

(٢٠١) *R.P.C.*, p. 61.

(٢٠٢) Mošin, *Khazares*, p. 325 .

(٢٠٣) نقلا عن: Frye, R., " Remarks on some new Islamic sources of the Rus", *B*, 18(1946-48), p. 123 .

(٢٠٤) *تقويم البلدان* ، ص ٢٢٣ ، الدمشقى ، *نخبة الدهر* ، ص ٢٦٢ .

(٢٠٥) *R.P.C.*, p. 61.

عاشرا : تبدو المشكلة هنا أيضا فى أن كاتب وثيقة كامبردج ذكر أن هيلجو هلك هو ورفاقه فى فارس، على الرغم من أننا نعرف أن اولج مات فى روسيا، كما أن ايجور هلك على أيدى الدريفليين. وهذا يدفعنا إلى توكيد أن قائد الهجوم الروسى على بلاد الخزر لم يكن لا اولج ولا أيجور، بل أحد قادة الأخير وسميه فى نفس الوقت. ومن المحتمل أن يكون هذا القائد هو الذى قاد حملة الروس فى عام ٣٣٢هـ/٩٤٣-٩٤٤م على بلاد القوقاز الإسلامية. وهذا ما تؤكده النهاية المأساوية له، حيث هلك هو ورفاقه هناك على حد ذكر ابن مسكويه[٢٠٦]. ونستطيع أن نؤكد أن الهجوم الروسى على بلاد الخزر تم فى عهد ايجور بمقارنة العلاقات الروسية - الخزرية قبل حملة الروس فى عام ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م على بلاد القوقاز الإسلامية وبعد حملتهم عليها فى عام ٣٣٢هـ/٩٤٣-٩٤٤م . فيشير المؤرخون المسلمون إلى تحالف خاقان الخزر مع الروس فى هجومهم على بلاد القوقاز الإسلامية فى عام ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م ، والإذن لهم بعبور أراضيه[٢٠٧]؛ وهذا الأمر إن دل فإنه يدل على الوفاق السياسى والمنفعة المتبادلة بينهما. وقد حدث توتر فى العلاقات بين الطرفين على أثر فشل هجوم الروس هذا، وتخاذل خاقان الخزر عن حمايتهم من المسلمين الخزر. وفى عام ٣٣٢هـ/٩٤٣-٩٤٤م قام الروس بهجوم آخر على بلاد القوقاز الإسلامية، وهذه المرة لم يرد ذكر مطلقا لخاقان الخزر، وذلك إما أن الروس اتبعوا طريقا مغايرا لذلك الذى اتبعوه فى حملة ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م ، أو بمعنى آخر أنهم أرادوا تجنب خاقان الخزر. وهذا يدفعنا للتساؤل لماذا لم يستأذن الروس خاقان الخزر هذه المرة كسابقتها ، ولماذا تجنبوا المرور عبر أراضيه[٢٠٨]؟ علىهذا ألا يمكن الربط بين هذه الأحداث وبين حملة الروس على بلاد الخزر فى عهد ايجور ؟! على كل ، قبل أن نشرع فى ربط هذه الأحداث ببعضها البعض علينا أن نوضح أن ايجور قام بحملة ثانية على القسطنطينية فى عام ٩٤٤م، ثم وقع على المعاهدة المبرمة بينه وبين بيزنطة فى عام ٩٤٥م وهو العام الذى لقى حتفه فيه على أيدى الدرفليين . إذن

---

[٢٠٦] *تجارب الأمم* ، جـ٦ ، ص ٦٥ .

[٢٠٧] المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١٤-١١٦ ؛ الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ٣٤٠-٣٤١ .

[٢٠٨] انظر ، الفصل الرابع من البحث، ص١٤٠ .

متى وقع الهجوم الروسى على بلاد الخزر، حسب وثيقة كامبردج ؟ من خلال ما سبق ينبغى أن نتصور الأحداث على النحو التالى : فى عام ٣٠٠هـ/٩١٢ - ٩١٣م شن الروس هجوما على بلاد القوقاز الإسلامية برضى من خاقان الخزر، ثم توترت العلاقة نسبيا بينهما بسبب تخاذله عن حماية الروس، وهم فى طريق عودتهم عبر أراضيه، من انتقام المسلمين الخزر منهم. وفى عام ٩٣٢م وقع اضطهاد الإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس لليهود فى بيزنطة وطرده لهم ولجوءهم إلى ملك الخزر، وهو ما نجم عنه وقوع العداء بين الطرفين؛ الأمر الذى دفع برومانوس ليكابينوس لحث الروس للهجوم على الخزر، م لقة ا روس بقيادة هيلجو بمهاجمتهم على النحو المذكور فى وثيقة كامبردج . وعلى أثر هزيمة الروس من الخزر على أيدى القائد الخزرى بساح عادوا إلى أميرهم بخفى حنين، ليخرجوا جميعا فى عام ٩٤١م بقواربهم للهجوم على القسطنطينية، وقد فشل هجومهم ودمرت النار الاغريقية أسطولهم، وهذا تتفق فيه وثيقة كامبردج مع المصادر البيزنطية والروسية، وفى عام ٣٣٢هـ/٩٤٣-٩٤٤م أرسل ايجور نفس القائد هيلجو على رأس حملة إلى بلاد القوقاز الإسلامية، وقد منيت بالفشل أيضا بل وقتل قائدها، وهذا يتفق فيه ابن مسكويه مع وثيقة كامبردج التى تذكر أن هيلجو مات فى فارس. وفى عام ٩٤٤م يشن ايجور هجومه الثانى على القسطنطينية، ولكن أثنته الدبلوماسية البيزنطية المحنكة عن استكماله، ويتم توقيع معاهدة بين الطرفين فى عام ٩٤٥م، وهو نفس العام الذى لقى فيه ايجور حتفه على أيدى قبيلة الدريفليين فى بلاده .

وبناء على الأسانيد التاريخية العشرة التى ذكرناها يمكننا القول أن هجوم الروس على بلاد الخزر، المذكور فى وثيقة كامبردج، قد حدث فى عهد الأمير الروسى ايجور وليس اولج، وبالتحديد فى الفترة الواقعة فيما بين عامى ٩٣٢م و٩٤١م؛ كما أن قائد ذلك الهجوم لم يكن الأمير الروسى ايجور بل أحد قادته، وكان يتشابه فى اسمه مع لقب هيلجى الاسكندنافى الذى كان يطلق على الأمير الروسى أيضا؛ وقد هلك هذا القائد، الذى تطلق عليه وثيقة كامبردج اسم هيلجو ، فى فارس أى فى بلاد القوقاز الإسلامية فى عام ٩٤٣-٩٤٤م .

وبعد هذا الهجوم الذى قام به الروس على بلاد الخزر فيما بين عامى ٩٣٢م و ٩٤١م تتحدث الحولية الروسية الأولى عن أول هجوم روسى مطلق على الخزر فى عام ٩٦٥م . وتبدو حرب الأمير الروسى سفياتوسلاف للخزر منطقية الأحداث ، فقد سبقها شئ من التمهيد العسكرى ، حيث قام فيما بين عامى ٩٥٦-٩٦٤م بالذهاب إلى نهرى أوكا[٢٠٩] Oka والفولجا ، وفى طريق عودته أغار على الفياتشيين Vyatichians[٢١٠] وسألهم إلى من يدفعون الجزية فأجابوا بأنهم يدفعون قطعة فضية عن كل نصل محراث للخزر[٢١١] . وفى عام ٩٦٥م قاد سفياتوسلاف قواته ضد الخزر. وعندما سمع الخزر أنباء اقتراب الجيش الروسى منهم خرجوا للقائه تحت قيادة خاقانهم. والتقى الجيشان ووقعت الواقعة وكان لنصر من نصيب سفياتوسلاف ، الذى استولى على مدينتهم بيلا فيزا Bela-Vezha[٢١٢] .

وجدير بالذكر أن سفيا توسلاف قد عقد تحالفا مع الغز آنذاك ، ومن المحتمل أنهما اشتركا معا فى شن هجوم ٩٦٥م على الخزر من الجانبين ، والذى أسفر عن هزيمتهم البالغة أمام القوات الروسية - الغزية المشتركة[٢١٣] عند هذا الحد تتوقف الأحداث فى الحولية الروسية الأولى ولا تقدم لنا المزيد من التفاصيل عن هجوم سفياتوسلاف على الخزر . إلا أن المؤرخين والجغرافيين المسلمين يقدمون المزيد من التفاصيل عن هذا الهجوم .

يشير ابن حوقل إلى أن الروس انتصروا على الخزر ، الذين فروا أمامهم نحو منطقة القوقاز حيث يقول ".. فأتوا (أى الروس) فى خرجتهم هذه على جميع ما كان على نهر أتل من خزر وبلغار وبرطاس ، واستولوا عليهم . فلجأ أهل أتل إلى جزيرة باب الأبواب ، وتحصنوا بها ، وبعضهم فى جزيرة سياه كويه ، وهم مقيمون

---

(٢٠٩) نهر أوكا ، هو أحد الروافد العليا لنهر الفولجا .

(٢١٠) كان الفياتشيون يتألفون من الفارين من الحصون السلافية وممن يعيشون على الضفة اليسرى لنهر الدنيبر ومنحدراتها . انظر، Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 144.

(٢١١) *R.P.C.*, p. 84; Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 77; Karamsin, *Histoire*, p. 213.

(٢١٢) *R.P.C.*, p. 84; Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 143; Kramsin, *Histoire*, pp. 213-214.

(٢١٣) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 145.

خائفون.."[٢١٤] . وهكذا دفعهم الروس جنوبا إلى ما وراء مدينة سمندر ، الواقعة على بحر الخزر[٢١٥] . أما ابن مسكويه فيذكر أنه فى عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م أغار جماعة من الترك على الخزر ، الذين فروا أمامهم نحو بلاد خوارزم ليستنصروا بأهلها . وقد اشترط عليهم أهل خوارزم أن يعتنقوا الاسلام حتى يساعدوهم ، فأسلموا إلا ملكهم الذى ظل يهوديا[٢١٦] . وهنا يخلط ابن مسكويه بين الترك (الغز) والروس ، لكنه ذكر سنة الهجوم الروسى على الخزر بدقة أكثر من غيره من المؤرخين المسلمين الآخرين . ويشير الإدريسى إلى أن الروس لم يكتفوا بتخريب العاصمة الخزرية أتل فقط بل اجتاحوا أيضا مدينة سمندر الخزرية وأتوا على كل ما بها من نعم الحياة ، حيث يذكر فى هذا الصدد "وأما مدينة سمندر فإنها كانت فيما سلف مدينة كبيرة عامرة ، وهى من بناء أنوشروان ، وكان بها من الأشجار والكروم ما لايحصى عددها فأتت قبيلة الروس عليها فأهلكتها ، فغيرت حالاتها"[٢١٧] . وقد بلغ تخريب الروس للمدينة مداه حتى قال ابن حوقل "انه لم يبق بالبلد عنبة ولا زبيبة" ، ولم يبق هناك ورقة نبات على ساقها[٢١٨].

وقد أتم سفياتوسلاف نصره على الخزر بالهجوم على الآلان (*Yasians*) والكاسوجين *Kasogians*[٢١٩] . على هذا النحو ينتهى هجوم الروس بقيادة سفياتوسلاف على الخزر واللآلان والكاسوجيين فى عام ٩٦٥م ، وقد نجحوا فى الاستيلاء على مدينة تموتوراكان الخزرية ، الواقعة على شاطئ بحر آزوف الشرقى ، المتفرع من بحر بونتس[٢٢٠] . وبهذا صار لهم موضع قدم فى شبه جزيرة القرم بالقرب من

---

(٢١٤) *صورة الأرض* ، ص ١٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٢١٥) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 143.

(٢١٦) *تجارب الأمم* ، جـ٢٦ ، ص ٢٠٩ .

(٢١٧) *نزهة المشتاق* ، ص ٨٣٥ .

(٢١٨) *صورة الأرض* ، ص ٣٩٣. وانظر أيضا : أبو الفدا ، *تقويم البلدان* ، ص ٢٠٣ ؛ المقدسى ، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦١ ؛ ابن الوردى ، *خريدة العجائب* ، ص ٩٤ .

(٢١٩) *R. P.C.*, p. 84; Franklin & Shepard, *Rus'*, pp. 143-144; Karamsin, *Histoire*, p. 214 .
عاش الكاسوجيون شرق مضايق جبال القوقاز ، بينما كان موطن الآلان فى التلال السفحية لجبال القوقاز الشمالية. انظر، Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 144; Vernadsky, *Kievan Russia*, p. 354.

(٢٢٠) Karamsin, *Histoire*, p. 214; Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 143 .

الأملاك البيزنطية ، الأمر الذى سيجعل الإمبراطور البيزنطى نقفورفوقاس يدعو سفياتوسلاف للهجوم على بلغار الدانوب لصرف نظره عن هذه المنطقة الحيوية بالنسبة لبيزنطة والمتعلقة بسيادتها على شعوب السهوب ، لا سيما بعد أن قهر سفياتوسلاف الخزر والآلان والكاسوجيين ، وبهذا لم تعد هناك قوة على الجبهة الشرقية للروس يمكن أن تقف فى مواجهة توسعاتهم بالمنطقة ، بعد أن كان الخزر هم سادتها . وتضيف الحولية الروسية أيضا أن سفياتوسلاف خرج فى العام التالى ٩٦٦م إلى الفياتشيين وهزمهم وفرض عليهم الجزية ، أو بقول آخر حول إلى كييف الفضة التى كانوا يدفعونها من قبل إلى خاقان الخزر[٢٢١] .

ويعتبر كثير من المؤرخين أن انتصار سفياتوسلاف على الخزر ، على النحو الذى رأيناه هو نهاية لمملكة الخزر ، وهذا أمر سنرى من خلال الأحداث التالية خطأه. فتدمير ساركل وتخريب مدينتى أتل وسمندر ليس دليلا كافيا على انتهاء مملكة الخزر، بل يعتبر دليلا على انهيار قوة الخزر فقط . لقد نجح الروس فى تدمير مملكة الخزر بسلطانها الواسع فى المنطقة الدنيا لنهر أتل ، والاستيلاء على مدينة تموتوراكان الواقعة على بحر آزوف[٢٢٢] ، إلا أنهم لم يزيلوها من الوجود أو يضموها إلى حدودهم الشرقية، بل أن الخزر تمكنوا من اجتياز هذه المحنة العصيبة وعادوا إلى مدنهم مرة ثانية ، التى أعادوها أيضا إلى ما كانت عليه قبل هجوم الروس عليهم فى عام ٩٦٥م . وليس أدل على كلامنا هذا من أن ابن حوقل يقول عن سمندر ".. فلم تمض ثلاث سنوات إلا وقد عاد كما كان .."[٢٢٣] . كما أن الرحالة اليهودى ابراهيم بن يعقوب ، السفير الأسبانى لدى أوتو الأول ، كتب فى عام ٩٧٣م على الأرجح يصف بلاد الخزر فى عصره بأنها لا تزال مزدهرة[٢٢٤] . وأخيرا تؤكد لنا الحولية الروسية الأولى استمرار مملكة الخزر فى الوجود، حتى بعد هجوم الروس الكاسح لها فى عام ٩٦٥م ،

---

(٢٢١) *R.P.C.*, p. 84 .

(٢٢٢) كويستلر ، الخزر ، ص ١٤٧ ، ١٦٠ .

(٢٢٣) صورة الأرض ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٨ .

(٢٢٤) كويستلر ، الخزر ، ص ١٦٠-١٦١ .

حيث يرد ذكر بعثة دينية خزرية ذهبت إلى الأمير الروسى فلاديمير لتعرض عليه اليهودية كديانة تصلح لشعبه فى عام ٩٨٦م[٢٢٥] .

على هذا النحو أبرزت لنا المصادر الروسية والعربية نشاط الروس الحربى ضد الخزر فى عهد الأمير الروسى سفياتوسلاف ، لكنها أحجمت عن ذكر الأسباب التى دفعته لشن هجومه الكاسح هذا على قوى الفولجا ، خاصة الخزر ! الأمر الذى يجعلنا نسعى فى سبيل الوصول إلى الأسباب التى أدت إلى ذلك . وفى الحقيقة ، ليس هناك سبب مباشر يمكن الوقوف عليه ، لكن .. إذا كان الروس يهدفون من حملتهم هذه إلى تدمير مملكة الخزر ، على النحو الذى رأيناه ، فلماذا إذن هاجم الروس البلغار والبرطاس أيضا ، وهم فى طريقهم إلى الخزر ، بل لماذا أكملوا سلسلة هجماتهم على قوى الفولجا ، بالهجوم على الآلان والكاسوجيين ؟! إن هذا الهجوم الروسى على كل هذه القوى فى وقت متزامن يدفعنا لافتراض أن الروس كانوا يسعون إلى تأمين حدودهم الشرقية بجعل نهر الفولجا حدا شرقيا لهم ، وأن هذا لن يتأتى لهم إلا بعد القضاء على قوى الفولجا وتحويلها إلى قوى دنيا فى المنطقة ، تأتى فى المقام الثانى بعد الروس . ومما يدعم ما نذهب إليه أن الروس بعد أن خربوا هذه الممالك وهزموا شعوبها لم يستولوا على أراضيها ، ولم يضموها إلى بلادهم ، بل اكتفوا بما أحرزوه من انتصارات عسكرية وما جمعوه من غنائم وعادوا إلى كييف ثانية . ويضيف بعض المؤرخين أن بقيام سفياتوسلاف بانتزاع نفوذ الخزر من منطقة السهوب إلى الجنوب الشرقى حصل على ميزة السيطرة على الطرق الواقعة بطول أودية أنهار الدونتز والدون ، والتى كانت قيد الاستخدام عندما كانت هناك اتصالات قائمة بين ستارايا لادوجا *Staraia Ladoga* وبين الخزر . وبإخضاع سفياتوسلاف للآلان والكاسوجيين صارت الطرق عبر سهوب نهر الكوبان إلى بحر الخزر متاحة له أيضا[٢٢٦] . ونظرا لانشغال سفياتوسلاف بعد ذلك بنشاطه الحربى فى البلقان ، لما غض الروس الطرف عن هذه الممالك ، واعطوها فرصة للحياة مرة ثانية . والدليل على ذلك قيام فلاديمير

---

(٢٢٥) *R.P.C.*, p. 97 .

(٢٢٦) Franklin & Shepard, *Rus'*, pp. 144-145.

ابن سفياتوسلاف بشن حملة على الخزر فى عهده ، فى الفترة من ٩٧٩-٩٨٦م . فيذكر المؤرخ بومجارتن *Baumgarten* أن الوحيد الذى حفظ لنا ذكرى هذه الحملة هو يعقوب الكاهن ، حيث ذكر أن فلاديمير سار نحو الخزر وهزمهم وفرض عليهم الجزية[٢٢٧] .

لقد صار الارتباط بين كييف وشعوب الفولجا المقهورة واهيا على أثر انشغال سفياتوسلاف فى حروب البلقان ، مما جعل هذه الشعوب تستعيد حريتها ثانية وتبعث الروح أيضا فى ممالكها ، وهو الأمر الذى لم يتوافق مع هوى فلاديمير ، فقرر إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه فى عهد والده ، منتهزا فرصة وجود فرق الفارانجيين الذين جاءوا معه من نوفجورود ، لشن حرب على الخزر والشعوب التابعة له فى منطقة السهوب[٢٢٨] .

وعلى هذا النحو مضت العلاقات بين الروس والخزر فى عهد الأمير الروسى فلاديمير ، الذى وافته المنية فى الخامس عشر من شهر يوليو عام ١٠١٥م . وفى العام التالى ١٠١٦م ، يخبرنا المؤرخ البيزنطى كدرينوس عن هجوم بيزنطى - روسى مشترك ضد بلاد الخزر . وقد صولت الينا روايته عن هذا الهجوم على النحو التالى : "أرسل الباسيليوس أسطولا *στόλου* ، فى شهر يناير من عام ٦٥٢٤ من التقويم العالمى ، إلى بلاد الخزر *Χαζαρία* ، تحت قيادة مونجوس *Μογγόυ* بن أندرونيقوس *'Ανδρονίκου* دوق ليدوس *δουκὸς τοῦ Λυδοῦ* ؛ بالتحالف مع سفنجوس أخو فلاديمير *συνεργίᾳ Σφέγγου τοῦ ἀδελφοῦ Βλαδλμηροῦ* ، نسيب الإمبراطور باسيل. وقد أخضع هذه البلاد له ، وأسر حاكم تلك البلاد جورج ابن تزولوس *Γεωργίου τοῦ Τζούλου* خلال الهجمات الأولى . وأجبر الجميع وكذلك سيناخيريم *Σεναχηρείμ* على تقديم الطاعة للإمبراطور باسيل"[٢٢٩] . وهكذا انفرد المؤرخ البيزنطى كدرينوس بسرد تفاصيل هذا الهجوم ، الذى لم تترد أصداؤه فى المصادر الروسية . والشئ الجدير بالملاحظة هنا أن كدرينوس أورد اسم الأمير

---

(٢٢٧) Baumgarten, *Saint Vladimir,* p. 53.

(٢٢٨) Baumgarten, *Saint Vladimir,* p. 53.

(٢٢٩) *Cedrenus, II,* p. 464.

الروسى الذى تحالف مع الإمبراطور البيزنطى باسيل ، وقاد قوات الروس فـــى هــذا الهجوم المشترك على الخزر . ولا يقدم لنا كدرينوس سببا لهذا الـــهجوم البـــيزنطى – الروسى على بلاد الخزر . لكن يمكننا أن نستشف أن صاحب المصلحة الأولى فى هذا الهجوم هو بيزنطة ، وأنها استعانت بأحد الأمراء الروس لدعم قواتها أثناء الهجوم .

بيد أن واحدة من المشكلات التاريخية فى نص كدرينوس هى اســـم الأمـــير الروسى حيث ورد اسمه مقرونا بكلمة أخ أوشقيق *αδελφos* فلاديمير . وفى الواقع، حسبما أوردت الحولية الروسية الأولى ، فإن فلاديمير لم يكن له سوى أخين هما اولـــج *Oleg* ، الذى توفى فى عام ٩٧٧م ، ويـــــادوبولك الأول ، الـــذى توفـــى فـــى عـــام ٩٧٨م[٢٣٠]. ومن ثم استوجب علينا معرفة ماهية سفنجوس الروسى الوارد فى نـــص كدرينوس .

لقد اعتاد المؤرخون قراءة كلمة *αδελφos* اليونانية على أنها أخ أوشـقيق ، والتى لا يمكن قبولها على هذا النحو فى نصنا هذا ، لتنافيها مع الواقع آنذاك ؛ فكـــان علينا البحث فى معانيها الأخرى والتى تعنى رفيق ، رجل قبلى ، زميل ، قريب[٢٣١] . وهكذا من خلال هذه المعانى فإن سفنجوس لم يكن أخ لفلاديمير ، كما جاء فى النص ، بقدر ما هو أحد أقربائه وعلى هذا فمن المحتمل أن استعانة بيزنطة بالروس هنا لم تكن على الصعيد الرسمى بين البلدين ، حسب الاتفاقيات المبرمة بينهما فى عـــامى ٩٤٥ ، ٩٧١م ؛ لأن بيزنطة لم تستعن هنا بأمير كييف العظيم ، الذى هو صاحب الحل والربط فى بلاده ، والمسئول عن تنفيذ ما تم إبرامه من اتفاقيات بين بلاده والدول الأخـــرى ، كبيزنطة على سبيل المثال . ومن المحتمل أيضا أن يكون أمير كييف العظيم هو الـذى أمر بإرسال القوات الروسية بقيادة سفنجوس ، دون أن يمكننا تحديد هوية هذا الأمير ،

---

(٢٣٠) Genealogy of the Rurikids in the Period Coverd by the Primary Chronicle, in : *R.P.C.*

(٢٣١) Liddle & Scotte, *Greek – English Lexicon,* (Oxford, 1961), pp. 20-21.

نظرا لاشتعال الحرب الأهلية بين الأخويـــن ياروســـلاف وســفياتوبولك فـــى عــام ١٠١٦م[٣٣٢] .

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو إلى أين توجهت هذه الحملة البيزنطيــة – الروسية المشتركة بالتحديد ؟ لقد لخــص المــؤرخ الأمريكــى دنلــوب *Dunlop* أراء المؤرخين على النحو التالى : "لم يشك كوتشيرا *Kutschera* أن المقصود كان منطقــة القوقاز ، ولعل مرد ذلك إلى ما ذكره كدرينوس من أن بعد هزيمة جورج ابن تزولوس أرغم حاكم "صيديا العليا" على تقديم الطاعة . وافترض كوتشيرا أن هـــذا الحــاكم ، ويدعى فى النص سيناخيريم ، كان خزريا يحكم فى منطقة من مناطق القوقاز ، لكــن فى جميع الأحوال من الصعب أن نتصور يهوديا يحمل هذا الاسم . بينما يعتقد جراتــز أن هذه الحملة توجهت ضد أملاك الخزر فى القرم وأنها دمرت البقية الباقية من حكــم الخاقان هناك . وتبعا لمؤرخين آخرين فإن هذه الحملة توجهت ضـــد ســـواحل بحــر أزوف. على كل حال ، قد يكون من المقبــول أن نتصــور أن الحملـــة البيزنطيــة – الروسية المشتركة ضد بلاد الخزر كان هدفها الرئيسى بلاد القوقاز ، مع الوضع فـــى الاعتبار أن الوضع فى إمارة تموتوراكان اعتبارا من عام ٩٨٨م ، عندما استقر الأمير مستسلاف فيها ، ظل غامضا»[٣٣٣] .

على هذا النحو تنتهى كلمات المؤرخ الأمريكى دنلوب ، ولكن ســوف نثبــت الآن خطأ نظريته بأن هدف الحملة البيزنطية – الروسية المشتركة على بلاد الخزركان بلاد القوقاز . فقد عثر على ختم لجورج ابن تزولوس يحمل لقـــب بروتوســـباثاريوس واســـتراتيجوس خرســـــون *Γεοργίῳ βασιλικῷ πρωτοσπαθαρίῳ καὶ στρατηγῷ Χερσῶνος τῷ Τζούλᾳ* . وبعبارة أخرى يمكن القول أن أراضـــى القرم هذه التى يطلق عليها كدرينوس إسم خزاريا أو بلاد الخزر ؛ ليست شـــيئا آخــر سوى خرسون ؛ أو على أقل تقدير فإن خرسون جزءا منها . وعلى مـــا يبــدو فــإن كدرينوس يتحدث هنا عن إحدى الثورات التقليدية التى كانت تنشب فى خرسون ضـــد سلطة الإمبراطورية البيزنطية ، وكان قائدها هذه المرة هو اســـتراتيجوس خرســون

---

[٣٣٢] انظر، *R.P.C.*, pp. 131-132.

[٣٣٣] دنلوب ، الخزر ، ص ٣٣٤ .

نفسه[٣٣٤] . ولعل هذا يتفق مع ما ورد فى معـــاهدة ٩٤٥م المبرمـــة بـين الـروس وبيزنطة، حيث ورد فى البند الثامن ما يفيد بأنه إذا كـــانت خرســـون غـير خاضـة لبيزنطة، فإن الإمبراطور البيزنطى يتعهد بتزويد الأمير الروسى بأية قـوات يطلبـها لإعادتها إلى حظيرة بيزنطة ثانية[٣٣٥] . وهو الأمر الـــذى أكـده الأمـير الروسـى سفياتوسلاف فى معاهدة ٩٧١م المبرمة بينه وبين الإمبراطور يوحنا تزيمسكس ، حيث تعهد فيها بعدم مهاجمة خرسون والدفاع عن الأراضى الإمبراطورية إذا تعرضت لأية هجمات خارجية[٣٣٦] . ومن المحتمل أن الاستراتيجوس استعان فـى ثورتـه بحـاكم صيديا العليا ، المدعو سيناخيريم ، بدليل أن القوات البيزنطية – الروسـية المشـتركة أخضعته أيضا لسلطان الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى .

على أية حال ، تخبرنا الحولية الروسية الأولى بأن الأمير الروسى مستسلاف، شقيق ياروسلاف وحاكم إمارة تموتوراكان ، قد استعان فى عـام ١٠٢٣م بقـوة مـن الخزر والكاسوجيين ، الذين كان قد شن عليهم حملة ظافرة فى العام السـابق ١٠٢٢م ،

---

(٣٣٤) Litavrin, G., "A propose de Tmutorokan", *B*, 35 (1965), p. 231.

(٣٣٥) انظر الفصل الأول من البحث ، ص ١٩ .

(٣٣٦) انظر الفصل الثانى من البحث، ص ٧٩-٨٠ . ينبغى أن نثبت هنا خطأ أحد المورخين الذى يرى أن مـن نتائج هذه الحملة الاستيلاء على خزاريا وأن باسيل الثانى بهذا العمل وضع خطوة هامة فى تصفية دولـة الخزر التى لم تستطع البقاء بعد ذلك طويلا ، بعد أن فقدت الجزء الأهم من أملاكها وأراضيها ، فـاختفت رويدا رويدا وزالت كدولة مستقلة كان لها شأن فى العصور الوسطى . انظر، محمد محمد مرسى الشـيخ، الخزر وعلاقاتهم بالإمبراطورية البيزنطية ، *مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سـعود الإسلامية* ، ٤ (١٩٨٠) ، ص ٣٧٦ . وفى الحقيقة أن مملكة الخزر قد تقوضت دعائمها كما رأينا علـى أيدى سفياتوسلاف فى عام ٩٦٥م ، لكنها استعادت كيانها مرة ثانية ، مما حدا بفلاديمير لشن هجوما عليها . وقد أثبتنا أن حملة ١٠١٦م البيزنطية – الروسية لم يكن هدفها خزاريا بل خرسون بالدرجـة الأولـى ، التى ربما لجأ حاكمها جورج ابن تزولوس إلى الخزر . وقد ظل الخزر قائمين كقوة سياسية فى المنطقـة بدليل أنهم شنوا هجوما سنة ١٠٣٠م على جيش كردى مغير (انظر، كويستلر ، الخـزر ، ص ١٦٢) . كما أنهم اشتركوا مع الكرج فى عام ٥١٤هـ/١١٢٠م فى قتال المسلمين ، الذين خرجوا فى لقائـهم فـى ثلاثين ألفا ؛ لكنهم هزموا من الكرج والخزر . (انظر، الذهبى ، *العبر فى ديوان من غبر* ، تحقيق/ صلاح الدين المنجد ، جـ٤ ، (الكويت ، ١٩٦٣) ، ص ٣١) . وفى عام ٥٦٦هـ/١٢٦٧م استولى الخزر علـى مدينة دوين الأرمينية ، وقتلوا من المسلمين نحوا من ثلاثين ألفا . (انظر، الذهبى ، *العبر* ، جـ٤ ، ص ١٩٢) .

فى قتاله ضد أخيه ياروسلاف[٣٣٧] . ومن المحتمل أن الخرز الذين استخدمهم الأمير مستسلاف كانوا من رعاياه فى إمارة تموتوراكان الروسية آنذاك[٣٣٨] .

لقد كان هذا الحدث هو آخر الوقائع فى العلاقات الروسية – الخزرية فى الفترة محل البحث ؛ وفى نهاية المطاف لا يمكننا إلا أن نقر بأن حملة الأمير الروسى سفياتوسلاف على بلاد الخزر فى عام ٩٦٥م قد قوضت دعائم هذه المملكة ، ولولا انشغال هذا الأمير فى طموحاته ومشروعاته فى البلقان لكان قد ضم منطقة حوض الفولجا إلى بلاده بصورة نهائية . ومع هذا فقد ظلت مملكة الخزر قائمة فى الوجود وإن كان قد تبدل الحال ، وفقدت سلطانها الذى كانت تتزين به يوما ما قبل علم ٩٦٥م فى المنطقة .

والآن لنكمل ابحارنا فى نهر الفولجا ، ونحن صاعدون فيه شمالا ، لنصل إلى مملكة البلغار ، لنتعرف على العلاقات الروسية – البلغارية فى الفترة موضوع البحث. ولكن يتحتم علينا جغرافيا أن نمر على بلاد البرطاس ، التى كانت تقع فيما بين مملكتى الخزر جنوبا وبلغار الفولجا شمالا .

الروس والبرطاس والبلغار:

يذكر المؤرخون والجغرافيون المسلمون أن البرطاس أمة متاخمة للخزر جنوبا، ليس بينهم وبين الخزر أمة غيرهم . وتبلغ مساحة بلادهم مسيرة خمسة عشر يوما ، وهى نفس المسافة التى تفصل بينهم وبين الخزر جنوبا . وكان الغز يحيطون بهم من الشرق ويشاركون الخزر فى حدود البرطاس الجنوبية ، أما البشناق فكانوا يشاركون بلغار الفولجا فى حدود البرطاس الشمالية ، وفى الغرب كان يقع نهر أتل . وقد كان لهم من المدن مدينة برطاس ومدينة أخرى تسمى سوار . وكان البرطاس يدينون بالطاعة لملك الخزر ، ليس لهم ملك سواه ؛ إلا أن لهم فى كل محلة حاكما يتحاكمون إليه فيما يصيبهم[٣٣٩] . ويشير المؤرخون المسلمون إلى وجود عداوة بين

---

(٣٣٧) *R.P.C.*, p. 134; Karamsin, *Histoire*, p. 61 .

(٣٣٨) دنلوب ، الخزر ، ص ٣٣٤ .

(٣٣٩) انظر، الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٠-١٣١ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٤ ، ٣٩٦ ؛ أبو الفدا ، *تقويم البلدان* ، ص ٢٠٤ ؛ الكرديزى، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٤-٤٦٥ ؛ المروزى ،

البرطاس من جهة ، وبلغار الفولجا والبشناق من جهة أخرى[٢٤٠] ؛ لدرجة أن الحروب كانت تقع بينهم وبين البلغار والبشناق بصورة سنوية[٢٤١] . ولابد لنــا أن نتصــور أن هذه الحروب كانت تقع بدافع من خاقان الخزر لهم ، الذى كان يغزو بلادهم من حيــن لأخر[٢٤٢] ، أو بسبب مواطن الكلأ .

ويشير ابن حوقل إلى أن الروس قد اغــاروا علــى البرطــاس فــى عــام ٣٥٤هــ/٩٦٥م[٢٤٣] ، وهى الحملة التى قادها الأمير الروســى سفياتوســلاف علــى الخزر وأمم الفولجا الأخرى فى ذلك العام . وقد نجح الروس فى هزيمــة البرطــاس لدرجة جعلت الحميرى يقول "... أن مساكنهم خلت بتغلب الــروس علــى مدينتــهم ، وأجلوهم عنها ، فشتتوا فى البلاد"[٢٤٤] . ولعل هذا هو ما دفع نفس الكاتب للقول بــأن مدينة برطاس متصلة ببلاد الروس[٢٤٥] .

هكذا أتى الروس على بلاد البرطاس وشتتوا أهلها فى البلاد ، ولم تقــم لــهم قائمة بعد ذلك ، كما لم نعد نسمع عنهم فى المصادر التاريخية أيضا . ولعل هذا يعكس مستوى قوة البرطاس ، الذى لم يكن على نفس مستوى قوة بلغار الفولجا أو الخــزر ، الذين تعرضوا لما تعرض له البرطاس فى عام ٩٦٥م ، لكنهم استطاعوا النهوض مرة ثانية بعد ذلك وظلوا قائمين لسنين طويلة فيما بعد ، بدليل أننا نقرأ عنهم فى مصــادر القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين[٢٤٦] . لقد كان مجموع البرطاس نحــوا

طبائع الحيوان ، ص ٢١-٢٢ ؛ الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩٢٠ ؛ القزوينى ، *آثــار البــلاد* ، ص ٥٧٩ ؛ الدمشقى ، *نخبة الدهر* ، ص ٢٦٤ ؛ ابن الوردى ، *خريدة العجائب* ، ص ٩٥ ؛ ياقوت الحموى ، *معجم البلدان* ، جـ٢ ، ص ١٢٧ ؛ الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ٨٨-٨٩ ؛
Hudud al-Alam, p. 162; Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 116.

[٢٤٠] المروزى ، *طبائع الحيوان* ، ص ٢١ ؛ الكرديزى ، *زيــن الأخبــار* ، ص ٤٦٥ ؛ الحمــيرى ، *الــروض المعطار* ، ص ٨٨ .

[٢٤١] الكرديزى، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٥ .

[٢٤٢] الكرديزى، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٤ .

[٢٤٣] *صورة الأرض* ، ص ٣٩٣-٣٩٤ ؛ الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩٢٠ .

[٢٤٤] *الروض المعطار* ، ص ٨٩ .

[٢٤٥] الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ٨٩ .

[٢٤٦] يقول بارتولد أن الخزر انقطع ذكرهم بدءا من القرن الحادى عشر الميلادى انظر، الـترك ، ص ٦٦-٦٧ ، وهذا قول مبنى على خطأ . لأننا نقرأ عنهم فى أعوام ٥١٤هـ/١١٢٠م ، ٥٦٦هـ/١٢٦٧م عند الذهبى، انظر، *العبر*، جـ٤، ص ٣١، ١٩٢؛ وفى أعوام ١٠٢٣م عند نسطور،انظر *R.P.C.*, p. 134.

من عشرة آلاف نسمة، يعيشون فى أكواخ خشبية شتاء ، وأما فى الصيف فإنهم يفترشون فى الخرقاهات[٢٤٧] . وبعبارة أخرى فإن المستوى الحضارى والسياسى للبرطاس لم يرق إلى مستوى الخزر ، على سبيل المثال . فمن الناحية السياسية كانوا أتباعا لملك الخزر يأتمرون بأمره ؛ أما من الناحية الاجتماعية فكانت حياتهم بدائية ، على الرغم من ثراء إقليمهم ، يسكنون أكواخا خشبية بسيطة أو يفترشون وادى نهر أتل فى الخرقاهات . ويمكن القول أن المصالح المشتركة بين الروس والبرطاس لم تكن بنفس القدر الذى كانت عليه بين الروس من ناحية والخزر وبلغار الفولجا من ناحية أخرى . فالبرطاس لم يكن لهم دور سياسى فى منطقة حوض الفولجا ، وكل ما نعرفه عنهم فى هذا المضمار أنهم كانوا أتباعا لملك الخزر ، كما كانوا يناصبون بلغار الفولجا والبشناق العداء ؛ ولابد أن نفترض أن مظاهر القتال بينهم كان يطغى عليها الطابع القبلى ، لا الطابع النظامى المدروس . بالإضافة إلى ذلك فإن دورهم فى تجارة الفولجا كان محدودا للغاية ، على عكس الخزر وبلغار الفولجا الذين كانوا يستأثرون بها لأنفسهم . وقد يكون من المحتمل أنهم أظهروا بعض المقاومة لسفياتوسلاف أثناء مروره بأراضيهم ، الأمر الذى دفعه لقتالهم وهزيمتهم وطردهم من مواطنهم وتشتيتهم فى البلاد، على النحو الذى ذكره الحميرى .

ونأتى الآن إلى القوة السياسية الثانية بعد الخزر فى حوض نهر الفولجا ، أعنى البلغار ، وعلاقتهم بالروس . وقبل الخوض فى غمار الحديث عن موضع بلغار الفولجا فى السياسة الخارجية الروسية بدءا من القرن العاشر الميلادى ، ينبغى علينا أن نقدم رؤية عامة عن بلغار الفولجا فى تلك الفقرة ، والدور الذى كانوا يلعبونه فى المنطقة العليا لنهر الفولجا .

يقول الكرديزى ، أما البلغار فهى متصلة مع البرطاس ، وكان أهلها يعيشون على نهر أتل ، الذى يصب فى بحر الخزر[٢٤٨] . وكانت أرضهم تقع فى الجزء الشمالى لحوض نهر الفولجا (أتل) ، وإلى جهة القطب أميل ، على حد قول

---

[٢٤٧] ياقوت الحموى ، *معجم البلدان* ، جـ٢ ، ص ١٢٧ ؛ القزوينى ، *آثار البلاد* ، ص ٥٧٩ .
[٢٤٨] *زين الأخبار*، ص ٤٦٧ ؛ الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ١٠١ .

المروزى[٢٤٩] . ويعيش شرق إقليم البلغار شعب يسمى الميرفاتيون *Mirvat* ، وجنوبه يقع بحر يسمى الجورز *Gurz* ، وغربه الصقالبة ، وشماله يقع جبل يسمى جبل الروس[٢٥٠] . وعاصمة هذا الاقليم مدينة تسمى بلغار[٢٥١] ، وكان يطلق عليها أحيانا اسم بلار ، وهى بلدة فى نهاية العمارة الشمالية ، قريبة من شاطئ نهر أتل من البر الشمالى الشرقى[٢٥٢] ، وهى مدينة شديدة البرودة ، لا يكاد الثلج يقلع عنها صيفا ولا شتاء ، وقل ما يرى أهلها أرضا جافة[٢٥٣] . ويقع بالقرب من عاصمة البلغار مدينة سوار ، فى نفس الناحية التى تقع بها مدينة بلغار[٢٥٤] ، وتبلغ المسافة بينهما مسيرة يومين على شاطئ نهر فى غياض ، يتحصنون بينها من الأعداء[٢٥٥].

والبلغار مسلمون[٢٥٦] ، يقال أنهم اعتنقوا الاسلام فى زمن الخليفة العباسى المقتدر ، فى عام ٣١٠هـ/٩٢٢م ، على حد ذكر المسعودى[٢٥٧] . وقد أرسل ملكهم رسالة إلى الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥هـ/٩٠٧م-٣٢٠هـ/٩٣٢م) يسأله فيها أن يبعث إليه بمن يفقهه هو وشعبه فى الدين الإسلامى ، ويعرفه شرائعه ، ويبنى له مسجدا وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة له فى بلده وجميع مملكته[٢٥٨] . وقد استجاب الخليفة العباسى المقتدر وأرسل لهم بعثة رفيعة المقام على رأسها الوزير

---

[٢٤٩] *طبائع الحيوان*، ص ٤٤ .

[٢٥٠] *Hudud al-'Alam*, p. 160.

[٢٥١] الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣١ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٦ ؛ المروزى ، *طبائع الحيوان* ، ص ٤٤ ؛ أبو الفدا ، *تقويم البلدان* ، ص ٢١٦-٢١٧ ؛ المقدسى ، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦١ ؛ القلقشندى ، *صبح الأعشى* ، جـ٤ ، ص ٤٦٢ ؛ ابن الوردى ، *خريدة العجائب* ، ص ٩٥ .

[٢٥٢] أبو الفدا ، *تقويم البلدان* ، ص ٢١٧ ؛ القلقشندى ، *صبح الأعشى* ، جـ٤ ، ص ٦٢ .

[٢٥٤] أبو الفدا ، *تقويم البلدان* ، ص ٢١٧ ؛ المقدسى ، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦١ ؛ المروزى ، *طبائع الحيوان*، ص ٤٤ ؛ الاصطخرى ، *صورة الأرض* ، ص ١٣٢ .

[٢٥٥] المروزى ، *طبائع الحيوان* ، ص ٤٤ .

[٢٥٦] الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٢ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٦ ؛ أبو الفدا ، *تقويم البلدان* ، ص ٢١٧ ، الدمشقى ، *نخبة الدهر* ، ص ٢٦٣ ؛ القلقشندى ، *صبح الأعشى* ، جـ٤ ، ص ٤٦٢ ؛ الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ١٠١ .

[٢٥٧] *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١٣ ؛ ياقوت الحموى ، *معجم البلدان* ، جـ٢ ، ص ٢٧٢، Gerard, C., *Les Bulgares de la Volga et les Slaves du Danube,* (Paris, 1939), p. 56.

[٢٥٨] ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ٩٧-٩٨ ؟ ياقوت الحموى ، *معجم البلدان* ، جـ٢ ، ص ٢٧٢ ؛ أحمد فؤاد سيد، الإسلام والثقافة العربية فى بلاد ما وراء النهر الإسلامية ، (القاهرة ، ١٩٩٦) ، ص ١٢٩ ؛ Gerard, *Bulgares*, p. 56.

العباسي أحمد بن فضلان ، ونذير الحرمي ، وسوسن الرسي ، وتكن التركي ، وبارس الصقلابي[٢٥٩]. ويضيف ابن حوقل أنه كان هناك مسيحيون بأرض بلغار[٢٦٠] .

أما عن موقع البلغار من الأمم المجاورة فهي على النحو التالي : بين أتـــل ، عاصمة الخزر ، وبلغار ، على طريق المفاوز نحو شهر ، ويصعد إليها في نهر أتـــل نحو شهرين ، وفي الحدود نحو عشرين يوما . ومن بلغار إلى أول حـــد مـــن حـــدود بيزنطة نحو عشر مراحل ، ومنها إلى مدينة كويابة (كييف) ، مدينة الروس ، عشرون يوما[٢٦١] ، وإلى أول حد من حدود الروس عشر مراحـــل[٢٦٢] . ومـــن بلغـــار إلـــى بشجرد[٢٦٣] خمس وعشرون مرحلة[٢٦٤] . ومن بلغار إلى برطـــاس مســـيرة ثلاثـــة أيام[٢٦٥]، وإلى خوارزم مسيرة ثلاثة أشهر[٢٦٦] . ويذكر الكرديزي أن البلغـــار كـــانوا يتكونون من ثلاث طوائف عرقية ، الأولى كانوا يطلقون عليها أسم برسولا ، والثانيـــة اسم اسكل ، والثالثة البلغار ؛ ويعيشون جميعا في مكان واحد[٢٦٧] . وكما سبق القـــول فإنهم مسلمون على مذهب أبي حنيفة النعمان[٢٦٨] ، وهم أمم عظيمة كما يقـــول ابـــن الوردي[٢٦٩] . وكانت منازلهم مبنية من الخشب ، يأوون إليها فـــي الشـــتاء ، وفـــي الصيف يفترشون في الخرقاهات[٢٧٠] ، على شواطئ الأنهار[٢٧١] . وتعـــداد البلغـــار

---

[٢٥٩] ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ٩٨-١٠٠ .عن طبيعة هذا الوفد والهدف من تشكيله على هذا النحو ، انظر، أحمد فؤاد ، *الإسلام* ، ص ١٣٢-١٣٣ . وعن البلغار في ضوء كتابات أحمد ابن فضلان ، انظر، ابـــن فضـــلان ، *الرســـالة* ، ص ١٤٣-١٧٢ ؛ يـــاقوت الحمـــوي ، *معجـــم البلـــدان* ، جـــ٢ ، ص ٢٧٢-٢٧٦ ؛ Gerard, *Bulgares*, p. 55-60.

[٢٦٠] *صورة الأرض* ، ص ٣٩٨ .

[٢٦١] ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، جـ٢ ، ص ٢٧٢ .

[٢٦٢] الادريسي ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩٢٣ .

[٢٦٣] بشجرد أو بسجرت ، قبيلتان تسكنان في آخر بلاد الغز على ظهر بلغار ، وعددهما حوالي ألفـــي رجـــل ، وهم صنف من الترك ، أشداء لا يقدر عليهم أحد ، انظر، الادريسي ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩٢٢-٩٢٣.

[٢٦٤] ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، جـ٢ ، ص ٢٧٢ .

[٢٦٥] الكرديزي، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٨ ؛ الحميري ، *الروض المعطار* ، ص ١٠١ .

[٢٦٦] المروزي، *طبائع الحيوان* ، ص ٤٤ .

[٢٦٧] *زين الأخبار* ، ص ٤٦٧ ؛ القلقشندي ، *صبح الأعشى* ، جـ٤ ، ص ٤٦٢ .

[٢٦٨] أبو الفدا، *تقويم البلدان* ، ص ٢١٧ .

[٢٦٩] *خريدة العجائب* ، ص ٩٥ .

[٢٧٠] الاصطخري، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٢ ؛ المقدسي، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦١ .

[٢٧١] الكرديزي، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٧ .

يختلف من مؤرخ إلى آخر ، فمنهم من يذكر أنهم حوالى خمسمائة ألـف بيـت[٢٧٢] ، ومنهم من يذكر أنهم نحو خمسمائة أهل بيت[٢٧٣] ، وأخيرا يذكر بارتولد أنـهم كـانوا خمسين ألفا من السكان[٢٧٤] . وفى كل الأحوال لا يمكننا وضع رقم دقيق لتعداد بلغـار الفولجا ، لكن لابد أن نستشهد بعبارة ابن الوردى ، السالفة الذكر ، "بأنهم أمم عظيمة".

وهناك أربعة أشياء جديرة بالملاحظة تخص بلغار الفولجا ، ينبغى تسـجيلها هنا وأول هذه الأشياء أن البلغار عملوا بالتجارة سواء مع الخزر أو الروس أو البـلاد الإسلامية ، ويمكن القول أنهم سيطروا على التجـارة فـى حـوض نـهر الفولجـا الشمالى[٢٧٥] . والشئ الثانى أنهم عملوا بالزراعة ، فقد كانت لهم مزارع كثيرة علـى حد قول المقدسى[٢٧٦] ، وكانوا يزرعون كل الحبـوب كـالقمح والشـعير والعـدس والماشن، وكل شئ غير ذلك[٢٧٧] . كما كانوا يملكون الماشية ، وهى من مسـتلزمات الزراعة فى ذلك الوقت ، والدواب والجياد الأصيلة[٢٧٨] . وقد امتدت أيضا فى بلادهـم الغابات الواسعة الملتفة الأشجار[٢٧٩] ، إلا أنها افتقرت إلى أشجار الفاكهة ، لشدة البرد بها[٢٨٠]. وقد ارتقت الزراعة عندهم ، حتى أن الروس عندما كان يدركهم القحط كـانوا يستوردون منهم المواد الغذائية[٢٨١] . ويمكن القول أن الخير كان عندهم وفير ، حتـى قال المقدسى أن "الخبز بها (أى ببلغار) واسع"[٢٨٢] ، وقال ابن فضلان لملك البلغـار ، ذات يوم ، "... مملكتك واسعة ، وأموالك جمة ، وخراجك كثير..."[٢٨٣] . كل هـذا إن دل فإنه يدل على ثراء بلغار الفولجا الاقتصادى . والشئ الثالث الذى تنبغى ملاحظتـه

---

(٢٧٢) الكرديزى، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٧ .
(٢٧٣) الحميرى، *الروض المعطار* ، ص ١٠١ .
(٢٧٤) بارتولد، *الترك* ، ص ٦٧ ؛ كويستلر ، *الخزر* ، ص ٥٤ .
(٢٧٥) عن دورهم فى تجارة الفولجا ، انظر، الفصل السابع من البحث .
(٢٧٦) *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦١ .
(٢٧٧) الكرديزى ، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٧ . والماشن هو نوع من الحبوب كالعدس يطبـخ ويؤكـل ، انظـر، الكرديزى ، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٧ ، هـ ٤ .
(٢٧٨) الكرديزى ، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٨ ؛ *Hudud al-'Alam*, p. 160
(٢٧٩) الكرديزى ، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٧ .
(٢٨٠) أبو الفدا ، *تقويم البلدان* ، ص ٢١٧ ؛ القلقشندى ، *صبح الأعشى* ، جـ٤ ، ص ٤٦٢ .
(٢٨١) بارتولد ، *الترك* ، ص ٦٨ .
(٢٨٢) *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦١ .
(٢٨٣) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٧٢ .

هنا أن مدينة بلغار كانت مدينة عظيمة العمارة مبنية من خشب الصنوبر ، وسورها من خشب البلوط[٢٨٤] . وكان يوجد بها المساجد والمدارس والأئمة والمؤذنون[٢٨٥] . والشئ الأخير الجدير بالانتباه هو أن البلغار سكوا عملة خاصة بهم فى القرن العاشر الميلادى، كان على أحد وجهيها اسم الخليفة العباسى المستكفى ، متأثرين بجيرانهم السامانيين[٢٨٦].

وبعد .. ماذا تعنى هذه الملاحظات الأربع التى تم تسجيلها عن بلغار الفولجا؟! إن اشتغالهم بالزراعة قد فرض عليهم نوع من الاستقرار والعمل الدائم فى الحقول واستخدام الأدوات الزراعية والدواب ، وبهذا طغى عليهم الاقتصاد الزراعى ، لا الاقتصاد الرعوى الذى كان يميز معظم الأمم الأخرى المجاورة لهم . وجاءت التجارة كمورد من الموارد الاقتصادية الأخرى للبلغار ، والتى كان يتبعها احتكاك سلمى مع الأمم الأخرى ، وما يتبع ذلك من تطور حضارى غنى عن التعريف ؛ ويكفى أنهم تأثروا بجيرانهم من السامانيين المسلمين وسكوا عملة خاصة بهم ، وهم بهذا العمل تميزوا عن سائر شعوب الفولجا الأخرى . كما كان من نتائج انتشار الإسلام بينهم ، ووجود الأئمة والمعلمين المسلمين ، انتشار المدارس والمساجد فى البلاد . لقد ارتقى البلغار درجة رفيعة من درجات الحضارة آنذاك ، أهلتهم للصمود فى وجه جيرانهم حتى القرن الثالث عشر الميلادى . ويلخص لنا أحد المؤرخين المحدثين المستوى الحضارى لبلغار الفولجا بقوله : "لقد منحت علاقات البلغار الوثيقة مع الشعوب المجاورة ... فرصة استيعاب الانجازات الحضارية لكثير من الشعوب ، وخاصة الحضارة العربية ، التى كانت حينئذ فى مقدمة الحضارات . ونجد أسلوب التطور السلمى ، وتجنب الحروب العدوانية وإنشاء المدارس والاعتناق الرسمى للديانة الإسلامية قد أدى إلى سرعة توحيد البلغار .."[٢٨٧] .

---

(٢٨٤) القزوينى ، *آثار البلاد* ، ص ٦١٢ .

(٢٨٥) الكرديزى ، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٧ – ٤٦٨ .

(٢٨٦) بارتولد ، *الترك* ، ص ٦٦ ؛ Gerarad, *Bulgares,* p. 57

(٢٨٧) إيرار كريم الله ، *من هم التتار* ؟ ترجمة : رشيدة رحيم الصبروتى ، (القاهرة ، ١٩٩٤) ، ص٣٩.

أما عن السياسة الخارجية لبلغار الفولجا ، فيشير الكرديزى إلى أنـــهم كـــانوا يقومون بهجمات على جيرانهم من البرطاس ويأسرونهم[٢٨٨] ؛ كما كانوا يتحاربون مع جيرانهم من القبائل التركية[٢٨٩] ، ويفرضون سيادتهم ، على سبيل المثال ، على قبـائل بسجرت[٢٩٠] . أما علاقتهم بالخزر فقد مرت بمرحلتين ، الأولى عندما علم ملك الخزر بإسلامهم فغزاهم بجنود عظيمة ، لكنهم انتصروا عليه ، ثم تصالحوا فيما بعـــد[٢٩١] . أما المرحلة الثانية فكان البلغار يؤدون فيها الجزية لملك الخزر بمقدار جلدسمور عـــن كل أسرة. ولكى يأمن ملك الخزر شرهم كان يحتفظ بابن ملك البلغار رهينة عنده . بل أن ملك الخزر أراد مرة أن يتزوج بابنة ملك البلغار ، وكانت مسلمة وهو يـــهودى ، فبعث فى طلبها وأخذها عنوة ، لكنها ماتت عنده ؛ ثم أراد أن يتزوج بشـقيقتها ، إلا أن ملك البلغار زوجها من ملك اسكل ، التابع له ، خشية أن يغتصبها أيضا ملك الخـزر . وعلى أثر هذا الحدث ساءت العلاقات بين الخزر والبلغار ، الأمر الذى دفع الأخـــيران إلى أن يطلبوا من الخليفة العباسى المقتدر بناء حصن لهم يحميهم من بطش ملك الخزر ويساعدهم فى الزود عن بلادهم[٢٩٢] . وقد استجاب الخليفـــة لطلبـــهم وأرســل لـــهم المعماريين والحرفيين ومن بينهم سوسن الرسى ، الذى كان يدير الأعمال[٢٩٣] .

لقد جاء هذا الحدث ليقرب بين الخلافة العباسية ، التى لم يكن يروق لها قيـــام مملكة يهودية على الحوض الأدنى للفولجا ، والبلغار الذين اعتنقوا الاسلام وتشـــربوا الحضارة العربية . وربما بسبب هذا التقارب البلغارى – العباسى لم تول الدبلوماســية البيزنطية عناية كافية لبلغار الفولجا[٢٩٤] . وعندما ساءت علاقات بيزنطة بالخزر فـــى القرن العاشر من ناحية ؛ وإدراكها لقوة بلغار الفولجا آنذاك من ناحية أخرى ، رأينـــا قسطنطين بورفيروجنيتوس يقر بأن بلغار الفولجا يمكنهم مهاجمة الخـــزر[٢٩٥] . فقـــد

---

(٢٨٨) *زين الأخبار* ، ص ٤٦٨ .

(٢٨٩) المروزى ، *طبائع الحيوان* ، ص ٤٤ .

(٢٩٠) الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩٢٣ .

(٢٩١) القزوينى ، *آثار البلاد* ، ص ٦١٢-٦١٣ .

(٢٩٢) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٤٨ ، ١٧١-١٧٢ ؛ كويستلر ، *الخزر* ، ص ٤٣ .

(٢٩٣) Gerarad, *Bulgares,* p. 56.

(٢٩٤) Runciman, *Romanus Lecapenus,* p. 117.

(٢٩٥) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٦٥. *DAI, I*, pp. 64 - 65; II, p. 62.

بلغت قوة البلغار العسكرية آنذاك أن أحمد بن فضلان أقر بأن جيش ملك البلغار يمكنه هزيمة جيش الخليفة العباسي ، وجيش أمير خراسان أيضا(٢٩٦) .

أما عن الروس وبلغار الفولجا ، فيشير مؤلف حدود العالم إلى أن البلغار كانوا في قتال دائم مع الروس(٢٩٧) ، يغلبون تارة ويغلبون تارة أخرى . وكانت تحركات الروس تتجه صوب الفولجا ببطء شديد ، لأن البلغار كانوا يمنعونهم(٢٩٨) . وقد تكون رواية مؤلف حدود العالم صحيحة إذا ما طبقناها على بعض الجماعات الروسية التي إما تقطن بالقرب من حدود البلغار الغربية ، أو تتعامل مع البلغار بصورة مباشرة . والأمر في هذه الحالة لا يعدو مجرد مناوشات تحدث بين الطرفين بعيدا عن امراء كييف ، بدليل أننا لا نقرأ عن أية حروب وقعت بين الطرفين قبل حملة سفياتوسلاف عليهم في عام ٩٦٥م ؛ وهو الأمر الذي ترفع نسطور ، المؤرخ الكييفي ، عن ذكره . ويخبرنا ابن حوقل أن الروس اجتاحوا بلغار في عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م واستولوا عليها(٢٩٩) ، وهي الحملة التي قادها سفياتوسلاف في عام ٩٦٥م لاعلى البلغار فقط بل على جيرانهم من البرطاس والخزر والآلان والكاسوجيين . ويضيف الإدريسي أن الروس "استخرجوا البلاد من أيديهم ، ولم يبق لغيرهم من الأمم إلا الاسم في الأرض فقط"(٣٠٠) . وليس هناك سبب مباشر لذلك الهجوم الذي قام به سفياتوسلاف ضد بلغار الفولجا ، وربما كان نوعا من الردع وإظهار قوة الروس في المنطقة وتأمين الحد الشرقي لبلادهم ويفترض المؤرخان سيمون فرانكلين وجوناثان شبرد أن سفياتوسلاف كان يحاول أن يستولي ، إذا لم يكن يتحكم ، على المنافذ القائمة المؤدية إلى فضة السامانيين *Samanids' Silver* ، بالإضافة إلى فتح طرق جديدة تؤدي إلى بحر الخزر(٣٠١) . وكما حدث مع الخزر ، فقد جاء ذهاب سفياتوسلاف إلى البلقان وانشغاله بطموحاته ومشروعاته هناك فرصة للبلغار لاستعادة كيانهم في المنطقة . ورويدا رويدا

---

(٢٩٦) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٥١ .

(٢٩٧) *Hudud al-'Alam*, p. 160 .

(٢٩٨) بارتولد ، *الترك* ، ص ٦٨ .

(٢٩٩) *صورة الأرض* ، ص ٣٩٣-٣٩٤ ؛ الادريسي ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩٢٠ .

(٣٠٠) *نزهة المشتاق* ، ص ٩٢٠ .

(٣٠١) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 145.

استردوا تجارتهم المربحة ، بشرط دفع الجزية لأمراء كييف ، والتى كانوا يفرضونـــها عليهم كرها[٣٠٢] . وقد قامت عدة نزاعات حدودية بين الروس وبلغار الفولجا ، وكـــان النزاع فى بعض الأحيان يتفاقم ويصل إلى حد النزاع المسلح . ويمكن القول أن الهيمنة الروسية على بلغار الفولجا كانت شكلية إلى حد كبير ، بدليل أن ملوك البلغـــار ظلـــوا يسكون الدراهم الفضية حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، وهى الفترة التـــى بـــدأت تختفى فيها هذه الدراهم من آسيا الوسطى[٣٠٣] .

وطبقا للحولية الروسية الأولى شن الأمير الروسى فلاديمـــير ومعـــه خالـــه المدعو دوبرانينا هجوما بحريا على بلغار الفولجا فى عام ٩٨٥م وكان هـــذا الـــهجوم عملا مشتركا بين الروس والترك الذين جاءوهم برا على صهوات جيادهم ، وقـــاموا جميعا بشن الهجوم على البلغار[٣٠٤] . والمقصود بالترك هنا الغز ، الذيـــن ســـبق أن تحالفوا مع سفياتوسلاف عند هجومه على الخزر فى عام ٩٦٥م[٣٠٥]. وتدعى الحوليـــة أن فلاديمير قهر البلغار ، والحقيقة انه لم ينجح فى إحراز نصر حاسم عليهم ، بدليـــل أنه عقد اتفاق سلام معهم مؤكدا بالقسم بينهما . لقد قال دوبرانينا لفلاديمير "لقد رأيـــت الأسرى وهم منتعلون أحذية عالية الساق . وهم لن يدفعوا لنا جزية . فلتدعنـــا نبحـــث عن أعداء لنا ممن ينتعلون أحذية ليفية"[٣٠٦] . لقد أشـــار دوبرانينـــا إلـــى المســـتوى الحضارى الذى كان عليه البلغار ، فقد كانوا ينتعلون أحذية جلديـــة ترتفـــع لتغطـــى سيقانهم ، ونظرا لهذا المستوى الحضارى العالى ، فإنه ليس من السهل إجبارهم علـــى دفع الجزية لهم . والأجدى ، من وجهة نظره ، أن يبحثوا عن أعداء آخرين لهم ممـــن ينتعلون نعالا مصنوعة من ليف الأشجار ، كإشارة إلى تدنى مستواهم الحضارى وهـــم الذين يمكنهم دفع الجزية للروس بخضوع تام . وقد استجاب فلاديمير لكلمات دوبرانينا وعقد سلاما مع البلغار مؤكدا بالقسم بينهما . وهكذا انتهت حملة فلاديمير على البلغـــار

---

(٣٠٢) Gerard, *Bulgares*, p. 61.

(٣٠٣) Gerard, *Bulgares*, p. 62.

(٣٠٤) *R.P.C.*, p. 97; Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 156.

(٣٠٥) الرمزى ، *تلفيق الأخبار* ، جـــ٢ ، ص ١٧٢ .
R.P.C., p. 97; Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 156 .

(٣٠٦) *R.P.C.*,P. 96; Franklin & Shepard, *Rus'*, pp. 156-157.

الذين أظهروا أنهم هدف صعب المنال وأن أية محاولة للسيادة عليهم كانت بلا جدوى[٣٠٧] .

وتشير المصادر الروسية إلى أن فلاديمير لم يبدأ نشاطه العسكرى ، عقب توليه حكم البلاد مباشرة ، بقتال البلغار ، بل بدأ بقتال القبائل الخاضعة له كالفياتشيين ، والرادمتشيين والياتفياجيين *Iatviagians* ، الذين عاشوا فيما بين البريبت *Pripet* والنمن *Neman*[٣٠٨] . وربما كان فلاديمير يهدف إلى اخضاع هذه القبائل له وتوكيد سيادته عليها قبل أن يشرع فى التوجه إلى ضفاف الفولجا لقتال البلغار .

ولا تذكر المصادر الروسية أسبابا لحملة فلاديمير على البلغار ، الأمر الذى يجعلنا ننظر إليه على أنه كان يرمى إلى التوسع الخارجى ، وإن كان بمقياس أقل من أبيه سفياتوسلاف . كما لا ينبغى أن نتجاهل الهدف الاقتصادى من حملته على بلغار الفولجا ، نظرا لأن تدفق الفضة على بلاده كان فى تناقص مستمر ، فى الوقت الذى كان فيه بلغار الفولجا يسكون الدراهم الفضية فى القرن العاشر الميلادى[٣٠٩] . ويشير المؤرخون إلى أن فلاديمير كان يولى اهتماما لمدى قدرة دافعى الجزية ، كالفياتشيين مثلا ، على أدائها فى صورة فضية ، فى الوقت الذى انقطعت فيه مدينة جوروديشش– نوفجورود *Gorodishche-Novgorod* عن تلقى إمدادات الفضة الآتية من الشرق . وقد لا يكون من باب الصدفة أن حملة فلاديمير الوحيدة التى اشترك معه فيها دوبراينيا ، حاكم جوروديشش – نوفجورود ، كانت ضد بلغار الفولجا[٣١٠] . وأيا كانت الأسباب والأهداف التى كان يرمى فلاديمير إلى تحقيقها من وراء هذه الحملة ، إلا أنه أخفق فى وقف انهيار تدفق الفضة إلى بلاده نتيجة فشله فى تلك الحملة[٣١١] .

وهكذا ، بهذه النهاية الفاشلة لحملة فلاديمير على بلغار الفولجا نكون قد وصلنا إلى المرحلة الأخيرة فى سياسة الروس تجاه البلغار ؛ ولا تقدم لنا المصادر التاريخية

---

(٣٠٧) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 157.
(٣٠٨) *R.P.C.*, P. 96; Franklin & Shepard, *Rus'*, pp. 157.
(٣٠٩) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 157-158.
(٣١٠) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 157.
(٣١١) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 157-158.

سواء الروسية أو غيرها أية إشارات لأحداث وقعت بعد ذلك بين الطرفين ، اللهم ذكـر الحولية الروسية الأولى للبعثة الدينية البلغارية التى ذهبت إلى كييف فـى عـام ٩٨٦م لتعرض على أميرها الإسلام كديانة مقترحة لشعبه(٣١٢) .

وتبقى كلمة ينبغى أن نسجلها بهذا الصدد ، وهى أن العلاقات التجاريـة بيـن التجار الروس وتجار الفولجا كانت تقع على عاتق تجار البلدين أنفسهم لا على عـاتق حكوماتهم ، الأمر الذى جعلها مستمرة حتى مع السياسة الهجومية التى اتبعتها حكومـة الروس الكييفية تجاه قوى الفولجا ، أو لنقل تجاه الجبهة الشرقية لـهم عامـة سـواء المسلمين فى القوقاز أو الخزر والبرطاس والبلغار على ضفاف نهر الفولجا .

لقد اتجه الروس بقواتهم نحو حوض الفولجا وماوراءه ، بـدءا مـن الأمـير الروسى ايجور وحتى الأمير الروسى ياروسلاف ، وهم عازمون على التوسع السياسى والكسب المادى . فالتوسع السياسى لهم شرقا يعنى المزيد من الأراضى بما عليها مـن شعوب وما ستغله عليهم من خيرات ؛ بينما تمثل الكسب المادى لهم فى السيطرة علـى الطرق التجارية المؤدية إلى ما وراء حوض الفولجا ، أو بعبارة أخرى التخلص مـن الوسطاء التجاريين المتمثلين فى الخزر والبلغار ، الذين كانوا يجبون العشـور منـهم على تجارتهم ؛ هذا فى الوقت الذى بدأ فيه تدفق الفضة على خزائن كييـف يتنـاقص لعدة عوامل سياسية واجتماعية. ولكن رأينا أن النجاح الوحيد الذى حققه الروس فـى حوض الفولجا هو تقويض دعائم مملكة الخزر فى القرن العاشر الميـلادى ، وتـأمين حدهم الشرقى ، وفتح الطرق المؤدية إلى بحر الخزر والمناطق الواقعـة حولـه ذات الثراء الاقتصادى الكبير . وعلى الجانب الآخر فشلوا فى اخضـاع شـعوب الفولجـا لسيادتهم ، سواء الخزر ، الذين عمروا بلادهم ثانية بعد نكبـة ٩٦٥م ؛ أو البلغـار ، الذين فشل فلاديمير فى قهرهم وعقد سلاما معهم . وظلت العلاقات التجارية بينهم كمـا هى قائمة على عاتق التجار الروس أنفسهم ، نظرا لفشل حكومة كييف فـى ضمـان كسب مادى دائم لهم يعود عليهم ، ولانشغال أمرائها فى مشروعات سياسية أخـرى أو فى حروبهم الأهلية .

---

(٣١٢) *R.P.C.*, pp. 96-97.

الباب الثالث

الروس والتجارة الدولية

الفصل السادس: الروس والتجارة مع بيزنطة

الفصل السابع: الروس وتجارة الفولجا

الفصل السادس

الروس والتجارة مع بيزنطة

تشير المعاهدات التى عقدت بين القسطنطينية وكييف ، لاسيما معاهدتى ٩٠٧م و ٩٤٥م إلى أن التجارة كانت من المحاور الرئيسية فى المفاوضات بين الطرفين ، وإلى أن الطرفين كانا حريصين تماماً على توضيح البنود التجارية وتفصيلها فى هاتين المعاهدتين . فما قصة التجارة الروسية فى القسطنطينية ؟ يشير المسعودى[١] إلى أن الروس كانوا يعملون بالتجارة مع الأمم المجاورة لهم ، فهم يتاجرون مع بلاد الأندلس وروما والقسطنطينية والخزر . ولعل المناخ الذى كان يعيش فى ظله الروس لم يسمح بإقامة مجتمعات زراعية مستقرة ، بسبب البرودة الشديدة وقسوة الطبيعة التى فرضت إرادتها على الروس . وقد يؤكد الكرديزى هذا بقوله إن الروس "ليس عندهم زرع ولا بذر"[٢] . وتنبغى الإشارة إلى أنه فى الوقت الذى نملك نصوصاً تاريخية تشير من قريب أو بعيد إلى المعاملات التجارية بين الروس وكل من بيزنطة وشعوب الفولجا ، لا توجد نصوص تاريخية بالمرة تساعدنا على رسم صورة ولو بسيطة لتجارة الروس مع الأمم الأخرى المجاورة لهم .

على كل حال ، يمكننا رسم صورة شبه كاملة للعلاقات التجارية بين الروس وبيزنطة من خلال النصوص التاريخية الباقية ، على الرغم من قلتها ، خلال القرن العاشر الميلادى ومنتصف القرن الحادى عشر الميلادى . ومن حسن الحظ أن نصوص المعاهدات التى عقدت بين كييف والقسطنطينية وصلت إلينا سواء عن طريق المصادر البيزنطية أو الروسية ، وهى التى قد تكون خير فاتحة لهذا الموضوع الشائك. وعلى الرغم من أننا أوردنا نصوص معاهدة ٩٤٥م فى موضع آخر من هذا البحث[٣] إلا أننا سنناقشها هنا بشيء من التحليل.

يتضح من البنود التجارية الواردة فى هذه المعاهدة[٤] أن كلاً من البيزنطيين والروس مستفيدين منها ، ففى الوقت الذى يسعى فيه الروس ، بحكم أنهم أجانب عن القسطنطينية ، لضمان أكبر قدر من الامتيازات التجارية نرى أن بيزنطة ترفض

---

(١) *مروج الذهب* ، جـ ١ ، ص ١٦٤ .
(٢) الكرديزى ، *زين الأخبار* ، ص ٤٧٤ .
(٣) انظر ، الفصل الأول من الباب الأول .
(٤) *R.P.C.*, pp. 74-75.

مجيء التجار الروس إليها بلا بضائع روسية ، كما شددت الإجراءات الأمنية عليهم لضمان سلامة البلاد خلال إقامتهم بها . لقد كان الروس يشتهرون بالعديد من السلع التي كان الطلب يتزايد عليها في القسطنطينية فكانوا يأتون إليها محملين بالعسل والشمع اللازم لإنارة الكنائس البيزنطية ، والفراء ، لاسيما فراء السمور، والرقيق من أسرى الحرب والسلاف[٥]، والسيوف[٦] . وفي المقابل ماذا عن البضائع البيزنطية التي كان يأتي من أجلها الروس ؟ .

لقد كانت القسطنطينية في ذلك الوقت مركزاً للتجارة العالمية ، وإليها يحج التجار من شتى أنحاء أوربا وبلاد الروس ، فقد كانت همزة الوصل بينهم وبين التجارة الواردة إليها من الشرق ؛ وبهذا كانت تعج هذه المدينة بكل أنواع السلع والبضائع والتي يكشف عنها كتاب والي المدينة . ومن نصوص هذا الكتاب الهام بالإضافة إلى البنود التجارية الواردة في معاهدة ٩٤٥م يمكننا استنتاج السلع التي كان يشتريها الروس من القسطنطينية ويعودون بها إلى بلادهم .

ولكن قبل أن نسترسل في الحديث عن هذه السلع هناك سؤال يلوح في الأفق ربما يستحق أن نبحث له عن إجابة، وهو متعلق بماهية الأصول التاريخية للبنود التجارية الواردة في معاهدة ٩٤٥م ؟ ولكي نضع إجابة مقبولة علمياً لهذا السؤال لابد لنا أن نلقي نظرة سريعة على شروط المعاهدات التي أبرمت بين الروس والبيزنطيين قبل ٩٤٥م، وبالتحديد معاهدتي ٩٠٧ ، ٩١١م ، لكي نصل إلى الأصول التاريخية للبنود التجارية الواردة في معاهدة ٩٤٥م .

وإذا ما تفحصنا معاهدة ٩٠٧م التي عقدت بين الروس والبيزنطيين، عقب انتصار اولج ونجاحه في حملته على القسطنطينية، سنجد أنها مجرد اتفاق مبدئي، بين الطرفين . وهي تتناول الامتيازات الممنوحة للتجار الروس في بيزنطة . وقد تم هذا الاتفاق بواسطة خمسة رسل للأمراء الروس الرئيسيين، الذين كانوا موجودين بأنفسهم عند أسوار القسطنطينية، وكانوا جميعاً ذوي أصول اسكندنافية[٧] . ويمكن القول أن هذا الاتفاق كان عبارة عن تعهد بيزنطي تجاه الروس الذين يأتون إلى القسطنطينية . وبقراءة نصوص هذا الاتفاق في الحولية الروسية الأولى سنجد أن أحد بنود معاهدة ٩٤٥م، وبالتحديد البند الثالث منها، يكاد يكون هو نفسه المذكور في معاهدة ٩٠٧م بلا

---

(٥) هايد ، ف ، *تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى* ، ترجمة / أحمد محمد رضا ، جـ١،(القاهرة ، ١٩٨٥) ، ص ٨٨ ؛ سعيد عاشور ، *أوربا والعصور الوسطى* ، جـ١ ، (القاهرة ، ١٩٨٣) ، ص ٢٤٣ .

(٦) *Hudud al-'Alam*, p. 159.

(٧) Soloviev, *L'etat russe*, pp. 249-250.

تغيير يذكر[٨] . ولا توجد بنود أخرى فى معاهدة ٩٠٧م يمكننا أن نعول عليها . أما معاهدة ٩١١م فتكاد تكون خالية من البنود التجارية، بل إنه يمكن اعتبارها استكمالاً لاتفاق ٩٠٧م ، لأن أغلب بنودها تعهدات روسية تتعلق بالأمور السياسية والعسكرية والأمنية بين البلدين[٩] . على هذا، يمكن القول أن البنود التجارية الواردة فى معاهدة ٩٤٥م استمدت أصولها التاريخية من معاهدة ٩٠٧م، وقد أضيفت إليها بعض البنود لتلائم الظروف التى عاصرت عقدها. فالبندين الأول والثانى منها كان الهدف منهما هدف أمنى محض، وكان هذا طبيعياً بعد عدة حملات شنها الروس على بيزنطة ، حملة ٨٦٠م ، ٩٠٧م ، ٩٤١م ، ٩٤٤م . على هذا لم تكتف بيزنطة بما كان سائداً من قبل ، بل شددت من الإجراءات الأمنية وفرضت على التجار الروس الحصول على تصريح خاص من الأمير الروسى قبل سفرهم إلى بيزنطة، أو بالتعبير الحديث كان لابد من الحصول على جواز سفر لكل تاجر روسى موثق من الأمير الروسى حتى تتأكد الإدارة البيزنطية من أهدافه السلمية ومن عدد السفن الروسية المرسلة إليها . أما البند الرابع، والذى يفرض على الروس عدم شراء حرير بأكثر من خمسين نوميزما ، فكان وضعه طبيعياً فى هذه المعاهدة من قبل الإدارة البيزنطية ، لأن الإمبراطور البيزنطى كان قد أصدر كتابه إلى والى المدينة وقد تضمن الكثير من القوانين التجارية التى تنظم المعاملات التجارية داخل أسواق القسطنطينية ، ونظراً لأن هذه القوانين لم تكن قد صدرت أثناء معاهدة ٩٠٧م فلهذا لا يوجد أثر لمثل هذا الشرط فى معاهدة ٩٠٧م ولم تكن هناك حاجة له ؛ ومع هذا فقد تميز الروس عن غيرهم من التجار الأجانب . أما التعهدات البيزنطية بتزويد التجار الروس بالمؤن والمواد اللازمة لهم ولسفنهم لأجل رحلة العودة والواردة فى البند الرابع من معاهدة ٩٤٥م فهى التى وردت أيضاً فى نص اتفاق ٩٠٧م ، وبالتحديد فى مقدمة الاتفاق . ومن هنا يمكن القول أن البنود التجارية لمعاهدة ٩٤٥م قد استمدت بعض بنودها، وبالتحديد البند الثالث وجزء من البند الرابع من معاهدة ٩٠٧م .

والآن لنعد للحديث عن السلع المتبادلة بين البيزنطيين والروس والتى لم تشر معاهدة ٩٤٥م إليها ، والسلعة الوحيدة التى أشارت إليها كانت الحرير؛ حيث أعطت الحق لكل تاجر روسى أن يشترى منه بما يوازى خمسين نوميزما فقط . وللتأكد من هذا الإجراء فرضت عليهم عرض مشترواتهم من الحرير على المندوب الإمبراطورى

(٨) انظر، *R.P.C.*, p. 65; Sorlin, *Les traités*, pp. 330-331.

(٩) انظر، *R.P.C.*, pp. 65-69.

ليقوم بدمغها وردها إليهم مرة ثانية . وهذا الإجراء لم يكن مطبقاً فقط على الـــروس ، بل على كل التجار الأجانب فى القسطنطينية ؛ وقد فرض عليهم الإمبراطور البـيزنطى من خلال "كتاب والى المدينة" ، عدة قيود تجارية ، كان من أهمها القيود المفروضـــة على تجارة الحرير مع الأجانب . ولما كان الروس من ضمن هؤلاء الأجانب القــادمين إلى القسطنطينية للتجارة ، فإن تلك القيود كانت تسرى عليهم ، حتى وإن لم ترد فـــى معاهدة ٩٤٥م . ففى الفصل الرابع من "كتاب والى المدينة"، يتحدث الإمبراطور ليـــو السادس قائلاً : "... لا يجوز لتجار الملابس الحريرية أن يعطوا للأجانب شـــيئاً مـــن السلع المصنوعة من الحرير الأحمر أو الأرجوانى ذات الحجم الكبير ، حتى لا تنتقـــل إلى أيدى الأجانب . وكل من ينتهك هذه القوانين ، يتم جلده ومصـــادرة سـلعه"[١٠] . "وكل من يبيع للأجانب سلعة دون علم والى المدينة، تعرض لمصـــادرة سـلعه"[١١] . على هذا النحو كانت هذه القوانين تســرى علـــى التجـــار الأجـــانب داخـــل أســـواق القسطنطينية ، ولم يكن هناك من يجرؤ على مخالفة هذه القوانين ، وإلا فإن العقوبـــات كانت إما الجلد ، أو مصادرة السلع ، أو الضرب وقص الشعر ، أو الطرد من النقابـــة التابع لها التاجر المخالف[١٢] . ولم يكتف الإمبراطور بفرض هذه القوانين فى التعـــامل مع التجار الأجانب ، بل منع التجار البيزنطيين من السفر خارج البلاد ببضائعهم مـــن الحرير الخام للاتجار فيها مع الأجانب ، وإلا تعرض التاجر المخـــالف للطـــرد مـــن النقابة[١٣] . وقد اهتم الإمبراطور البيزنطى بمراقبة التجار الأجانب ، فعلى سبيل المثال لم يسمح للتجار الروس بدخول أســـواق القســـطنطينية إلا تحـــت إشـــراف المنـــدوب الإمبراطورى ، لمراقبة سلوك هؤلاء التجار داخل المدينة وضمان انصياعهم للقوانيـــن الإمبراطورية. ومن أجل هذا كان هناك مندوب إمبراطورى يخضع لإشـــراف والـــى المدينة ، ويطلق عليه اسم ليجاتاريوس λέγαταριος وكان مسئولاً عن اصطحـــاب التجار الأجانب إلى داخل القسطنطينية وفحص بضائعهم للتأكد من عدم احتوائها علـــى سلع ممنوعة، كما كان عليه إرشادهم إلى القوانين التجارية المعمول بها داخل بيزنطـــة حتى لا يقعوا تحت طائلة القانون البيزنطى[١٤] . وعندما يقيم الأجانب داخـــل خانـــات

---

(١٠) ليو السادس ، *كتاب والى المدينة* ، ترجمة / السيد الباز العرينى ، *مجلة كلية آداب القاهرة* ، مج ١٩، جـ١ (١٩٥٧) ، ص ١٥٤ ، عن صناعة الحرير وأهميتها فى بيزنطة ، انظر ،
Lopez, R., "Silk Industry in the Byzantine Empire", *SP*, 20 (1945), pp. 1-42.

(١١) *والى المدينة* ، ص ١٦١ .

(١٢) *والى المدينة* ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(١٣) *والى المدينة* ، ص ١٦١ .

(١٤) *والى المدينة* ، ص ١٧٤ . Sorlin, *Les traités*, pp. 349-350.

القسطنطينية ، كانت تفرض عليهم رقابة صارمة ويمنعون من شراء الملابس الحريرية التي تزيد عن استخدامهم الشخصي، وينبغي عليهم عند مغادرة المدينة أن يعلنوا والي المدينة حتى يعلم مقدار ما اشتروه ؛ وكل من يساعدهم في إخفاء هذه الأشياء يتعرض للجلد ومصادرة السلع[١٥] . ويبدو أن الحكومة البيزنطية كانت صارمة في تنفيذ هذه القوانين، وأصرت على تطبيقها حتى على سفراء الدول الأجنبية الرسميين ، مثلما فعلت مع ليوتبراند الكريموني عام ٩٦٨م[١٦] . ففي ختام سفارته الثانية إلى القسطنطينية[١٧] ، وبينما كان يهم بالرحيل منها ، وقبل خروجه من المدينة، احتجزه موظفو الجمارك وقاموا بتفتيشه وتفتيش حقائبه تفتيشاً دقيقاً للغاية ، حيث عثروا معه على كميات من الثياب الحريرية ، التي اشترى بعضها بنفسه وأهدى إليه البعض الآخر . وقام موظفو الجمارك البيزنطيون باحتجاز خمساً من أجمل قطع الثياب الحريرية بحجة أن تصديرها ممنوعاً . وعبثاً حاول الأسقف إقناعهم بأن هذه الأقمشة تخص كنيسته ، وأن الإمبراطور صرح له بأن يشتري ما يشاء للكنيسة دون أن يحدد ثمناً لها . وعلى الرغم من إلحاحه عليهم ليتركوا له على الأقل القطع المهداة إليه، إلا أنهم أصروا بشدة على مصادرتها . وبطبيعة الحال كانت هذه المعاملة القاسية من رجال الجمارك لهذا الأسقف متعمدة ، وكانت انعكاساً لسياسة الإمبراطور نقفور فوقاس تجاه الإمبراطور الإلماني[١٨].

على هذا النحو ، تتضح لنا القيود الصارمة التي كانت موضوعة في القسطنطينية على الاتجار بالحرير، ويمكننا من خلالها أن نخلص إلى أن الحرير كان من السلع الرئيسية المرغوبة في البلاد الأجنبية التي جاء منها التجار إلى القسطنطينية، وهذا ينطبق بدوره على الروس . ولا ينبغي أن يفوتنا القول أن الإدارة البيزنطية كانت تستخدم الثياب الحريرية كواحدة من وسائل الدبلوماسية، لاسيما مع الشعوب البربرية،

---

[١٥] *والي المدينة* ، ص ١٥٥ .

[١٦] وسام عبد العزيز ، *الدولة والتجارة* ، ص ٤٦ .

[١٧] جدير بالذكر أن ليوتبراند الكريموني جاء مرتين إلى القسطنطينية ، الأولى في عهد الإمبراطور قسطنطين السابع في عام ٩٤٩م ، وكان مندوباً عن المركيز الإيطالي برنجار الأيفري *Brengar of Ivrea* . وقد أحسن استقباله في هذه الزيارة وأغدقت عليه الهدايا الثمينة . وعاد إلى بلاده بلا متاعب. والزيارة الثانية كانت في عهد الإمبراطور نقفورفوقاس ، وكان مندوباً عن الإمبراطور الألماني أوتو الأول *Otto I* ، وفيها عومل بمهانة شديدة وسخرية وتهكم من قبل البلاط البيزنطي . لمزيد من التفاصيل، انظر ، وسام عبد العزيز ، *الدولة والتجارة* ، ص ٤٦ .

[١٨] هايد ، *تاريخ التجارة* ، ص ٧٢ . عن تفاصيل هذه الزيارة وملابساتها ، انظر،

Liutprand of Cremona, *The Works of Liutprand of Cremona*, ed. B.G. Coulton & A. Pawer, Eng. trans. S. A., Wrght, (London, 1930), pp. 267-268.

وانظر أيضاً ، وسام عبد العزيز ، *الدولة والتجارة* ، ص ٤٦-٤٩ .

التى كانت تسعى إليه بكل جهدها . فقد كانت تكافئ البشناق ، علــى سـبيل المثــال ، بهدايا من الثياب الحريرية الأرجوانية والثياب الحريرية الموشـــاة بـــالذهب والتوابــل والجلود وغير ذلك من الهدايا البيزنطية الثمينة، وذلك مقابل خدماتهم الحربية لهم فـــى منطقة السهوب ضد الروس والخزر[١٩] . وهذه الوسيلة الدبلوماسية كانت مــن أنجــح الوسائل فى التعامل مع شعوب منطقة السهوب ، بل وحتـــى مــع الممـــالك والـــدول الأوربية . وقد علمنا فى موضع سابق من البحث ، أن الإمبراطور نقفورفوقاس كـــان قد أرسل مبعوثه الخاص كالوكيروس إلى الأمير الروسى سفياتوسلاف لأجــل طلــب العون العسكرى منه ومساعدته فى كبح جماح البلغار، وقـــد حملـــه بالـــهدايا الثمينـــة والرشاوى لكسب رضا هذا الأمير وموافقته. ولنا أن نتوقع أن الشيء الرئيسى فى هذه الهدايا الثمينة كانت الثياب الحريرية والحلي وغير ذلك . ولنا أن نقرأ محتويات الـــهدايا الثمينة التى أرسلها الإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس إلى هيـــو البروفنســـى *Hugh of Provence* ، ملك ايطاليا فى عام ٩٣٥م ، والتى تكشف عن دهاء السياســـة البيزنطية فى استخدام الحرير والذهب والسلع الأخرى لكسب ولاء حكام البلاد الأجنبية المجاورة لها . لقد ضمت هذه الهدايا مجموعتين رئيسيتين ، الأولى تضمنـــت الـــهدايا النقدية والعينية التالية : قنطاراً من الذهب نقداً ، عشر قطع من الملابس الداخلية، كأساً من العقيق، سبعة عشر إناءاً زجاجياً ، ثلاثين كيساً من البخور، خمسمائة مكيال مـــن الزيت المعطر للملك . بالإضافة إلي قطعتين من الملابس الداخلية لكـــل كونـــت مـــن كونتات الملك السبعة، وثوباً حريرياً أصفر اللون لكل واحد من أساقفة الملـــك . أمـــا كونت ومركيز الملك المسئول عن الإقليم المتاخم لثيم لونجوبارديـــا البـــيزنطى ، فقـــد أرسل الإمبراطور البيزنطى إليه تسعة أثواب حريرية من فئات مختلفة، وسبع قطع من الملابس الداخلية من فئات مختلفة ، وثلاث أوانى مطلية بالفضة .

أما المجموعة الثانية من هذه الهدايا فكانت تتكون من ملابس ومنسوجات غير مدرجة فى قائمة السلع المحظورة ، وقد حملها المبعوث البيزنطى من أجـــل تغطيـــة نفقات رحلته الدبلوماسية . وهى تتكون من ستة أثواب حريرية مـــن أنـــواع وألـــوان مختلفة ، ثلاثين قطعة من الملابس الداخلية ، عشرين ثوباً محلـــى بســـيور جلديـــة ، عشرين ثوباً أرجوانياً عادياً[٢٠] . لقد كانت بيزنطة تسعى لإبـــهار الحكـــام الأجـــانب بكرمها وهداياها الثمينة . الأمر الذى دفع تجار تلك البلاد إلـــى الســـعى وراء الســـلع البيزنطية للحصول عليها . وفى الوقت الذى مكث فيه التجار البيزنطيون داخل مدينتهم

---

[١٩] قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٥٧ ; *DAI*, I, pp. 52-53;

[٢٠] وسام عبد العزيز ، *الدولة والتجارة* ، ص ٥٠-٥١ .

، كان التجار الأجانب يتحملون مشاق ومخاطر الرحلة إلى القسطنطينية للحصول على هذه السلع . وعلى قول هايد *Hyde* كان يحلو للبيزنطيين ويرضى كبرياءهم أن يشاهدوا السفن التجارية التابعة لمختلف البلاد الأوربية وهى تدخل ميناء القسطنطينية ، وأن تصير القسطنطينية مركزاً لتجارة الغرب[٢١] .

ولنعد ثانية إلى التجار الروس أنفسهم ونتساءل ، بماذا تميز التاجر الروسى عن غيره من التجار الأجانب ممن يقصدون بيزنطة للاتجار ؟ إن التاجر الروسى الذى كان يذهب إلى القسطنطينية منذ القرن التاسع الميلادى فصاعداً لم يكن تاجراً مسالماً كأولئك الذين يفدون إليها من الجمهوريات الإيطالية على سبيل المثال ، بل كان تاجراً مقاتلاً ، حتى أن أمراءهم كانوا يحملون أسلحتهم وهم يتاجرون . وفى لحظة كان يمكن لهذا التاجر أن يتخلى عن مقصده التجارى وأن يتحول إلى مقاتل شرس . وليس أدل على ذلك من أن الأمير اولج عندما دخل كييف وقتل الأخوين دير *Dir* وأسكولد *Askold* كان بصحبته مجموعة من التجار[٢٢] . لهذا فرضت بيزنطة على الروس دخول القسطنطينية وهم مجردون من السلاح، فى مجموعات صغيرة قوام كل واحدة منها خمسين رجلاً فقط وتحت إشراف الليجاتاريوس ؛ على أن يكون دخولهم إليها من بوابة واحدة . وهذا يشير إلى أن الروس لم يكونوا مقيمين داخل القسطنطينية ، فقد كان حى سان ماماس المخصص لإقامتهم يقع فى إحدى ضواحى المدينة ، نحو الجهة الشمالية[٢٣] . لقد هدفت بيزنطة من وراء هذا إبقاء الروس تحت سيطرتها حتى إذا ما نشب نزاع أو حدث شغب بين التجار أو بينهم وبين سكان العاصمة ، ضمنت قمعه بأسرع ما يمكن وإبقاء الأمن مستتباً فى العاصمة .

ولنأت الآن إلى السلعة الثانية التى حرمتها بيزنطة على التجار الأجانب أو وضعت قيوداً صارمة عليها . لقد حرص الإمبراطور على ألا يخرج الذهب إلى ما وراء القسطنطينية ، خوفاً من وقوع هذا المعدن النفيس فى أيدى البرابرة ، مما يضر بقيمة النوميزما البيزنطية ، فتقل قوتها الشرائية . لذلك فقد منع منعاً باتاً وصول الذهب والفضة أو اللؤلؤ والأحجار الكريمة إلى التجار الأجانب . ومن يكون على دراية بحدوث مثل هذا ، عليه إبلاغ والى المدينة لمنع وقوع هذا وليحول دون تصديرها إلى البلاد الأجنبية[٢٤] . وهذا القانون الذى أصدره الإمبراطور لوالى المدينة ، يعود

---

(٢١) هايد ، *تاريخ التجارة* ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٢٢) Rambaud, *La Russie*, p. 67.

(٢٣) انظر الفصل الأول من البحث ، هـ ٢٩ .

(٢٤) *والى المدينة* ، ص ١٥٢ .

بجذوره إلى مجموعة الإمبراطوز جستنيان القانونية *Codex Justinianus* ، وبالتحديد إلى عام ٣٧٥/٣٧٤م[٢٥] . ومع هذا فقد تم العثور على مجموعة من العملات البيزنطية فى روسيا وشبه جزيرة اسكنديناوة وفى بعض الأقاليم الواقعة على حوض نهر الراين *Rhine* ، الأمر الذى قد يدفع المرء لافتراض أن هذه العملات البيزنطية ناتجة عن التبادل التجارى بين تجار هذه المناطق وبيزنطة . إلا أن ما أثبته المؤرخون المحدثون يشير إلى أن هذه العملات وصلت إلى تلك المناطق برضى من الحكومة البيزنطية؛ أى أن بيزنطة قامت بدفعها للشعوب الأجنبية المستقرة فى بعض تلك المناطق، أو للقبائل المتبربرة التى عبرتها لفداء أسرى الحرب ، أو كإعانات مالية ورشاوى استهدفت تحقيق أغراض سياسية ، ففى جميع هذه الحالات خرج الذهب البيزنطى بشكل مباشر خارج حدود بيزنطة . وبالطبع يجب أن نأخذ فى الاعتبار حقيقة وجود ذلك التحكم الدقيق والنظام الصارم الذى فرضته الحكومة البيزنطية على حركة التجارة عبر حدودها بصفة عامة ، والحظر القانونى القائم على استخدام الذهب طرفاً فى المعاملات التجارية مع الأجانب[٢٦] .

على أية حال، سواء كانت العملات الذهبية البيزنطية التى عثر عليها فى روسيا والأقاليم المجاورة لها ، نتجت عن التبادلات التجارية أو عن أن الإمبراطورية البيزنطية هى التى منحتها كهدايا أو إعانات مالية أو رشاوى للروس والأمم الشمالية ، فإن قلة ما عثر عليه يؤكد أن بيزنطة لم تسمح للأجانب عامة بما فيهم الروس بالحصول على المعادن النفيسة كالذهب والفضة بل وحتى الأحجار الكريمة . ولنا أن نفترض أن الروس ، إزاء هذه السياسة كانوا يتوقون للحصول على هذه المعادن من أسواق القسطنطينية أثناء إقامتهم بها .

اما السلعة الثالثة التى قيدتها بيزنطة وحظر الإمبراطور البيزنطى بيعها للأجانب ، اللهم إلا الفائض منها ، فهى السمك المملح الذى كان من السلع الغذائية الهامة فى البلاد[٢٧] . لقد كانت هذه هى السلع الهامة التى تحظر بيزنطة الإتجار فيها أو تقيد التعامل فيها مع التجار الأجانب، وقد تراوحت قيودها بين المنع التام (المعادن النفيسة والأحجار الكريمة) ، البيع بقيود (كالثياب الحريرية) ، وبيع الفائض (كالسمك المملح) . وكانت تهدف بيزنطة من وراء هذا أيضاً ضمان تدفق السلع وإمدادات الغذاء بصورة مستمرة إلى العاصمة وبأسعار ثابتة . لهذا فقد تحكمت الحكومة البيزنطية فى

(٢٥) وسام عبد العزيز ، *الدولة والتجارة* ، ص ١٤ .
(٢٦) وسام عبد العزيز ، *الدولة والتجارة* ، ص ١٥ .
(٢٧) *والى المدينة* ، ص ١٧١ .

الإنتاج والتوزيع لأغراضها السياسية الخاصة[٢٨] . وقد أدى طلب الروس والبلاد الشمالية على البضائع البيزنطية والسلع الكمالية أيضاً إلى زيادة ميزان الإمبراطورية التجارى بصورة مطردة . كما جعل التجار البيزنطيون لايرهقون أنفسهم بالسفر بعيداً للتجارة بل يبقون فى عاصمتهم ، كما سبق وأشرنا ، لحين مجئ التجار الأجانب إليهم[٢٩] .

والآن هناك تساؤل ، هل وقع التجار الروس تحت طائلة هذه القوانين الإمبراطورية ، وما المزايا التى منحت لهم على أثر هجماتهم المتعددة على القسطنطينية ؟ فى الواقع لابد وأن نفترض أن التجار الروس وقعوا تحت طائلة هذه القوانين ، لأننا لم نقرأ عن أحداث شغب قام بها الروس فى القسطنطينية ، مثلما كان يحدث فى بعض الأحيان بين التجار الأجانب الآخرين ، أو إنهم كسروا القوانين الإمبراطورية من أجل الفوز بأكبر كمية من السلع الإمبراطورية ، اللهم إلا الحادث الذى وقع فى القسطنطينية فى عام ١٠٤٣م ، وراح ضحيته أحد نبلاء التجار الروس ، وكان سبباً مباشراً لحملة الروس على القسطنطينية فى نفس ذلك العام . كما أن الإمبراطور البيزنطى منحهم بعض المزايا التجارية التى تجعلهم يبزون غيرهم من التجار الأجانب ، كما خصص لهم حياً عرف باسم سان ماماس . وفى الوقت الذى يشير فيه "كتاب والى المدينة" إلى معاقبة التجار البيزنطيين إذا باعوا ثياباً حريرية بأكثر من عشر نوميزمات للأجانب[٣٠] ، نجد أن التجار الروس سمح لهم ، حسب البند الرابع من اتفاقية ٩٤٥م ، بشراء ثياب حريرية بخمسين نوميزما . وفى الوقت الذى لم يسمح فيه للأجانب بالإقامة فى القسطنطينية أكثر من ثلاثة شهور، وإلا تعرضوا للمصادرة وقص الشعر والجلد والطرد من المدينة[٣١] ، سمح للروس بالإقامة ستة شهور[٣٢]، ولم يحظر عليهم الإقامة فى حى سان ماماس إلا فترة الشتاء فقط ، حسب نصوص المعاهدة . كما كان للتجار الروس القادمين ببضائعهم إلى القسطنطينية الحصول على ما يحتاجون إليه من الحبوب ، كما تعهدت الحكومة البيزنطية بإمدادهم بمؤن طعام مجانية لمدة ستة أشهر، تشتمل على الخبز والخمر واللحم والسمك والفاكهة، فضلاً عن حبال الأشرعة وصوارى السفن والمؤن اللازمة لرحلة عودتهم إلى بلادهم . كذلك سمحت الحكومة البيزنطية للتجار الروس بمباشرة التبادل التجارى

---

(٢٨) Browning , *Bulgaria*, p. 107.

(٢٩) Browning , *Bulgaria*, p. 110.

(٣٠) *والى المدينة* ، ص ١٦١ .

(٣١) *والى المدينة* ، ص ١٧٤ .

(٣٢) *R.P.C.*, p. 65; Sorlin, *Les traités*, p. 350.

فى أسواق القسطنطينية دون دفع أية رسوم[٣٣] . ويمكن القول أنه رغم القيود التى فرضت على التجار الروس، كغيرهم من التجار الأجانب، إلا أنهم ظلوا متمتعين بمعاملة أفضل من التجار الأجانب الآخرين فى العاصمة البيزنطية[٣٤]. وهذه المزايا التى منحت للتجار الروس جاءت إما لطول المعاناة التى عاناها البيزنطيون من الروس، من خلال هجماتهم على أراضيها بدءاً من عام ٨٦٠م فصاعداً ، أو لارتفاع قيمة السلع التى كان يجلبها التجار الروس إليهم من الفراء والشمع والعسل والرقيق ، الذين كانوا يستخدمون للخدمة فى المنازل والأراضى الزراعية والمصانع البيزنطية[٣٥]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن التعاملات التجارية بين البيزنطيين والروس كانت تقوم على نظام المقايضة وليس البيع النقدى[٣٦].

على أية حال ، يمكننا القول أن التجار الروس حرصوا على الحصول على الأقمشة الحريرية البيزنطية والتوابل وبضائع الشرق الأخرى[٣٧] . كما أنه من المفترض أنهم كانوا يقبلون على شراء السلع البيزنطية الأخرى المعروضة فى أسواق القسطنطينية ، والتى يسردها الإمبراطور ليو السادس بالتفصيل فى كتابه إلى والى المدينة . ويمكننا أن نؤكد على السلع التى كان الروس يتوقون إلى شرائها من بيزنطة من خلال كلمات سفياتوسلاف إلى أمه الأميرة اولجا عندما قال لها إن "الذهب والحرير والخمر والفاكهة من كل نوع تأتى من بلاد اليونان (أى بيزنطة)"[٣٨] . لقد كانت الإمبراطورية البيزنطية "كثيرة الخيرات وافرة الثمرات كثيرة البهائم من الدواب والمواشى" على حد قول القزوينى[٣٩]، كما كانت مستودعاً للسلع الشرقية من التوابل والعطور والثياب الحريرية، لاسيما الأرجوانية، بالإضافة إلى الذهب والفضة والأحجار الكريمة والحلى البيزنطية .

بيد أن تلك السلع التى كان يقبل عليها التجار الروس منذ أن طرقوا أبواب القسطنطينية وحتى عهد الأمير الروسى فلاديمير ، لم يصبها التغير إلا بدءاً من عهد

---

(٣٣) وسام عبد العزيز ، *الدولة والتجارة* ، ص ٤٢ .

(٣٤) وسام عبد العزيز ، *الدولة والتجارة* ، ص ٤٣ .

(٣٥) Browning, *Bulgaria,* p. 109.

(٣٦) Shepard, *The Russian Steppe,* p. 218; Andreades, A., "The Econamic Life of the Byzantine Empire", in: *Byzantium, an Introduction to East Roman Civilization, ed. N. Bayns and H. S. Moss,* (Oxford, 1948), p. 66.

(٣٧) أرشيبالد لويس ، *القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط* ، ترجمة : أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٣٨ .

(٣٨) *R.P.C.,* p. 85; Franklin & Shepard, *Rus',* p. 145.

(٣٩) *آثار البلاد* ، ص ٥٨٦ .

ذلك الأمير، أو بمعنى آخر منذ تحول الروس إلى المسيحية . فقد تطورت التجارة الروسية مع بيزنطة فى عهده ولم تعد قاصرة على السلع السابق ذكرها ، بل أضيفت إليها قائمة من السلع الجديدة التى طرأت على المجتمع الروسى منذ الربع الأخير من القرن العاشر الميلادى فصاعداً، وهذه السلع يمكن أن نطلق عليها اسم "السلع الترفيهية". فقد أصبح التجار الروس الآن يقبلون على شراء الحلى والملابس البيزنطية الكنسية والكتب الدينية وغير ذلك . وقد زاد من حجم هذه التجارة بين بيزنطة والروس، الزيادة المطردة فى عدد السكان وزيادة حجم الأسواق الداخلية فى المدن الروسية، مما أدى إلى ازدياد الطلب على هذه النوعية من السلع البيزنطية[٤٠]. ليس هذا فحسب بل ازداد طلب الروس على الأوانى الكنسية البيزنطية، والمقتنيات الشخصية كصلبان الصدر المصنوعة من البرونز أو اللؤلؤ أو المرمر وكذلك على الأيقونات . وهكذا ، كسبت بيزنطة سوقاً جديدة وواسعة لمنتجات أخرى لم تكن تحسب لها رواجاً بين الشعوب الشمالية . وقد أثبتت الاكتشافات الأثرية فى روسيا الحديثة أن عدداً كبيراً من السلع الدنيوية البيزنطية قد وصلت إلى الأراضى الروسية، وهى الحلى والسوارات الزجاجية، وقوارير الزيت والخمر والنفط ، بالإضافة إلى الحرير والسلع الأخرى . كما أثبت أن هذه السلع انتشرت حتى بين الطبقات الفقيرة فى المجتمع الروسى الوسيط[٤١] .

على كل حال، لقد تطورت بلاد الروس إلى درجة كبيرة مع نهاية القرن العاشر الميلادى لتبلغ ذروتها فى عهد الأمير الروسى سفياتوسلاف . وبالقياس يمكن القول أن ذروة المعاملات التجارية بين الروس والبيزنطيين كانت فى القرن الحادى عشر الميلادى .

وإذا كانت القسطنطينية قد نالت أكبر قدر من الاهتمام من قبل التجار الأجانب إلا أنه كانت هناك مدن أخرى ذات مراكز تجارية هامة فى بيزنطة . ولسنا معنيين بالحديث عنها فليس هنا موضعها ، إلا أنه لا يمكن إغفال واحدة من أهم هذه المدن وهى مدينة خرسون ، فهذه المدينة كانت تلعب دوراً حيوياً فى التجارة مع الأمم القاطنة إلى شمالها؛ وهذه الأهمية التجارية قد أشار إليها قسطنطين بورفيروجنيتوس فى كتابه عن الإدارة الإمبراطورية ، عندما ذكر أن البشناق يتبادلون التجارة مع سكان خرسون، ويسدون لهم خدمات جليلة وللإمبراطور البيزنطى أيضاً فى بلاد الروس والخزر

---

(٤٠) Shepard, *The Russian Steppe*, p. 218.
(٤١) Shepard, *The Russian Steppe*, pp. 228-229.

وزيخيا وما وراءهم[٤٢] . كما كان التجار الخرسونيون يذهبون للتجارة مع الـروس ، وهذا ثابت عند قسطنطين بورفيروجنيتوس عنـد حديثـه عـن مخاضـة كراريـون *Krarion*[٤٣] . وقد كانت تجارة خرسون مع الشعوب الشمالية كبيرة للغاية ، وتركزت فى المنتجات الطبيعية[٤٤] والمحاصيل الزراعية كالقمح والنبيذ والبضائع الأخرى التـى كانت تحمل بها السفن الخرسونية من الولايات البيزنطية الواقعة على الساحل الجنوبـى لبحر بونتس[٤٥] .

ويمكن القول أن خرسون لعبت دور الوسيط التجارى بين الأقاليم البيزنطيـة والقسطنطينية وبين الشعوب المحيطة بها ، كما يمكن القول أنها كانت موضع التقـاء حضارى بين العالم البيزنطى وعالم البرابرة، بعيداً عن القسطنطينية . لكن هذا الوضع التجارى لمدينة خرسون قد تعرض للانهيار عندما استولى عليها فلاديمـير ونهبـها، وبهذا حرم البشناق من سوقهم الرئيسى فى المنطقة . ويبدو أن فلاديمير كـان تواقـاً لاحتكار التجارة بين هذه المدينة وبيزنطة نفسها[٤٦]، وقد ترتب على غـزو فلاديمـير لخرسون أن هجرها التجار وذهبوا إلى القسطنطينية، وهم الذين استمروا فيما اعتـادوا عليه ، أى فى التجارة التقليدية بين الشمال والجنوب ، وعملوا كصيارفـة للمرتزقـة الروس والفارانجيين العاملين فى الخدمة العسكرية البيزنطية، وكوكـلاء للعديـد مـن الملاك البلغار والسلاف، الذين اشتروا إنتاجهم[٤٧] . ويعتقد أحد المؤرخين أنـه ربمـا عقدت اتفاقية تجارية بين فلاديمير، على أثر غزوه لخرسون، وبين الإمبراطور باسـيل الثانى، كما يبدو أن الحكومة البيزنطية أعطت أفضلية للتجارة مع حليفها الجديد، ولـهذا لم تهتم بإعادة الرخاء الإقتصادى إلى خرسون مرة ثانية، على الرغم من إدراكها أنـها موضع الإلتقاء بين التجار البيزنطيين وبين برابرة السهوب . وبـهذا اسـتراح أمـير الروس العظيم فلاديمير من المنافسة البشناقية التى كانت قائمة هناك[٤٨] .

والآن لنعد ثانية إلى البنود التجارية الواردة فى معاهدة ٩٤٥م المبرمـة بيـن البيزنطيين والروس . يتضح لنا من مقدمة هذه المعاهدة أن الأمراء والنبلاء الـروس كانوا يعملون أيضاً بالتجارة، إلا أنهم كانوا يتميزون بأن وكلاءهم هم الذيـن يتولـون

---

(٤٢) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٥٧ . *DAI*, I, pp. 52-53.

(٤٣) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٦٢ . *DAI*, I, pp. 60-61.

(٤٤) Smedly, *Archaeology*, p. 189.

(٤٥) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٢٢٥ . *DAI*, I, pp.285-286.

(٤٦) Shepard, *The Russian Steppe*, pp. 221-222.

(٤٧) Finlay, *Greece*, II, pp. 434-435.

(٤٨) Shepard, *The Russian Steppe*, p. 222.

القيام بالأعمال التجارية لحسابهم؛ ولهذا لم يكن من المستغرب أن نرى هنـاك أربعـة وعشرين سفيراً يمثلون الأمراء الروس ذهبوا إلى القسطنطينية للتوقيع على المعـاهدة. والشيء اللافت للنظر هنا أن الأمير الروسى العظيم كانت له تجارته أيضاً، لذلك أرسل مندوباً عنه للتوقيع على المعاهدة، بصفته تاجراً، هذا إلـى جـانب التجـار الـروس التقليديين، وقد كانت غالبيتهم من شبه جزيرة اسكنديناوة ؛ وهذا بدوره يشير إلـى أن الروس قد حملوا على عاتقهم مهمة الوساطة التجارية بين بيزنطة جنوباً وشبه الجزيرة الاسكندنافية شمالاً . الأمر الذى قد يشير إلى وجود طريق تجارى يربـط بيـن شـبه الجزيرة الاسكندنافية شمالاً وبيزنطة جنوباً مروراً بـالأراضى والمـدن الروسـية . وبالفعل وجد طريق ملاحي كبير يربط بينهما، كانت تقع عليـه العديـد مـن المـدن الروسية الكبيرة الهامة . كانت هذه المدن على النحو التالى : من الشمال إلى الجنـوب، نوفجورود فى الشمال، وسمولنسك فى الوسط، وكييف فى الجنوب . لكـن نظـراً لأن القسطنطينية كانت الهدف الرئيسى لهذه التجارة فقد كان يوجد حول كييف مجموعة من المدن الثانوية، بعضها يقع على الجداول المائية المتفرعة نحو الشرق من نهر الدنيـبر، والأخرى قارية. وكانت هذه المجموعة الأخيرة تمثل عصب التجارة والحياة أيضاً عند الروس[٤٩] . ويمكن القول أن مدينة كييف، بصفة خاصة، احتلت مكانة تجارية هامـة بين المدن الروسية، فإليها كانت تأتى مراكب التجار الهولنديين والمجريـين والألمـان والاسكندنافيين والذين يعيشون فى مناطق متفرقة، وقد كانت تضم هذه المدينة ثمانيـة أسواق على الأقل وإليها تفد المراكب التجارية من كل فج عميق[٥٠] . وإذا كانت كييف مستودع التجارة الشرقية، سواء القادمة من بيزنطة أو الفولجا، فـى حـوض الدنيـبر الأدنى، فإن نوفجورود لعبت نفس الدور فى حوض الدنيبر الأعلى، وأصبحت السـلع والبضائع الشرقية من منسوجات وحلى وتوابل وعطور وأوانى فضيـة ومشـغولات ذهبية وغير ذلك تغطى أسواقهما[٥١] . ففى الوقت الذى كانت تتلقى فيـه نوفجـورود البضائع البيزنطية، كانت متصلة بطريق نهرى يصل إلى الفولجا، وآخر إلـى دفينـا، وكانت التجارة تسلك هذه الطرق منذ العصور القديمة . ونظراً لقربها من خليج فنلنـدا فقد كان يقصدها التجار الغربيون للحصول على البضائع الروسية والبيزنطية . فقد كان تردد الاسكندنافيين عليها أسهل لهم بكثير من الذهاب إلى كييف لأجل التجـارة، فـإذا

---

(٤٩) Pares, *Russia*, p. 21.

(٥٠) Rambaud, *La Russie*, p. 63.

(٥١) Court, *La Russie*, pp. 70-71 , 121.

أراد أحد ملوك الشمال الحصول على ثياب حريرية أرجوانية أو مطرزة بالذهب، أو أدوات دقيقة الصنع لمائدته، كان يبعث بتجارة إلى أسواق نوفجورود[٥٢] .

ولدينا وصف كامل لهذا الطريق المائى العظيم الممتد من اسكندنافيا شمالاً وحتى بيزنطة جنوباً مروراً ببلاد الروس ، عند قسطنطين بورفيروجنيتوس. ولنقرأ الآن وصف قسطنطين بورفيروجنيتوس لهذا الطريق لنتعرف على المدن الروسية الواقعة عليه بالإضافة إلى التى سبق ذكرها، نوفجورود وسمولنسك وكييف ، ولنرى حجم الصعوبات التى كان يتحملها تجار الشمال من أجل الذهاب إلى القسطنطينية . يشير الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس إلى أن الروس كانوا يستخدمون نوعاً من المراكب أثناء رحلتهم إلى بيزنطة كان يطلق عليه اسم المونوكسيلا *μονόχυλα*[٥٣] . وهذه المراكب تأتى من نوفجورود ، ومن سمولنسك، ومن تليوتزا ومن تشرينجوف، ومن فيتشجورود، وتأتى المراكب من كل هذه المدن عبر نهر الدنيبر حيث تتجمع فى مدينة كييف[٥٤] . وبهذا تنتهى المرحلة الأولى من الطريق المائى العظيم إلى القسطنطينية، والذى تتوقف فيه المراكب فى كييف إما لتبادل السلع التجارية فى أسواقها، أو لاستكمال المرحلة الثانية من الرحلة . وقد أشار قسطنطين بورفيروجنيتوس إلى الشعوب السلافية والفنلندية التى تقوم بتصنيع هذه المراكب وبيعها للروس .

وتبدأ هذه الرحلة من نوفجورود إلى كييف ثم القسطنطينية مع بداية فصل الربيع، حيث يذوب الثلج فى نهر الدنيبر ويصبح صالحاً للملاحة ، وحيث يتم إنزال هذه المراكب إلى مياه البحيرات المجاورة لنهر الدنيبر . ونظراً لأن هذه البحيرات متصلة به فإن المراكب تنزلق مع مياهها إلى مجرى النهر ويذهبون بمراكبهم إلى كييف لبيعها إلى التجار هناك . وفى شهر يونية يبحر الروس فى نهر الدنيبر، لاستكمال المرحلة الثانية من الرحلة، وهى المرحلة المحفوفة بالمخاطر كما سنرى فيصلون إلى مدينة فيتشف *Vitichev* ، ويبقون هناك لمدة يومين أو ثلاثة حتى يكتمل جمعهم . ثم يواصلون رحلتهم فى نهر الدنيبر إلى أن يصلوا إلى الجندل الأول ، الذى

---

[٥٢] هايد ، *تاريخ التجارة* ، ص ٩٠ .

[٥٣] المونوكسيلا ، تسمية يونانية مركبة من μονο أى واحد و *χύλον* أى قطعة خشبية أو شجرة ، انظر، Liddle & Scotte, *Lexicon*, pp. 1191-1192 . وكانت تطلق على المراكب المصنوعة من قطعة واحدة من الخشب أو من جزء شجرة تم تفريغ باطنه . انظر، سعاد ماهر ، *البحرية فى مصر الاسلامية* ، (القاهرة ، ١٩٦٧) ، ص ٣٧١ .

[٥٤] قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الادارة* ، ص ٦٠ *DAI*, I, pp. 56 – 57;

يسمى ايسوبى *Essoupi* ، وهى تعنى لا تنم[٥٥] . وهذه التسمية أطلقها السلاف والروس لتشير إلى بداية المخاطر وإلى ضرورة توخى الحذر فهذه المنطقة ضيقة تتوسطها صخور حادة ، ويرتفع فيها صوت الأمواج بصورة مخيفة عند ارتطامها بهذه الصخور. لذلك لا يغامر التجار الروس بالدخول بين هذه الصخور، ويترجلون عن مراكبهم، تاركين بضائعهم بداخلها، ويقومون بسحبها وهم يتحسسون قاع النهر حتى لا ترتطم بتلك الصخور . وعن طريق هذا الحذر والحرص ينجحون فى عبور هذا الجندل الأول، ثم يصعدون إلى مراكبهم ثانية ويواصلون الإبحار بها حتى يصلوا إلى الجندل الثانى ، الذى يسمى بالروسية أولفورس *Oulvors* وبالسلافية أوستروفوينبراش *Ostrovouniprach* ، أى جزيرة الجنادل . ومرة أخرى ينزل الروس من مراكبهم ويفعلون مثلما فعلوا فى المرة الأولى . وبنفس الطريقة يمرون من الجندل الثالث الذى يسمى بالسلافية جيلاندرى *Gelandri* ، أى ضجيج الجنادل ؛ وبالجندل الرابع، وهو أكبرهم على الإطلاق، ويسمى بالسلافية نياست *Neasit* وبالروسية اييفور *Aeifor* ، لأن طيور البجع كانت تقيم عنده . وهنا لا يكتفى الروس بالترجل عن مراكبهم فقط، بل يقسمون أنفسهم إلى مجموعتين، إحداهما تتولى مراقبة البشناق بحذر شديد، لأنهم يتربصون دائماً بالروس عند هذا الجندل، والأخرى تتولى تفريغ المراكب من حمولتها ليحملها العبيد وهم مقيدون بالسلاسل لمسافة ستة أميال، حتى يجتازوا هذه المنطقة الوعرة . وعلى طول هذه المسافة يقوم التجار الروس بسحب مراكبهم أحياناً أو يحملونها على أكتافهم أحياناً أخرى ، ثم ينزلونها فى النهر مرة ثانية ، ويضعون فيها بضائعهم وأمتعتهم ويركبونها ويعاودون الملاحة مرة ثانية نحو القسطنطينية .

وعندما يصلون إلى الجندل الخامس الذى يسمى بالسلافية فولنيبراش *Vooulniprach* وبالروسية فاروفوروس *Varouforos* ، لأنه توجد هناك بحيرة كبيرة، يبحرون بمحاذاة حافة النهر وليس فى الوسط ، كما فعلوا فى المرتين الأولى والثانية . وبنفس الطريقة يعبرون الجندل السادس الذى يسمى بالسلافية فيروتزى *Veroutzi* وبالروسية ليانتى *Leanti* ، أى فوران الماء . وهكذا يستمرون فى الإبحار حتى يصلون إلى الجندل السابع والأخير من جنادل نهر الدنيبر ويسمى بالسلافية نابرزى *Naprezi* وبالروسية ستروقون *Stroukon* ، أى السد الصغير، وهناك يجتازون مخاضة تسمى كراريون *Krarion* ، وهى المخاضة التى يمر من خلالها التجار الخرسونيون القادمون من بلاد الروس، وكذلك البشناق الذاهبون إلى خرسون .

---

(٥٥) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الادارة*، ص٦٠ *DAI*, I, pp. 57 – 59;

وعند هذه المخاضة أيضاً يأتى البشناق ويهاجمون الروس مرة ثانية، مستغلين اتساع مجرى النهر فى هذه المنطقة . وعندما يصل الروس إلى هذه المنطقة يقيمون فى جزيرة سان جريجورى *St. Gregory* ، حيث يقومون بتقديم القرابين هناك.

وتستمر الرحلة إلى أن يصلوا إلى جزيرة سان ايثريوس *St.Aitherios* بعد أربعة أيام من الملاحة . وهناك يستريحون لمدة يومين أو ثلاثة أيام، يقومون خلالها بصيانة مراكبهم . ونظراً لأن نهر الدنيبر ينتهى عند هذه المرحلة حيث يصب فى بحر بونتس، كانوا يتحولون بمراكبهم إلى نهر الدنيستر ، حيث ينزلون للراحة . وإذا كانت الأحوال الجوية معتدلة فإنهم يبحرون فى البحر حتى يصلوا إلى نهر أسبروس *Aspros*. وبعد أن ينالوا قسطاً من الراحة يستأنفون الملاحة حتى نهر سليناس *Selinas*، أحد فروع الدانوب . وبهذا يدخل التجار الروس الأراضى البلغارية عند مصبات الدانوب فى بحر بونتس . ومن هناك يسيرون حتى مدينة كونوباس *Konopas* ثم قسطنطينة *Constantina* ثم إلى نهر فارنا *Varna* ، ونهر ديتزينا *Ditzina* ، وكلها أراض بلغارية . ومن ديتزينا يصلون إلى ميزمبريا *Mesembria* ، حيث يواجهون حياة قاسية هنا؛ ومن هناك يدخلون الأراضى البيزنطية ، وأخيراً يصلون إلى القسطنطينية . وبعد الانتهاء من تجارتهم بها ، تبدأ رحلة العودة إلى كييف فى شهر أبريل ، حيث يكون نهر الدنيبر قد بدأ فى الذوبان ويصلح للملاحة(٥٦) .

على هذا النحو ، كان التجار الروس والشماليون يواجهون رحلة طويلة شاقة محفوفة بالمخاطر من أجل الوصول إلى القسطنطينية ، للحصول على البضائع اللازمة لهم ولبلادهم . وهذا الطريق المائى العظيم ، كما يسميه بعض المؤرخين كان عظيماً بحق ، لأنه كان وسيلة لوصول الحضارة البيزنطية إلى هذه الشعوب، مثلما استخدموه فى شن حملاتهم العسكرية على بيزنطة . ويبدو من وصفه فعلاً أن المراكز الحضارية الروسية قامت بالدرجة الأولى على هذا النهر وفروعه بدءاً من نوفجورود شمالاً ثم سمولنسك وتليوتزا وتشرينجوف وفيتشجورود وكييف جنوباً. وقد بدأ الروس يعمرون هذه البلاد ، فأقاموا مدناً أخرى على نهر الدنيبر وفروعه منها مدينة بيرياسلاف ، ومدينة فلاديمير وغير ذلك . وارتبطت كل هذه المدن بروابط سياسية واقتصادية مع مدينة كييف . ولما كانت مدينة كييف هى المركز السياسى والاقتصادى ، خاصة وأنها

---

(٥٦) انظر، قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ٦٠-٦٤ *DAI*, I, pp. 58-63;

عصب التجارة فى بلاد الروس، فقد أولاها فلاديمير عناية فائقة وأقـــام التحصينـــات المنيعة حولها لإدراكه لأهميتها التجارية العالية وأنها نقطة التقاء كل الطرق التجاريـــة المارة فى بلاده، لاسيما الطريق المائى العظيم الذاهب إلى بيزنطة(٥٧) . ويبـــدو أن هذا الطريق التجارى الهام الذى يربط بين اسكندنافيا وبيزنطة قد ازدهر تماماً بعد تحـــول الروس إلى المسيحية . وهذا يتفق مع الشواهد الأثرية بأن القـــلاع الحصينـــة علـــى التروبيش والفيتبسك *Vitebsk* قد تم بناؤها فى السنوات الأخيرة مـــن القـــرن العاشـــر فقط(٥٨) .

ويؤكد هايد على أن هذا الطريق لم يكن حديث النشأة ، بل كان مستخدماً قبـــل عام ٨٦٠م(٥٩) . وهذا الطريق مثلما جلب على بيزنطة هجمات عديـــدة عـــن طريـــق الروس، أمدها أيضاً بكثير من المرتزقة العاملين فى جيشها فـــى القرنيـــن العاشـــر والحادى عشر الميلاديين من الفارانجيين والروس ، كما ساهم فى تنشيط حركة التجارة بين البلدين بدءاً من الربع الأخير من القرن العاشر ، كما عمـــل علـــى نقـــل النظـــم الحضارية البيزنطية إلى بلاد الروس أيضاً .

أياً كان الأمر ، ينبغى أن نؤكد على أن تمركز التجارة فى كييف قد أدى إلـــى نشأة شبكة من الطرق التجارية الداخلية، لاسيما مع غرب أوربا . وربمـــا أدى إلـــى ازدهار هذه الطرق السياسة الغربية التى انتهجها كل من فلاديمير وابنه ياروســـلاف . فعلى سبيل المثال يذكر الرحالة اليهودى?براهيم بن يعقوب أنه شاهد تجاراً من الروس فى مدينتى براغ *Prague* وكراكو *Cracow* ، والتى وصلوا إليها عن طريق جنـــوب بولندا(٦٠) . ويؤكد الحميرى هذه الحقيقة عند حديثه عن مدينة براغ التى يطلق عليـــها اسم براغة ، فيقول : " هى مدينة مجاورة لبلاد الاتراك (أى المجيار) مبنية على نـــهر هناك بالحجر والجيار ، وهى تصغر عن المدن وتكبر عن القرى ؛ وبها سوق تجمـــع المرافق السفرية والحضرية . فى أعلاها قلعة كبيرة حصينة ، وبها عين مـــاء معنيـــة

---

(٥٧) Shepard, *The Russian Steppe*, p. 225.

(٥٨) Shepard, *The Russian Steppe*, p. 227.

(٥٩) هايد ، *تاريخ التجارة* ، ص ٨٥ .

(٦٠) Cross, *Contacts*, pp. 141-142.

يخترق ماؤها بسيط بكائها ، وهى أكثر البلاد متاجرة تأتيها من مدينة كراكو الـــروس والصقالية بالمتاجر ... يحملون من عندهم الرقيق و القسدير وضروب الأوبار..."[61].

كما وصلت التجارة الروسية إلى ألمانيا، وبالتحديد إلى مدينة رينسبرج *Regensburg* ، التى كانت مركزاً للتجارة هناك، حيث حمل الروس إلى أسواقها الفراء والجلود . وقد ازدهرت العلاقات التجارية بين ألمانيا ونوفجورود بصفة خاصة ، واستمرت حتى بعد سقوط روسيا فى أيدى التتار بعد ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى[62] .

وفى نهاية الحديث عن العلاقات التجارية بين الروس والبيزنطيين فى الفـــترة موضع البحث يمكننا القول أن علاقات الروس مع البيزنطيين عن طريق نهر الدنيـــبر كانت أكثر دواماً من علاقات الروس التجارية بنهر الفولجا . وكان لوحدة الديانة أثـــر كبير فى هذا ، فقد نجحت القسطنطينية فى تحويل الـــروس إلـــى المســيحية، فكـــان القساوسة الروس يتلقون منها سلطاتهم ، وكانت الكنائس الروسية تتلقى منها لوازمـــها وحليها[63] .

---

(61) الجميرى ، *الروض المعطار* ، ص ٨٦ .

(62) Cross, *Contacts*, pp. 141-142.

(63) هايد ، *تاريخ التجارة* ، ص ٩١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع

الروس وتجارة الفولجا

يشير كثير من المؤرخين والجغرافيين المسلمين إلى أن الروس قد مارسوا التجارة مع الأمم الواقعة على حوض نهر الفولجا ، وهى الخزر والبرطاس والبلغار، وكانت هذه الممالك تشكل عصب التجارة الشرقية القادمة من الفولجا فى طريقها إلى شبه جزيرة اسكنديناوة ، مروراً بالمدن الروسية .

وتعتبر رواية الجغرافى العربى ابن خرداذبه من أقدم الروايات العربية التى تشير إلى تجارة الروس مع قوى الفولجا ، بل إنه أشار إلى وصول التجار الروس إلى بغداد نفسها ، عاصمة الخلافة العباسية من أجل التجارة . ويقول ابن خرداذبه[1] عنهم أنهم "جنس من الصقالبة ، يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبة إلى البحر الرومى فيعشرهم صاحب الروم ، وإن ساروا فى تنيس (أى نهر الدون) نهر الصقالبة ، مروراً بخمليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ، ثم يصيرون إلى بحر جرجان فيخرجون فى أنى سواحله أحبوا ... وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد . ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ، ويدعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية" .

وقبل أن ننتقل إلى روايات الكتاب المسلمين الآخرين عن التجارة الروسية مع قوى الفولجا ، نتوقف قليلاً أمام رواية ابن خرداذبه نظراً لأهميتها البالغة . يذكر ابن خرداذبه ، الذى ولد فى عام ٢٠١هـ/٨٢٧م وتوفى عن عمر يناهز الخامسة والثمانين فى عام ٩١٢م[2] ، أن التجار الروس كانوا جنساً من الصقالبة ، أى من السلاف . ويعتقد المؤرخ الروسى سولوفيف أن التجار الروس فى ذلك الوقت ، زمن تحرير كتابه عام ٨٧٠م-٨٨٥م ، ربما تعلموا بعض كلمات سلافية تمكنهم من الحديث بالسلافية مع مترجميهم من الخدم الصقالبة حتى يستطيعوا ترجمة ما يريدون إلى العربية . وعندما سمعهم ابن خرداذبه كيف يتكلمون فى بغداد ظن أنهم قبيلة من السلاف[3] . وقد يكون ما يذهب إليه سولوفيف صحيحاً ، لكن علينا أن نشير إلى أن

---

(١) *المسالك والممالك* ، ص ١٥٤ .

(٢) Soloviev, *L'etat russe*, p. 260.

(٣) Soloviev, *L'etat russe*, p. 261.

اللغة التى كان يتحدث بها الروس فى هذه الفترة لم تكن الروسية القديمة ، التـى هـى خليط من اللغة السلافية والسويدية واليونانية البيزنطية ، بل كـانت اللغـة السـويدية القديمة ، وأن اكتساب التجار الروس للغة السلافية فى هذه الفترة ، الربع الأخير مـن القرن التاسع الميلادى ، كان طبيعيا نظرا لأن الغلبة كانت للعنصر السلافى والفنلنـدى على طول الطريق من اسكندنافيا إلى الفولجا . وقد أشار ابن خردانبه إلى بعض السلع التى كان الروس يقومون بشحنها إلى البلاد الاسلامية ، إلا أنه لم يفصلها بالقول كمـا سيرد بعد ذلك . والشيء الهام فى رواية ابن خرداذبه عن تجارة الروس مع الفولجـا وبغداد ، أنه أشار إلى ضريبة العشور التى كان الروس يدفعونها إلـى الإمـبراطور البيزنطى إذا ما مروا بأراضيه ، وإلى خاقان الخزر عند المرور بأراضيه أيضا . وهو بذلك يشير إلى الفترة التى كانت تسبق عقد معاهدة أو اتفاقيـة ٩٠٧م بيـن الـروس والبيزنطيين ، والتى بموجبها تم رفع هذه العشور عنهم . وهكذا يلقى ابـن خرداذبـة ضوءا آخر على تجارة الروس مع بيزنطة. أما النقطة الأكثر أهمية فى روايـة ابـن خرداذبه أنه بين لنا الطريق الذى كان يسلكه الروس فى سبيل الوصول إلـى بغـداد . وقد كان من الطبيعى أن يسلك التجار الروس الطريق الذى وصفـه ابـن خرداذبـه للوصول ?لى بغداد ، والذى يبدأ من مملكة الخزر، بعد وصولهم إليها ، وينحدر جنوبـا مع مصبات نهر الفولجا حتى بحر الخزر (بحر جرجان) فينزلون على سواحله ، ومـن هناك عبر الإمارات الإسلامية الواقعة فى القوقاز ينزلون جنوبا ثم صـوب الجنـوب الغربى حيث تقع مدينة بغداد . وكان من الطبيعى أن يركبوا السفن طوال رحلتهم حتى بحر الخزر[٤]، ومن هناك كانوا يقومون بشراء الإبل وتفريغ حمولات السفن عليـها ، ثم التوجه بها نحو بغداد. و استنادا إلى المسعودى لم يكن هناك طريـق آخـر أمـام الروس للوصول بتجارتهم إلى هذه المناطق إلا عن طريق بحر الخـزر[٥] . وممـا لا شك فيه أن التجار الروس لم يتعرضوا لمضايقات من أهالى بلاد القوقـاز المسـلمين آنذاك ، لأن الروس كانوا يدعون أنهم مسيحيون ، على حد قول ابن خرداذبه ؛ بينمـا كان لا يزال الروس فى ذلك الوقت يدينون بالوثنية . وهذا يشير إلى أن الروس أدركوا حسن معاملة المسلمين لأهل الذمة ، لهذا ادعوا ?نهم مسيحيون حتى يغنموا مـن وراء هذا وينعموا بالأمن داخل أسواق بغداد . وعلى هذا فليس من المستغرب أن نقرأ عبارة المسعودى التى يقول فيها أن مسلمى القوقاز " لم يعهدوا عدوا يطرأ إليـهم "[٦] . وإذا

---

[٤] المروزى ، *طبائع الحيوان* ، ص ٢٣ .
[٥] المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ٧٦ .
[٦] المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ٧٦ .

كان الروس قد وصلوا ببضاعتهم حتى أسواق بغداد، فإن قسطنطين بورفيروجنيتوس يشير إلى أنهم أيضاً وصلوا بها إلى بلاد الشام Syria[٧] .

على هذا النحو ، مضت بنا رواية الجغرافى العربى ابن خرداذبه للحديث عن التجارة الروسية عبر نهر الدون (تنيس) وحتى وصولها إلى بغداد ، ثم إلى بلاد الشام على حد ذكر قسطنطين بورفيروجنيتوس . ولكن لنعد ثانية إلى المصادر العربية ، ونقف من خلالها عند حوض نهر الفولجا لنرقب حركة التجارة فى هذه المنطقة ، التى كان يعيش عليها ثلاث أمم هى الخزر والبرطاس والبلغار ، وكيف تبادل التجار الروس التجارة معهم ، أو بمعنى آخر ماذا قدموا وكيف وماذا أخذوا ؟

يذكر ابن حوقل أن " مصب تجارة الروسية على دائم الأوقات إلى خزران ، وكان عليهم فيما يوردونه نحو العشر من أموالهم "[٨] . ويؤكد الاصطخرى قول ابن حوقل بأن الروس كانوا يتاجرون مع الخزر[٩] . وقد سلك التجار الروس القادمون من كييف الطريق النهرى عبر نهر الدون إلى أن يصلوا إلى نقطة التقاء بين هذا النهر ونهر الفولجا ، فينزلون فى النهر جنوباً حيث مملكة الخزر، وهناك كان لابد وأن يدفعوا لخاقان الخزر المكوس البحرية عن بضائعهم بنسبة العشر، وهى المكوس التى تعتبر مورداً من الموارد المالية الرئيسية لخاقان الخزر[١٠] . وقد أشار الوزير العباسى أحمد بن فضلان إلى وجود التجار الروس على نهر الفولجا ، فيقول " ورأيت الروسية، وقد وافوا فى تجارتهم ، ونزلوا على نهر إتل ، فلم أر أتم أبداناً منهم كأنهم النخل ، شقر حمر ، لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين ، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل على أحد شقيه ، ويخرج إحدى يديه منه ؛ ومع كل واحد منهم فأس وسكين لا يفارقه جميع ما ذكرناه ... وهم يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل ، وهو نهر كبير..."[١١] . هكذا ، تثبت جميع الروايات التاريخية مجئ الروس إلى بلاد الخزر من أجل التجارة . وقد يبدو من المناسب قبل أن نتحدث عن السلع التى جاء الروس لبيعها فى أسواق خزاريا أن نتعرف على الأهمية الاقتصادية لمملكة الخزر ، حتى يمكننا التعرف على منتجاتها ، ومن ثم حصر السلع والمنتجات التى من الممكن أن يكون الروس يتعاملون فيها بالبيع والشراء هناك .

---

(٧) قسطنطين بورفيروجنيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٥٠ . *DAI*, I, pp. 186 – 187.

(٨) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٧ .

(٩) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٢ . *Hudud al-'Alam*, p. 161.

(١٠) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٠ .

(١١) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٧٥ – ١٧٦ .

يقول مؤلف حدود العالم عن مملكة الخزر ، أنها " إقليم سار مزدهـر للغايـة بثروات عظيمة ، فمنه تأتى الأبقار والأغنام والرقيق ... "[١٢] . أما الكرديزى فيشـير إلى أنها " واسعة الأرجاء "[١٣] ، وفيها " تكثر الزروع والبساتين ، وتتوفـر النعـم ، ويكثر العسل ، ومن هناك يأتون بالشمع الجيد "[١٤] . ويضيف الحميرى أن "لهم فواكـه ونعم كثيرة ، وللخزر جمال فائق وحسن ظاهر ، والذى يقع من رقيق الخزر هم مـن أهل الأوثان الذين يستجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم بعضا ..." ، كمـا أشـار أيضا إلى الأسواق التى تعقد عندهم[١٥] . وقد أشار الحميرى أيضـا إلـى الأطعمـة الشهيرة عند الخزر والتى تلقى إقبالا منهم وهى الأرز والسمك . كما أشار إلى هيئـة ملابسهم وهى عبارة عن القراطق والأقبية[١٦] . وأضاف إليه الاصطخرى أن قراطقهم كانت تامة على عكس قراطق الروس التى كانت قصيرة[١٧] . ومن خـلال عبـارات الحميرى السابقة يمكننا القول أن الرقيق الذين أشار مؤلف حدود العالم إلى وجودهم فى مملكة الخزر ليسوا سوى أبناء وبنات الأمم الوثنية التى كانت تعيش فى بلاد الخـزر ، وقد سبق وعلمنا أن العنصر السائد فى هذه المملكة كان المسلمون ، يليهم المسـيحيون الخزر ، بينما الملك وخاصته كانوا يدينون باليهوديـة ، وجميعـهم كـانوا يحرمـون الاسترقاق[١٨].

ونعود إلى المسعودى الذى يشير إلى أن الخزر كانت لهم مراكـب تجاريـة تسير فى نهر الفولجا فيما بين بلغار الفولجا شمالا ومملكة الخـزر جنوبـا[١٩] . ولـم تقتصر حركة الملاحة فى هذا النهر على المراكب الخزرية فقط ، بل أشار فى موضع آخر إلى وجود سفن قادمة من بلاد خوارزم الإسلامية محملة بالبضائع التجارية وشتى أنواع الأمتعة[٢٠] .

ومملكة الخزر كانت عامرة بالمدن ، التى أفاض المؤرخـون والجغرافيـون المسلمون الحديث عنها . ونظرا لأنه قد سبق الحديث عن هذه المدن عند حديثنا عـن سياسة الروس تجاه قوى الفولجا ، فسنكتفى بإبراز الأهمية الاقتصادية لها فقط .

---

(١٢) *Hudud al-'Alam*, p. 161.

(١٣) الكرديزى ، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٣ .

(١٤) الكرديزى ، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٥ .

(١٥) الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ٢١٩ .

(١٦) الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ٢١٩ . والقراطق جمع قرطق وهو القباء ذو الطاق الواحد .

(١٧) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٢ .

(١٨) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣١ .

(١٩) المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١٣ .

(٢٠) المسعودى ، *التنبيه والاشراف* ، ص ٥٥ .

يشير الحميرى إلى أن التجار كانوا يتخذون من الجزء الشرقى من عاصمة الخزر والذى كان يطلق عليه اسم أتل ، بينما كان يطلق على الجزء الغربى مقر ملكهم وحاشيته اسم خزران، مقرا لهم ؛ كما يشير إلى اشتغال سكان أتل بالزراعة[٢١] . ويكاد يجمع الكتاب المسلمون على أن أتل كانت مدينة عامرة[٢٢] . أما مدينة سمندر فقد كانت لها بساتين كثيرة ، يقال أنها كانت تبلغ أربعين ألف كرم[٢٣] ، وانتشرت بها أشجار الأرز ، وحمل إليها العود[٢٤] . والغالب على فاكهة هذه المدينة الكروم[٢٥] . ويؤكد الكتاب المسلمون على أن هذه المدينة غنية ببساتين الكروم[٢٦] ، كما كان يعقد بها العديد من الأسواق وإليها يفد التجار[٢٧] . ويقول الاصطخرى أنها كانت ملتقى للناس دوما عن بقية مدن الخزر[٢٨] . وقد اشتهرت مدينتا بلنجر والساركل بأنهما من المراكز التجارية الهامة بخزاريا[٢٩] . وجدير بالذكر أن بلاد الخزر كانت تشتهر بإنتاج غراء السمك[٣٠] ، كما كانت تخرج من أحد جبالها الفضة والقصدير إلى جميع الجهات[٣١] . أما العسل والشمع والخز والأوبار فليس من إنتاجهم ، بل يجلب إليهم[٣٢] ، كما أن الملابس كانت تأتى إليهم من جرجان وطبرستان واذربيجان وبيزنطة[٣٣] . على هذا النحو ، من خلال الروايات التاريخية السابقة تتبين لنا الأهمية الاقتصادية لمملكة الخزر، التى كانت تحتل الجزء الجنوبى من حوض نهر الفولجا . بالإضافة إلى أن هذه المملكة امتلكت ميزة التحكم فى الطريق التجارى الذاهب من فم نهر الفولجا إلى بلاد القوقاز عن طريق بحر الخزر ، ومن هناك إلى بغداد وبلاد الشام . على هذا اجتمعت كل العوامل لتجعل من بلاد الخزر غاية الروس فى التجار في هذا الجزء من نهر

---

(٢١) الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ١١ .

(٢٢) الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٨٣٤ ، ابن الوردى ، *خريدة العجائب* ، ص ٦٤ ؛ المقدسى ، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦٠ .

(٢٣) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٣ .

(٢٤) ابن خرداذبة ، *المسالك والممالك* ، ص ٦٣ .

(٢٥) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٠ .

(٢٦) الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٨٣٥ ؛ المقدسى ، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٦١ ؛ ابن الوردى ، *خريدة العجائب* ، ص ٩٤ .

(٢٧) *Hudud al-ʿAlam*, p. 161.

(٢٨) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٠ .

(٢٩) Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 114.

(٣٠) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣١ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٤ .

(٣١) الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩٢٠ .

(٣٢) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣١ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٤ .

(٣٣) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٤ – ٣٩٥ .

الفولجا ، لاسيما وأن التجار المسلمين كانوا يفدون إلى الممالك الواقعة على نهر الفولجا بتجارتهم . وبقول آخر يمكن القول أنه كانت هناك حركة تجارية نشطة بين التجار المسلمين من الران والجيل وطبرستان وجرجان ومدينة أتل[٣٤] . وربما ساعد على هذا النشاط التجارى وجود ما يزيد على عشرة آلاف مسلم يعيشون فى بلاد الخزر[٣٥] ويتركزون فى مدينة أتل ، ويطلق عليهم بلسان الخزر اسم اللارشيه[٣٦] . وهؤلاء التجار المسلمون يذكر المسعودى أنهم وصلوا بتجارتهم حتى مدينة كييف[٣٧] . وقد ردد الادريسى نفس كلمات المسعودى بقوله "ويبلغ تجار المسلمين من أرمينية إلى كويابة"[٣٨] . ومن المحتمل ، استنادا إلى الجغرافى العربى الزهرى ، أن هؤلاء التجار المسلمين كانوا أيضا يحملون معهم أحجار الفيروز ، التى كانت متوافرة فى المناطق المحيطة ببحر الخزر ، وأجلها المعروف بالراهوى؛ كذلك نوع من الأسماك حمراء اللون يطلق عليها اسم السقنقور ، تجفف من غير ملح وهى ذات رائحة طيبة بعد جفافها[٣٩] . وقد يدعم هذا القول أن المسعودى يشير إلى ولع الروس بالأحجار الكريمة، وأنهم يتنافسون فى شراء الزمرد المعروف باسم المغربى ، كتنافس ملوك الهند والصين فى شراء النوع المعروف باسم البحرى[٤٠] . وبالقياس يمكن القول أنهم أيضا حرصوا على شراء أحجار الفيروز الكريمة مثلما كانوا يتنافسون فى شراء أحجار الزمرد ، لأن كل هذه الأحجار الكريمة كانت تستخدم كحلى عندهم . ولنا أن نقرأ وصف المؤرخ البيزنطى ليو الشماس للأمير الروسى سفياتوسلاف عندما ذهب للقاء الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزيمسكس ، فقد ذكر أنه " كان يرتدى فى إحدى أذنيه قرطا ذهبيا مزين بلؤلؤتين تتوسطهما ياقوتة حمراء "[٤١] . ويؤكد ابن فضلان ولع الروس بالأحجار الكريمة ، وربما بإشارة ضمنية منه إلى الفيروز ، فيقول : " وأجل الحلى عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذى يكون على السفن يبالغون فيه ، ويشترون الخرزة بدرهم، وينظمونه عقودا لنسائهم "[٤٢] .

---

(٣٤) الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ١١ .
(٣٥) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٠ .
(٣٦) انظر الفصل الخامس من البحث .
(٣٧) المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ٢٥٤ .
(٣٨) الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩١٧ .
(٣٩) الزهرى ، *كتاب الجغرافية* ، تحقيق : محمد حاج صادق ، (القاهرة ، د.ت) ، ص٦٦،١٣٣.
(٤٠) المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ٢٤٨ .
(٤١) *Leo Diaconus*, pp. 156-157; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 213.
(٤٢) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٧٧ .

أياً كان الأمر ، كانت هذه رؤية شاملة للسلع المتوافرة فى أسواق الخزر سواء التى تنتج عندهم ، أو التى تأتى إليهم عن طريق التجار المسلمين ، وتنتقل من هنـــاك إلى أسواق كييف . ولننتقل الآن للحديث عن السلع التى كان يجلبها التجـــار الـــروس معهم إلى أسواق الخزر . وهذه السلع كانت بالدرجة الأولى العسل والشـــمع والوبـــر وجلود الخز[٤٣] . ويذكر ابن حوقل أن أجمل أنواع هذه الجلود وأكثرها يأتى من بـــلاد الروس[٤٤] . أما الكرديزى فيذكر أن تجارتهم " السمور[٤٥] والسنجاب[٤٦] وغيرهما من الفراء..."[٤٧] . ويشير مؤلف حدود العالم إلى منتجاتهم عند حديثه عن مدينة كييـــف ، فيقول : " هى أقرب مدن الروس للأراضى الإسلامية ، وهى موضع ســـار ، ومقـــر الملك ، وتنتج فراءً متنوعاً وسيوفاً قيمة "[٤٨] . ثم يؤكد فى موضع آخر من مؤلفه على القيمة العالية والشهرة الواسعة التى كانت تحوزها السيوف الروسية "[٤٩] . ويؤكد ابـــن مسكويه على شهرة السيوف الروسية بقوله " أنها سيوف يتنافس فيها إلى اليوم لمضائها وجودتها "[٥٠] . وبالإضافة إلى السلع الروسية السابقة يشير الاصطخرى إلـــى اتجـــار الروس بالسمور الأسود والرصاص[٥١] . ويضيف ابن حوقل إلى هذه السلع الثعـــالب السود والزئبق[٥٢] ، بينما يذكر القلقشندى أنهم كانوا يتاجرون فى الوشق[٥٣] أيضاً[٥٤] . أما آخر السلع التجارية التى كان يتاجر فيها الروس ويأتون بها إلى بلاد الخزر فكـــانت الرقيق الصقالبة . فيذكر الكرديزى أن الروس كانوا يركبون مراكبهم ويغـــيرون بـــها على القبائل السلافية التى تعيش فى بلادهم ويسبون منهم السبايا ليبيعونهم رقيقـــاً فـــى

---

(٤٣) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٢ .
(٤٤) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٢ .
(٤٥) السمور ، حيوان ثديى ليلى من الفصيلة السمورية من آكلات اللحوم ، يتخذ من جلده فرو ثمين . انظـــر ، *المعجم الوجيز* ، ص ٣٢١ .
(٤٦) السنجاب ، حيوان أكبر من الجرذ له ذنب طويل كثيف الشعر يرفعه صعداً، ويضرب به المثـــل فـــى خفـــة الصعود ؛ ولونه أزرق رمادى ومنه اللون السنجابى . انظر ، *المعجم الوجيز* ، ص ٣٢٣ .
(٤٧) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ٤٧٤ .
(٤٨) *Hudud al-'Alam*, p. 159.
(٤٩) *Hudud al-'Alam*, p. 159.
(٥٠) ابن مسكويه ، *تجارب الأمم* ، جـــ٢ ، ص ٦٦ . وعن صناعة السيوف الروســـية ، انظـــر ، البـــيرونى ، *الجماهر* ، ص ٢٤٨-٢٥٠ ؛ ليلى عبد الجواد ، *الروس* ، ص ٦٩ - ٧٠ .
(٥١) الاصطخرى ، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٢ .
(٥٢) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٧ .
(٥٣) الوشق ، حيوان بين القط والنمر ، رأسه كبير وعلى طرفى كل من أذنيه خصلة من الشعر، وذيله قصـــير، يقطن الغابات والصحارى والمناطق الزراعية . انظر ، *المعجم الوجيز* ، ص ٦٧٠ .
(٥٤) القلقشندى ، *صبح الأعشى* ، جـــ ٥ ، ص ٤٢١ .

أسواق التجارة العالمية[٥٥] . ويضيف أن السلاف كي يأمنوا شر الروس كـان الكثـير منهم يذهب للعمل فى خدمة الروس ، وعلى حد تعبيره " حتى يأمنوا من الرق ".[٥٦]

على هذا النحو أحصت المصادر الإسلامية السلع التى حملها الروس للتجارة مـع الأمم المجاورة لهم على ضفاف نهر الفولجا ومع التجار المسلمين هناك، وهى علـى النحو التالى:

١-المنتجات الطبيعية: العسل والشمع.
٢-المنتجات الجلدية: جلود الخز.
٣-الفراء: فراء السمور، السنجاب، الثعالب، الوشق، وشتى أنواع الوبر.
٤-المعادن: الرصاص، الزئبق. وعلى الرغم من إنتاجهم لمعدنى الذهب والفضة إلا أنهما كانا يستخدمان للاستهلاك المحلى.
٥-السيوف.
٦-الرقيق.

وبعد...لم تقتصر تجارة الروس مع التجار الخزر والمسلمين فى منطقة حـوض الفولجا الأدنى، بل كانت لهم تجارة أيضا مع البرطاس، الذين كـانوا يعيشـون علـى ضفاف الفولجا فيما بين الخزر جنوبا والبلغار شمالا. ومن سوء الحـظ أن المصـادر التاريخية لا تقدم الكثير عن هذه التجارة مثلما تحدثت عن تجارة الروس مع الخـزر، وربما كان ذلك راجعا إلى أن البرطاس كانوا قبيلة تخضع للخزر سياسيا، ويغلب عليها الطابع البدوى، حيث كانوا يعيشون فى خيام مضروبة فى وادى نهر الفولجا.[٥٧]

ويشير المروزى إلى أن بلادهم كانت واسعة، وأنهم كانوا يملكون قطعانـا مـن الخنازير والبقر.[٥٨] أما الحميرى فيذكر أن أكثر أموالـهم تـأتى مـن التجـارة فـى العسل،[٥٩] الذى لا حصر له على حد قول الكرديزى،[٦٠] والوبر؛ وأن لـهم سـوائم كثيرة من البقر والغنم[٦١] ؛ ويضيف إليها الكرديزى الإبل أيضا[٦٢] ويذكر مؤلف حدود

---

[٥٥] الكرديزى ، *زين الأخبار* ، ص ٣٧٣-٣٧٤ ؛ Frye, *Remarks*, p. 121.
[٥٦] الكرديزى ، *زين الأخبار* ، ص ٤٧٥.
[٥٧] الكرديزى، *زين الأخبار*، ص ٤٦٥؛ المروزى، *طبائع الحيوان*، ص ٢١؛ الاصطخرى، *المسالك والممالك* ، ص ١٣٠؛ وانظر أيضا الفصل الخامس من البحث.
[٥٨] المروزى، *طبائع الحيوان*، ص ٢١-٢٢.
[٥٩] الحميرى، *الروض المعطار*، ص ٨٩.
[٦٠] *زين الأخبار*، ص ٤٦٦.
[٦١] الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ٨٩ .
[٦٢] *زين الأخبار* ، ص ٤٦٦ .

العالم أن ثروات البرطاس كانت تتمثل فى فراء الحيوان[٦٣] . ويكاد يجمع الكتاب المسلمين على أن البرطاس كانوا يشتهرون بتجارة جلود الثعالب سواء السوداء أو الحمراء ، وقد بلغت من شهرتها أنها صارت تعرف باسم البرطاسية[٦٤]، وهى غاية فى الحسن[٦٥] . كما كان يخرج من عندهم أيضا جلود الثعالب البيضاء[٦٦] . وكانت جلود الثعالب السوداء غالية الأثمان على مستوى الأسواق عامة ، حتى أن الواحد منها كان يبلغ ثمنه مائة دينار[٦٧] ، فقد كانت لا توجد فى أى مكان فى العالم إلا عند البرطاس[٦٨] . وهذا النوع من فراء الثعالب كان يتباهى بلبسه ملوك الأمم والأعاجم والعرب ويتنافسون فى لبسه ، وهو عندهم أغلى من السمور وما شاكله . وهذا الفراء شديد الحرارة ، فقد كان جلده أشد حرا من جلود سائر الأوبار الأخرى ، حتى أنه يصلح للمرطوبين من المرضى والشيوخ على حد ذكر المسعودى[٦٩] . ويلى هذا النوع من حيث القيمة فراء الثعالب الحمراء والبيضاء ، أما أقلها قيمة وأرخصها سعرا ففراء الثعالب المعروفة باسم الأعرابى[٧٠] .

كانت هذه هى السلع التى ينتجها البرطاس ويتاجرون فيها فى منطقة الفولجا ، فقد كانوا يركبون السفن إلى بلاد الخزر ، وأحيانا يتخذون الطريق البرى[٧١] . وبطبيعة الحال كانوا يحملون هذه السلع إلى أسواق الخزر ، حيث حركة التجارة الرئيسية فى حوض الفولجا الأدنى . كما أن الحميرى يشير إلى أن بلادهم كانت متصلة ببلاد الروس[٧٢] ، وهذا بدوره قد يشير إلى وجود اتصالات مباشرة بين البرطاس والروس، بالإضافة إلى تجاراتهم القائمة فى أسواق الخزر .

أما القوة الأخيرة من قوى الفولجا التى تعامل معها التجار الروس فكانت بلغار الفولجا . وقد سبق الحديث عن هذه المملكة ونظمها وأحوالها[٧٣] ، لكننا نود التأكيد

---

(٦٣) *Hudud al-'Alam*, p. 162.

(٦٤) المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١٣ ؛ المسعودى ، *التنبيه والاشراف* ، ص ٥٥ ؛ ابن الوردى ، *خريدة العجائب* ، ص ٩٥ .

(٦٥) القزوينى ، *آثار البلاد* ، ص ٥٨٠ .

(٦٦) المسعودى ، *التنبيه والاشراف* ، ص ٥٥ .

(٦٧) المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١٣ .

(٦٨) المسعودى ، *التنبيه والاشراف* ، ص ٥٥ .

(٦٩) *التنبيه والاشراف* ، ص ٥٥ – ٥٦ ؛ المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١٣ .

(٧٠) المسعودى ، *التنبيه والاشراف* ، ص ٥٥ .

(٧١) الكرديزى ، *زين الأخبار* ، ص ١٦٦ .

(٧٢) الحميرى ، *الروض المعطار* ، ص ٨٩ .

(٧٣) انظر الفصل الثانى ، من الباب الثانى .

على أن مدينة بلغار عاصمة مملكة البلغار قد احتلت مكانة هامة فى التجارة الإقليمية فى المنطقة الواقعة شمال نهر الفولجا ، ولعبت دورا هاما فى نقل السلع الأسيوية إلى أوربا الشمالية[٧٤] . فقد كانت هذه المدينة آخر محطة تجارية تصل إليها قوافل التجارة العربية المتجهة نحو الشمال[٧٥]، ومنها كانت التجارة تمتد نحو الكثير من المدن الشمالية المحيطة بها ، على نحو ما سنرى . وهذه المدينة اشتهرت بتصدير منتجات الصين ، والجلود والفراء ، وكذلك مقادير كبيرة من الشهد . وتطورت بها صناعة الدباغة ، فصارت النعال والأحذية من أهم ما تصدره إلى بلاد المسلمين ؛ وعنهم أخذ الروس هذه الصناعة[٧٦] . وقد لاحظ دوبرانينيا ، خال الأمير الروسى العظيم فلاديمير ، تطور هذه الصناعة عندهم حيث كان الأسرى البلغار لديهم يلبسون أحذية جلدية ذات رقاب مرتفعة ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه أمم أخرى تلبس أحذية مصنوعة من ليف أو لحاء الأشجار[٧٧] . ويبدو أن هذه المدينة قد ازدادت أهميتها التجارية باعتناق البلغار الإسلام فى القرن الرابع الهجرى/١٠ لعاشر الميلادى ، ويقول مؤلف حدود العالم أن البلغار " يشتغلون بالتجارة مع كل أولئك الذين يقيمون حولهم . وهم يملكون الماشية والأسلحة وأدوات القتال "[٧٨] . وهم يتاجرون مع الخوارزميين ، حيث يذكر البيرونى أن التجار البلغار يحملون معهم لب ناب السمك ويذهبون إليهم[٧٩] ، بينما يذكر ابن حوقل أن التجار الخوارزميين يذهبون إلى البلغار ويشترون من عندهم الخز والأوبار النفيسة[٨٠] . أى أن كل من الطرفين كان له مصالح تجارية لدى الآخر ، وهذا ما يؤكده المسعودى صراحة[٨١] . ويمدنا المقدسى بصورة كاملة عن السلع التى كان الخوارزمية يستوردونها من البلغار وهى "السمور والسنجاب وقاقون وفنك[٨٢] ودكسه والثعالب وخزبوست وخركوش ملون وبزبوست والشمع والنشاب والتوز والقلانس

---

(٧٤) Gerard, *Bulgares*, p. 59.

(٧٥) Court, *La Russie*, p. 71.

(٧٦) بارتولد ، الترك ، ص ٦٧ .

(٧٧) *R.P.C.*, p. 96; Franklin & Shepard, *Rus'*, pp. 156-157.

(٧٨) *Hudud al-'Alam*, p. 160.

(٧٩) البيرونى ، *الجماهر* ، ص ٢٠٩ .

(٨٠) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٢ .

(٨١) *مروج الذهب* ، جـ١ ، ص ١١٣ .

(٨٢) نوع من الثعالب ، فروته من أجود أنواع الفراء . انظر ، *المعجم الوجيز* ، ص ٤٨٢ .

وغراء السمك وأسنان السمك وخزميان وكهروا والكيمخت والعسل والبندق وأبوز والسيوف والدروع والخلنج والرقيق من الصقالبة والأغنام والبقر"(٨٣) .

ولما كانت بلغار بهذا الثراء الاقتصادى والأهمية التجارية العالية فقد ذهب إلى أسواقها التجار الروس ومعهم من السلع الروسية السمور والقاقم والسنجاب(٨٤) ، وجلود الخز(٨٥) ، والرقيق من الصقالبة(٨٦) . وبمقارنة هذه النصوص التاريخية بنص المقدسى الهام ، يتضح لنا أن مدينة بلغار كانت تشهد حركة تبادل تجارى كبرى بين تجار المناطق الشمالية ، من الخوارزمية والروس والبلغار ، ويضيف إليهم الكرديزى الخزر أيضا(٨٧) . وسنجد أن العديد من السلع الروسية قد ذهبت إلى خوارزم ، ونحن نعرف منها السمور والسنجاب ، والشمع ، والسيوف ، والرقيق من الصقالبة . أما فراء الثعالب فمن المحتمل أنه جاء إلى أسواق بلغار عن طريق البرطاس ومنه إلى خوارزم. ويمكن أن نعتبر أن بقية السلع التى استوردها الخوارزميون من بلغار هى سلعا محلية ، فالبندق على سبيل المثال كان كثير الإنتاج بأرض البلغار(٨٨) ، وكذلك العسل(٨٩) . ويروى ابن فضلان أنه رأى بنفسه سوقا عظيمة يباع فيها المتاع الكثير النفيس ، وتعقد عند نهر الفولجا بأرض بلغار(٩٠) . وقد كان ملك البلغار يأخذ العشر على التجارات الواردة إلى بلاده ، ويصف لنا ابن فضلان تفاصيل ذلك بقوله : " إذا قدمت السفينة من بلد الخزر إلى بلد الصقالبة (أى البلغار) ركب الملك فأحصى ما فيها وأخذ من جميع ذلك العشر . وإذا قدم الروس أو غيرهم من سائر الأجناس برقيق فللملك أن يختار من كل عشرة رؤوس رأسا"(٩١) .

ويشير مؤلف حدود العالم إلى أن تجار مدينة صلاية *S.laba* الروسية يخرجون للتجارة مع أقاليم البلغار ، عندما يكون السلام سائدا(٩٢) . ومن الصعب هنا

---

(٨٣) المقدسى ، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٢٤-٣٢٥ ، تجدر الإشارة إلى أن هناك بعض من هذه السلع لم نعثر على تفسيرات لها وهى القاقون ، الخزبوست ، الخركوش ، البز بوست ، الخزميان ، الكهرو ، الكيمخت . ومن المحتمل أن هذه المسميات كانت سائدة فى ذلك العصر واختفت تدريجيا بحيث لم تصل الينا ، كما يبدو انها مسميات غير عربية .

(٨٤) الكرديزى ، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٧ .

(٨٥) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٢ .

(٨٦) الكرديزى، *زين الأخبار* ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٨٧) الكرديزى، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٧ .

(٨٨) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٥٧ .

(٨٩) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٦٢ .

(٩٠) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٦٤ .

(٩١) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٧١ .

(٩٢) *Hudud al-'Alam*, p. 159.

أن نحدد ماهية هذه المدينة وأين موقعها من مدن الروس ، نظرا لأن الاسم جاء مشوها في المصادر العربية ؛ فيطلق الادريسى عليها اسم صلاو[٩٣] . وبالرغم من هذا ذهب أحد المؤرخين المحدثين إلى أن الصلاوية هؤلاء من الممكن أن تنطبق على صقلب ، وأنها ربما تشير بصفة خاصة إلى سكان نوفجورود الأصليين[٩٤] . أما المؤرخ الروسى ريباكوف *Rybakov* فيعتقد ، دون ذكر أسانيد لذلك، أن مدينة صلاوة هى مدينة برياسلاف ، التى تقع جنوب كييف[٩٥] . ولكن لنطرح أراء المؤرخين المحدثين جانبا ونحاول أن نحلل الكلمة لغويا ، ما دامت الروايات التاريخية التى تساعدنا فى الوصول إلى معرفتها منعدمة . لقد وردت الكلمة فى النسخة الإنجليزية لنص حدود العالم والمترجمة عن الفارسية بهذا الشكل *S.laba* . والحرف الأول منها يمكن أن ينطق فى العربية " س أو ص " ، والحرف الرابع a نلاحظ أن عليه علامة مد وينطق فى هذه الحالة مع حرف L " لا " ، أما الحرف الخامس فينبغى أن نقف عنده قليلا . فحرف الباء b يمكن أن ينطق كما هو ، ولكن فى الصوتيات الهندوأوربية يأتى هذا الحرف بملئ النفس ، وهو حرف شفهى ، ويلفظ bh أو ph ، وفى هذه الحالة يصيرحرف " ف = f "[٩٦] ؛ ولنقرأ مثلا كيف كتب الكتاب المسلمون اسم مدينة كييف، لقد سجلوها على هذا النحو "كويابة"[٩٧] . وبتطبيق القاعدة الفيلولوجية السابقة عليها يصبح أسمها كويافة ، وهى أقرب ما تكون للمسمى الحقيقى للمدينة . وبالقياس تصبح مدينة صلاو أو صلاوة كما يلى سلاف أو سلافا ، لأن الحرف الأخير فى الكلمة الأخيرة يوازى حرف " a – أ " فى الكلمة الأصلية وليس" ت " كما ورد فى المصادر السابقة . وبناء على هذا يمكن القول أنه من المحتمل أن مدينة صلاو أو صلاوة هى مدينة سلافا أو برياسلافا ، الواقعة جنوب كييف على نهر الدنيبر؛ وبهذا نكون قد قدمنا تفسيرا لوجهة نظر ريباكوف .

أيا كان الأمر ، يمكننا فى هذه الحالة أن نقول أن الروس فى مدينة برياسلافا قد تبادلوا التجارة مع البلغار . ولنعد ثانية إلى التجارة البلغارية مع المدن الروسية الأخرى ، حيث يخبرنا المروزى أنه "على مسيرة عشرين يوما من البلغار نحو القطب

---

(٩٣) الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩١٧ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٣٦ .

(٩٤) ليلى عبد الجواد ، *الروس* ، ص ١٤ .

(٩٥) Rybakov, *Russian History*, p. 28.

(٩٦) Crawford, D. S., *Greek & Latin*, (Cairo, 1939), pp. 78, 81.

(٩٧) *Hudud al-'Aalam*, p. 159. الادريسى ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩١٧ .

بلد يقال له أيسو[٩٨] ووراءه أمة يقال لهم يوره ، وهم قوم متوحشون في الفياض لا يخالطون الناس ، ويخافون شرهم . وأهل بلغار يسافرون اليهم ويحملون من الأمتعة الثياب والملح وأشياء أخرى على آلات تجرها الكلاب فوق الثلوج المتراكمة التي لا تحسر . وسير الرجال على تلك الثلوج لايمكن إلا بأن يشدوا على أقدامهم عظام الثيران التي في سوقها ، ويأخذون بأيديهم مزرقين يضربون بها على الثلج إلى الوراء فتزلق بذلك أقدامهم .."[٩٩] .

ويشير المروزى أيضا إلى طريقة البيع بين التجار البلغار وأهل "يورة" فيقول "ويبايعون أهل يورة بالإشارة والمغايبة ، لاستيحاشهم وخوفهم من الإنس ، ويجلبون من عندهم السمور الفائق وغيره من الوبر الجيد"[١٠٠] . أما طريقة البيع بين التجار البلغار وأهل "ويسو" فهي على النحو الآتي : "يجعل كل واحد متاعه في ناحية ، ويعلم عليه ويتركه ، ثم يرجع إليه فيجد إلى جنبه متاعا يصلح لبلاده ، فإن رضي بها أخذ العوض وترك متاعه ، وإن لم يرض أخذ متاعه وترك العوض ؛ ولا يرى البائع المشترى ولا يرى المشترى البائع"[١٠١] . ويشير القلقشندى إلى البضائع التي يتركها أهل "ويسو" مقابل الحصول على البضائع البلغارية وهي السمور والوشق والثعلب وما شاكل ذلك[١٠٢] . ويتضح من وصف المروزى لرحلة التجار البلغار إلى "ويسو ويوره" أن هذين البلدين يقعان نحو القطب الشمالي ، شمال بلاد الروس ، وربما على طريق نهر الفولجا الذي يربط بين نوفجورود ومدينة بلغار . ومما يساعدنا في هذا الافتراض أنه تم العثور على حلية لطقم فرس مموهة بالفضة في ولاية ياروسلاف ، وكانت تنتمي إلى أحد بلغاري الفولجا ، تمكن أحد العلماء من قراءة كلمتين عربيتين عليها[١٠٣]. وينبغي ملاحظة أن اسم مدينة ياروسلاف ، الواقعة على طريق الفولجا الشمالي نوفجورود – بلغار ، يتشابه في نطقه مع مدينة يوره . وقد يدفعنا هذا للوهلة الأولى أن نربط بين الإثنين ونعتبر يوره هي مدينة ياروسلاف ، ولكن مثل هذا الافتراض بدون أسانيد تاريخية أو فيلولوجية يعتبر في غير محله وإن كنا لا نستبعده . كما يشير المسعودى إلى تبادل التجارة بين البلغار والروس في منطقة أعالي نهر

---

(٩٨) يذكر ابن فضلان (*الرسالة* ، ص ١٦٣) والقزويني (*آثار البلاد* ، ص ٦١٨) أن ويسو تقع على مسافة ثلاثة شهور من بلغار .

(٩٩) المروزى ، *طبائع الحيوان* ، ص ٤٤ – ٤٥ .

(١٠٠) المروزى ، *طبائع الحيوان* ، ص ٤٥ .

(١٠١) القزويني ، *آثار البلاد* ، ص ٦١٨ .

(١٠٢) القلقشندى ، *صبح الأعشى* ، جـ ٥ ، ص ٤٢١ .

(١٠٣) هايد ، *تاريخ التجارة* ، ص ٨٢ .

الفولجا[١٠٤] . والمقصود هنا بأعالى نهر الفولجا ، أو نهر الخزر كما يطلق عليه ، نهر كاما *Kama* ، لأنه منبع نهر الفولجا القادم من الشمال رأسا[١٠٥] . وفى الواقع كانت هناك جماعات من التجار البلغار يتاجرون مع المناطق الشمالية منذ فترة طويلة ، فقد كانت هناك جماعات منهم تعيش منذ القرن الثامن الميلادى فى منطقة الفولجا الأوسط. ويمكننا القول أن التجارة بين سكان وادى كاما والشمال وتجار الجنوب كانت مستمرة بطول نهر الفولجا الأوسط[١٠٦] . جدير بالذكر أن العلاقات التجارية بين سكان وادى كاما والبلاد الشرقية كانت قائمة حتى قبل ظهور الإسلام ، فقد عثر على أقداح خمر فضية ساسانية يعود تاريخها إلى القرن الخامس وحتى القرن الثامن الميلادى . ويمكننا أن نستنتج أن العلاقات التجارية بين هذه المناطق الشمالية والبلاد الشرقية ظلت قائمة منذ تلك الفترة وحتى العصر العباسى الثانى[١٠٧] . ويشير المؤرخ فراى *Frye* إلى أن سكان كاما كانوا معروفين بعشقهم للفضة وحرصهم على تخزينها عندهم[١٠٨] .

والآن ، وقد اتضحت لنا حركة التجارة على طول نهر الفولجا سواء فى حوضه الأدنى أو الأوسط أو الشمالى بين التجار الروس من ناحية وبين التجار الخزر والمسلمين والبرطاس والبلغار والخوارزميين وغيرهم من ناحية اخرى ، تجدر الإشارة إلى الحدث الجلل الذى وقع على شواطئ الفولجا فى عام ٩٦٥م . ففى ذلك العام ، كما سبق القول[١٠٩] ، هاجم الأمير الروسى سفياتوسلاف ممالك الفولجا كلها فقد هاجم بلغار الفولجا ، والبرطاس والخزر ، الذين تقوضت مملكتهم على يديه، ثم أكمل زحفه العسكرى على البلاد الواقعة شمال القوقاز . وقد ذكر الكتاب المسلمون آثار الدمار الشامل الذى ألحقه سفياتوسلاف بمملكتى البلغار والخزر بصفة خاصة[١١٠] . ولا يهمنا هنا أن نعيد نفس الكلمات التى ترددت من قبل عند حديثنا عن العلاقات الروسية – الخزرية – البلغارية ، لكننا نود أن نشير إلى عبارة هامة أوردها ابن حوقل وهى أن مدينة سمندر ، الحاضرة الثانية لمملكة الخزر ، لم تسترد أنفاسها وتعود إلى ما كانت عليه قبل غزو الروس لها فى عام ٩٦٥م إلا بعد مرور ثلاث

---

(١٠٤) المسعودى ، *مروج الذهب* ، جـ ١ ، ص ١١٣ .

(١٠٥) انظر الخريطة الملحقة بالبحث .

(١٠٦) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 61.

(١٠٧) Frye R., "Byzantine and Sasanian Trade Relations with Northern Russia", *DOP*, 26 (1972), pp. 265 - 266.

(١٠٨) Frye, *Sasanian trade*, p. 266.

(١٠٩) انظر، الفصل الخامس من البحث .

(١١٠) عن هذا الدمار الشامل وآثاره ، انظر، الفصل الخامس من البحث.

سنوات[١١١]؛ وعلينا أن نضيف إلى هذا هجرة الكثير من الخزر من بلادهم وتشتت البرطاس فى البلاد المجاورة بين الأمم . كل هذا ألن يكون عاملا على تخلخل التجارة فى الحوض الأدنى لنهر الفولجا ؟ ربما حدث هذا على الأقل طوال ما يقرب من ثلاث سنوات عندما استردت سمندر مكانتها ثانية كدليل على إعادة تعمير بلاد الخزر . ولكن ألا يقابل هذا التخلخل فى الحوض الأدنى للفولجا فى تلك الفترة زيادة فى النشاط التجارى بين الروس والبلغار شمالا؟! لاسيما وأننا نعلم أن الدمار الذى ألحقه سفياتوسلاف بالبلغار لا يذكر مقارنة بما أحدثه فى بلاد الخزر . لقد كانت مملكة الخزر مستهدفة بالدرجة الأولى من الروس والبيزنطيين على حد سواء ، على عكس البلغار الذين كانوا يشكلون حلقة وصل هامة فى الحياة الاقتصادية للروس بين التجارة الواردة من البلاد الإسلامية والحوض الأدنى للفولجا وبين التجار الروس القاديمن من نوفجورود عبر طريق الفولجا الشمالى الواصل بين نوفجورود ووبلغار مرورا بالعديد من المدن الروسية الهامة كمدينة ياروسلاف وروستوف وغيرهما وكذلك سكان وادى نهر كاما الشمالى. وبمسح بسيط للحملات الروسية على منطقة الفولجا سنكتشف للوهلة الأولى حقيقة ما تذهب إليه فوثيقة كامبردج تعكس لنا بدايات الهجوم الروسى على الخزر ، تلاه هجوم سفياتوسلاف فى عام ٩٦٥م ، ثم هجوم فلاديمير عليهم فى الفترة من ٩٧٩ – ٩٨٦م ، ثم الهجوم الروسى – البيزنطى المشترك فى عام ١٠١٦م . هذا فى الوقت الذى هاجم سفياتوسلاف البلغار فى عام ٩٦٥م فقط ، وكانت هناك محاولة للهجوم عليهم فى عهد فلاديمير فى عام ٩٨٥م ، إلا أنه انصرف عنهم ولم يستكملها ؛ كما أنه ينبغى أن نضع فى الحسبان أن مملكة البلغار كانت المصدر الرئيسى للروس فى الحصول على الدراهم الفضية بالدرجة الأولى ، ولهذا فليس من صالحهم تقويض هذه المملكة التى لم تنافس الروس فى السيادة فى المنطقة ، على عكس مملكة الخزر ، التى لعبت دورا هاما فى السياسة فى منطقة حوض الفولجا ومنطقة السهوب .

وهناك قضية أخرى بالغة الأهمية وهى تأثير تحول الروس إلى المسيحية على التجارة البلغارية – الروسية . فمن المعروف أن التجارة بين الروس والقسطنطينية قد نشطت بصورة أكثر فعالية فى الربع الأخير من القرن العاشر الميلادى والقرن الحادى عشر الميلادى وأن الروس بدأ يزداد طلبهم على السلع البيزنطية الترفيهية كالحلى والملابس الكنسية والكتب والأيقونات وغيرها . هذا فى الوقت الذى حدث فيه تخلخل فى تجارة الفولجا لاسيما فى الحوض الأدنى من النهر، بسبب الضغط الروسى على

---

[١١١] ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٨ .

قوى الفولجا والتوسع الروسى القارى صوب الشرق . لاشك أن الازدهار التجارى بين الروس والبيزنطيين فى تلك الفترة كان يقابله إن لم يكن انهيار فعلى الأقل ركود تجارى فى منطقة الفولجا ، خاصة حوض الفولجا الأدنى . ولعل هذا ما دفع بالبلغار فى عام ١٠٠٦م أن يرسلوا مبعوثين إلى الأمير الروسى العظيم فلاديمير محملين بالهدايا الثمينة لكى يطلبوا منه السماح لتجارتهم بأن يتنقلوا فى المدن الواقعة على نهرى الفولجا وأوكا[١١٢] . وهذا ربما يشير إلى اتخاذ فلاديمير لإجراءات سابقة مع البلغار تقضى بمنع دخول التجار البلغار إلى الأراضى الروسية . وقد وافق فلاديمير على طلبهم وسلم إليهم تصريحا مختوما منه ليقدموه فى المدن التى يريدون التجارة معها. ولم يسمح للتجار البلغار إلا بالتنقل بين المدن فقط والتعامل مع التجار الروس فقط دون بقية السكان وكان محرما عليهم بيع أو شراء البضائع من فئات الروس الأخرى ، وكذلك التنقل بين القرى الروسية بغرض التجارة[١١٣] . إن حرص البلغار على استمرار التجارة مع الروس تؤكده المعلومات السابقة ، كما أنها تعكس شيئا من التدهور الذى لحق بها فى تلك الآونة ، وبالتحديد بدءا من النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى .

على أية حال ، فإن موضوع التجارة بين الروس والبلغار يدفعنا إلى الحديث عن قضية هامة وهى على أى أساس كان يتم البيع والشراء بين الطرفين ؟ هل كان نظام البيع بالمقايضة هو الأساس أم لعبت العملة دورا رئيسيا فى هذا الأمر؟ .

وللإجابة على هذه التساؤلات علينا أن نعرض لأهم الروايات التاريخية والنصوص المتعلقة بهذا الشأن . وتأتى رواية الوزير العباسىأحمد بن فضلان من الأهمية بمكان أنها تفوق الروايات التاريخية الأخرى ، لأنه أعطى فيها صورة كاملة عن التجار الروس وحياتهم وأسلوب معيشتهم أثناء التجارة فى الفولجا وكذلك أسلوب البيع والشراء عندهم . ولنبدأ الحديث مع ابن فضلان ، وهو شاهدعيان ، فيذكر أن التجار الروس" يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل ، وهو نهر كبير ، ويبنون على شطه بيوتا كبارا من الخشب "[١١٤] . ويشير إلى أن البيت الواحد من هذه البيوت يجتمع فيه العشرة والعشرون والأقل والأكثر ؛ ولكل تاجر من التجار مقعد يجلس عليه وبصحبتهم الجوارى الحسان للترويح عنهم[١١٥] . ويمضى بنا الحديث مع ابن فضلان

---

(١١٢) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 17.

(١١٣) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 17.

(١١٤) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٧٧ .

(١١٥) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٧٧ .

لنقرأ روايته الهامة التالية عن تضرع التجار الروس إلى آلهتهم حتى يتم لـهم البيـع حسبما يريدون ، وعن القرابين التى يتقربون بها إليها . وسنلاحظ بين ثنايا هذه الرواية أن الروس كانوا يحرصون على الحصول على الدنانير الذهبية والدراهم الفضية مقـابل بضائعهم . إن هذه الرواية بالذات غاية فى الأهمية ، الأمر الذى ينبغى علينا اقتباسـها عن ابن فضلان بصورة تامة .

يقول ابن فضلان[١١٦] : " وساعة توافى سفنهم إلى هذا المرسى يخـرج كـل واحد منهم ومعه خبزه ولحم وبصل ولبن ونبيذ حتى يوافى خشبة طويلة منصوبة ، لها وجه يشبه وجه الإنسان ، وحولها صور صغار ، وخلف تلك الصور خشب طوال قـد نصبت فى الأرض ، فيوافى إلى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول لها : " يارب قـد جئت من بلد بعيد ، ومعى من الجوارى كذا وكذا رأسا ، ومن السمور كذا وكذا جلـدا " حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته . ثم يقول : "وجئتك بهذه الهدية " . ثم يـترك الذى معه بين يدى الخشبة ويقول : " أريد أن ترزقنى تاجرا معه دنانير ودراهم كثـيرة فيشترى منى كل ما أريد ولا يخالفنى فيما أقول " .

" فإن تعسر عليه بيعه وطالت أيامه عاد بهدية ثانية وثالثة ، فإن تعزر ما يريد حمل إلى كل صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألها الشفاعة وقال : "هؤلاء نساء ربنا وبنوه " . فلا يزال يطلب إلى صورة صورة يسألها ويستشفع بها ويتضرع بيـن يديها ، فربما تسهل له البيع فباع ، فيقول : "قد قضى ربى حاجتى واحتاج أن أكافيه ". فيعمد إلى عدة من الغنم أو البقر فيقتلها ويتصدق ببعض اللحم ، ويحمل الباقى فيطرحه بين يدى تلك الخشبة الكبيرة والصغار التى حولها . ويعلق رؤوس البقر أو الغنم علـى ذلك الخشب المنصوب فى الأرض . فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت جميع ذلـك ، فيقول الذى فعله : " قد رضى ربى عنى وأكل هديتى " .

لقد ألقت رواية ابن فضلان ضوءا هاما ليس على التاريخ الاجتماعى للـروس فحسب بل إلى أسلوب البيع والشراء عندهم ، وحياتهم على ضفاف الفولجا . إن الفقـرة الخاصة بدراستنا هذه هى تلك التى تتحدث عن حرص التجار الروس الشـديد علـى الحصول على الدنانير الذهبية والدراهم الفضية من التجـار المسـلمين الذيـن كـانوا يتاجرون معهم فى أسواق الفولجا . وينبغى أن نضع فى الحسبان أن التجار الروس فى القسطنطينية لم يكن بمقدورهم التعامل فى النوميزما البيزنطية وكانت تجارتهم هنـاك تعتمد على المقايضة ، لأن بيزنطة لم تكن لتسمح بخروج الذهـب خـارج أسـوارها

---

[١١٦] ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٧٨ - ١٨٠ .

للحفاظ على القدرة الشرائية للنوميزما . الأمر الذى كان يدفع التجار الروس للتضرع والابتهال لآلهتهم حتى تبعث لهم من لديه القدرة على الشراء بالدنانير والدراهم ، وهى لا تتوافر إلا مع التجار المسلمين القادمين إلى أسواق الفولجا ؛ لأن البلغار لم يكونوا قد أصدروا عملتهم المحلية بعد ، وهى دراهم فضية ، إلا فى القرن العاشر الميلادى . فالكرديزى يذكر أن البلغار ليس لهم صامت ، كناية عن الذهب والفضة والنقود والجواهر ، " وهم عوضا عن ذلك يعطون فراء الدهن الواحد بدرهمين . ويأخذون من ديار الإسلام الدرهم الأبيض المستدير . فالمسلمون يحملون هذه الدراهم ، وهم يشترون بها منهم كل شئ ، ثم يعطى البلغار تلك الدراهم للروس والصقالبة فهؤلاء القوم لا يبيعون الملابس والأقمشة والأمتعة إلا بالدرهم الصامت "(١١٧) .

إن كلمات المؤرخ الفارسى الكرديزى قد بزت كلمات ابن فضلان ، وأكدت حرص الروس على الحصول على الدراهم الفضية ولا يقبلون البيع بدونها . كما أنها أوضحت وأكدت أن البلغار كانوا كالروس تماما ليست لديهم عملة محلية ، بل يحرصون أيضا على الحصول على الدراهم الفضية من التجار المسلمين . وبطبيعة الحال، من خلال المعاملات التجارية ، كانت هذه الدراهم تنتقل من أيدى المسلمين إلى أيدى البلغار ثم إلى أيدى الروس ، الذين حملوها بطبيعتهم إلى بلادهم وإلى شبه جزيرة اسكنديناوة أيضا . وقد كشفت الحفريات الحديثة عن الكثير من المواضع التى عثر بها على كميات كبيرة من العملات العربية من الدراهم الفضية . فقد تم اكتشاف سلسلة من الاكتشافات على طول الطريق التجارى الذى يربط بين مدينة بلغار وفنلندا عن طريق الفولجا . كما عثر على كميات أخرى من العملة العربية فى منطقة القرم ، وعلى طول المنطقة الواقعة بحذاء نهر الفولجا ، والأقاليم الواقعة على المجرى العلوى لنهر الدنيبر، وأخيرا الأقاليم المجاورة لبحر البلطيق وخليج فنلندا(١١٨) . فقد عثر على أكبر كمية من النقود العربية فى أقاليم البلطيق وقدرت بـ ١٣٠٠٠ قطعة نقد عربية ؛ كما عثر فى جزيرة ألاند *Aland* الواقعة على الطريق بين فنلندا والسويد على ١١٢٢ قطعة فى إحدى الحفريات ؛ وفى السويد عثر على كميات كبيرة منها بطول الساحل الشرقى لها ، كما عثر فى الكثير من جزر الدانمارك على كميات من العملات العربية الفضية ، وقد كتبت عليها عبارات كوفية. ويرجع تاريخ أقدم هذه العملات إلى القرن السابع الميلادى وأحدثها إلى مستهل القرن الحادى عشر الميلادى(١١٩) .

---

(١١٧) الكرديزى، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٨ ؛ انظر أيضا ، ابن رسته ، *الأعلاق النفيسة* ، ص ١٤٥ .
(١١٨) هايد ، *تاريخ التجارة* ، ص ٧٤ – ٧٥ .
(١١٩) هايد ، *تاريخ التجارة* ، ص ٧٥ .

وبدراسة ما هو مكتوب على هذه النقود يمكننا التعرف على الأماكن التى جاءت منها إلى اسكنديناڤيا عبر الأراضى الروسية ، فقد جاء أكثر من ثلثى هذه النقود من الدولة السامانية التى حكمت فيما وراء النهر وخراسان منذ الربع الأخير من القرن التاسع وحتى نهاية القرن العاشر الميلادى(١٢٠) . ونظرا لأن السامانيين قد بدأوا فى إصدار الدراهم الفضية بكميات كبيرة بدءا من القرن التاسع فصاعدا ، وعملوا على تشجيع التجارة مع المناطق الشمالية ، فقد اتخذ بلغار الفولجا دراهمهم نموذجا لهم عندما بدأوا فى سك الدراهم الفضية الخاصة بهم فى عهد ملكهم جعفر بن عبد الله ، المعاصر لزيارة الوزير العباسى ابن فضلان . وقد استمر البلغار فى إصدار هذه الدراهم السامانية الفضية وهى تحمل اسم الأمير السامانى مقرونة باسم عاصمتهم بلغار أو مدينتهم الثانية سوار حتى نهاية القرن العاشر الميلادى(١٢١) .

وقد جاءت هذه العملات العربية أيضا من سمرقند وبخارى وطشقند وبلخ ونيسابور وغيرها ، كذلك جاءت من مناطق القوقاز الإسلامية مثل جرجان وطبرستان والديلم وبرذعة ؛ كما كان لبغداد نصيب كبير من هذه العملات ، فى حين لا تظهر دمشق إلا قليلا على النقود(١٢٢) .

جدير بالذكر أن هذه الدراهم الفضية قد بدأت فى الانخفاض تدريجيا مع نهاية القرن العاشر الميلادى ، بل إن وجودها فى القرن الحادى عشر الميلادى يكاد يكون معدوما(١٢٣) . ويقدم هايد عدة أسباب لهذا الإنهيار الذى أصاب الدراهم الفضية فى ذلك الوقت ، ولم يعد يعثر على كميات كبيرة من نقود إلى تلك الفترة . لقد حدث ضعف تدريجى للتجارة فى حوض الفولجا عامة بدءا من النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى والذى يمكن أن نرجعه إلى الآتى :

أولا : الهجمات الروسية المتتالية على قوى الفولجا فى تلك الفترة ، وما أحدثته من تخلخل فى تجارة الفولجا لاسيما الحوض الأدنى منه .

ثانيا : الحروب الأهلية التى دارت فى بلاد الروس عقب مصرع سفياتوسلاف فى عام ٩٧١م ، ثم عقب موت فلاديمير فى عام ١٠١٥م ؛ وهذه الحروب من المحتمل أنها لعبت دورا كبيرا فى انهيار التجارة الروسية فى حوض الفولجا ، مما قل معه توارد الدراهم الفضية إلى بلادهم ، نظرا لقلة الرحلات التجارية الروسية إلى منطقة الفولجا .

---

(١٢٠) هايد ، *تاريخ التجارة* ، ص ٧٦ .

(١٢١) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 63.

(١٢٢) هايد ، *تاريخ التجارة* ، ص ٧٦ .

(١٢٣) هايد ، *تاريخ التجارة* ، ص ٧٥ – ٧٦ .

ثالثا : وفى الشرق انهارت الدولة السامانية المستنيرة على أيدى الأتراك . وكانت بداية فترة من الحروب بين الأمراء الأتراك الذين خربوا بلاد ما وراء النهر ومنذ هذه الآونة بات الطريق التجارى الذى يربط بين بحر البلطيق والشرق غير صالحا للتجارة حتى انقضاء العصور الوسطى[(١٢٤)] .

رابعا : اتجاه الروس بسياستهم الخارجية نحو الغرب الأوربى بدءا من عهد فلاديمير لتبلغ ذروتها فى عهد ابنه ياروسلاف الحكيم ، فى نفس الوقت الذى كانت تجارة السلع الترفيهية مع بيزنطة قد بدأت فى الازدهار وإقبال الروس عليها أكثر من ذى قبل .

هكذا ، لعبت تجارة الفولجا دورا خطيرا فى الاقتصاد الروسى ، لاسيما من خلال العلاقات التجارية المتبادلة بين بلغار الفولجا ، أصحاب العلاقة القوية مع المسلمين ، وبين التجار الروس التواقين إلى الدراهم الفضية والدنانير الذهبية العربية ، لتصبح عملة للتداول بين الروس طوال القرن العاشر الميلادى بصفة خاصة . وربما من حسن حظ الاقتصاد الروسى والبلغارى آنذاك أن بيزنطة لم تـول عناية لبلغار الفولجا الذين تحالفوا مع المسلمين ، على حد قول رنسمان[(١٢٥)] .

وأخيرا ، قبل أن نختتم حديثنا عن تجارة الروس مع قوى الفولجا لابد من ذكر الطرق التى سلكها الروس فى الوصول إليها .

يصف الجغرافى العربى ابن خرداذبة طريقا يسلكه التجار الروس للوصول إلى حوض الفولجا عن طريق نهر الدون ومنه إلى مدينة خمليج من مدن الخزر ، ثم يبحرون عبر نهر الفولجا حتى يصلوا إلى بحر الخزر ، ومن هناك يتحركون برا حتى يصلوا إلى بغداد[(١٢٦)] ، ومن هناك إلى بلاد الشام كما أوضحنا من قبل استنادا إلى قسطنطين بورفيروجنيتوس . هذه هى المرحلة الثانية من هذا الطريق ، أما المرحلة الأولى منه فيصفها قسطنطين بورفيروجنيتوس ، ونعرف منه أن الروس يبحرون

---

(١٢٤) هايد ، *تاريخ التجارة* ، ص ٨٤ . جدير بالذكر أن السامانيين كان لهم أكبر الفضل فى قيام نهضة اقتصادية وثقافية فى بلاد ما وراء النهر ، وقد انهار كل هذا مع إسقاط الأتراك لدولتهم . عن هذه النهضة انظر ، حسن أحمد محمود ، *الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى* ، (القاهرة ، ١٩٦٨) ، ص ١٤٢ - ١٥٠ .

(١٢٥) Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 117.

(١٢٦) ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك* ، ص ١٥٤ .

جنوبا عبر نهر الدنيبر ثم بحيرة مايوتيك (بحر آزوف) للوصول إلى بلاد البلغار والخزر[١٢٧]. وبطبيعة الحال كان الروس مضطرون لسلوك بحر بونتس، بل بمحاذاة شواطئه للوصول إلى بغداد بعيدا عن نفوذ خاقان الخزر الذى يدفعون له العشر على بضائعهم . كما أن هذا البحر كان كثير الهيجان والاضطراب، وتهب عليه الرياح والعواصف مما يؤدى إلى تفريق المراكب فيه ، على حد ذكر الدمشقى[١٢٨] . وبطبيعة الحال فإن التجار الروس الذين يسعون للوصول إلى حوض الفولجا للتجارة لابد وأن يكون مخرجهم من مدينة كييف أو برياسلافا . أما سكان نوفجورود فكان عليهم أن يسلكوا طريقا آخر غير هذا الطريق، وهو الطريق الذى يبدأ من بحيرة لادوجا ثم نوفجورود ثم يتبع مسار نهر الفولجا الأعلى مرورا بمدن ياروسلاف وروستوف ثم إلى المحطة التجارية الأخيرة فيه ، أى إلى مدينة بلغار[١٢٩] ، التى تتشعب منها عدة طرق نحو وادى نهر كاما شمالا ، نحو البرطاس والخزر جنوبا ، نحو المسلمين شرقا. وحول هذا الطريق كانت تنتشر الكثير من القبائل السلافية والفنلندية والتى لم تكن تجمعها أية روابط سياسية والتى لم تشكل أى عائق أمام حركة الملاحة النهرية التجارية[١٣٠] .

وهناك طريق آخر يصفه ابن خرداذبه ، وهو طريق برى يتخذه الروس للوصول إلى بلاد الخزر والمناطق الشرقية منها وينتهى إلى الصين ، ويصفه على النحو الآتى : " فأما مسلكهم فى البر (أى الروس) فإن الخارج منهم يخرج من بلاد الأندلس أو من فرنجة ، فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجه ثم إلى أفريقية ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم إلى كرمان ثم إلى السند ثم إلى الهند ثم إلى الصين . وربما أخذوا خلف روميه فى بلاد الصقالبة ثم إلى خليج مدينة الخزر ثم فى بحر جرجان ثم

---

(١٢٧) قسطنطين بورفيروجنيتوس، *الإدارة* ، ص ١٥٠ . *DAI*, I, pp. 186 - 187.

(١٢٨) *نخبة الدهر* ، ص ١٤٥ .

(١٢٩) Court, *La Russie*, p. 76.

(١٣٠) Pares, *Russia*, p. 21.

إلى بلخ وما وراء النهر ثم إلى ورت تغزغز ثم إلى الصين"[131] . وعلى الرغم من أن ابن خرداذبه ينسب هذا الطريق إلى التجار الروس ، إلا أنه فى الحقيقة يتكلم عن نفس التجار اليهود الذين تكلم عنهم فى الفصل السابق على هذا النص[132] . ويعتبر سولوفيف، وهو محق فى هذا ، أن الفصل الثالث الذى يتحدث فيه ابن خرداذبه هو استكمال للفصل الأول الذى يتحدث فيه عن التجار اليهود الراذانية ، وليس استكمالا للفصل الثانى السابق عليه الذى يتحدث فيه عن الروس[133] .

على كل حال ، يمكننا القول فى ختام هذا الفصل أن التجارة الشرقية فى حوض الفولجا لعبت دورا هاما فى بناء الاقتصاد الروسى فى تلك الفترة ، لاسيما فى القرن العاشر الميلادى ، وأن الدراهم الفضية العربية أثبتت أنها عملة عالمية .

---

(131) ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك* ، ص ١٥٤ – ١٥٥ .

(132) انظر ، ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك* ، ص ١٥٣ – ١٥٤ .

(133) Soloviev, *L'état russe*, pp. 260 - 261.

الخـــاتمـــة

الخاتمة

وهكذا، رأينا عبر صفحات البحث كيف تمكن الروس من احتلال موقعاً علــى الخريطة السياسية للعالم الوسيط فى نهاية الفترة محل البحث. وهذا الموقع الذى تبــوأه الروس آنذاك لم يأت من فراغ بل جاء بعد سلسلة متصلة مــن الــهجمات الخارجيــة والاحتكاكات السياسية مع الدول والممالك المجاورة لهم. فمنذ هجومــهم الأول علــى بيزنطة فى عام ٨٦٠م لم تتوقف هجماتهم على القوى المجاورة لهم، سواء شــرق أو غرب بلادهم. وقد كان هناك عاملان هامان ساعدا علــى تطــور الــروس سياســياً وحضارياً خلال تلك الفترة ألا وهما العلاقات الاقتصادية مع الأمم والدول المجــاورة لهم، واعتناق الروس للمسيحية على أيدى الكنيسة البيزنطية.

وإذا كان الروس قد جنوا نتائج سياستهم الخارجية مع بيزنطة بعقــد عــدة معــاهدات سياسية-تجارية معها، وحصولهم على عدة امتيازات تجارية فــى القســطنطينية فــإن بيزنطة قد ربحت من الروس أيضاً، سواء على مستوى الأفــراد أو علــى مســتوى الحكومات. فقد كانت الإدارة الإمبراطورية تحرص كل الحرص على الحصول علــى السلع الشمالية الواردة مع التجار الروس، كما إنها ألزمت الأمير الروســى بموجــب معاهدة ٩٤٥م بتقديم المساعدات العسكرية لبيزنطة وقتما تشاء ، بل وشن الحرب علــى أعدائها إذا ما طلبت من الأمير الروسى القيام بذلك. وهناك ثلاثة أمثلة بارزة تدل على ذلك، أولها عندما طلب الإمبراطور البيزنطى نقفور فوقــاس مــن الأمــير الروســى سفياتوسلاف القيام بالهجوم على بلغاريا لصرف أنظار البلغــار عــن القســطنطينية؛ وثانيها عندما سلط الإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس الروس علــى الخــزر بهدف زعزعة السيادة الخزرية فى حوض الفولجا الأدنى؛ وثالث هذه الأمثلــة عندمــا كانت القسطنطينية قاب قوسين أو أدنى من السقوط فى أيدى الثائر بــرداس فوقــاس، فاضطر الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى إلى اللجؤ إلى الأمير الروســى فلاديمــير طالباً المدد العسكرى، الذى تمكن به من القضاء على تلك الثورة.

على أية حال، يمكننا أن نخلص من خلال صفحات هذا البحث إلى أن الروس قد مروا بمرحلتين سياسيتين متميزتين. المرحلة الأولى يمكننا أن نطلق عليها اسم "مرحلة الشباب والصعود"، والمرحلة الثانية يمكننا أن نطلق عليها اسم مرحلة "النضج والسكينة".

ففي المرحلة الأولى كانت القوة العسكرية الروسية في قمة عنفوانها، وكانت دائمة الانطلاق سواء داخل منطقة السهوب أو خارجها. فشن الروس عدة حملات على الإمبراطورية البيزنطية، حتى كادت أن تصبح الحرب ضد بيزنطة مبدأ من المبادىء السياسية التي يرثها الأمراء الروس عن آبائهم وأجدادهم. وكان من أبرز أحداث هذه المرحلة الحرب الطويلة، التي استمرت عدة سنوات بين سفياتوسلاف من ناحية والإمبراطورين البيزنطيين نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس من ناحية أخرى.وفي هذه المرحلة لم يكن هناك صوت للعقل يمكن أن يسمع في كييف، اللهم صوت الأميرة اولجا، التي حاولت تنصير شعبها وكبح جماح ابنها سفياتوسلاف، كما حاولت أن تمنعه من الاستمرار في غزو البلقان. وفي هذه المرحلة لم يكن مسلمو القوقاز احسن حالاً من بيزنطة، فقد شن الروس عليهم عدة هجمات عسكرية كلل بعضها بالنجاح والبعض الأخر أصابه الفشل. ولم تنج قوى الفولجا من مصيرها المحتوم، فقد شن سفياتوسلاف هجوماً كاسحاً عليها في عام ٩٦٥م تقوضت على أثره مملكة الخزر وانهار نفوذها السياسي في المنطقة، كما تشتت البرطاس في البلاد، وانهزم البلغار أيضاً. على هذا النحو لم يلق الروس بال بقواعد وبروتوكول التعاملات الدولية آنذاك، وكانوا يتحركون بوازع داخلي بحت يرمي إلى الكسب المادي الوفير واستنشاق عبير النصر أينما قاتلوا مهما كان الثمن.

أما في المرحلة الثانية والتي يمكن اعتبار أنها تبدأ من عهد الأمير فلاديمير وتنتهي بعهد ابنه الأمير ياروسلاف، فيمكن القول أن الروس قد اكتسبوا شيئاً من الخبرة السياسية جعلتهم يدركون قواعد السياسة الدولية وكيفية احترام موقعهم من الخريطة السياسية للعالم الوسيط . فقد هجر الروس آنذاك سياسة الأجداد التقليدية المعادية لبيزنطة. وبالرغم من غزو فلاديمير لخرسون البيزنطية في عام ٩٨٨م وحملة

١٠٤٣م على القسطنطينية، وكانت لهما أسبابهما الخاصة، لم يلجـأ الـروس لمعـاداة بيزنطة أو قتالها على غير وجه حق. وبدأ الروس ينتهجون سياسة التحالفات السياسـية بينهم وبين الممالك المجاورة وذلك بعقد عدة زيجات سياسية مع الأسر الحاكمـة فـى بولندا والمجر واسكندنافيا وألمانيا وفرنسا بل وبيزنطة أيضاً وغيرهم. وبـدأ الـروس يولون وجوههم شطر الغرب الأوربى منذ نهاية القرن العاشر فى عهد فلاديمير لتبلـغ هذه السياسة ذروتها فى القرن الحادى عشر الميلادى، بدءاً من عهد ياروسلاف الحكيم فصاعداً. ونظراً لأن العقل كان سيد هذه المرحلة فقد أولـى الـروس اهتمامـاً لبنـاء وتعمير بلادهم .

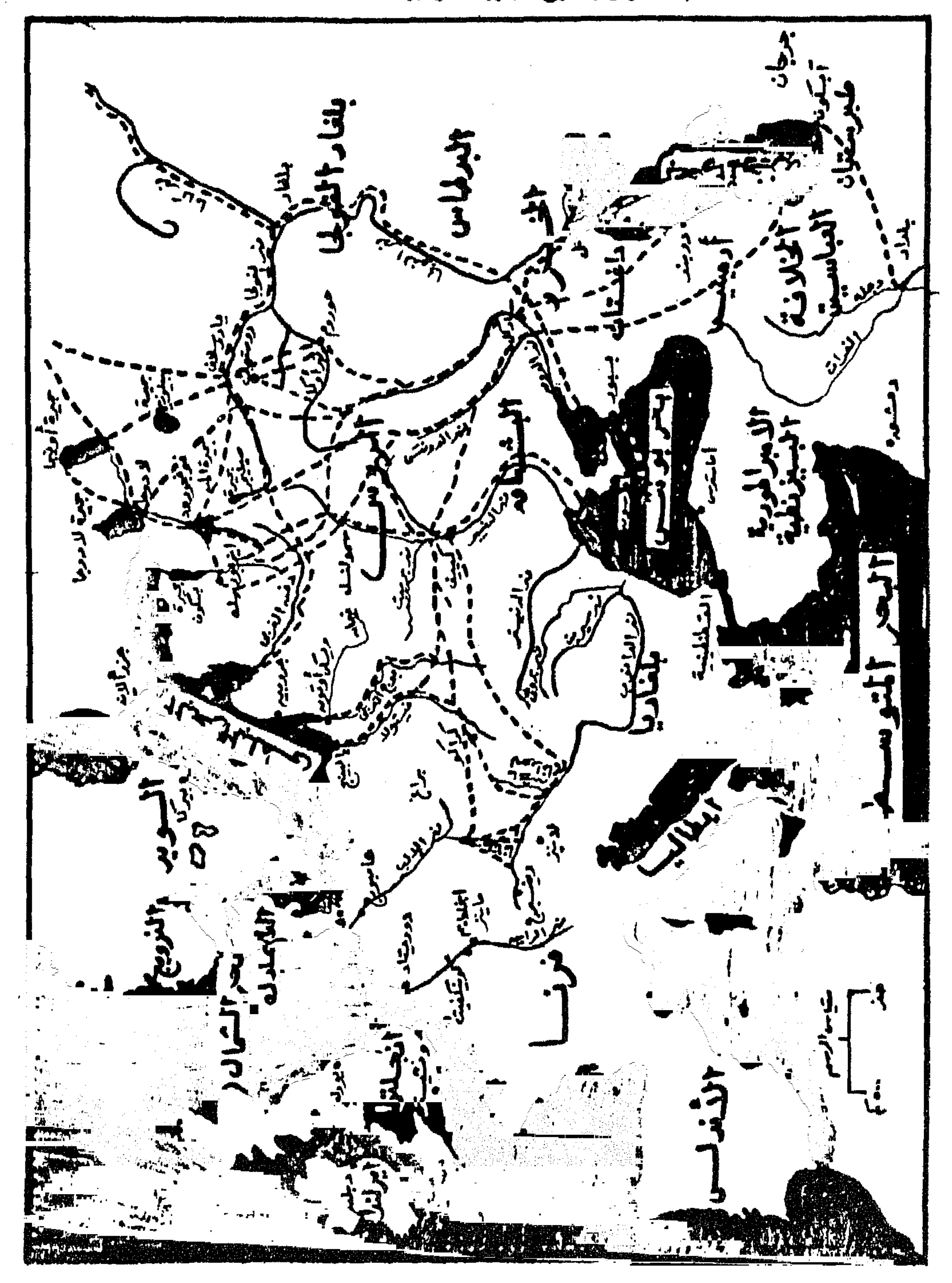
بيد أن المرحلة الأولى تميزت بازدهار التجارة الروسية سواء مع بيزنطة أو مع قـوى الفولجا من الخزر والبرطاس. أما فى المرحلة الثانيـة فقـد بـدأت مؤشـر التجـارة الخارجية مع قوى الفولجا فى الهبوط بينما أخذ يزداد تصاعداً مع بيزنطة، لاسيما بعـد تنصر الروس وازدياد طلبهم على السلع الترفيهيـة كالأيقونـات والحلـى والملابـس الكنسية وغيرها. وفى هذه المرحلة أيضاً ظل الروس على علاقات تجارية لا بأس بـها مع بلغار الفولجا، الذين كانوا معبراً للدنانير والدراهم الإسلامية الذاهبـة إلـى بـلاد الروس . ويمكن القول أنه نظراً لحرص التجار الروس على الحصـول علـى هـذه الدنانير والدراهم الإسلامية فقد أصبحت عملة متداولة دولياً حتى وصلت إلـى شـبه جزيرة اسكنديناوة، هذا فى الوقت الذى لم تطلق فيه بيزنطة العنان للنوميزما لتجد لـها طريقاً بين هذه الشعوب فيصبح بذلك الدرهم الإسلامى عملة للتـداول العـالمى بيـن الشعوب الشمالية.

أخيراً يمكننا القول أن المسيحية كان لها تأثير كبير على تحول الروس من مرحلـة "الشـباب والصعود" إلى مرحلة "النضج والسكينة". والفضل فى هذا لابد أن ينسب إلى بيزنطـة التـى سعت بطريقة أو بأخرى لتنصير الروس، وهو ما تم لها بالفعل. وإزاء هـذا كـان لابـد أن تتغلغل الحضارة البيزنطية إلى بلاد الروس، سواء أبوا أم شاءوا، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك أن اللغة الروسية أصبحت مزيجاً من السلافية واليونانية البيزنطية. كما أن بيزنطة أصبحـت الراعية الأم لكنيسة كييف، وصارت ترسل لها أساقفتها وكهنتها بصورة مستمرة حتـى عـام ١٠٥١م عندما أصبح هيلاريون أول روسى يشغل منصب مطران روسيا؛ ومع هـذا ظلـت بيزنطة صاحبة اليد العليا فى تحضير الروس آنذاك.

الخرائط

الخريطة الأولى

بلاد الروس والطرق التجارية المارة بها



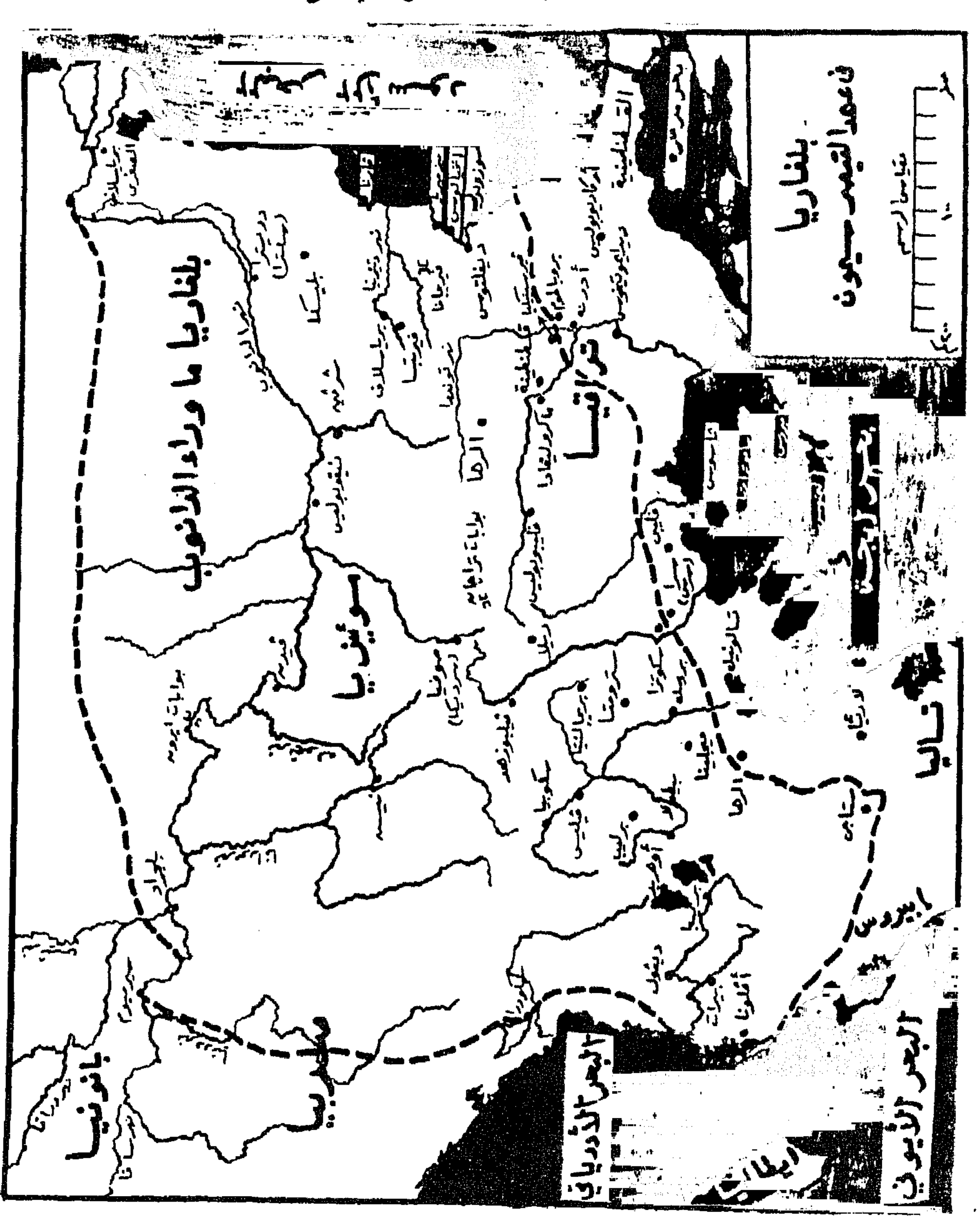
الخريطة الثانية

مراحل توسع بلاد الروس وخط سير حملاتهم العسكرية



الخريطة الثالثة

بلغاريا فى القرن العاشر الميلادى



قائمـــة المصـــادر والمــــــراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأجنبية

- **Attaliotae, M.,** *Historia*, ed. I. Bekker, *CSHB*,(Bonnae, 1853).

- **Cedrenus, G.,** *Historiarum Compendium*, ed. I. Bekker, *CSHB*, tome II, (Bonnae, 1838).

- **Cecaumeni** ***Strategicon***, ed. by B. Wassiliewsky & V. Jernstedt, (Amsterdam, 1965).

- ***The Chronicle of Novgorod 1016-1471***, Eng. trans. R. Michell & N. Forbes, with an Introduction by C. R. Beazley and an Account of the text by A. A. Shakhmatov, (London, 1914).

- **Codinus, G.,** *De Aedificiis*, in: Opera Omnia, ed. J. P. Migne, *PG*, tome157, (Turnholti, 1970).

- **Constantine Parphyrogenitus,** *Vita Basilii*, in: *Theophanes Continuatus*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1838).

- **Constantine Porphyrogenitus**, *De Cerimoniis Aulae Byzantinae*, ed. I. Reiskii, *CSHB*, tome I, (Bonnae,1829).

- **Constantine Porphyrogenitus**, *De Administrando Imperio*, ed.G. Moravcsik, Eng. trans. by R. J. H. Jenkins, (Budapest,1949); vol. II , *Commentary*, by F. Dvornik, R. Jenkins, B. Lewis , G. Moravcsik, D. Obolensky & S. Runciman, ed. R. J. H. Jenkins, (London, 1962).

- ***Ephraemii Chronographi Caesares***, ed. J. P. Migne, *PG*, tome 143, (Turnholti, 1977), cols. 10-379.

- **Geometrae, I,** *Hymni Quinque in Sanctissimam Deiparam,* in: *S. P. N. Andreae et Arethae Opera Omnia,* ed. J. P. Minge, *PG,* (Turnholti), cols. 854-1002.

- ***Hudud al-'Alam*** (372 A.H./983 AD.), Eng. trans. V. Minorsky, (Oxford, 1937).

- **Ibn Isfandiyar,** *Tarikhe Tabaristan,* Eng. trans. Browne, E. G. (London, 1905).

- ***Le traité de Philothée***, éd. et trad. Fran. N. Oikonomidès, dans: *Les listes des préséance byzantines des IX^e –X^e siècles,* (Paris,1972).

- **Leo Grammaticus,** *Chronographia,* ed. I. Bekker, *CSHB*,(Bonnae, 1842).

- **Leonis Diaconi** *Caloensis Historiae Liberi Decem et Liber de Vilitatione Bellica Nicephori Augusti,* ed. C .B. Hase, *CSHB,* (Bonnae ,1828), pp.3-178.

- **Liutprand of Cremona,***The Works of Liutprand of Cremona,* ed. B. G. Coulton and A. Power, Eng. trans. S. A. Wrght,(London,1930).

- ***Michaelis Glycas Annalium,*** in: *Opera Omnia, ed.* J. P. Migne, *PG,* tome158, (Turnholti,1966).

- **Nicholas I, Patriarch of Constantinople,** *Letters,* ed. and Eng.trans. R. Jenkins and L. G. Westerink, *CFHB,* vol.4, (Washingt-on, 1973).

- **Photii Constantinopolitani Patriarchae,** *Opera Omnia,* ed. J. P. Migne, *PG,* tome 102, (Turnholti).

- **Psellus, M.,** *Chronographia,* Eng. trans. Sewter, E. R., (Penguin Books, 1966).

- ***The Russian Primary Chronicle***, Laurentian text, Eng. trans.& ed. by S. H. Cross & O. P. Sherbawitz - Wetzor,(Cambridge,Mass., 1953).

- *Στρατηγική Ἔκθεσις καὶ Σύνταξις Νικηφόρου Δεσπό του,* Eng. trans. by Eric Mcgeer, in: *Sowing the Dragon's Teeth*, (Washington, 1995).

- **Symeon Magister ac Logothetae,** *Chronographia,* ed. I. Bekker, in: *Theophanes Continuatus*, *CSHB*,(Bonnae, 1838).

- *Τακτικὰ Ἤγουν Στρατηγικὰ Νικηφόρου τοῦ Οὐρανῦ,* Eng. trans. by Eric Mcgeer, in: *Sowing the Dragon's Teeth* (Washington, 1995).

- **Theophanes Continuatus,** *Chronographia*,ed. I.Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1838), pp. 3-481.

- **Thietmari Merseburgensis,** *Episcopi Chronicon,* ed. F. Kurze, lib.IX ,(Hannoverae, 1889).

- **Yahya Ibn Sa'id d' Antioche,** *Histoire de Yahya d' Antioche*, éd. et trad. J. Kratchkovsky et A. Vasiliev, *PO*, XVIII (Paris, 1924).

- **Zonaras, Ioannis,** *Epitomae Historiarum*, vol. III, ed. T. Bütter-Wobst, *CSHB*, (Bonnae, 1897).

ثانياً : المصادر العربية والمعربة

- **ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني** (ت٦٣٠هـ/ ١٣٢٢م)، الكامل في التاريخ، تحقيق/ نخبة من العلماء، عشرة أجزاء، (بيروت، ١٩٨٣).
- **أحمد بن لطف الله منجم باشي** ، باب في الشدادية من كتاب جامع الدول، تحقيق ونشر/ فلاديمير مينورسكي V. Minorsky في كتاب:
Studies in the Caucasian History, (London, 1953), pp.1-18.
- **الإدريسى ، أبي عبد الله إدريس الحموي الحسيني**(ت القرن السادس الهجري)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جزءان، (القاهرة، د.ت.).
- **الاصطخري ، ابن اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي** (ت. النصف الأول من القرن الرابع الهجري)، المسالك والممالك، تحقيق/ محمد جابر عبدالعال، (القاهرة، ١٩٦١).
- **ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي** (٧٠٤-٧٧٩هـ/١٣٠٤-١٣٧٧م)، رحلة بن بطوطة، (بيروت، ١٩٦٠).
- **البيروني ، أبو الريحان محمد أحمد** (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨) ، كتاب الجماهر
- في معرفة الجواهر،(حيدر آباد، الدكن ، ١٣٥٥).
- **ابن حوقل ، أبي القاسم النصيبي**، كتاب صورة الأرض، (ليدن، ١٩٦٧).
- **الحميري ، محمد بن عبد المنعم**(٩٠٠هـ/ ١٤٩٤ م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق/ حسان عباس، (بيروت، ١٩٨٠).
- **ابن خرداذية ، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله** (٣٠٠هـ/ ٩١٢) المسالك والممالك، (القاهرة، د.ت.).
- **الخوارزمي ، أبو جعفر محمد بن موسى**، كتاب صورة الأرض، تحقيق/هانس فون فريك،(فينا، ١٩٢٦).
- **أبو دلف** ، الرسالة الثانية، تحقيق/ بطرس بولفاكوف و أنس خالدوف، ترجمة/ محمد منير مرسي،(القاهرة،١٩٧٠).
- **الدمشقي ، شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب** (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م) كتاب نخبة الدهر في عجائب البر و البحر، نشره/أ. ميهرن، (ليبزج، ١٩٢٣).

- **الذهبي ، الإمام الحافظ** (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧)، العبر في ديوان من غبر، تحقيق/ صلاح الدين المنجد، ج٤، (الكويت، ١٩٦٣).
- **ابن رسته ، أبو على احمد بن عمر** (ت ٣١٠-٣٣٧ هـ/ ٩٢٢-٩٤٨ ؟)،الأعلاق النفيسة، مج ٧، (ليدن، ١٩٦٧).
- **الزهرى ، أبى عبد الله محمد بن أبى بكر**،(ت.أوا سط القرن السادس الهجرى/ أواسط القرن الثانى عشر الميلادى) كتاب الجغرافية، تحقيق/ محمد حاج صادق، (القاهرة، د.ت.).
- **أبو شجاع ، محمد بن الحسن**(ت ٤٨٨هـ/١٠٥٦)، ذيل كتاب تجارب الأمم، تحقيق/هـ .ف. آمدروز، ج٣، (القاهرة، ١٩١٦).
- **ابن العديم ، كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله** (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق/ سامي الدهان ، ج١ ،(دمشق، ١٩٥١)؛ ج ٢(دمشق، ١٩٥٤).
- **ابن العبري ، أبي الفرج جمال الدين**(ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦) ، تاريخ الزمان، ترجمة/ الأب اسحق أرملة، (بيروت، ١٩٩١).
- **العظيمي ، محمد بن العظيمي الحلبي** (ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م)،تاريخ العظيمي، نشره/ علي سويم ، (أنقره، ١٩٨٨).
- **ابن فضلان ، أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد**، رسالة بن فضلان، في وصف الرحلة إلى بلاد الترك و الخزر و الروس و الصقالبة سنة (٣٠٩هـ/٩٢١م)، تحقيق/ د. سامي الدهان، (دمشق،١٩٧٨).
- **أبو الفدا ، عماد الدين بن إسماعيل بن محمد بن عمر**(ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١م)، تقويم البلدان، نشره/ رينو وماك كوكين دوسلان، (باريس، ١٨٤٠).
- **القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود** (١٢٠٣-١٢٨٣م)، آثار البلاد و أخبار العباد، (بيروت، ١٩٦٠).
- **القلقشندي ، أبي العباس أحمد بن علي** (٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٤-٥، (القاهرة، د.ت.).
- **ابن القلانسي ، أبي يعلي حمزة** (ت ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م)، ذيل تاريخ دمشق تحقيق /?. ف. آمدروز، ليدن، بيروت ، ١٩٠٨).

- **قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس** ، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة/ محمود سعيد عمران، (بيروت، ١٩٨٠).
- **ابن كثير ، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر**(ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية ، ج ١١، (القاهرة، د.ت.).
- **الكرديزى ، أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود** (ت ٤٤٢ -٤٤٣هـ/ ١٠٥٠-١٠٥١ م)، زين الأخبار، ترجمة/ عفاف السيد زيدان، (القاهرة، ١٩٨٢).
- **ليو السادس** ، كتاب والي المدينة ، ترجمة/ السيد الباز العريني ، مجلة كلية الآداب بالقاهرة ، مج ١٩ ، ج١ (١٩٥٧) ، ص ١٣٥-١٨٧.
- **المسعودى ، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي**(ت٣٤٦هـ/٩٥٧ م)، أخبار الزمان، تحقيق/ عبد الله الصاوي (بيروت،١٩٧٨).
- **المسعودى ، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي**(ت٣٤٦هـ/٩٥٧ م)،التنبيه والأشراف، (القاهرة،١٩٣٨).
- **المسعودى ، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي**(ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، (القاهرة، ١٩٢٧).
- **ابن مسكويه ، أبي علي أحمد بن محمد** (ت ٤٢١ هـ/١٠٣٠م)، تجارب الأمم، ج ٦ ، تحقيق/هـ .ف. آمدروز، (القاهرة، ١٩١٥).
- **المروزي ، شرف الزمان طاهر**، أبواب في الصين و الترك و الهند، منتخبة من كتاب طبائع الحيوان، نشره/ ف. مينورسكيV.Minorsky ،(لندن، ١٩٤٢).
- **المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد**، (ت ٣٨٨هـ/٩٩٨ م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (القاهرة، ١٩٩١).
- **ابن النديم ، أبي الفرج محمد بن اسحق الوراق المعروف بابن أبي يعقوب النديم** (ت ٣٧٧هـ/٩٨٧م تقريبا)، كتاب الفهرست، تحقيق/ Gustav Flugel، مراجعة و تقديم النص/Johannes Roediger ،(بيروت، ١٩٦٤).
- **ابن الوردي ، سراج الدين أبي جعفر عمر** (ت ٨٥٠هـ/١٤٤٦)، خريدة العجائب وفريدة الغرايب، (مصر ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م).
- **ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي** (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) ، كتاب معجم البلدان، ط ١، (القاهرة، ١٩٠٨).

ثالثا: المراجع الأجنبية

- **Aherweiler, H.**," Les relations entre les byzantins et les russes au IXe siècle ", dans : *Bulletin d' Information et de Coordination de*
- *L'Association International des Etudes Byzantines*, 5(Athens, Paris, 1971), pp. 44-73.
- **Anastasijevič, D.**, "Les indications chronologiques de Yahya relatives à la guerre de Tzimiscès contre les Russes", *Melanges Charles Diehl*, tome 1, (Paris, 1930), pp. 1-5.
- **Anastasijevič, D.**, "La chronologie de la guerre russe de Tzimiscès", *B*, 6 (1931), pp. 337-342.
- **Andréadès, A.**, "The Economic Life of the Byzantine Empire", in: *Byzantium, an Introduction to East Roman Civilization, ed. Bayns, N. & Moss, H.S.*, (Oxford, 1948), pp. 51-70.
- **Angold, M.**, *The Byzantine Empire 1025-1204*, (London and NewYork, 1984).
- **Banešcu, N.**, " Deux études byzantines.II La prèmiere attaque russe de Constantinople", *REB*, 6(1948), pp. 191-198.
- **Baumgarten, N.**, " Chronologie ecclésiastique des terres russes,du Xe au XIIIe siècles", *OC*, 17(Roma, 1930), pp. 1-?
- **Baumgarten, N.**,"Généologies et mariages occidenteaux des Rurikides Russes du Xe au XIIIe siècles ", *OC*, IX, 35(1927), pp.1-94.
- **Baumgarten, N.**, " Le dernier mariage de Saint Vladimir ", *OC*, XVIII, 61(1930), pp. 165-16
- **Baumgarten, N.**, "Olaf Tryggwison roi de Norvege et ses relationsavec Saint Vladimir de Russie", *OC*, 24(1931), pp. 3-35.
- **Baumgarten, N.**, "Saint Vladimir et la conversion de la Russie",*OC*,
- 27(1932), pp. 3-136.
- **Benedikz, B.**, "The Evolution of the Varangian Regiment in the Byzantine Army ", *BZ*, 62(1969), pp. 20-24.
- **Blake, R., & Frye, R.**, " Notes on the Risala of ibn-Fadlan", *Byzantina - MetaByzantina*, 1(New York, 1949), pp.7-38.
- **Browning, R.**, *Byzantium and Bulgaria*, (Oxford, 1980).
- **Bury, J. B.**, *The Imperial Administrative System in the Ninth Century*, (London, 1911).
- **Chadwick, W.**, *The Beginning of Russian History*, (Cambridge, 1946, reprinted 1966).

- **Court, A.**, " La Russie à Constantinople ", *RQH*, 1 (Paris, 1876), pp. 69 -129.
- **Crawford, D. S.**, *Greek and Latin*, (Cairo, 1939).
- **Cross, S.**, " Medieval Russian Contacts with the West ", *SP*, 10(1935), pp. 137 -144.
- **Cross, S.**, " The Earliest Medieval Churches of Kiev ", *SP*, 11 (1936), pp. 477-499.
- **Da Costa - Louillet, G.**, " Y eut-il des invasions russes dans l'empire byzantine avant 860 ? " , *B*, 15(1940- 41), pp. 231-248.
- **Diaconu,** *Les Petchénèges au Bas-Danube*, (Bucharest, 1970).
- **Dimnik, M.**, *The Dynasty of Chernigov 1054-1146,*(Toronto,1994).
- **Dölger, F.**, Dei Chronologie des grossen Kaisers Johannes Tzimis kes gegen die Russen ", *BZ*, 32(1932), pp.275- 292.
- **Dolly, R.**, " Oleg's Mythical Campaign against Constantinople ", *BLSMPARS*, 40(1949), pp. 106-130.
- **Fennell, J.**, *A History of the Russian Church to 1448 A. D.*, (London, 1995).
- **Fine, J. V.**, *The Early Medieval Balkans*, (Michigan, 1993).
- **Finlay, G.**, *History of the Byzantine Empire 716-1057 AD*, (New York, 1913).
- **Finlay, G.**, *A History of Greece,* vol II, (Oxford, 1877).
- **Frances, E.**, " Les relations russo - byzantines au XII^{e} siècle et la domination de Galicie au Bas-Danube ", *BsL*, 20(1959), pp. 50-62.
- **Franklin, S. and Shepard, J.**, *The Emergence of Rus' 750-1200*, (London, New York, 1996).
- **Franklin, S., and McCormick, M.**, " De Ceremoniis ", *ODB*, vol.1,(New York, 1991).
- **Franklin, S., & Hollingsworth, P.**," Nestor," *ODB*, (1991), p.1459.
- **Frye, R.**, " Byzantine and Sasanian Trade Relations with North Eastern Russia ", *DOP*, 26(1972), pp.263-269.
- **Frye, R.**, " Remarks on Some New Islamic Sources of the Rus ", *B*, 18 (19446-1948), pp.119-125.
- **Gerard, C.**, *Les Bulgares de la Volga et les Slaves du Danube*, (Paris, 1939).
- **Göllner, C.**, " Les expéditions byzantine contre les Russe sous JeanTzimiscès (970-971)", *RHSEE*, 13(1936), pp. 342-358.
- **Grégoire, H.**, " La dernière campagne de Jean Tzimiskès contre les Russes ", *B*, 12(1936), pp. 167-176.

- **Grégoire, H.**, " Études sur le neuvième siècel: le batême des Russes Photius n'a pas menti ", *B*, 8(1933), pp. 515-550.
- **Grégoire, H.**, "La legende d'Oleg et l'expédition d'Igor", *BAcBelg*, 23(1937), pp. 80-94.
- **Grégoire, H.**, " Miscellanea Epica et Etymological, I: la légende d'Oleg, II: l'expédition d' Igor", *B*, 11(1936), pp.601-607.
- **Grégoire, H.**, " Saint Théodore, le Stratélate et les Russes d' Igor ", *B*, 13(1938), pp. 291-300.
- **Grégoire, H. et Orgels, P.**, " La guerre russo-byzantine de 911 ", *B*, 24(1955), pp.155-156.
- **Grégoire, H. et Orgels, P.**, " Les invasions russes dans le Synaxairs de Constantinople ", *B*, 24(1955), pp. 141-145.
- **Halecki, O.**, " La pologne et l' empire byzantine ", *B*, 7(1932), pp. 41-67.
- **Hendy, M.**, Michael IV and Harold Hardrada, *Nusmatic Chronicle, ser. 7,10.*(London, 1970); reprinted also in: *The Economy, Fiscal Administration and Coinage of Byzantium*, (Northampton, 1989).
- **Honigmann, E.**, "Studies in Slavic Church History", *B*, 17(1945), pp. 128-182.
- **Jenkins, R.**, *Byzantium the Imperial Centuries 610-1071 AD,* (Lon-
- don, 1966).
- **Jenkins, R.**," The Supposed Russian Attack on Constantinople in 907", *SP*, 24(1949), pp. 403-406.
- **Karamsin, M.**,*Histoire de l'empire de Russie*, trad. Fran. S. Thomas et Jauffret, tome I, (Paris, 1819).
- **Kazhdan, A.**," De Administrando Imperio", *ODB*, vol.1, (New York, 1991).
- **Kažhdan, A.**," Kedrenus ", *ODB*, vol.2, (New York, 1991).
- **Kažhdan, A.**," Leo the Deacon", *ODB*, vol.2, (New York, 1991).
- **Kažhdan, A.**," Once More about the "Alleged" Russo-Byzantine Treaty (ca.1047) and the Pecheneg Crossing of the Danube ", *JOB*, 26(1977), pp. 65-77.
- **Le Clerc**, *Histoire physique, morale, civile et politique de la Russie ancienne*, tome I, (Paris, 1783).
- **Liddlle and Scott**, *Greek – English Lexicon*, (Oxford, 1961).
- **Litavrin, G.**, " A propose de Tmutorokan ", *B*, 35(1965), pp. 221-
- 234.
- **Lopez, R.**, "Silk Industry in the Byzantine Empire", *SP*, 20 (1945), pp. 1-42.
- **Macarteny, C.**, " The Petchenegs ", *SEER*, 8(1928), pp. 342-355.

- **Mcevedy, C.**, *The Penguin Atlas of Medieval History*, (New York,
- 1978).
- **Mcgeer, E.**, *Sowing the Dragon's Teeth*, (Washington, 1995).
- **Mcgovern, M.**, " Sarkel a Reflection of Byzantine Power or Weakness? ", *BsL*, 50(1989), pp. 177-180.
- **Minorsky, V.**, *Studies in the Caucasian History*, (London, 1953), With a chapter on al- Shadādia.
- **Minorsky, V.**,*Commentary on the book of Hudud al-'Alam*, in: *Hudud al-'Alam*, pt. III, (Oxford, 1937).
- **Moravcsik, G.**, *Byzantium and the Magyars*, (Amsterdam, 1970).
- **Mošin, V.**, " Les Khazares et les Byzantins ", *B*, 6(1931), pp. 309-325.
- **Nicole, D.**, *A Biographical Dictionary of the Byzantine Empire*, (London, 1991).
- **Noonan, T.**, " Byzantium and the Khazars: a Special Relationship?", In: *Byzantine Diplomacy Papers from the Twenty-Four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March 1990, ed. J. Shepard and S. Franklin*, (Hampshire, 1992), pp. 109-132.
- **Obolnsky, D.**, " The Byzantine Frontier Zones and Cultural Exchanges", in: *Actes du XIV*[e] *Congrès International des Études Byzantines,*
- *Bucharest, 1970, vol. I*, (Bucharest, 1974), pp. 303-313.
- **Obolnsky, D.**, " The Byzantine Sources on the Scandinavians in Eastern Europe ", in: *Varangian Problems. Scando-Slavica,supplementum 1.*,(Copenhagen, 1970), pp. 149-164.
- **Obolnsky, D.**, " Cherson and the Conversion of Rus': an anti-revisionist view ", *BMGS*, 13(1989), pp. 244-256.
- **Obolnsky, D.**, " The Crimea and the North before 1204 ", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer, Αρχ.Που.* , 35(1987), pp.123-
- 133.
- **Obolnsky, D.**, " Early Russian Literature ", *an Introduction to Russian Language and Literature, ed. R. Auty and D. Obolensky. Companion to Russian Studies, 2. Cambridge*, (1977), pp.56-89.
- **Obolnsky, D.**, " The Relations between Byzantium and Russia (eleventh to fifteenth century), *XIII*[th] *International Congress of Historical Sciences*, (Moscow, 1970), pp. 1-13.
- **Obolnsky, D.**, *Six Byzantine Portraits*, (Oxford, 1988).
- **Oikonomidès, N.**, " Constantine VII[e] Porphyrogénète et les thèmes de Céphalonie et de Longobardia", *REB*, 21(1963), pp. 119-123.

- **Oikonomidès, N.**, *Les listes des préséance byzantines des IX^e^ et X^e^ siècles*, (Paris, 1972).
- **Oikonomidès, N.**, " Presthlavitza, the little Preslav", *Sudost-Forschungen*, 42(1983), pp. 1-10. Reprinted also in: *Byzantium from the Ninth Century to the Fourth Crusade*, (Hampshire, 1992).
- **Ostrogorsky, G.**, " L'expédition du prince Oleg contre Constantinople en 907 ", *AIK*, 11(1940), pp. 47-62.
- **Ostrogorsky, G.**, *History of the Byzantine State*, (Oxford, 1956).
- **Palmer, L.**, *A Grammar of the Post-Ptolemic Papyri*, (London, 1948).
- **Pares, B.**, *A History of Russia*, (New York, 1947).
- **Pargoire, R.**, " Saint – Mamas le quartier des Russes à Constantinople ", *EO*, 11(1908), pp. 203-210.
- **Poppe, A.**, " La dernière expédition russe contre Constantinople", *BsL*, 32(1971), pp. 1-29, 233-268.
- **Poppe, A.**, " The Political Background to the Baptism of Rus', Byzantine - Russian Relations between 986-89 ", *DOP*, 30(1976), pp.195 -244.
- **Pritsak, O.**, " The Pecengs, a Case of Social and Economic Transformation", *AEM*, 1(1975), pp. 211-235.
- **Rambaud, A.**, *Histoire de la Russie*, (Paris, 1878).
- **Runciman, S.**, *A History of the First Bulgarian Empire*, (London, 1930).
- **Runciman, S.**, *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign*, (Cambridge, 1963).
- **Rybakov, B.**, *The Early Centuries of Russian History*, Eng. trans.J. Weir, (Moscow, 1965).
- **Schlumberger, G.**, *L' épopée byzantine à la fin du dixième siècle, Jean Tzimiskes*, (Paris, 1896).
- **Schlumberger, G.**, " Russes et Byzantins dans les Balkans en l'an 972 ", dans: *Récits de Byzance et des Croisades*, (Paris, 1917), pp.22-
- 33.
- **Schlumberger, G.**, *Un empereur de Byzance Nicéphore Phocas*, (Paris, 1930).
- **Sharf, A.**, *Byzantine Jewry from Justinian to the Fourth Crusade*, (London, 1971).
- **Shepard, J.**, " A Note on Harold Hardraada: The Date of his Arrival at Byzantium ", *JOB*, 22(1973), pp. 145-150.

- **Shepard, J.**, "Aspects of Byzantine Attitudes and Policy towards the West in the Tenth and Eleventh Centuries ", *ByzF*, 13(1988), pp.66-118.
- **Shepard, J.**, " Byzantine Diplomacy, 800-1204 A D.: means and ends ", in: *Byzantine Diplomacy, ed. J. Shepard and S. Franklin*, (Hampshire, 1992), pp. 41-72.
- **Shepard, J.**, "Information, Disinformation and Delay in Byzantine Diplomacy ", *ByzF*, 10(1985), pp. 233-293.
- **Shepard, J.**, " John Mauropous, Leo Tornicus and an Alleged Russian Army: The chronology of the Pecheneg crisis of 1048-1049", *JOB*, 24(1975), pp. 61- 89.
- **Shepard, J.**, " The Khazars' Formal Adoption of Judaism and Byzantine's Northern Policy ", *OSP*, 31(1998), pp. 11-34.
- **Shepard, J.**," The Russian Steppe-Frontier and the Black Sea Zone", *in: The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer, Αρχ.Πον.*,35(1978), pp.218-237.
- - **Shepard, J.**, " Some Remarks on the Sources for the Conversion of Rus' ", in: *S. W. Swierkosz-Lenart, ed., Le Origini e lo Sviluppo della cristianità slavo-bizantina* (Nuovi Studi Storici 17; Rome, 1992),
- pp . 59-95.
- **Shepard, J.**, " Why did the Russians attack Byzantium in 1043? ", *BNJbb*, 22(1979), pp. 147-212.
- **Smedley, J.**, " Archaeology and the History of Cherson: A Survey of Some Results and Problems", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978,ed. A. Bryer, Αρχ. Πον.*, 35(1978), pp. 123-133.
- **Soloviev, A.**, " ΑΡΧΩΝ 'ΡΩΣΙΑΣ ", *B*, 31(1961), pp. 237-244.
- **Soloviev, A.**, " Domination byzantine ou russe au nord de la mer à l'époque des Comnènes? ", *Akten des XI Internationalen Byzantinisten Kongresses, 1958*, (Munich, 1960), pp. 569- 580.
- **Soloviev, A.**, " L' organisation de l'etat Russe au X^e siècle ", *L' Europe aux IX^e-XI^e siècles*, (Varsovie, 1968), pp. 249- 268. Reprinted also in: *Byzance et la formation de l'etat Russe*, (London, 1979).
- **Soloviev, A.**, " Marie fille de Constantin IX Monomaque ", *B*, 33(1963), pp. 241-248.
- **Soloviev, A.**, " Metropolitensiegel des Kiewer Russlands ", *BZ*, 55(1962), pp. 292- 301.

- **Sorlin, I.**, " Les traités de Byzance avec la Russie au X^{e} siècle ", *CMRS*, vol. II-3, (Paris, 1961), pp. 313-360.
- **Sorlin, I.**, " Les traités de Byzance avec la Russie au X^{e} siècle: le traité de 944 ", *CMRS*, vol. II-4, (Paris, 1961), pp. 447-475.
- **Tinnefeld, F.**," Ceremonies for Foreign Ambassadors at the Court of Byzantium and their Political Background ", *ByzF*, 19(1993), pp.
- 193-214.
- **Tyszkiewicz, S.**, " Moralistes de Russie ", *OCP*, 15(1949), pp. 341-
- 367.
- **Udal'cova, Z.V.**, " Kiev and Constantinople: Cultural Relations before the Thirteenth Century ", *The 17th International Byzantine Congress, Washington 3 - 8 August 1986*, (New York, 1986), pp.
- 399-421.
- **Vasiliev, A.**, *The Russian Attack on Constantinople in 860 AD*, (Cambridge, Mass., 1947).
- **Vasiliev, A.**," The Second Russian Attack on Constantinople", *DOP*, 6(1951), pp.161-225.
- **Vasiliev, A.**, " Was Old Russia a Vassal State of Byzantium? ", *SP*, 7(1932), pp. 350-360.
- **Vernadsky, G.**, *Kievan Russia*, (New Haven, 1948).
- **Vernadsky, G.**, " Byzantiyum and Southern Russia ", *B*, 15(1940-
- 41), pp. 67-86.
- **Vernadsky, G.**, *The Origins of Russia*, (Oxford, 1959).
- **Vernadsky, G.**, " The Rus' in the Crimea and the Russo - Byzantine
- Treaty of 945 ", Byzantina- *Meta Byzantina*, 1(1949), pp. 249-260.
- **Whittow, M.**, *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025*, (Lon-
- don,1996).
- **Zuckerman, C.**, " On the Date of the Khazars' Conversion to Judaism and the Chronology of the Kings of the Rus Oleg and Igor", *REB*, 53(1995), pp. 238-270.

رابعا: المراجع العربية والمعربة

- **إبرار كريم الله،** *من هم التتار؟* ترجمة/ رشيدة رحيم الصبروتي، (القاهرة، ١٩٩٤).
- **أحمد فؤاد سيد،** *الإسلام والثقافة العربية في بلاد ما وراء النهر الإسلامية،*(القاهرة، ١٩٩٦).
- **أرثر كويستلر،** *إمبراطورية الخزر وميراثها،* ترجمة/ حمدى متولى مصطفى،(دمشق، ١٩٧٨).
- **أرشيبالد لويس:** *القوي البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط* ، ترجمة/ أحمد محمد عيسي، (القاهرة، ١٩٦٠).
- **إسمت غنيم،** *الدولة البيزنطية وكريت الإسلامية.* (الإسكندرية، ١٩٨٣).
- **بارتولد، و.،** *تاريخ الترك فى آسيا الوسطى،* ترجمة/ أحمد السعيد سليمان، (القاهرة، ١٩٥٨).
- **السيد الباز العرينى،** *الدولة البيزنطية،* (القاهرة، ١٩٦٠).
- **حامد زيان،** *الأسرى المسلمون فى بلاد الروم،* (القاهرة، ١٩٨٩).
- **دنلوب، د.م.،** *تاريخ يهود الخزر،* ترجمة/ سهيل زكار، (دمشق، ١٩٩٠).
- **حسن أحمد محمود،** *الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى،* (القاهرة، ١٩٦٨).
- **رأفت عبد الحميد،** *بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة،*(القاهرة,١٩٩٧).
- **رأفت عبد الحميد،** قواعد الدبلوماسية البيزنطية، *المجلة التاريخية المصرية*، ٣٣(القاهرة، ١٩٨٦)، ص ٢٩-٨٢.
- **الرمزى،** *تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار،*? ٢، (أونبورج، د.ت.).
- **سعاد ماهر،** *البحرية فى مصر الإسلامية،*(القاهرة، ١٩٦٧).
- **سعيد عبد الفتاح عاشور،** *أوربا العصور الوسطي،* جزءان، (القاهرة، ١٩٨٣).
- **عبد الرحمن محمد العبد الغني،**موقف البيزنطيين و الفاطميين من ظهور الأتراك السلاجقة بمنطقة الشرق الأدنى الإسلامي، *حوليات كلية الآداب-جامعة الكويت*،١٥(الكويت،١٩٩٥).

- **عمر كمال توفيق**، *مقدمات العدوان الصليبي ، الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية* ، (القاهرة، ١٩٦٦).
- **فايز نجيب اسكندر**، *الحياة الاقتصادية فى أرمينيا إبان الفتح الإسلامي*، (الإسكندرية، ١٩٨٨).
- **ليلي عبد الجواد إسماعيل** ، *تاريخ الروس من خلال المصادر العربية* ، (القاهرة، ١٩٩٠).
- **ليلي عبد الجواد إسماعيل**، *الدولة البيزنطية فى عهد الإمبراطور هرقل*،(القاهرة، ١٩٨٥).
- **المتولى السيد تمميم**، *البشناق والبيزنطيون، دراسة فى سياسة بيزنطة الشمالية* (٨٥٠-١١٢٢)، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، (جامعة المنصورة، ١٩٩٦).
- **محمد محمد مرسي الشيخ** ،الخزر وعلاقاتهم بالإمبراطورية البيزنطية ، *مجلة كلية العلوم الإجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية* ، ٤ (١٩٨٠) ،ص ٣٤٨-٣٧٧.
- **المعجم الوجيز**، إعداد نخبة من العلماء، (القاهرة، ١٩٩٠).
- **هايد، ف.**، *تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطي*، ترجمة/أحمد محمد رضا، ج١ ،(القاهرة، ١٩٨٥).
- **وسام عبد العزيز فرج** ، *دراسات في تاريخ و حضارة الإمبراطورية البيزنطية* ٣٢٤ ?ـ/١٠٢٥? ، ج١ ، (الإسكندرية ، ١٩٨٥).
- **وسام عبد العزيز فرج** ، " الدولة و التجارة في العصر البيزنطي الأوسط "، *حوليات كلية الآداب – جامعة الكويت*، ٩(١٩٨٧/١٩٨٨)،ص ١-٨٤.
- **وسام عبد العزيز فرج** ،الإمبراطور باسيل الثاني (سفاح البلغار) (٩٧٦ -١٠٢٥) ، العوامل التي أثرت علي السياسة في عصره ، *ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط*، ١(١٩٨٢)،ص ١٦٧-٢٠٢.

	Byzantium? ", *SP*, 7(1932), pp. 350-360.
Vernadsky, *Crimea*	G. Vernadsky, " The Rus' in the Crimea and the Russo – Byzantine Treaty of 945 ", *Byzantina-Meta Byzantina*, 1(1949), pp. 249-260.
Vernadsky, *Kievan Russia*	G. Vernadsky, *Kievan Russia*, (New Haven, 1948).
Vernadsky, *Russia*	G. Vernadsky, *The Origins of Russia*, (Oxford, 1959).
Whittow, *Byzantium*	M. Whittow, *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025*, (London, 1996).
Yahya d'Antioche	Yahya Ibn Sa'id d'Antioche, *Histoire de Yahya d' Antioche*, éd. et trad. J. Kratchkovsky et A. Vasiliev, *PO*, XVIII (Paris, 1924).
Zonaras	Ioannis Zonaras, Epitomae *Historiarum*, vol. III, ed. T. Bütter-Wobst, *CSHB*, (Bonnae,1897).

	Balkans en l'an 972 ", dans: *Récits de Byzance et des Croisades*, (Paris, 1917), pp.22-33.
SEER	*Slavonic and East European Review*.
Shepard, *Khazars*	J. Shepard,"The Khazars' Formal Adoption of Juadism and Byzantium's Northern Policy", *OSP*, 31(1998), pp. 11-34.
Shepard, *Russians attack*	J. Shepard, " Why did the Russians attack Byzantium in 1043? ", *BNJbb*, 22(1979), pp. 147-212.
Shepard,*Steppe Frontier*	J. Shepard, " The Russian Steppe-Frontier and the Black Sea Zone", *in: The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer*, *'Αρχ. Πόν.* ,35(1978), pp.218-237.
SK	*Seminarium Kondakovianum*
Smedley,*Archaeology*	J. Smedley, " Archaeology and the History of Cherson: A Survey of Some Results and Problems", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978,ed. A. Bryer, 'Αρχ. Πόν.*, 35(1978), pp. 123-133.
Soloviev, *Domination*	A. Soloviev, " Domination byzantine ou russe au nord de la mer à l'époque des Comnènes?" *Akten des XI Internationalen Byzantinisten Kongresses, 1958*, (Munich, 1960), pp. 569-580.
Soloviev, *l'etat russe*	A. Soloviev, " L' organisation de l'etat russe au X^{e} siècle ", *L' Europe aux IX^{e}-XI^{e} siècles*, (Varsovie, 1968), pp. 249- 268. Reprinted also in: *Byzance et la formation de l'etat Russe*, (London, 1979).
Sorlin, *Les traités*	I. Sorlin, " Les traités de Byzance avec la Russie au X^{e} siècle ", *CMRS*, vol. II-3, (Paris, 1961), pp. 313-360.
Sorlin, I., *Le traité de 944*	I. Sorlin, " Les traités de Byzance avec la Russie au X^{e} siècle: le traité de 944 ", *CMRS*, vol.-4, (Paris, 1961), pp. 447-475.
SP	*Speculum*.
Symeon Mag.	Symeon Magister ac Logothetae, *Chronographia*, ed.I.Bekker,in:*Theophanes Continuatus*, *CSHB*, (Bonnae, 1838).
Vasiliev, *Old Russia*	A. Vasiliev, " Was Old Russia a Vassal State of

	Preslav", *Sudost-Forschungen*, 42(1983), pp. 1-10. Reprinted also in: *Byzantium from the Ninth Century to the Fourth Crusade*, (Hampshire, 1992).
OSP	*Oxford Slavonic Papers*, (Oxford).
Ostrogorsky, *Byz.State*	G. Ostrogorsky, *History of the Byzantine State*, (Oxford, 1956).
Pares, *Russia*	B. Pares, *A History of Russia*, (New York, 1947).
Pargoire, *Saint Mamas*	R. Pargoire, " Saint – Mamas le quartier des Russes à Constantinople ", *EO*, 11(1908), pp. 203-210.
PG	*Patrologia cursus completus, series Graeco-Latina, ed. J. P. Migne*, (Paris, 1857-1866, 1880-1903, reprinted in Turnholti), 161 vols.
PO	*Patrologia Orientalis*, ed. R. Graffin et F. Nau, (Paris, 1904 ff.).
Poppe, *The political background*	A. Poppe, " The Political Background to the Baptism of Rus', Byzantine - Russian Relations between 986-89 ", *DOP*, 30(1976), pp.195 -244.
Pritsak, *Pecenegs*	O. Pritsak, " The Pecengs, a Case of Social and Economic Transformation", *AEM*, 1(1975), pp. 211-235.
Psellus	M. Psellus, *Chronographia*, Eng. trans E. R. Sewter, (Penguin Books, 1966).
Rambaud, *la Russie*	A. Rambaud, *Histoire de la Russie*, (Paris, 1878).
RÉB	*Revue des Études Byzantines*, (Paris, 1944 ff.)
RHSEE	*Revue Historique du Sud-Est Européen*, (Bucharest, 1963 ff.).
R.P.C.	*The Russian Primary Chronicle*, Laurentian text Eng. trans. & ed. by S. H. Cross O. P. Sherbawitz-Wetzor,(Cambridge, Mass., 1953).
RQH	*Revue des Questions Historiques*, (Paris, 1876 ff.).
Runciman, *Bulgarian Empire*	S. Runciman, *A History of the First Bulgarian Empire*, (London, 1930).
Runciman, *Romanus Lecapenus*	S. Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign*, (Cambridge, 1963).
Rybakov, *Russian History*	B. Rybakov, *The Early Centuries of Russian History*, Eng. trans. J. Weir, (Moscow, 1965).
Schlumberger, *L'épopée*	G. Schlumberger, *L' épopée byzantine à la fin du dixième siècle, Jean Tzimiskes*, (Paris, 1896).
Schlumberger, *Russes*	G. Schlumberger, " Russes et Byzantins dans les

	(Washington, 1995).
	M. Mcgovern, " Sarkel a reflection of Byzantine Power or Weakness? ", *BsL*, 50(1989), pp. 177-180.
Minorsky, *Commentary*	V. Minorsky, *Commentary on the book of Hudud al-'Alam*, in: *Hudud al-'Alam*, pt., (Oxford, 1937).
Minorsky, *Studies*	V. Minorsky, *Studies in the Caucasian History*, (London, 1953), with a chapter on *al- Shadādia.*
Moravcsik, *Magyars*	G. Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, (Amsterdam, 1970).
Mošin, *Khazares*	V. Mošin, " Les Khazares et les Byzantins ", *B*, 6(1931), pp. 309- 325.
Nicholas I	Nicholas I, Patriarch of Constantinople, *Letters*, ed. and Eng. trans. R. Jenkins and L. G. Westerink, *CFHB*, vol.4, (Washington, 1973).
Nicole, *BDBE*	D. Nicole, *A Biographical Dictionary of the Byzantine Empire*, (London, 1991).
Noonan, *Byzantium*	T. Noonan, " Byzantium and the Khazars: a Special Relationship? ", in: *Byzantine Diplomacy Papers from the Twenty Four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March 1990, ed. J. Shepard and S. Franklin*, (Hampshire, 1992), pp. 109-132.
Obolnsky, *Byzantine Sources*	D. Obolnsky, " The Byzantine Sources on the Scandinavians in Eastern Europe ", in: *Varangian Problems. Scando Slavica, supplementum 1.*, (Copenhagen, 1970), pp. 149-164.
Obolnsky, *Cherson*	D. Obolnsky, " Cherson and the Conversion of Rus': an anti-revisionist view ", *BMGS*, 13(1989), pp. 244-256.
Obolnsky, *Crimea*	D. Obolnsky, " The Crimea and the North before 1204 ", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer, ' Αρχ. Πόν.*, 35(1978), pp.123-133.
OC	*Orientalia Christiana*, (Rome, 1924 ff).
OCP	*Orientalia Christiana Periodica*, (Rome, 1935 ff.).
ODB	*Oxford Dictionary of Byzantium*,(Oxford, New York, 1999), 3 Vols.
Oikonomidès,*Les listes*	N. Oikonomidès, *Les listes des préséance byzantines des IXe et Xe siècles*, (Paris, 1972).
Oikonomidès, *Presthlavitza*	N. Oikonomidès, " Presthlavitza, the little

	Sources of the Rus ", *B*, 18 (1944-1948), pp.119-125.
Frye, *Sasanian Trade*	R. Frye, " Byzantine and Sasanian Trade Relations with North Eastern Russia ", *DOP*, 26 (1972), pp.263-269.
Gerard, *Bulgares*	C. Gerard, *Les Bulgares de la Volga et les Slaves du Danube*, (Paris, 1939).
Glycas	*Michaelis Glycas Annalium*, in: *Opera Omnia, ed.* J. P. Migne, *PG*, tome. 158, (Turnholti, 1966).
Göllner, *Jean Tzimiscès*	C. Göllner, " Les expéditions byzantine contre les Russe sous Jean Tzimiscès (970-971)", *RHSEE*, 13(1936), pp. 342-358.
Grégoire,*Der. campagne*	H. Grégoire, " La dernière campagne de Jean Tzimiskès contre les Russes ", *B*, 12(1936), pp. 167-176.
Hudud al-'Alam	*Hudud al -'Alam* (372 A.H./983 AD), Eng. trans. V. Minorsky, (Oxford, 1937).
Ibn Isfandiyar,*Tabaristan*	Ibn Isfandiyar, *Tarikhe Tabaristan*, Eng. trans E.G. Browne, (London, 1905).
Jenkis, *Byzantium*	R. Jenkins, *Byzantium the Imperial Centuries 610-1071 AD,* (London, 1966).
Jenkis, *Russian attack*	R. Jenkins, " The Supposed Russian attack on Constantinople in 907", *SP*, 24(1949), pp. 403-406.
JOB	*Jahrbuch der Österreichischen Byzantinistik*, 18- Wien, (Kölen, Graze, 1969 ff.) .
Karamsin, *Histoire*	M. Karamsin, *Histoire de l'empire de Russie*, trad. Fra. S. Thomas et Jauffret, tome I, (Paris, 1819).
Le Clerc, *la Russie*	Le Clerc, *Histoire physique, morale, civile et politique de la Russieancienne*, tome I, (Paris, 1783).
Le traité de Philothée	*Le traité de Philothée*, éd. and trad Fran.. N.Oikonomidès, dans: *Les listes des préséance byzantines des IX^e^ –X^e^ siècles*, (Paris, 1972).
Leo Diaconus	Leonis Diaconi *Caloensis Historiae Liberi Decem et Liber de Vilitatione Bellica Nicephori Augusti*, ed.C.B.Hase,*CSHB*,(Bonnae,1828), pp.3-178.
Macarteny, *Petchenegs*	C. Macarteny, " The Petchenegs ", *SEER*, 8(1928), pp. 342-355.
Mcgeer, *Sowing*	E. Mcgeer, *Sowing the Dragon's Teeth,*
Mcgovern, *Sarkel*	

History	*History*, (Cambridge,1946, reprinted 1966).
Chron. Novgorod	*The Chronicle of Novgorod 1016-1471*, Eng. trans. R. Michell & N. Forbes, with an Introduction by C. R. Beazley and an Account of the text by A. A. Shakhmatov, (London, 1914).
CMRS	*Cahiers du Monde Russe et Soviétique*,(Paris).
Const.Porph., *DeCer-imoniis*	Constantine Porphyrogenitus, *De Cerimoniis Aulae Byzantinae*, ed. I. Reiskii, *CSHB*, tome I, (Bonnae,1829).
Court, *La Russie*	A. Court, " La Russie à Constantinople ", *RQH*, 1 (Paris, 1876), pp. 69-129.
Cross, *Chuches of Kiev*	S. Cross, " The Earliest Medieval Churches of Kiev ", *SP*, 11 (1936), pp. 477-499.
Cross, *Contacts*	S. Cross, " Medieval Russian Contacts with the West ", *SP*, 10(1935), pp. 137-144.
CSHB	*Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae*, (Bonnae, 1828-1897).
DAI, I; II.	Constantine Porphyrogenitus, *De Administ-rando Imperio*, ed. G. Moravcsik, Eng. trans. by R. J. H. Jenkins, (Budapest, 1949); vol. II, *Commentary*, by F. Dvornik, R. Jenkins, B. Lewis, G. Moravcsik, D. Obolensky & S. Runciman, ed. R. J. H. Jenkins,(London,1962).
Dimnik, *Chernigov*	M. Dimnik, *The Dynasty of Chernigov 1054-1146*, (Toronto, 1994).
Diaconu, *Petchénèges*	P. Diaconu, *Les Petchénèges au Bas-Danube*, (Bucharest, 1970).
DOP	*Dumbarton Oaks Papers*, (Cambridge, Mass., 1941 ff.).
ÉO	*Échos d'Orient, Revue d'histoire, de géographie et de liturgie orientales*, (Paris, Bucharest, 1897-1942).
Fennell, *Russian Chr-urch*	J. Fennell, *A History of the Russian Church to 1448 A D*, (London, 1995).
Fine, *Balkans*	J. V. Fine, *The Early Medieval Balkans*, (Michigan, 1993).
Finlay *Greece*	G. Finlay, *A History of Greece*, vol. II, (Oxford, 1877).
Finlay, *Byz. Empire*	G. Finlay, *History of the Byzantine Empire 716-1057 AD*, (New, York, 1913).
Franklin & Shepard, *Rus'*	S. Franklin and J. Shepard, *The Emergence of Rus' 750-1200*, (London, New York, 1996).
Frye, *Remarks*	R. Frye, " Remarks on Some New Islamic

B	*Byzantion, 1924ff.*
BAcBelg	*Bulletin de la Classe des Lettres de l'Académie Royal de Belgique.*
Bănescu, *Deux études*	N. Bănescu, " Deux études byzantines.II La prèmiere attaque russe de Constantinople", *REB*, 6(1948), pp. 191-198.
Baumgarten,*Chronologie*	N. Baumgarten, " Chronologie ecclésiastique des terres russes,du X^{e} au XIII^{e} siècles", *OC*, 17(Roma, 1930), pp. 1-?
Baumgarten,*Généologies*	N. Baumgarten,"Généologies et mariages occidenteaux des Rurikides Russes du X^{e} au XIII^{e} siècles ", *OC*, IX, 35(1927), pp.1-94.
Baumgarten,*Olaf Tryggwison*	N. Baumgarten, " Olaf Tryggwison roi de Norvege et ses relation avec Saint Vladimir de Russie", *OC*, 24(1931), pp. 3-35.
Baumgarten, *Saint Vladimir*	N. Baumgarten, " Saint Vladimir et la conversion de la Russie", *OC*, 27(1932), pp. 3-136.
Benedikz, *Varangian*	B. Benedikz, " The Evolution of the Varangi- an Regiment in the Byzantine Army ", *BZ*, 62(1969), pp. 20-24.
ByzF	*Byzantiniche Forschungen .*
BICAIÉB	*Bulletin d'Information et de Coordination de l'Association International des Études Byzantines.*
BLSMPARB	*Bulletin des Lettres et des Sinces Moralles et Politique de l'Académie Royal de Belgique.*
BMGS	*Byzantine and Modern Greek Studies,* (Oxford, 1975-1983, Birmingham, 1984ff.).
BNJbb	*Byzantiniche-Neugriechische Jahrbücher*
Browning, *Bulgaria*	R. Browning, *Byzantium and Bulgaria,* (London, 1975).
BsL	*Byzantinoslavica*, (Prague, 1929ff.).
Bury, *Adm. Sys.*	J. B. Bury, *The Imperial Administrative System in the Ninth Century,* (London, 1911).
Byzantina-Meta Byzantina	*Byzantina-Meta Byzantina*, (New York, 1949 ff.).
BZ	*Byzantiniche Zeitschrift*, (Leipzig, München , 1892 ff.).
Cedrenus	G. Cedrenus, *Historiarum Compendium*, ed.I. Bekker, *CSHB*,vol.II., (Bonnae, 1838).
CFHB	*Corpus Fontium Historiae Byzantinae*, (Washington, 1967 ff.).
Chadwick, *Russian*	W. Chadwick, *The Beginning of Russian*

	Russie au X^e^ siècle ", *CMRS*, vol. II-3, (Paris, 1961), pp. 313-360.
Sorlin, I., *Le traité de 944*	I. Sorlin, " Les traités de Byzance avec la Russie au X^e^ siècle: le traité de 944 ", *CMRS*, vol.-4, (Paris, 1961), pp. 447-475.
SP	*Speculum.*
Symeon Mag.	Symeon Magister ac Logothetae, *Chronographia,* ed.I.Bekker,in:*Theophanes Continuatus*, *CSHB*, (Bonnae, 1838).
Vasiliev, *Old Russia*	A. Vasiliev, " Was Old Russia a Vassal State of Byzantium? ", *SP*, 7(1932), pp. 350-360.
Vernadsky, *Crimea*	G. Vernadsky, " The Rus' in the Crimea and the Russo – Byzantine Treaty of 945 ", *Byzantina-Meta Byzantina*, 1(1949), pp. 249-260.
Vernadsky, *Kievan Russia*	G. Vernadsky, *Kievan Russia*, (New Haven, 1948).
Vernadsky, *Russia*	G. Vernadsky, *The Origins of Russia*, (Oxford, 1959).
Whittow, *Byzantium*	M. Whittow, *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025*, (London, 1996).
Yahya d'Antioche	Yahya Ibn Sa'id d'Antioche, *Histoire de Yahya d' Antioche*, éd. et trad. J. Kratchkovsky et A. Vasiliev, *PO*, XVIII (Paris, 1924).
Zonaras	Ioannis Zonaras, Epitomae *Historiarum*, vol. III, ed. T. Bütter-Wobst, *CSHB*, (Bonnae,1897).
AEM	*Archivum Eurasie Medii Aevi* .
Ahrweiler, *Les relations*	H. Ahrweiler, " Les relations entre les Byzantins et les Russes au IX^e^ siècle " , dans : *Bulletin d' Information et de Coordination de l'Association International des Etudes Byzantines*, 5(Athens, Paris, 1971), pp. 44-73.
AIK	*Annales de l'Institut Kondakov.*
Anastasijevic, *Tzimiscès*	D. Anastasijevic, "Les indications chronologiques de Yahya relatives à la guerre de Tzimiscès contre les Russes", *Melanges Charles Diehl*,1, tome (Paris, 1930), pp. 1-5.
Angold, *Byz. Empire*	M. Angold, *The Byzantine Empire 1025-1204*, (London and New York, 1984).
'Αρχ. Πον.	*'Αρχεῖον Ποντόυ .*
Attaleiates	M. Attaliotae, *Historia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1853).

Lecapenus	*and his Reign*, (Cambridge, 1963).
Rybakov, *Russian History*	B. Rybakov, *The Early Centuries of Russian History*, Eng. trans. J. Weir, (Moscow, 1965).
Schlumberger, *L'épopée*	G. Schlumberger, *L' épopée byzantine à la fin du dixième siècle, Jean Tzimiskes*, (Paris, 1896).
Schlumberger, *Russes*	G. Schlumberger, " Russes et Byzantins dans les Balkans en l'an 972 ", dans: *Récits de Byzance et des Croisades*, (Paris, 1917), pp.22-33.
SEER	*Slavonic and East European Review.*
Shepard, *Khazars*	J. Shepard,"The Khazars' Formal Adoption of Juadism and Byzantium's Northern Policy", *OSP*, 31(1998), pp. 11-34.
Shepard, *Russians attack*	J. Shepard, " Why did the Russians attack Byzantium in 1043? ", *BNJbb*, 22(1979), pp. 147-212.
Shepard,*Steppe Frontier*	J. Shepard, " The Russian Steppe-Frontier and the Black Sea Zone", *in: The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer, 'Αρχ. Πόν.* ,35(1978), pp.218-237.
SK	*Seminarium Kondakovianum*
Smedley,*Archaeology*	J. Smedley, " Archaeology and the History of Cherson: A Survey of Some Results and Problems", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978,ed. A. Bryer, 'Αρχ. Πόν.*, 35(1978), pp. 123-133.
Soloviev, *Domination*	A. Soloviev, " Domination byzantine ou russe au nord de la mer à l'époque des Comnènes?" *Akten des XI Internationalen Byzantinisten Kongresses, 1958*, (Munich, 1960), pp. 569-580.
Soloviev, *l'etat russe*	A. Soloviev, " L' organisation de l'etat russe au X[e] siècle ", *L' Europe aux IX[e]-XI[e] siècles*, (Varsovie, 1968), pp. 249-268. Reprinted also in: *Byzance et la formation de l'etat Russe*, (London, 1979).
Sorlin, *Les traités*	I. Sorlin, " Les traités de Byzance avec la

es	*byzantines des* IX^e *et* X^e *siècles*, (Paris, 1972).
Oikonomidès, *Presth-lavitza*	N. Oikonomidès, " Presthlavitza, the little Preslav", *Sudost-Forschungen*, 42(1983), pp. 1-10. Reprinted also in: *Byzantium from the Ninth Century to the Fourth Crusade*, (Hampshire, 1992).
OSP	*Oxford Slavonic Papers*, (Oxford).
Ostrogorsky,*Byz.State*	G. Ostrogorsky, *History of the Byzantine State*, (Oxford, 1956).
Pares, *Russia*	B. Pares, *A History of Russia*, (New York, 1947).
Pargoire,*Saint Mamas*	R. Pargoire, " Saint – Mamas le quartier des Russes à Constantinople ", *EO*, 11(1908), pp. 203-210.
PG	*Patrologia cursus completus, series Graeco-Latina, ed. J. P. Migne*, (Paris, 1857-1866, 1880-1903, reprinted in Turnholti), 161 vols.
PO	*Patrologia Orientalis*, ed. R. Graffin et F. Nau, (Paris, 1904 ff.).
Poppe, *The political background*	A. Poppe, " The Political Background to the Baptism of Rus', Byzantine - Russian Relations between 986-89 ", *DOP*, 30(1976), pp.195 -244.
Pritsak, *Pecenegs*	O. Pritsak, " The Pecengs, a Case of Social and Economic Transformation", *AEM*, 1(1975), pp. 211-235.
Psellus	M. Psellus, *Chronographia,*Eng. trans E. R. Sewter, (Penguin Books, 1966).
Rambaud, *la Russie*	A. Rambaud, *Histoire de la Russie*, (Paris, 1878).
RÉB	*Revue des Études Byzantines*, (Paris, 1944 ff.)
RHSEE	*Revue Historique du Sud-Est Européen*, (Bucharest, 1963 ff.).
R.P.C.	*The Russian Primary Chronicle*, Laurentian text Eng. trans. & ed. by S. H. Cross O. P. Sherbawitz-Wetzor,(Cambridge, Mass., 1953).
RQH	*Revue des Questions Historiques*, (Paris, 1876 ff.).
Runciman, *Bulgarian Empire*	S. Runciman, *A History of the First Bulgarian Empire*, (London, 1930).
Runciman, *Romanus*	S. Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus*

177-180.

Minorsky, *Commentary* — V. Minorsky, *Commentary on the book of Hudud al-'Alam*, in: *Hudud al-'Alam*, pt., (Oxford, 1937).

Minorsky, *Studies* — V. Minorsky, *Studies in the Caucasian History*, (London, 1953), with a chapter on *al- Shadādia.*

Moravcsik, *Magyars* — G. Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, (Amsterdam, 1970).

Mošin, *Khazares* — V. Mošin, " Les Khazares et les Byzantins ", *B*, 6(1931), pp. 309- 325.

Nicholas I — Nicholas I, Patriarch of Constantinople, *Letters*, ed. and Eng. trans. R. Jenkins and L. G. Westerink, *CFHB*, vol.4, (Washington, 1973).

Nicole, *BDBE* — D. Nicole, *A Biographical Dictionary of the Byzantine Empire*, (London, 1991).

Noonan, *Byzantium* — T. Noonan, " Byzantium and the Khazars: a Special Relationship? ", in: *Byzantine Diplomacy Papers from the Twenty Four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March 1990, ed. J. Shepard and S. Franklin*, (Hampshire, 1992), pp. 109-132.

Obolnsky, *Byzantine Sources* — D. Obolnsky, " The Byzantine Sources on the Scandinavians in Eastern Europe ", in: *Varangian Problems. Scando Slavica, supplementum 1.*, (Copenhagen, 1970), pp. 149-164.

Obolnsky, *Cherson* — D. Obolnsky, " Cherson and the Conversion of Rus': an anti-revisionist view ", *BMGS*, 13(1989), pp. 244-256.

Obolnsky, *Crimea* — D. Obolnsky, " The Crimea and the North before 1204 ", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer, ' Αρχ. Πόν.*, 35(1978), pp.123-133.

OC — *Orientalia Christiana*, (Rome, 1924 ff).

OCP — *Orientalia Christiana Periodica*, (Rome, 1935 ff.).

ODB — *Oxford Dictionary of Byzantium*,(Oxford, New York, 1999), 3 Vols.

Oikonomidès,*Les list-* — N. Oikonomidès, *Les listes des préséance*

	Slaves du Danube, (Paris, 1939).
Glycas	*Michaelis Glycas Annalium*, in: *Opera Omnia, ed.* J. P. Migne, *PG*, tome. 158, (Turnholti, 1966).
Göllner, *Jean Tzimiscès*	C. Göllner, " Les expéditions byzantine contre les Russe sous Jean Tzimiscès (970-971)", *RHSEE*, 13(1936), pp. 342-358.
Grégoire,*Der. campagne*	H. Grégoire, " La dernière campagne de Jean Tzimiskès contre les Russes ", *B*, 12(1936), pp. 167-176.
Hudud al-'Alam	*Hudud al -'Alam* (372 A.H./983 AD), Eng. trans. V. Minorsky, (Oxford, 1937).
Ibn Isfandiyar,*Tabaristan*	Ibn Isfandiyar, *Tarikhe Tabaristan*, Eng. trans E.G. Browne, (London, 1905).
Jenkis, *Byzantium*	R. Jenkins, *Byzantium the Imperial Centuries 610-1071 AD*, (London, 1966).
Jenkis, *Russian attack*	R. Jenkins, " The Supposed Russian attack on Constantinople in 907", *SP*, 24(1949), pp. 403-406.
JOB	*Jahrbuch der Österreichischen Byzantinistik*, 18- Wien, (Kölen, Graze, 1969 ff.) .
Karamsin, *Histoire*	M. Karamsin, *Histoire de l'empire de Russie*, trad. Fra. S. Thomas et Jauffret, tome I, (Paris, 1819).
Le Clerc, *la Russie*	Le Clerc, *Histoire physique, morale, civile et politique de la Russieancienne*, tome I, (Paris, 1783).
Le traité de Philothée	*Le traité de Philothée*, éd. and trad Fran.. N.Oikonomidès, dans: *Les listes des préséance byzantines des IXe –Xe siècles*, (Paris, 1972).
Leo Diaconus	Leonis Diaconi *Caloensis Historiae Liberi Decem et Liber de Vilitatione Bellica Nicephori Augusti*, ed.C.B.Hase,*CSHB*,(Bonnae,1828), pp.3-178.
Macarteny, *Petchenegs*	C. Macarteny, " The Petchenegs ", *SEER*, 8(1928), pp. 342-355.
Mcgeer, *Sowing*	E. Mcgeer, *Sowing the Dragon's Teeth*, (Washington, 1995).
Mcgovern, *Sarkel*	M. Mcgovern, " Sarkel a reflection of Byzantine Power or Weakness? ", *BsL*, 50(1989), pp.

	1 (Paris, 1876), pp. 69-129.
Cross, *Chuches of Kiev*	S. Cross, " The Earliest Medieval Churches of Kiev ", *SP*, 11 (1936), pp. 477-499.
Cross, *Contacts*	S. Cross, " Medieval Russian Contacts with the West ", *SP*, 10(1935), pp. 137-144.
CSHB	*Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae*, (Bonnae, 1828-1897).
DAI, I; II.	Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik, Eng. trans. by R. J. H. Jenkins, (Budapest, 1949); vol. II, *Commentary*, by F. Dvornik, R. Jenkins, B. Lewis, G. Moravcsik, D. Obolensky & S. Runciman, ed. R. J. H. Jenkins,(London,1962).
Dimnik, *Chernigov*	M. Dimnik, *The Dynasty of Chernigov 1054-1146*, (Toronto, 1994).
Diaconu, *Petchénèges*	P. Diaconu, *Les Petchénèges au Bas-Danube*, (Bucharest, 1970).
DOP	*Dumbarton Oaks Papers*, (Cambridge, Mass., 1941 ff.).
ÉO	*Échos d'Orient, Revue d'histoire, de géographie et de liturgie orientales*, (Paris, Bucharest, 1897-1942).
Fennell, *Russian Chrurch*	J. Fennell, *A History of the Russian Church to 1448 A D*, (London, 1995).
Fine, *Balkans*	J. V. Fine, *The Early Medieval Balkans*, (Michigan, 1993).
Finlay *Greece*	G. Finlay, *A History of Greece*, vol. II, (Oxford, 1877).
Finlay, *Byz. Empire*	G. Finlay, *History of the Byzantine Empire 716-1057 AD*, (New, York, 1913).
Franklin & Shepard, *Rus'*	S. Franklin and J. Shepard, *The Emergence of Rus' 750-1200*, (London, New York, 1996).
Frye, *Remarks*	R. Frye, " Remarks on Some New Islamic Sources of the Rus ", *B*, 18 (1944-1948), pp.119-125.
Frye, *Sasanian Trade*	R. Frye, " Byzantine and Sasanian Trade Relations with North Eastern Russia ", *DOP*, 26 (1972), pp.263-269.
Gerard, *Bulgares*	C. Gerard, *Les Bulgares de la Volga et les*

	Russie", *OC*, 24(1931), pp. 3-35.
Baumgarten, *Saint Vladimir*	N. Baumgarten, " Saint Vladimir et la conversion de la Russie", *OC*, 27(1932), pp. 3-136.
Benedikz, *Varangian*	B. Benedikz, " The Evolution of the Varangi- an Regiment in the Byzantine Army ", *BZ*, 62(1969), pp. 20-24.
ByzF	*Byzantiniche Forschungen* .
BICAIÉB	*Bulletin d'Information et de Coordination de l'Association International des Études Byzantines.*
BLSMPARB	*Bulletin des Lettres et des Sinces Moralles et Politique de l'Académie Royal de Belgique.*
BMGS	*Byzantine and Modern Greek Studies,* (Oxford, 1975-1983, Birmingham, 1984ff.).
BNJbb	*Byzantiniche-Neugriechische Jahrbücher*
Browning, *Bulgaria*	R. Browning, *Byzantium and Bulgaria,* (London, 1975).
BsL	*Byzantinoslavica*, (Prague, 1929ff.).
Bury, *Adm. Sys.*	J. B. Bury, *The Imperial Administrative System in the Ninth Century,* (London, 1911).
Byzantina-Meta Byzantina	*Byzantina-Meta Byzantina*, (New York, 1949 ff.).
BZ	*Byzantiniche Zeitschrift*, (Leipzig, München , 1892 ff.).
Cedrenus	G. Cedrenus, *Historiarum Compendium*, ed.I. Bekker, *CSHB*,vol.II., (Bonnae, 1838).
CFHB	*Corpus Fontium Historiae Byzantinae*, (Washington, 1967 ff.).
Chadwick, *Russian History*	W. Chadwick, *The Beginning of Russian History*, (Cambridge,1946, reprinted 1966).
Chron. Novgorod	*The Chronicle of Novgorod 1016-1471*, Eng. trans. R. Michell & N. Forbes, with an Introduction by C. R. Beazley and an Account of the text by A. A. Shakhmatov, (London, 1914).
CMRS	*Cahiers du Monde Russe et Soviétique*,(Paris).
Const.Porph., *DeCerimoniis*	Constantine Porphyrogenitus, *De Cerimoniis Aulae Byzantinae*, ed. I. Reiskii, *CSHB*, tome I, (Bonnae,1829).
Court, *La Russie*	A. Court, " La Russie à Constantinople ", *RQH*,

List of Abbreviations

AEM	*Archivum Eurasie Medii Aevi* .
Ahrweiler, *Les relations*	H. Ahrweiler, " Les relations entre les Byzantins et les Russes au IX^e^ siècle ", dans : *Bulletin d' Information et de Coordination de l'Association International des Etudes Byzantines*, 5(Athens, Paris, 1971), pp. 44-73.
AIK	*Annales de l'Institut Kondakov.*
Anastasijevic, *Tzimiscès*	D. Anastasijevic, "Les indications chronologiques de Yahya relatives à la guerre de Tzimiscès contre les Russes", *Melanges Charles Diehl*,1, tome (Paris, 1930), pp. 1-5.
Angold, *Byz. Empire*	M. Angold, *The Byzantine Empire 1025-1204*, (London and New York, 1984).
'Αρχ. Πον.	*'Αρχεῖον Ποντόυ* .
Attaleiates	M. Attaliotae, *Historia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1853).
B	*Byzantion, 1924ff.*
BAcBelg	*Bulletin de la Classe des Lettres de l'Académie Royal de Belgique.*
Bănescu, *Deux études*	N. Bănescu, " Deux études byzantines.II La prèmiere attaque russe de Constantinople", *REB*, 6(1948), pp. 191-198.
Baumgarten,*Chronologie*	N. Baumgarten, " Chronologie ecclésiastique des terres russes,du X^e^ au XIII^e^ siècles", *OC*, 17(Roma, 1930), pp. 1-?
Baumgarten,*Généologies*	N. Baumgarten,"Généologies et mariages occidenteaux des Rurikides Russes du X^e^ au XIII^e^ siècles ", *OC*, IX, 35(1927), pp.1-94.
Baumgarten,*Olaf Tryggwison*	N. Baumgarten, " Olaf Tryggwison roi de Norvege et ses relation avec Saint Vladimir de

The third part is titled " The Russians and the International Trade," in which we meet two chapters. The first is " The Rus' and the Trade with Byzantium." The second is the " The Rus' and the Trade of the Volga."

Finally, I'd like to thank warmly my supervisor Prof. Dr. Ra'fat Abdul-Hamid, who provided me with his faithful advice, instructions, support, and urged me to carry on my studies in the Dept. of Classics. I am indebted also to my Prof. Dr. J. Shepard who gave me much of his time, provided me continually with his faithful advice, and provided me many specialized Papers and Books. He encouraged me to study the Russian in the Russian Cultural Center at Cairo, and tried to give me a chance to carry on my post-graduate studies at Cambridge. They both still give me the motive to advance more and more in my studies. I ask God to give them a good health and happiness.I thank also Prof. Sa'id Abel-Fattah Ashour and Prof. Issac Ebied for their useful remarks. Thanks also for Prof. Dr. Ahmed Itman, Prof.of Greek and Latin Studies, Faculty of Arts, Cairo University, who helped me to obtain a scholarship from the University of Athens to visit its libraries in the summer of 1997. I'd like to thank the librarians of the central library of Cairo University, IFAO of Cairo, AUC, Φιλοσοφικη Σχολή of Athens, and the library of the Byzantine museum of Athens. Finally, thanks for my wife, son, parents and my friends, specially Mr. *Hanie el-Bashier* and Mr. *Abdul-Aziz Mohammed.*

and didn't give attention to Byzantium, in spite of the Russian expedition of 1043 AD on Constantinople. He contracted many marriages with the kings and princes of Europe. He succeeded to gain a brilliant name among the royal dynasties of Poland, Hungary, Bohemia, France, Sweden, Norway and the Germans. This western policy had its negative bearings on the relations between Byzantium and Russia, and the Russian Prince lost his prestige in this side. Besides, Yaroslav took a serious step which may was one of the factors which led to the decline of the relations between the two sides. The *Povest* of Nestor tells us that the Russian Prince Yaroslav appointed the Russian bishop Hilarion as a metropolitan of the Russians in the church of *Hagia Sophia* of Kiev. This event, of course, was an unexpected strike to the Byzantine church, which appointed continually her bishops to Kiev.

Any way, Kiev struggled during the tenth and eleventh centuries to record its name on the political map of the Medieval World. It attacked many powers, held many treaties with Byzantium, and marriages with its neighbors. It must be shown that the Russians attacked many times the Islamic territories of Caucasus and arrived with their trade until Baghdad and Syria across the Moslem's lands. One of the Moslem authors says that the Russian traders, in the beginning of the tenth century, when they entered to the Islamic territories they pretended that they were Christians. This account proves that the Russians knew well the attitude of Moslems towards the Christians and Jews, i.e. the tolerance of Islam towards them. And may the Russians aimed at distinguishing themselves, as Christians, different from the Russian Pagan who attacked the Moslems of Caucasus.

Therefore, I think that this topic, *The Russians and the International community*, may be interesting and adds new facts and interpretation.

This study is divided into three parts, in seven chapters, beside an introduction, a presentation to the sources of the study, a conclusion, three maps and the Bibliography.

The first part is titled " The Russians and the Byzantine Empire ", in which we meet three chapters. The first is " The Rus', Byzantium and the treaty of 945 AD." The second is " The Rus', Byzantium and the Balkans." The third is " The Rus' between Byzantium and the European Powers."

The second part is titled " The Russians and the Eastern Powers," in which we meet two chapters. The first is " The Russians and the Moslems of Caucasus." The second is " The Russians between the Petchenegs and the Powers of the Volga."

Kassogians. Afterwards, he turned his eyes towards Byzantium, i.e. the Byzantine possessions in Crimea. Then, Emperor Nicephor Phocas, who had suffered from the revolution of Bardas Sclerus, asked the Russian Prince to provide him with the military supplements to stop the Bulgarian incursions on the Byzantine territories. Svyatoslav hurried to bring the assistance to the emperor and overran Bulgaria rapidly. But this Russian assistance changed to an occupation of the Balkans, i.e. the eastern part of Bulgaria, and Svyatoslav decided to extend the frontiers of his state up to the Byzantine provinces of Thrace and Macedonia. His words to his mother Olga show that Svyatoslav decided to take the city of Pryaslava as a new capital for his state and that he would never leave the Balkans. This event and the aggressive policy of this Prince led to a chain of battles between Byzantium's emperors and Svyatoslav, which ended with the heavy defeat of the Russian Prince and his death at the hands of the Petchenegs in 972 AD.

There were strong cultural relations between the two sides, because the trade was very active, owing to the treaty of 945 AD. The Russian Primary Chronicle and the *Eparchion Biblion* show the distinguished status of the Russian traders in Constantinople in comparison with the other foreign traders there.

Any way, this Russian aggressive policy towards Byzantium decreased in the reign of Vladimir Svyatoslavich and his son Yaroslave the Wise. Vladimir abandoned the policy of his grandfathers and turned to the West, in spite of his successful conquest of Cherson. In fact, this event is one of the important points in the history of the relations between the two nations. Svyatoslav in the treaty of 971 AD pledged that he would never attack the Byzantine possessions or Crimea, i.e. Cherson. But his son Vladimir in 988 AD overran Crimea and conquered Cherson, although he provided the Byzantine Emperor Basil II with 6000 soldiers of the Varangians to suppress the revolution of Bardas Phocas. Vladimir succeeded to conquer Cherson and forced the Byzantine Emperor to marry him his sister Anna Porphyrogneta, but Constantinople succeeded to convert this Prince and his people to Christianity on the Byzantine doctrine. This latter event gave a strong push to the peaceful relations between Byzantium and Russia. The gates of Byzantine civilization had been opened before the Russians, for instance the scale of the Russian trade with Byzantium increased in the end of the tenth century and the first half of the eleventh century.

When Yaroslav became a Prince of the Russians, after a hard civil wars, he turned with his policy towards the West more than his father,

Introduction

There are so many studies on Medieval Russian History that one feels reluctant to think of writing on the history of Medieval Russia. There are two generations of Modern Historical Writings in Russia. The first is before the establishment of the Soviet Union, while the second is after that time. The Russian historians of these two generations produced many Writings, which vary in their value. However, there are many brilliant Modern and Contemporary Russian Historians, such as Shakhmatov, Vernadsky, Kokovtzov, Soloviev, Ostrogorsky and others.

The creation of Soviet Union at the beginning of the twentieth century pushed the historians of Western Europe to work on the Russian History, Ancient and Modern. Their Writings are very valuable, distinguished and very much inclined to reality, such as the writings of Profs. Obolensky, Shepard, Nonnan, Franklin and others. The historians of Central Europe added also important theories to the Medieval Russian History, like the Polish Poppe, who presented some serious studies.

With authorities such as these scholars, it is indeed a hard task for any researcher to contribute something as valuable as theirs. But there are many areas in Russian History, which still need to be studied carefully. Therefore, it is better to study an important period of Medieval Russian History, 945-1054 AD, which begins with the reign of Princess Olga until the reign of Prince Yaroslav the Wise.

I think that this period is very important; it may be called the time of construction and change in the Medieval State of the Rus'. Olga began her rule with retaliating against the murderers of her husband, Prince Igor. Afterwards, she turned towards Constantinople, in 957 AD, peacefully. She visited Byzantium in that year and was converted to Christianity there by Emperor Constantine Porphyrognetus. This visit is a shining point in the history of the peaceful relations between the two sides, so that Emperor Constantine Porphyrognetus recorded it as an example of Byzantium's reception of the foreign Princess, in his interesting book *De Cerimoniis.* When Olga was back home, she tried to spread Christianity among her people, but her efforts were unsuccessful.

The Russian Prince Svyatoslav Igorvitch, receiving the throne from his mother Olga, caused many changes in the political map of the Steppes. He attacked many of the powers of this area, such as the Slavic tribes, Petchenegs, Bulgars of the Volga, Burtas, Khazars, Yassians and

of the Rus'..138
The Russian attack on Absukon in 864-884 AD........141
The Russian attack on Absukon in 910 AD..............142
The Russian attack on Jilan, Tabaristan and Bakou in 912 /913 AD..144
The Russian attack on Barda'a in 943-944 AD..........151
The Russian attacks on Shirwan in 1030 and 1031 AD.159
The causes of these attacks................................162

Chapter Five: The Rus' between the Petchenegs and the Powers of the Volga..165-226
The Rus' and the Petchenegs..............................166
The Rus' and the Khazares................................183
The Rus' and the Burtas and the Bulgars..................215

Part Three: The Rus' and the International Trade

Chapter Six: The Rus' and the trade with Byzantium..............227-245
Discussion of the commercial items of the treaty of 945...228
Eparchion Biblion and the foreign traders in Constantin-Ople..230
The Russian traders in Constantinople....................236
The commercial great route Scandinavia, Kiev and Constantinople...241

Chapter Seven: The Rus' and the trade of the Volga...............246-267
The trade with the Khazars...............................248
The trade with the Burtas and Bulgars...................253
The commercial merchandises on the Volga............255
Islamic Derhams and Dinarii in Russia..................261
The routes between the Russian cities and the Volga..265

Epilogue..268-271
Maps..272-275
Bibliography..276-291

Contents

Contents..........A-Ģ
List of Abbreviations..........D-'A
Prologue..........F-Š
A presentation of the Sources..........T-HH
Introduction..........1-10

Part One: The Rus' and the Byzantine Empire

Chapter One: The Rus', Byzantium and the Treaty of 945 AD......12-40
Igor and Constantinople 944 AD..........14
The text of the treaty of 945 AD..........17
Dating of the treaty 944 or 945 AD..........24
The analysis of the treaty..........26

Chapter Two: The Rus', Byzantium and the Balkans..........41-87
Olga and the throne..........41
Olga's visit to Constantinople 957 AD..........42
Nicephor Phocas and Balkans..........49
The conquest of Svyatoslav of Bulgaria 968 AD..........52
Jean Tzimiskes and Svyatoslav..........61
The defeat of Svyatoslav and the treaty of 971 AD..........79
Death of Svyatoslave 972 AD..........86

Chapter Three: The Rus' between Byzantium and the European Powers..........88-136
The civil war and the rule of Vladimir..........88
Basil II and the Tsar Samuel..........93
The embassy of Basil II to Vladimir..........96
Vladimir and the conquest of Cherson 988 AD..........104
Vladimir and the European Powers..........114
The civil war and the rule of Yaroslav..........120
The European policy of Yaroslav..........121
The expedition of 1043 AD on Constantinople..........127
The testament of Yaroslav..........136

Part Two: The Rus' and the Eastern Powers

Chapter Four: The Rus' and the Moslems of Caucasus..........137-164
The climate of Russia and its effect on the eastern policy

To my Parents

T.M.

Publisher :
Misr al-Arabia, 19 Islam St.,
Hammamat al-Koubba, Cairo,
P.O.Box 5740 Heliopolis Gharb,
Egypt. Tel.& Fax. 2562268

First Edition 2001

Egyptian Library Cataloguing in Publication Data
Dr. Tarek Mansour Mohammed
The Russians and the International Community 945-1054 A.D.
I-Russian History - Caucasian History
II- Byzantine History _ Byzantine Civilization
I.Mohammed, Tarek Mansour. II.Title
947.02-947.05
949.502
ISBN :15267/2000
ISBN: 977-5471-34-6

Printed in Egypt

The cover is the battle of the Novgorodians with the Suzdalians .
Novgorod school, last quarter of the 15th century.

The Russians And The International Community 945-1054 AD

Dr.Tarek Mansour Mohammed
Associate Prof. of Byzantine History
Faculty of Arts, Ain Shams University

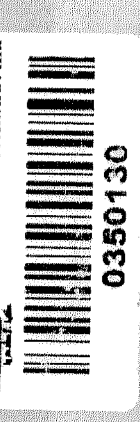
Cairo, 2000 AD
Publisher
Misr al-Arabia, 19 Islam St.,
Hammamat al-Koubba, Cairo.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



THE RUSSIANS
And The International Community
945 - 1054 A.D.

Dr. Tarek mansour Mohammed



الغلاف:عماد حليم